شرح كتاب الإيمان

من مختصر صحيح مسلم

للحافظ المنذري

لفضيلة الشيخ

د. محمد الحمود النجدي



لفضيلة الشيخ
د. محمد الحمود النجدي



وقف

ريع هذا الكتاب
وقف لله تعالى



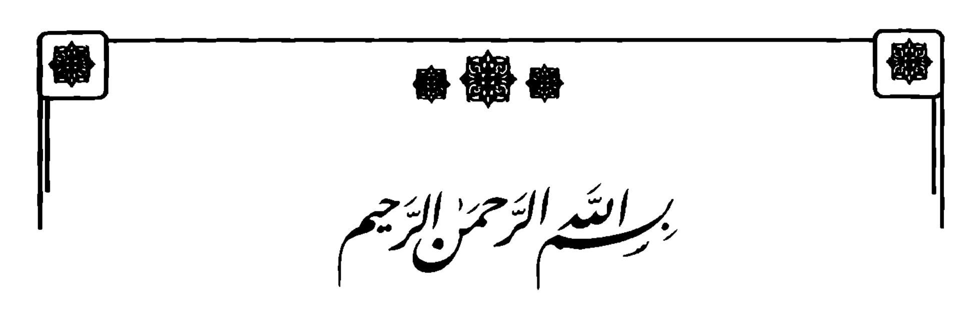
شركة بيان الخير للدعاية والاعلان
Bayan Al-Khair Advertising & Publishing Co.

24827007 - 24826006 - 24825005
E-mail:bayanadv@yahoo.com
الكويت - منطقة الشويخ الصناعية - شارع الصحافة




بسم الله الرحمن الرحيم





مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فلا مُضِلَّ له، ومن يضلِلْ فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمَّدًا عبده ورسوله.

أما بعد:

فإن أصدقَ الحديث كلام الله، وخيرَ الهدي هدي محمد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتها، وكلَّ محدَثةٍ بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

ثم أما بعد: فهذا شرح لكتاب: «**الإيمان**» من مختصر الإمام المنذري لصحيح الإمام مسلم[١]، رجَوْنا به النفع للعام والخاص، واستخلصناه من شروح أهل العلم، كالإمام النووي، والحافظ ابن حجر، وغيرهما.

ومعرفة المسلم بمعاني أحاديث هذا الكتاب: تقيه ـ بعون الله تعالى ـ الزللَ الذي وقعت فيه فِرَق كثيرة، خالفتْ به الكتاب والسنَّة، وإجماع سلفِ الأمة فيما اعتقدَتْ وأصَّلَتْ؛ فضَلَّتْ وأضَلَّتْ، وما ذاك إلا لجهلها

(١) وقد يسَّر الله تعالى شرحه في دروس بمسجد موضي الرشيدي ـ بضاحية صباح الناصر بالكويت، فلله الحمد والمنَّة، وكذلك في دورة العلامة محمد بن صالح العثيمين، في مسجد الزبن في بيان.



بما جاء عن الله تعالى ورسوله ﷺ، وصحبه الكرام في هذه الأبواب العقدية الخطيرة.

والجهل بنصوص الشرع وأحكامه من أعظم أسباب الضلال والإضلال، كما قال رسول الله ﷺ: «**إن الله لا يقبضُ العلم انتزاعًا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبقِ عالمًا؛ اتَّخذَ الناسُ رؤُوسًا جُهَّالًا، فسُئِلوا، فأفتَوْا بغير علم، فضلُّوا وأضلُّوا**»(١).

فَمَنْ طُفِئ مصباحُ العلمِ عنده، تخبَّطَ في ظلمات الجهل والضلال، ثم اتباعها هواها (أعني تلك الفِرَق) بمخالفة مولاها، وقد جمع الله تعالى بينهما في قوله سبحانه: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ [النجم: ٢٣]، وقد نزَّه الله تعالى رسولَه المصطفى ونبيَّه المجتبى عنهما، فقال مُقْسِمًا: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾ [النجم].

وأخبرَ أنه كان سببًا لهلاك الأمَّة الغضبية، فقال: ﴿كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ۝٧٠﴾ [المائدة]، فعصوا ربَّهم بتكذيب رسلهم، بل بقتلهم! لاتِّباعهم أهواءهم، فبالعلم النافع، والاتِّباع الصادق؛ تكون النَّجاة في الدنيا والآخرة، واللحاق بركب الرَّعيل الأوَّل، ﷺ، ورحمهم الله تعالى.

عن عاصم قال: قال أبو العالية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: «تعلَّموا الإسلام، فإذا تعلَّمتوه فلا ترغبوا عنه، وعليكم بالصراط المستقيم، فإنه الإسلام، ولا تُحرِّفوا الإسلام يمينًا وشمالًا، ولا عليكم بسنَّة نبيِّكم، والذي عليه

(١) رواه البخاري في العلم (١/١٩٤) في الاعتصام بالكتاب والسنة (٣/٢٨٢)، ومسلم في العلم (٤/٢٠٥٨) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.



أصحابه، وإيَّاكم وهذه الأهواء، التي تلقي بين الناس العداوة والبغضاء»، قال: فحدَّثتُ الحسنَ، فقال: صدَقَ ونصَحَ[(١)].

وبغير هذا المنهاج، تنحرف الأمَّة عن الجادَّة القويمة، وتفقد اليقظة الإسلامية ما ترنو إليه من عزٍّ، ونصرٍ، وتمكينٍ، وفَخَارٍ، ورِفعةٍ، ومجدٍ.

فاللهم أرِنا الحقَّ حقًّا، وارزقنا اتِّباعه، وأرِنا الباطلَ باطلًا وارزقنا اجتنابه، ولا تجعله مُلْتَبِسًا علينا فنَضِلَّ، وأحينا على الإسلام والسنة، وأمتنا عليهما، برحمتك يا أرحم الراحمين.

سبحانك اللهم ربَّنا وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

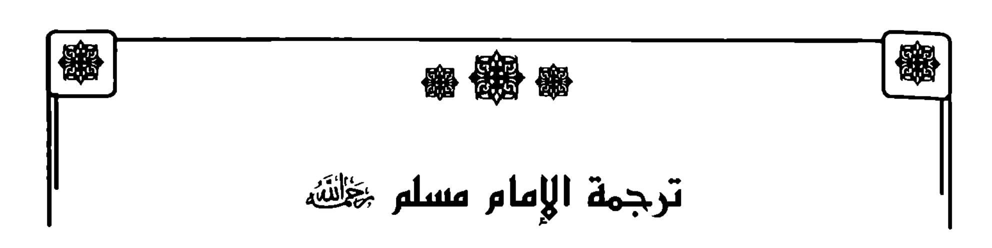
وصلى الله على نبيِّنا محمد، وآله وصحبه أجمعين.

**   **   **

(١) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» للالكائي (١/٥٦).







ترجمة الإمام مسلم رحمه الله

قبل أن نبدأ بشرح أحاديث الكتاب نقدِّم بين يدي ذلك ترجمةً للإمام مسلم، نُتبِعها بترجمةٍ مختصرةٍ للكتاب.

❖ اسمه ونسبه:

هو الإمام الكبير الحافظ الحجَّة: أبو الحسين مسلم بن الحجَّاج بن مسلم القشيري «من بني قُشَير، قبيلة من العرب معروفة» النيسابوري، صاحب الصحيح.

قيل: إنه وُلد سنة أربع ومئتين.

❖ سماعه للحديث:

وأوّل سماعه للحديث في سنة ثمانِ عشْرَةَ مِن يحيى بن يحيى التميمي، وحجَّ في سنة عشرين، وهو أمْرَد، فسمعَ بمكة من القعنبي، فهو أكبر شيخٍ له، وسمع بالكوفة من أحمد بن يونس، وجماعة، وأسرَع إلى وطنه، ثم ارتحل بعد أعوامٍ قبل الثلاثين، وأكثر عن علي بن الجعد، لكنه ما روى عنه في الصحيح شيئًا، وسمع بالعراق، والحرمين، ومصر[١].

❖ شيوخه:

أحمد بن حنبل، وأحمد بن منيع، وإسحاق بن راهويه، وسعيد بن منصور، وعبد الله الدارمي، وعلي بن خشرم، وعثمان بن أبي شيبة، وقتيبة

---

(١) «سير أعلام النبلاء» للإمام الذهبي (١٢/٥٥٨).



بن سعيد، ومحمد بن يحيى العدني، ويحيى بن معين، وأبو بكر بن أبي شيبة، وغيرُهم، وعدَّتهم: مئتان وعشرون رجلًا، أخرج عنهم في الصحيح.

ومن أعظم شيوخه البخاري.

قال الدارقطني: «لولا البخاري ما راح مسلم ولا جاء».

❖ الراوون عنه:

أبو عيسى الترمذي في «جامعه» وصالح جزرة، وعبد الرحمن بن أبي حاتم، وأبو بكر بن خزيمة، وأبو العباس السرَّاج، ويحيى بن محمد بن صاعد، والحافظ أبو عوانة، وغيرهم.

❖ أقوال العلماء فيه:

قال عبد الرحمن بن أبي حاتم: كان مسلمٌ ثقةً من الحُفَّاظِ، كتبتُ عنه بالرَّيِّ، وسُئِلَ أبي عنه، فقال: صدوق.

قال أبو قريش الحافظ: سمعت محمد بن بشار يقول: حفَّاظ الدنيا أربعة: «أبو زرعة بالري، ومسلم بنيسابور، وعبد الله الدارمي بسمرقند، ومحمد بن إسماعيل ببخارى».

قال أبو عبد الله محمد بن يعقوب بن الأخرم الحافظ: «إنما أخرجت نيسابور ثلاثةَ رجال: محمد بن يحيى، ومسلم بن الحجاج، وإبراهيم بن أبي طالب».

وقال الحاكم: سمعتُ أبا الفضل محمد بن إبراهيم يقول: سمعت أحمد بن مسلمة يقول: «رأيتُ أبا زُرعة، وأبا حاتم يقدمان مسلم بن الحجاج في معرفة الصحيح، على مشايخ عصرهما».



وقال الحاكم: سمعت أبا عبد الرحمن السُّلمي يقول: «رأيت شيخًا حسَن الوجه والثياب، عليه رداءٌ حسنٌ، وعمامة قد أرخاها بين كتفيه، فقيل: هذا مسلم، فتقدّم أصحاب السلطان، فقالوا: قد أمر أمير المؤمنين أن يكون مسلم بن الحجَّاج إمام المسلمين، فقدَّموه في الجامع، فكبَّر وصلى بالناس.

❖ تأليفه الصحيح، وأقوال العلماء فيه:

قال أحمد بن سلمة: «كنت مع مسلم في تأليف «صحيحه» خمس عشرة سنة.

قال: «وهو اثنا عشر ألف حديث» قال الذهبي: «يعني بالمكرر».

وقال الحافظ ابن منده رحمه الله: سمعت أبا علي النيسابوري الحافظ يقول: «ما تحت أديم السماء كتاب أصح من كتاب مسلم»[(١)].

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله في ترجمة مسلم: «صاحب «الصحيح» الذي هو تلو «صحيح البخاري» عند أكثر العلماء، وذهبتِ المغاربةُ وأبو علي النيسابوري من المشارقة إلى تفضيل «صحيح مسلم» على «صحيح البخاري»، فإن أرادوا تقديمه عليه في كونه ليس فيه شيء من التعليقات إلا القليل، وأنه يسوق الأحاديث بتمامها في موضعٍ واحد، ولا يُقَطِّعُها كتقطيع البخاري لها في الأبواب، فهذا القدر لا يوازي قوة أسانيد البخاري واختياره في «الصحيح» لها ما أورده في جامعة معاصرة الراوي لشيخه، وسماعه منه»[(٢)].

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٢/٥٦٦).

(٢) البداية والنهاية (١١/٣٣).



وقال النووي رحمه الله: «اتفق العلماء رحمهم الله على أن أصح الكتب بعد القرآن العزيز: الصحيحان: البخاري ومسلم، وتلقتهما الأمة بالقبول، وكتاب البخاري أصحّهما وأكثرهما فوائدَ ومعارفَ، ظاهرة وغامضة، وقد صحَّ أن مسلمًا كان ممن يستفيد من البخاري، ويعترف بأنه ليس له نظير في علم الحديث.

وهذا الذي ذكرناه من ترجيح كتاب البخاري، هو المذهب المختار الذي قاله الجماهير، وأهل الإتقان، والحذق، والغوص على أسرار الحديث»(١).

❖ مصنفات الإمام مسلم الأخرى:

أكثر الإمام مسلم من التأليف، وهذه بعض تآليفه المطبوعة غير الصحيح:

١ ـ الأسامي والكنى.

٢ ـ التمييز.

٣ ـ الجامع.

٤ ـ الطبقات.

٥ ـ المنفردات والوحدان.

٦ ـ رجال عروة بن الزبير وجماعة من التابعين وغيرهم(٢).

❖ وفاته وسببها:

قال أحمد بن مسلمة: «وعقد لمسلم مجلس للمذاكرة، فذُكِر له

---

(١) مقدمة «شرح صحيح مسلم» (١٤/١)، وقد ذكر بعد ذلك بقية مرجحات لصحيح البخاري على «صحيح مسلم» فانظرها إن شئت.

(٢) انظر: «السير» (٥٧٩/١٢)، ومقدمة «الطبقات» للأخ مشهور بن حسن.



حديثٌ لم يعرفه، فانصرف إلى منزله، وأوقد السراج، وقال لمن في الدار: لا يدخل أحد منكم، فقيل له: أُهدِيَتْ لنا سلة من تمر، فقال: قدموها، فقدموها إليه، فكان يطلب الحديث ويأخذ تمرةً تمرةً، فأصبح وقد فني التمر، ووجد الحديث».

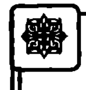
قال الذهبي: «رواها أبو عبد الله الحاكم ثم قال: زادني الثقة من أصحابنا: أنه منها مات»[١].

وكان ذلك في شهر رجب سنة إحدى وستين ومئتين بنيسابور، عن بضعٍ وخمسين سنة.

فرحمه الله تعالى رحمةً واسعةً، وجعل الفردوس الأعلى مثواه، آمين.

** ** **

(١) «سير أعلام النبلاء» (٥٦٤/١٢).

ترجمة الحافظ المنذري مختصر «الصحيح»

هو الإمام العلامة الحافظ زكي الدين أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوي بن عبد الله بن سلامة المنذري، الشامي الأصل، المصري، الشافعي.

❖ مولده:

وُلد في غُرَّة شعبان، سنة إحدى وثمانين وخمسمئة.

❖ طلبه للعلم:

قرأ القرآن، وتأدَّب، وتفقَّه، ثم طلب علم الحديث وبرع فيه.

❖ شيوخه:

سمع من أبي عبد الله محمد بن حمد الأرتاحي، وهو أول شيخ لقيه، وذلك في سنة إحدى وتسعين، ومن عمر بن طبرزذ، وهو أعلى شيخ له، ومن يونس بن يحيى الهاشمي، لقيه بمكة، وجعفر بن محمد بن آموسان، أملى عليه بالمدينة، وعلي بن المفضل الحافظ، ولازمه مدة، وبه تخرج، والإمام موفق الدين ابن قدامة، وخلق كثير لقيهم بالحرمين، ومصر، والشام، والجزيرة[1].

❖ تلاميذه:

حدَّث عنه جماعة، منهم: الحافظ الدمياطي، وقد تخرج به، والعلامة

(١) «سير أعلام النبلاء» (٢٣/٣٢٠).



تقي الدين ابن دقيق العيد، واليونيني أبو الحسين، وإسماعيل بن عساكر، والشريف عز الذين.

❖ **أقوال العلماء فيه:**

قال الشريف عز الدين الحافظ: «كان شيخنا زكيُّ الدين عديمَ النَّظير في علم الحديث على اختلاف فنونه، عالمًا بصحيحه، وسقيمه، ومعلوله، وطرُقه، متبحِّرًا في معرفة أحكامه ومعانيه ومُشكِله، قيمًا بمعرفة غريبه وإعرابه، واختلاف ألفاظه، ماهرًا في معرفة رواته، وجرحهم، وتعديلهم، ووفياتهم ومواليدهم، وأخبارهم، إمامًا حجَّةً ثبْتًا ورِعًا، متجرِّدًا فيما يقوله، مُتَثَبِّتًا فيما يرويه»(١).

وقال الذهبي: «لم يكن في زمانه أحفظ منه».

وقال الدمياطي: «هو شيخي ومخرجي، أتيته مبتدئًا، وفارقته معيدًا له في الحديث»(٢).

❖ **وظائفه:**

قال الحافظ عزُّ الدين الحسيني: «درَّس شيخنا بالجامع الظاهري، ثم ولي مشيخة الدار الكاملية، وانقطع بها عاكفًا على العلم».

❖ **من أخباره:**

أنه أفتى في الديار المصرية، ثم انقطع عن الإفتاء، ولانقطاعه هذا سبب طريف، ينبئ عن إنصافه وسماحة نفسه وعرفانه الفضل لذويه، وقد أشار إلى ذلك التاج السبكي قائلًا: «سمعت أبي (أي تقي الدين السبكي)

---

(١) مقدمة «مختصر صحيح مسلم».

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٣٢٢/٢٣).



يحكي أن الشيخ عز الدين بن عبد السلام كان يسمع الحديث قليلًا بدمشق، فلما دخل القاهرة بطل ذلك، وصار يحضر مجلس الشيخ زكي الدين - أي المنذري - ويسمع عليه في جملة من يسمع، ولا يسمع، وإن الشيخ زكي الدين أيضًا ترك الفتيا، وقال: حيث دخل الشيخ عز الدين لا حاجة بالناس إلي!»[١].

❖ **أشهر مؤلفاته[٢]:**

١ - الترغيب والترهيب[٣].

٢ - مختصر صحيح مسلم: وقد طبع بتحقيق العلامة الراحل الألباني رحمه الله، وهو الذي شرحْنا أحاديث كتاب الإيمان منه.

٣ - مختصر سنن أبي داود.

٤ - شرح التنبيه، لأبي إسحاق الشيرازي في الفقه الشافعي.

٥ - أربعون حديثًا في فضل اصطناع المعروف.

٦ - الإعلام بأخبار شيخ البخاري محمد بن سلام.

٧ - معجم شيوخه.

٨ - عمل اليوم والليلة، وغيرها.

❖ **وفاته:**

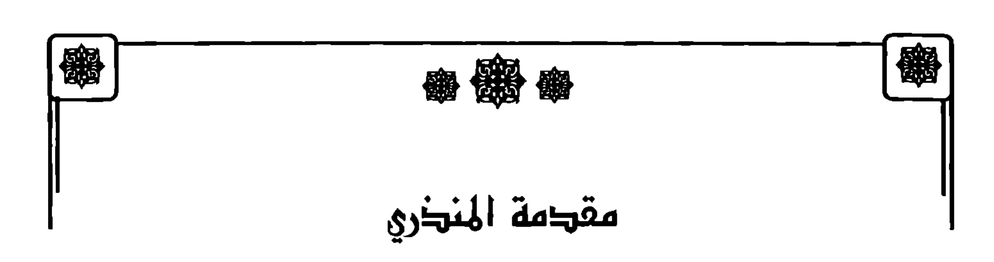
توفي رحمه الله في رابع ذي القعدة، سنة ست وخمسين وستمئة، ورثاه غير واحد بقصائد حسنة.

---

(١) «مقدمة مختصر مسلم».

(٢) «مقدمة المختصر».

(٣) وقد طبع أخيرًا محققًا بقسميه الصحيح والضعيف، بتحقيق العلامة الألباني رحمه الله تعالى.



مقدمة المنذري

الحمد لله الرحيم الغفَّار، الكريم القهَّار، مقلِّب القلوب والأبصار، عالم الجهر والأسرار، أحمده حمدًا دائمًا بالعشيِّ والإبكار، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادةً تُنْجي قائلها من عذاب النار، وأشهد أن محمدًا نبيُّه المختار، ورسوله المجتبى من أشرف نجار، صلى الله عليه وعلى أهله وأزواجه وأصحابه الجدراء بالتعظيم والإكبار، صلاةً دائمةً باقيةً بقاء الليل والنهارِ.

وبعد: فهذا كتابٌ اختصرتُه من «صحيح» الإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري ﵁، اختصارًا يسهله على حافظيه، ويقرِّبه للناظر فيه، ورتَّبته ترتيبًا يسرع بالطالب إلى وجود مطلبه في مظنّته، وقد تضمَّن مع صغر حجمه جلَّ مقصود الأصل، وإلى الله سبحانه أرغب في أن ينفعني به، وقارئه، وكاتبه، والناظر فيه، إنه قريب مجيب.

* * *

الشرح

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه، ومن اهتدى بهداه، وبعد:

فهذا مختصر «صحيح مسلم» لأبي الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري، وهو في الدرجة بعد صحيح الإمام البخاري أبي عبد الله على



القول الصحيح المشهور عند علماء الأصول والحديث، وقد اختصره الإمام زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي المنذري في مجلد واحد كبير.

قوله: **«اختصارًا يسهله على حافظيه، ويقربه للناظر فيه، ورتبته ترتيبًا يسرع بالطالب إلى وجود مطلبه في مظنته»**: وهذا يدل على أنه تصرف في تغيير بعض الأحاديث، ووضعها في أبواب قد تتقدم وقد تتأخر تسهيلًا لطلبة العلم، وأخبر أنه قد تضمّن جُلَّ مقصود الأصل.

وقوله: **«وأشهد أن محمدًا نبيُّه المختار، ورسوله المجتبى من أشرف نجار»** النجار: هو الأصل والحسب، فالرسول ﷺ خيار من خيار من خيار، كما قال عليه الصلاة والسلام في حديث مسلم وغيره: **«إن الله اصطفى من ولد إسماعيل كنانة، واصطفى من كنانة قريش، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»** فهو عليه الصلاة والسلام خيار من خيار من خيار.

** ** **

كتاب الإيمان

باب: أول الإيمان قول لا إله إلا الله

ابتدأ الإمام مسلم كتابه بالإيمان، والإمام البخاري رحمه الله ابتدأ كتابه ببدء الوحي.

لا بُدَّ أن نعلم أن الإمام مسلم رحمه الله لم يضع أبوابًا لكتابه الصحيح، وإنما الذي وضع التبويب هو الإمام النووي، والتبويب الذي يوجد الآن في صحيح الإمام مسلم ليس من صنيع مسلم، وإنما هو من صنيع الإمام النووي.

ـ باب: أول الإيمان قول: لا إله إلا الله: فهي أول كلمة الإيمان، أول ما يدخل به العبد إلى الإسلام هو هذا الكلمة.

قوله: «أول الإيمان»: لأن الإيمان يُراد به الإسلام إذا جاء مفردًا عن الإسلام؛ لأن لفظتي الإسلام والإيمان إذا اجتمعتا افترقتا في المعنى، وإن افترقتا اجتمعتا في المعنى، فيمكن أن تُعبِّر الإسلام بالإيمان، وعن الإيمان بالإسلام.

* * *



(١) عَنْ أَبِي جَمْرَةَ قَالَ: كُنْتُ أُتَرْجِمُ بَيْنَ يَدَيْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ، وَبَيْنَ النَّاسِ، فَأَتَتْهُ امْرَأَةٌ تَسْأَلُهُ عَنْ نَبِيذِ الْجَرِّ فَقَالَ: إِنَّ وَفْدَ عَبْدِ الْقَيْسِ أَتَوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ الْوَفْدُ أَوْ مَنْ الْقَوْمُ؟» قَالُوا: رَبِيعَةُ. «قَالَ مَرْحَبًا بِالْقَوْمِ أَوْ بِالْوَفْدِ غَيْرَ خَزَايَا، وَلَا نَدَامَى». فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّا نَأْتِيكَ مِنْ شُقَّةٍ بَعِيدَةٍ، وَإِنَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ هَذَا الْحَيَّ مِنْ كُفَّارِ مُضَرَ، وَإِنَّا لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَأْتِيَكَ إِلَّا فِي شَهْرِ الْحَرَامِ، فَمُرْنَا بِأَمْرٍ فَصْلٍ نُخْبِرْ بِهِ مَنْ وَرَاءَنَا وَنَدْخُلُ بِهِ الْجَنَّةَ. قَالَ: فَأَمَرَهُمْ بِأَرْبَعٍ، وَنَهَاهُمْ عَنْ أَرْبَعٍ، قَالَ: أَمَرَهُمْ بِالْإِيمَانِ بِاللهِ وَحْدَهُ، وَقَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مَا الْإِيمَانُ بِاللهِ وَحْدَهُ؟» قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ، وَأَنْ تُؤَدُّوا خُمُسًا مِنْ الْمَغْنَمِ». وَنَهَاهُمْ عَنْ الدُّبَّاءِ، وَالْحَنْتَمِ، وَالْمُزَفَّتِ.

قَالَ شُعْبَةُ: وَرُبَّمَا قَالَ: النَّقِيرِ. وَقَالَ: «احْفَظُوهُ، وَأَخْبِرُوا بِهِ مِنْ وَرَاءَكُمْ».

وَزَادَ ابْنُ مُعَاذٍ فِي حَدِيثِهِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِلْأَشَجِّ أَشَجِّ عَبْدِ الْقَيْسِ: «إِنَّ فِيكَ لَخَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ: الْحِلْمُ وَالْأَنَاةُ».

الشرح:

قوله: «عَنْ أَبِي جَمْرَةَ قَالَ: كُنْتُ أُتَرْجِمُ بَيْنَ يَدَيْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ، وَبَيْنَ النَّاسِ» الترجمة: هي النقل من لغة إلى لغة، قيل: إنه كان يترجم عن الفارسية، وقيل: معنى قوله: أترجم: أي أنه كان يرفع صوته ليسمع الناس؛



لكثرتهم على ابن عباس، فكان يوصل كلامه للناس.

قوله: «فَأَتَتْهُ امْرَأَةٌ تَسْأَلُهُ عَنْ نَبِيذِ الْجَرِّ» استدل به على جواز أن يسمع الرجل الأجنبي صوت المرأة، وأن تسمع المرأة صوت الرجل الأجنبي للحاجة، كاستفتاء، وبيع وشراء، ونحو ذلك.

والجر: هو ما يُعرف بالجرار، واحدتُها جَرَّة، والنبيذ: ما ينبذ في الماء من البسر والتمر وغيره، فكانت العرب تنبذ التمر في الماء لإصلاح طعم الماء؛ لأن الماء أحيانًا يكون فيه ملوحة، فيضعون فيه شيئًا من التمر؛ لأجل الحلاوة، ولأنه شراب شهير عندهم، فيضعونه في الجر.

فلما سألته قال ابن عباس: «إِنَّ وَفْدَ عَبْدِ الْقَيْسِ أَتَوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ الْوَفْدُ أَوْ مَنِ الْقَوْمُ؟» قَالُوا: رَبِيعَةُ» يعني من قبيلة ربيعة.

قوله: «قَالَ مَرْحَبًا بِالْقَوْمِ أَوْ بِالْوَفْدِ غَيْرَ خَزَايَا، وَلَا نَدَامَى» خزايا جمع خزيان، وهو من الخِزي، إما يراد به هنا الخجل، وإما أن يراد به الذل، فقال لهم: مرحبًا بكم، واتركوا عنكم الحياء، أو أنه لا ذلّ عليكم، وندامى جمع ندمان، وفي اللغة: الأصح أن تقول: نادمين، لكن قال: ندامى، لتكون موافقة لقول خزايا، فتكون أجمل في المنطق.

قوله: «فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا نَأْتِيكَ مِنْ شُقَّةٍ بَعِيدَةٍ» الشقة تعني: السفر البعيد، يصح فيه ضم الشين وكسرها، لكن لغة القرآن بالضم، وسمِّيت شقة؛ لأنها تَشُقُّ على الإنسان لقطع المسافة فيها.

قوله: «وَإِنَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ هَذَا الْحَيَّ مِنْ كُفَّارِ مُضَرَ» يعني قبيلة مضر، كان بينهم وبين النبي ﷺ قبيلة مضر، وكانوا كفَّارًا، ويخشون من بأسهم وحربهم.



قوله: «وَإِنَّا لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَأْتِيَكَ إِلَّا فِي شَهْرِ الْحَرَامِ»، وهذا يدل على أن الجاهلية كانت تحرّم القتال في الشهر الحرام، لكن كما أخبر الله ﷻ عنهم أنهم كانوا يتلاعبون في التحريم، فيقدمون الشهر الحرام إلى صفر، لأجل أن يستبيحوا القتال في الشهر الحرام، وربما يتقدَّم في السنة التي بعدها من صفر إلى ربيع الأول، والتي بعدها إلى ربيع الثاني، فيتلاعبون بالأشهر، حتى تدور السنون، فيرجع مرةً أخرى الحرام، إلى شهر الله الحرام.

قوله: «فَمُرْنَا بِأَمْرٍ فَصْلٍ نُخْبِرُ بِهِ مَنْ وَرَاءَنَا نَدْخُلُ بِهِ الْجَنَّةَ» طلبوا منه أن يعلمهم الإيمان والإسلام ليخبروا به قومهم، وقالوا: «فَصْلٍ» يعني: أمر عظيم يفصل بين الحق والباطل، وبين الخير والشر، والله ﷻ وصف قوله بأنه فصل: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾﴾ [الطارق]، فكتاب الله فصل، يفصل بين الحق والباطل، وبين الخير والشر، والهدى والضلال.

قوله: «قَالَ: آمُرُكُمْ بِأَرْبَعٍ، وَنَهَاهُمْ عَنْ أَرْبَعٍ، قَالَ: أَمَرَهُمْ بِالْإِيمَانِ بِاللهِ وَحْدَهُ قال: «أَمَرَهُمْ بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَحْدَهُ» ثم شرح لهم وبيَّن ما الإيمان بالله وحده؟

قال: «هَلْ تَدْرُونَ مَا الْإِيمَانُ بِاللهِ وَحْدَهُ قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ» وهذا من أدب الصحابة، أنهم كانوا لا يتقدمون بين يدي النبي ﷺ، ولو كانوا يعلمون الجواب؛ لأنهم يطمعون أن يحصلوا زيادة فائدة من النبي ﷺ، فلا يتكلمون بين يديه، ولهذا قال أهل العلم: يستحبُّ للطالب أن يكثر السكوت بين يدي شيخه؛ ليفوز بكلامه وفوائده، وبعض الناس إذا جاء يسأل؛ تجده يسأل ويجاوب نفسه، أو يكثر كلامه، فلا يفوز من الشيخ، ولا من الجواب إلا بأقل الكلمات، ويصير الكلام كله له، فلهذا يُحرَم الخيرَ، ويحرم الفائدة.



ثم قال مفسرًا الإيمان بالله وحده: «**شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ**» فبين لهم بأن الإيمان بالله وحده أوله الشهادتين: لا إله إلا الله: ومعناها لا معبود بحق إلا الله، «**وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ**» ومعناها: الشهادة له بأنه رسول الله تعالى حقًّا وصِدقًا، وذلك يكون بتصديقه، والإيمان به، وتصديق ما أخبر به، واتباعه، وتركِ زواجره ونواهيه، وألا تعبد الله ﷻ إلا بما شرع.

قال: «**وَإِقَامُ الصَّلَاةِ**» إقام الصلاة قالوا معناه: إدامة الصلاة والاستمرار عليها، كما قال الله ﷻ: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المعارج]، وقيل: إقام الصلاة معناه: الإتيان بها تامَّة غير منقوصة، ولم يقل (الصلاة) أو أن (تصلوا) وإنما قال: «**إِقَامُ الصَّلَاةِ**»، فمن أقام الصلاة كما أمر الله ﷻ، فقد أتى بالواجب.

أما من صلى ولم يُقِمْ أركان صلاته؛ فما استقامت صلاته، فهذا مقصِّر، وقد يستحقُّ التعذيب إذا قصَّر في الخشوع الواجب، ولم يتمّ الركوع والسجود، كما في الحديث: قوله ﷺ: «**أسوأ الناس سرقة الذي يسرق من صلاته**»، قالوا: كيف يسرق من صلاته؟ قال: «**لا يتم ركوعها، ولا سجودها، ولا خشوعها**»(١).

قوله: «**وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ**» يعني دفع الزكاة الواجبة.

قوله: «**وَصَوْمُ رَمَضَانَ**» الشهر الذي اختاره الله تعالى للصيام.

قوله: «**وَأَنْ تُؤَدُّوا خُمُسًا مِنَ الْمَغْنَمِ**» لأن الله تعالى قد افترض على المسلمين أن يخرجوا خُمُسًا لله وللرسول، قال الله ﷻ: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم

(١) رواه أحمد (١١١٠٦، ٢١٥٩١) من حديث أبي قتادة وأبي سعيد رضي الله عنهما.



مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [الأنفال: ٤١]، إذًا الخمس لهذا المصرف، وأربع أخماس للمقاتلين المجاهدين.

قوله: «**وَنَهَاهُمْ عَنْ الدُّبَّاءِ، وَالْحَنْتَمِ، وَالْمُزَفَّتِ**» الدبَّاء: هو القرع اليابس، يتركون القرع حتى ييبس ويتخذونه مثل الجرة.

والحنتم: هي جرار خضر معروفة.

والمزفت: جرار تطوى في الزفت، وهو القار، وكان معروفًا عند العرب؛ لأن القار ينبع على وجه الأرض مثل العين، فكانوا يستفيدون منه.

والنقير: هو جذع نخلة أو غيرها، ينقر في الوسط، ويتخذ كالجرة، وإنما نهاهم عن الانتباذ في هذه الآنية، لأنها آنية محكمة لا يدخلها الهواء، فيسرع التخمر إلى النبيذ، فمنعهم من أن ينتبذوا في هذه الآنية، وأذن لهم في الانتباذ في القِرَب.

وقالوا له -كما في رواية أخرى في مسلم-[١]: إن أرضنا كثيرة الجرذان، فقال عليه الصلاة والسلام: «**وإن أكلتها الجرذان، وإن أكلتها الجرذان، وإن أكلتها الجرذان**» وشدَّد النبي ﷺ عليهم في هذا الباب؛ **لأن** شرب الخمر كان شهيرًا عند العرب، والتخمر يحصل سريعًا في هذه الآنية، فمنعهم منه.

ثم بعد ذلك نسخ هذا الأمر، وقال عليه الصلاة والسلام: «**إن الأوعية لا تحرم شيئًا، فاشربوا في كل وعاء، ولا تشربوا مسكرًا**»[٢] فنهاهم عن المسكر، وربط التحريم بعلَّته، وهو الإسكار.

(١) حديث صحيح، رواه الطبراني «المعجم الكبير» (١٩/٤٣) من حديث قرة بن إياس رضي الله عنه، وأصله في «صحيح مسلم» (٣/١٥٨٤).

(٢) سيأتي معنى هذه الرواية في باب الإيمان وما هو وبيان خصاله.



قوله: «وَقَالَ: احْفَظُوهُ، وَأَخْبِرُوا بِهِ مِنْ وَرَاءَكُمْ» وهذا حثٌّ على تبليغ العلم.

وقوله: «احْفَظُوهُ، وَأَخْبِرُوا بِهِ مِنْ وَرَاءَكُمْ» يعني: من قومك ومن الناس.

وفي رواية: «قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِلْأَشَجِّ أَشَجِّ عَبْدِ الْقَيْسِ» قال النووي: «المشهور أن اسمه: المنذر بن عائذ، وقيل: المنذر بن الحارث، وقيل: المنذر بن عامر، لكن المشهور أن اسمه: المنذر بن عائذ»[١].

قوله: «إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ: الْحِلْمُ وَالْأَنَاةُ» وفي رواية: «يُحِبُّهُمَا اللهُ وَرَسُولُهُ» الحِلم: هو العقل، كما قال الله ﷻ: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ﴾ [الطور: ٣٢]، فيراد بالحلم هنا هو العقل، وقيل: الحلم هو الكفُّ عن الجاهلين، أي: عدم معاجلة الجاهل بالعقوبة، بل الصبر عليه.

والأناة: هي ترك التعجل، يعني ترك الاستعجال، وهذا يحبه الله تعالى أيضًا.

وقيل: السبب في هذا الحديث: أن وفد عبد القيس لما جاؤوا إلى النبي ﷺ تخلف الأشج في الرِّحال، فعقل الإبل كلَّها، ثم اغتسل ولبس أحسن ثيابه، ثم جاء إلى النبي ﷺ، يعني تهيَّأ ولم يستعجل، وهذا يدل على عقله؛ لأن كون الإنسان يعقل الإبل، ويدل على أنه يفكر بالعواقب، ولا يستعجل، وكونه يتأنى في أن يتهيَّأ للقدوم على النبي ﷺ؛ يدلُّ هذا أيضًا على أناته وعدم استعجاله.

والحلم والأناة خصلتان يحبُّهما الله ورسوله ﷺ.

---

(١) «شرح صحيح مسلم» للنووي (١/١٨٩).



(٢) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمًا بَارِزًا لِلنَّاسِ، فَأَتَاهُ رَجُلٌ، فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ مَا الْإِيمَانُ؟ قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكِتَابِهِ، وَلِقَائِهِ، وَرُسُلِهِ، وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ الْآخِرِ». قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا الْإِسْلَامُ؟ قَالَ: «الْإِسْلَامُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ، وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ الْمَكْتُوبَةَ، وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ». قَالَ يَا رَسُولَ اللهِ مَا الْإِحْسَانُ؟ قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنَّكَ إِنْ لَا تَرَاهُ؛ فَإِنَّهُ يَرَاكَ». قَالَ يَا رَسُولَ اللهِ مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: «مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنْ السَّائِلِ، وَلَكِنْ سَأُحَدِّثُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا: إِذَا وَلَدَتِ الْأَمَةُ رَبَّهَا؛ فَذَاكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا، وَإِذَا كَانَتِ الْعُرَاةُ الْحُفَاةُ رُءُوسَ النَّاسِ؛ فَذَاكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا، وَإِذَا تَطَاوَلَ رِعَاءُ الْبَهْمِ فِي الْبُنْيَانِ؛ فَذَاكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا فِي خَمْسٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللهُ» ثُمَّ تَلَا ﷺ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾. ثُمَّ أَدْبَرَ الرَّجُلُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «رُدُّوا عَلَيَّ الرَّجُلَ»، فَأَخَذُوا لِيَرُدُّوهُ؛ فَلَمْ يَرَوْا شَيْئًا، فَقَالَ: رَسُولُ اللهِ ﷺ: «هَذَا جِبْرِيلُ جَاءَ لِيُعَلِّمَ النَّاسَ دِينَهُمْ».

❖ الشرح:

قوله: «عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمًا بَارِزًا لِلنَّاسِ» بارزًا للناس: يعني ظاهرًا، كما قال ﷻ: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: ٤٧]، يعني: ظاهرة ليس فيها وادٍ ولا جبلٌ يستر الناس.

قوله: «فَأَتَاهُ رَجُلٌ، فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ مَا الْإِيمَانُ؟ قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكِتَابِهِ، وَلِقَائِهِ، وَرُسُلِهِ، وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ الْآخِرِ» شَرَح النبي ﷺ هنا أركان الإيمان، وعمدة الإيمان: الإيمان بالله ﷻ، وهو يتضمَّن الإيمان بوجود الله، والإيمان بأسمائه وصفاته وأفعاله، والناس متفاوتون في هذا تفاوتًا عظيمًا.

قوله: «وَمَلَائِكَتِهِ» وهم: خلق من خلق الله تعالى، خَلَقَهم من نور، وأثنى عليهم، وعلى عباداتهم، في غير موضع من القرآن.

قوله: «وَكِتَابِهِ» أي بالقرآن؛ لأنه آخر الكتب السماوية، ويحتمل أنه أراد جنس الكتاب، يعني: أن تؤمن بما أنزل الله تعالى من كتاب، فيشمل التوراة، والإنجيل، والزبور، والقرآن، وغيرها من الكتب المنزلة.

قوله: «وَلِقَائِهِ» أي: أن تؤمن بلقاء الله تعالى، ولقاءُ الله ﷿ يتضمن رؤيته، وهو ما استدل به طائفة من أهل السنة، ومال إليه شيخ الإسلام من أن لقاء الله تعالى في الآخرة، فيه رؤية الله تعالى للمؤمن والكافر، أما الكافر فإن رؤيته الله ﷿ عذاب، كحال المجرم الذي فرَّ من عدالة الملك، إذا واجهه كانت مواجهته عذابًا عليه، وأما المؤمن إذا لقي الله فرح بلقائه؛ لأنه ينتظر جائزته من ربه سبحانه.

قوله: «وَرُسُلِهِ» وهو الإيمان بالرسل، وهو ركن من أركان الإيمان، وهو أن تؤمن بكل رسول أرسله الله تعالى، سواء ذُكِر اسمه في القرآن، أو في السنة كيوشع بن نون، أو لم يذكر، كما قال تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤]، فتؤمن بكل رسول أرسله الله تعالى.

قوله: «**وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ الْآخِرِ**» الإيمان بالبعث من أركان الإيمان، وقد أقسم الله تعالى بنفسه المقدَّسة ثلاث مرات في القرآن، على أن البعث كائن، فقال تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ﴾ [التغابن: ٧]، وفي موضعين آخرين(١)، فيقسم الله تعالى بنفسه أن البعث كائن لا محالة، والإيمان بالبعث يشمل الإيمان بما يكون في ذلك اليوم الآخر، من بعث من القبور، وحشر ونشر للدواوين والصُّحف، وميزان وصراط وجنة ونار، وقد ذكر تعالى هذه الأركان في القرآن ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وقال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾ [النساء].

قوله: «**قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا الْإِسْلَامُ؟ قَالَ: «الْإِسْلَامُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ، وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ الْمَكْتُوبَةَ، وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ**» الإسلام هنا جعله الرسول ﷺ للأعمال الظاهرة، وجعل الإيمان لأعمال القلوب، وهو التصديق والإقرار والمعرفة، أن يصدق بقلبه ويُقرَّ ويعرف ذلك، والإسلام هو الأعمال الظاهرة من الشهادتين، والصلاة، والصيام، ولم يذكر الحج هنا، وفي بعض الروايات ذَكَر، فلعلَّ الراوي تركه اختصارًا.

ودلَّ هذا الحديث على أن الإسلام والإيمان اسمان إذا اجتمعا افترقا في المعنى، وإذا افترقا اجتمعا في المعنى، مثل لفظ الفقير والمسكين، فإن

---

(١) في سورة سبأ (٣) نحوها، وسورة يونس في قوله: ﴿وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٥٣﴾﴾.



الفقير والمسكين إذا افترقا دلَّ كل منهما على الشخص صاحب الحاجة، أما إذا اجتمعا دلَّ أحدهما على معنى أخصّ من الآخر، وهكذا الإسلام والإيمان كما قال الله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤]، والإيمان إذا ما وَقَر في القلب، وصدَّقه العبد، والإسلام ما أظهره على جوارحه من أعمال الإسلام، وقد يكون العبد عاملاً بالإسلام غير مصدِّق بقلبه، كحال المنافق، فالمنافق يعمل أعمال الإسلام لكنه في قلبه ليس بمصدّق، ومن الناس من يعمل بجوارحه، ويكون تصديقه وإيمانه ضعيفًا، كما قال الله ﷻ عن الأعراب الذين أسلموا حديثًا.

وأيضًا يدلُّ على أن الإيمان يصحبه العمل(١)، لأن الله تعالى قد أطلق اسم الإيمان على الأعمال، فهذا دليل على أن الأعمال من الإيمان، كما في قوله ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال]، وفي قوله عليه الصلاة والسلام: «**الإيمان بضعٌ وستُّون شعبة، أعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**»(٢)، فدل على أن الأعمال من الإيمان، والناس يتفاوتون في ذلك، فالإيمان قول وعمل وتصديق، وهذا مذهب السلف رضي الله عنهم، ومن تبعهم بإحسان.

قوله: «**قَالَ يَا رَسُولَ اللهِ مَا الْإِحْسَانُ؟ قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنَّكَ إِنْ لَا تَرَاهُ؛ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**» فالإحسان أعلى مراتب الإيمان؛ لأن العبد

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٦٢/٧).
(٢) سيأتي معنا هذا الحديث في باب: الحياء من الإيمان.

المحسن يعبد الله تعالى كأنه يراه بعينه، فيستحضر ربّه في عباداته كلها حتى كأنه يراه بعينه، فإن لم يكن يراه، فهو موقن بأن الله تعالى يراه، والعامل إذا استحضر رؤية صاحب العمل أو ربَّ العمل لعمله، أحسن العمل، وإذا غاب عنه ربُّ العمل أو عن ذهنه، فإنه لا يُتْقِن عمله، وكلما شعر هذا العامل بمراقبة رب العمل، ازداد إحسانًا، فأنت الآن لو جئت بعامل يعمل لك، ووقفت على رأسه، لا يكون عمله كما لو جئت به وتركته يعمل كما يشاء دون رقابة، فالإحسان هو أعلى مراتب الإيمان، وهو يعني مراقبة الربِّ سبحانه.

قوله: «قَالَ يَا رَسُولَ اللهِ مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: «مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنْ السَّائِلِ» وهذا يدل على أن الرسول ﷺ لا يعلم متى تكون الساعة؟ بل علم الساعة مما اختص الله تعالى بعلمه ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾﴾ [النازعات]، وقال ﷻ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وفي هذا دليل على أن العالم إذا سئل عن شيء لا يعرفه، قال: الله أعلم، فيردُّ العلم إلى الله، وليس في هذا نقص من مكانته وعلمه، بل يدل على ورعه، وخوفه من الله تعالى، وقد جاء رجل إلى الإمام مالك، فقال له: جئتك من بلد مسيرة ستة أشهر، وأنا سائلك عن هذا السؤال، فلما سأله قال له الإمام مالك: لا أدري، فبهت الرجل، فقال: ماذا أقول لأهل بلدتي؟ قال: قل لهم يقول مالك: لا أدري! فما كانوا يستحون من هذه الكلمة، بل هي نصف العلم، كما ورد على ألسنة السلف، والعالم إذا قال: لا أدري في المسائل، ووقف، وثق به الناس، وعلموا أنه لا يتكلم إلا بدليل، ولا يفتي إلا بنصٍّ أو برهانٍ.



قوله: «**وَلَكِنْ سَأُحَدِّثُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا**» الأشراط: جمع الشرط، والشرط: هي العلامة، فأشراط الساعة علاماتها، ومنه قول الله تعالى: ﴿**فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا**﴾ [محمد: ١٨]، أي علاماتها.

قوله: «**إِذَا وَلَدَتِ الْأَمَةُ رَبَّهَا؛ فَذَاكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا**» إذا ولدت الأمة ربَّها، أو «**ربَّتها**» كما في بعض الروايات، فذاك من أشراط الساعة، وفي معناه أقوال: ذكر الحافظ ابن حجر[١] أن من معناه: أن يكثر العقوق، فيعامل الرجل أمه كمعاملة السيد لأمته، فيأمرها وينهاها ويزجرها ويسبّها، ومال إلى هذا القول، واختار غيرُه من العلماء ـ وعليه الأكثر ـ[٢]: أن المراد بذلك: الأخبار عن فتوح البلدان، وكثرة السراري أو الجواري، فتلد هذه الأمة من سيدها ولدًا، وولده بمنزلته، فذاك قوله عليه الصلاة والسلام «**أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّهَا**».

قوله: «**وَإِذَا كَانَتِ الْعُرَاةُ الْحُفَاةُ رُؤُوسَ النَّاسِ؛ فَذَاكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا**» وفي رواية لمسلم[٣]: «**أي ملوك الأرض**» إذا كانت ملوك الأرض، والعراة: يعني الذي لا يلبسون من الثياب إلا القليل، والحفاة: يعني الذين لا ينتعلون، فإذا تغيرت الأحوال فصار أسافل الناس أعاليهم، فإن هذا من أشراط الساعة.

قوله: «**وَإِذَا تَطَاوَلَ رِعَاءُ الْبَهْمِ فِي الْبُنْيَانِ؛ فَذَاكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا**» البهم هي صغار الغنم، سواء من المعز أم من الضَّأن، فمن أشراط الساعة تطاول رعاة البهم في البنيان، يعني أن تكثر أموالهم، ويتنافسون في إطالة البنيان،

---

(١) فتح الباري (١/١٦٧).

(٢) شرح مسلم للنووي (١/٢٢٣).

(٣) (١/١٦٥) نووي.



وفي هذا دليل على ذم البناء والتطاول فيه، ما لم تدع حاجة إليه، وورد ما يؤيد ذلك، وهو قوله عليه الصلاة والسلام: «**إن العبد يؤجر في كل شيء من نفقته، إلا في البنيان**»[(١)]، ووجّه العلماء ذلك إلى البنيان الذي لا فائدة فيه، لا البنيان الذي يستر الإنسان وأهله وعائلته[(٢)]، فإن هذا يؤجر عليه كما يؤجر على النفقة على أهله، كما قال عليه الصلاة والسلام في الصدقات: «**حتى ما تضع في فيّ امرأتك**»[(٣)]، فهذا داخل في النفقات.

قوله: «**فِي خَمْسٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللهُ**» أي: إن علم الساعة، من الخمس التي لا يعلمهنَّ إلا الله، ذكرت في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان]، هذه مفاتح الغيب الخمسة.

قوله: «**ثُمَّ أَدْبَرَ الرَّجُلُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «رُدُّوا عَلَيَّ الرَّجُلَ»، فَأَخَذُوا لِيَرُدُّوهُ؛ فَلَمْ يَرَوْا شَيْئًا، فَقَالَ: رَسُولُ اللهِ ﷺ: «هَذَا جِبْرِيلُ جَاءَ لِيُعَلِّمَ النَّاسَ دِينَهُمْ»**» وفي هذا دليل على أن جبريل وغيره من الملائكة له قدرةٌ على التشكُّل بصورة الإنسان، كما قال ﷻ: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾﴾ [مريم]، وكما أرسله الله تعالى إلى إبراهيم ولوط عليهما السلام مع ملائكة آخرين، مع أن خلق جبريل عظيم جدًا، كما قال عليه الصلاة والسلام: «**رأيته منهبطًا من السماء إلى الأرض سادًّا الأفق، من**

(١) حديث صحيح، السلسلة الصحيحة (٢٨٣١/٦).
(٢) السلسلة الصحيحة (٢٨٣٠/٦).
(٣) أخرجه مسلم (٩٠/١١).



عِظَم خلقه»[(١)]، ومع ذلك له القدرة على أن يتشكَّل بصورة إنسان، وفي الحديث أيضًا في بعض الروايات أنه كان قد جاء بصورة رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، وأخذ منه العلماء: مشروعية بل استحباب التنظف والتطيُّب عند لقاء العلماء والملوك الكبراء.

** ** **

(١) رواه مسلم (٨/٣) نووي.

(٣) عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ جَاءَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَوَجَدَ عِنْدَهُ أَبَا جَهْلٍ وَعَبْدَ اللهِ بْنَ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَا عَمِّ قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ» فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ: يَا أَبَا طَالِبٍ أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعْرِضُهَا عَلَيْهِ، وَيُعِيدُ لَهُ تِلْكَ الْمَقَالَةَ، حَتَّى قَالَ أَبُو طَالِبٍ آخِرَ مَا كَلَّمَهُمْ: هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَأَبَى أَنْ يَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَمَا وَاللهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ»، فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ١١٣﴾ [التوبة]، وَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى فِي أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ٥٦﴾ [القصص].

الشرح

قوله: «لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ...» أي: لما حضرت دلائل وفاته واحتضر.

قوله: «جَاءَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ» وهذا كما ذكر ابن فارس[1] وغيره، وعمر النبي ﷺ تسع وأربعون سنة وعشرة أشهر، وحرص النبي ﷺ على عرض

(١) «شرح صحيح مسلم» النووي (١/٢١٥).



الدعوة على عمِّه، من يوم أن أبلغ بالرسالة، فإنه أنذر عشيرته الأقربين، كما أمره الله ﷻ.

وفي هذا الحديث: حرص النبي ﷺ على هداية أقربائه، وأن هذا من أولويات الدعوة، أن يبدأ الإنسان بأهله وقرابته قبل الأجنبي الغريب، خلافًا لما يفعله اليوم طائفة من الدعاة، في خروجهم إلى الدعوة إلى بلادٍ بعيدة، وتركهم أهليهم وأولادهم بلا تعليم ولا تأديب! ولا دعوة إلى الله ﷻ! وهذا خلاف سيرة النبي ﷺ.

وفي الحديث أيضًا: أن «لا إله إلا الله» هي أول كلمة يدخل بها العبد إلى الإسلام، فهي مفتاح الدخول إلى الإسلام، وأن من قال هذه الكلمة صار مسلمًا، إذا عرف معناها، وعمل بمقتضاها.

وفي الحديث أيضًا: أن من مات على هذه الكلمة نفعته في الآخرة، إذا لم يمكنه أن يعمل ويقول غيرها، فمن قال هذا الكملة نفعته في الآخرة؛ لأن الرسول عليه الصلاة والسلام قال: «**كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ**» وفي رواية: «**كلمة أحاجُّ لك بها عند الله**».

وفي الحديث: أن أبا جهلٍ وابن أمية قد حرَّضا أبا طالب على الكفر، ومنعاه من قول هذه الكلمة المباركة، فقالا له: «**أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ**» وهذا فيه خطر صحبة السوء، ورفقاء الشر، وأنهم قد يحرموا الإنسان خيري الدنيا والآخرة، فهما حرِصا على صدِّه عن كلمة التوحيد في آخر لحظات حياته، ولازماه حتى خسر الدنيا والآخرة.

وفي الحديث: إصرار النبي ﷺ على تكرار الدعوة، فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها على عمِّه، ويعيد له تلك المقالة، **وفي هذا فائدة:** أن الداعية



لا ينبغي له أن ييأس من صلاح الناس وهدايتهم، ولو تبيَّن له في ظاهر الحال أن المدعوَّ معرض أو غير مستفيد، فإنك لا تدري لعلك تصيب منه ساعة، قد رقَّ فيها قلبه، فيستفيد بكلمتك وبدعوتك، فالرسول عليه الصلاة والسلام دعا عمَّه تسع سنين، بل عشرًا إلا قليلًا، ولم ييأس من دخوله في الإسلام، قوله: «**حَتَّى قَالَ أَبُو طَالِبٍ آخِرَ مَا كَلَّمَهُمْ: هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَأَبَى أَنْ يَقُولَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**» وهذا من أحسن الآداب، إذ أن الراوي قال: «**هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ**» ولم يقل حاكيًا عن قوله: «أنا» وهذا من البعد عن قبيح القول، ونسبة القول إلى قائله بأحسن العبارات، فإذا حكى الإنسان الكلمة القبيحة حكاها على لسان قائلها.

وفي الحديث: التصريح بأن أبا طالب قد مات على الكفر؛ لأن الراوي قال: «**وَأَبَى أَنْ يَقُولَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**» وهذا دليل على أنه لم يقلها، فما دام أنه لم يقلها فقد مات على ملة الجاهلية، ملةِ عبد المطلب، وفيه ردٌّ على الرافضة الذين يزعمون أن أبا طالب قد أسلم في آخر حياته، ونطق بالشهادة وسمعها منه من كان مقرّبًا منه، وهذه الرواية كذب ليست بصحيحة! وهم يروونها ويتداولونها في كتبهم، ولكنها رواية كذب ليس لها أصل، بل الحديث الصحيح يردُّها.

وفي الحديث: أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: «**أَمَا وَاللهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ**» وفيه سعة رحمة النبي عليه الصلاة والسلام، وحبّه الخير للناس، فإنه طلب الاستغفار لعمِّه، بعد أن مات على الكفر، وما السبب الداعي لهذا؟ السبب أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد انتفع كثيرًا بعمِّه، وحماه الله تعالى به، وكان أبو طالب يقول الأشعار في الذَّبِّ



عن النبي عليه الصلاة والسلام، ويقول له: اذهبْ وادعُ ولا تخشى أحدًا، فكان يناصره ويدفع عنه، كما جاء أيضًا في حديث البخاري(١): أن العباس قال للنبي عليه الصلاة والسلام: أرأيت أبا طالب، فإنه كان يحوطك وينصرك، فهل نفعته بشيء؟ قال: «**نعم، أما إنه في ضحضاحٍ من نار يبلغ كعبيه، لولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار**».

وفي رواية: «**يغلي منهما دماغه، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار**»(٢).

والنار كما تعلمون دركات، فمنهم من تأخذه إلى كعبيه، ومنهم من تأخذه إلى ركبتيه، ومنهم من تأخذه إلى حقويه، ومنهم من تغشاه النار، فهو في «ضحضاح» والضَّحضاح: هي المياه الضحلة القليلة، لكن قال هنا: ضحضاح من نار، وليست من ماء.

وفي الحديث: أن النبي ﷺ كان يقيد عاطفته بالشرع، ولا يجعل العاطفة تستولي عليه وعلى تصرفاته، فقد قال: «**أَمَا وَاللهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ**» أي: ما لم ينهاني ربِّي عن ذلك، وهذا غاية التسليم لحكم الله ﷻ وشرعه، فأنزل الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ١١٣﴾ [التوبة]، فهذا نصٌّ صريح في أن هذه الحادثة كانت سببًا لنزول هذه الآية، لأنه قال: «**فَأَنْزَلَ**» وهذه «فاء التعقيب» التي تفيد نزول الآية عقب هذه الحادثة، والآية تُبيِّن: أنه ليس للنبي عليه الصلاة والسلام، ولا للذين آمنوا: ﴿أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ﴾، أي:

(١) البخاري (١٠/٦٢٠٨ ـ فتح)، ومسلم (٣/٣٥٧ ـ نووي).
(٢) البخاري (٧/٣٨٨٥ ـ فتح).



ولو كانت قرابات، من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم، ومتى يتبين للإنسان، أن الرجل من أصحاب الجحيم؟ إذا مات على الكفر تبيَّن لنا أنه من أصحاب الجحيم، فكل كافر مات على الكفر، فهو من أصحاب الجحيم، هذا ظاهر الآيات من علمنا بنص الكتاب والسنة، أنه من مات على الكفر، فهو من أصحاب الجحيم، ومن علمنا يقينًا من حاله أنه مات على الكفر، فهو من أصحاب الجحيم، ولهذا صحَّ في الحديث: أن الرسول عليه الصلاة والسلام قال: «**حيثما مررْت بقبر كافر، فبشِّره بالنار**»[(١)].

وأما قبل ذلك، فلا يصح الشهادة له بالنار، فلعله يسلم، ولهذا قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١٦١﴾ [البقرة]، فمتى وجبتْ لهم اللعنة والنار؟ بعد أن كفروا وماتوا وهم كفَّار.

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ [التوبة: ١١٤]، يعني إبراهيم عليه السلام وعده والده أنه سيفكر في الموضوع وينظر في دينه ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ﴾ متى تبيَّن لإبراهيم أنه عدوّ لله؟ بعد موته على الكفر، عندئذٍ تبرَّأ منه ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ١١٤﴾ إبراهيم عليه الصلاة والسلام ظلَّ يستغفر لأبيه وهو حي كما قال: ﴿لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ﴾ [الممتحنة: ٤]، ودعا ربَّه أن يُسْلِم، ولكن قُضِي في كتاب الله أنه يموت على الكفر، كما هو الحال في عمِّ النبي عليه الصلاة والسلام.

وفي حال الحياة: هل يجوز الاستغفار للمشرك والدعاء له بالرحمة والهداية؟

(١) حديث صحيح، رواه الطبراني والبزار، انظر «السلسلة الصحيحة» (١/١٨).



الدعاء له بالهداية والرحمة جائز بلا خلاف أعلمه، إلا الدعاء له بالمغفرة، ففيه خلاف، والذي يظهر أنه جائز، لأن الآية يدل مفهومها على أنه إذا كان حيًّا فيجوز للنبي ﷺ والذين آمنوا أن يستغفروا للقريب المشرك، بأن يقولوا: «اللهم اغفر له، اللهم ارحمه، اللهم اهده» هذا كله جائز إذا كان حيًّا، وأما بعد الوفاة فلا يجوز الدعاء له بالرحمة والمغفرة بلا خلاف.

قوله: «**وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي أَبِي طَالِبٍ**» قوله تعالى: ﴿**إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ**﴾ إما أن يكون المقصود بها: من أحببته من قرابتك أو عشيرتك، أو من أحببت له الهداية، فالإنسان قد يحبُّ الهداية لرجل بعيد، ويتمنَّى أن يسلم؛ لأنه رجل فيه صفات الرجولة، فيه الشجاعة والكرم والنَّجدة، فيتمنى أن يسلم ويحب ذلك، أو أن يكون المقصود القرابة.

وفي الآية دليل على أن الله ﷻ يهدي من يشاء، ويضلُّ من يشاء، وهو مذهب أهل السنة والجماعة، خلافًا للقدرية والمعتزلة، يهدي من يشاء فضلًا منه ورحمة، ويضلُّ من يشاء عدلًا منه ﷻ لا ظلمًا، فالعباد يتقلَّبون بين عدل الله تعالى وفضله ورحمته ﴿**وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾**﴾ [فصلت].

** ** **

باب: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله

(٤) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: لَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَاسْتُخْلِفَ أَبُو بَكْرٍ بَعْدَهُ، وَكَفَرَ مَنْ كَفَرَ مِنْ الْعَرَبِ، قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ ﷺ: كَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَمَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؛ فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلَّا بِحَقِّهِ؛ وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ». فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ: وَاللهِ لَأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ، فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ الْمَالِ، وَاللهِ لَوْ مَنَعُونِي عِقَالًا كَانُوا يُؤَدُّونَهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنْعِهِ.

فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ: فَوَاللهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْتُ اللهَ ﷻ قَدْ شَرَحَ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ لِلْقِتَالِ؛ فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْحَقُّ.

(٥) عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ بن الخطاب ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا؛ وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ».

❖ الشرح:

أورد المنذري تحت هذا الباب حديثين:



الأول: حديث أبي هريرة ﷺ الصحابي الجليل، واسمه على الصحيح: عبد الرحمن بن صخر، وهو من قبيلة دوس، أحد حفَّاظ الحديث الكبار، والمفتين الأعلام، دعا له رسول الله ﷺ بالحفظ وعدم النسيان، وشهد له بالحرص على حديثه عليه الصلاة والسلام، مات سنة سبع، وقيل: ثمان، وقيل: تسع وخمسين للهجرة.

قوله: «**وَكَفَرَ مَنْ كَفَرَ مِنْ الْعَرَبِ**» الردَّة التي حصلت بعد النبي عليه الصلاة والسلام، كانت على قسمين(١):

القسم الأول: وينقسم إلى قسمين أيضًا: الأول: أن طائفة ارتدُّوا عن الإسلام، وتبعوا مدَّعي النبوة، مثل: مسيلمة الكذاب في بني حنيفة في اليمامة، ومثل الأسود العنسي في اليمن، فهؤلاء ارتدُّوا عن الإسلام، وتبعوا من ادَّعى النبوَّة، وكذبوا بنبوَّة محمد ﷺ.

والطائفة الثانية من القسم الأول: طائفة ارتدَّت عن الإسلام إلى الوثنية، وعبادة الأصنام، والكفر بالله العظيم.

القسم الثاني: هو من بقي على إقام الصلاة، لكنه أنكر فريضة الزكاة، وقال: نصلي، ولا نزكِّي، وقالوا: إن الزكاة تدفع للنبي ﷺ وحده؛ لأن الله ﷻ قال: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣]، فقالوا: هذه خاصة بالنبي عليه الصلاة والسلام، وما دام أن النبي عليه الصلاة والسلام قد مات، فلا تدفع الزكاة إلى أولياء الأمور من بعده، وهذا لا شكَّ أنه قولٌ باطل؛ لأن الخطاب في القرآن الكريم على ثلاثة أوجه:

---

(١) انظر «فتح الباري» (١٢/٢٨٨)، و«شرح صحيح مسلم للنووي» (١/٢٠٢ - ٢٠٦).



الوجه الأول: خطاب عامٌّ يشمل جميع الأمة، كقول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ﴾ [المائدة: ٦]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ [البقرة: ١٨٣]، فهذا خطاب عامٌّ لجميع الأمة.

الوجه الثاني: خطاب خاصٌّ للنبي عليه الصلاة والسلام، كقوله ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩]، يعني خاصًّا بك يا رسول الله، وكقوله ﷻ: ﴿خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٥٠]، يعني إباحة الزواج بالمرأة التي وهبَتْ نفسها، من غير شهود، ولا مهر، وهذا خاصٌّ بالنبي عليه الصلاة والسلام أيضًا.

الوجه الثالث من الخطاب في القرآن: أن يكون موجَّهًا إلى الرسول عليه الصلاة والسلام، لكنه نافذ إلى جميع الأمة، كقوله ﷻ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ [هود: ١١٤]، وهذا وإن كان الخطاب فيه إلى النبي عليه الصلاة والسلام، لكن يقصد به جميع الأمة؛ لأن إقامة الصلاة ليست خاصَّة بالنبي عليه الصلاة والسلام، وكقوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١]، وهذا خطابٌ للنبي عليه الصلاة والسلام لكنَّه عامٌّ؛ لأنه قال: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ﴾، فهذا يدلّ على أنه عام لجميع الناس، فإذا احتجاجهم بهذه الآية من الخطاب الموجَّه للنبي عليه الصلاة والسلام، والذي يُراد به النبي عليه الصلاة والسلام من بعده، فقوله تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡ﴾، عامٌّ للرسول عليه الصلاة والسلام ولمن بعده من الخلفاء.

وعندما ارتدَّ منِ ارتدَّ من العرب ـ على الوجوه الثلاثة التي ذكرناها ـ



تجهَّزَ أبو بكر لقتال هؤلاء المرتدِّين بأصنافهم، فالصحابة قاتلوا المرتدِّين بجميع أصنافهم، قاتلوا مسيلمة وقتلوه، وقتلوا طائفة من قومه، واسترقُّوا نساءهم، ومنهم استولد علي بن أبي طالب من بني حنيفة ابنه الذي يقال له: محمد بن الحنفية، وقاتلوا أيضًا الذين ارتدُّوا إلى الشرك، وقاتلوا من ارتدَّ بترك فريضة الزكاة، فمن ارتدَّ بترك فريضة الزكاة: إذا كان عن إنكار وجحودٍ لهذه الفريضة يكون كافرًا، وأما إذا كان قد ترك فريضة الزكاة لا عن جحود، وإنما عن بغي وعصيان، فهؤلاء يدخلون في أهل البغي، يقاتلون قتال أهل البغي، والصحابة قاتلوا جميع الطوائف كما قلنا.

فعمر رضي الله عنه لما تجهَّز أبو بكر لقتال هذه الطائفة التي تشهد ألا إله إلا الله، وأنَّ محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، لكنها لا تزكِّي، قال لأبي بكر: كيف تقاتلهم وهم يشهدون أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ويصلُّون؟! وذكر له عمر طرف الحديث، لكن هذا الحديث الذي رواه عمر هنا، هل رواه على جهة البسط أو جهة الاختصار؟ رواه على جهة الاختصار؛ لأن حديث ابن عمر الذي بعده بسط فيه القول، فأراد عمر أن يستدلَّ بأول الحديث على أن تارك الزكاة لا يقاتل، فقال له أبو بكر: «والله لأقاتلنَّ من فرَّق بين الصلاة والزكاة» التفريق يكون في العمل ويكون في الإيمان، فمن فرَّق في الإيمان يكون كافرًا، إذا آمن بفريضة وكفر بفريضة واحدةٍ من فرائض الإسلام، يكون خارجًا عن الملَّة، لا ينفعه إيمانه بما سبق، مثل من آمن برسول وكفر ببقيتهم، أو من آمن بالرسل أجمعين، وكفر بعيسى بن مريم، هل ينفعه إيمانه؟ لا ينفعه إيمانه.

وأما من فرَّقَ في العمل بأن عمل بعض الفرائض وترك بعضها، فإنه يقاتَل؛ لأن إجماع أهل العلم ـ ومنهم الصحابة ـ أن من تمالأ هو وقومه على



ترك فريضة من فرائض الإسلام؛ أنه يقاتَل حتى يؤدِّيها، بل ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أن قول جمهور أهل العلم: أن من ترك سنَّة مؤكَّدة يقاتل[1]، يعني إذا ثبت أن أهل قريةٍ ما، اجتمعوا على ترك سنة الفجر، أو على ترك الوتر عن تعمُّد جميعًا، وتمالؤوا على ذلك، فإنهم يقاتلون حتى يقوموا بهذا الشعيرة؛ لأنه هناك فرقًا بين إنسان يتركها، وبين أناس يتواصوْن على تركها، أو يغلب هذا فيهم، حتى لا يعرف، فهذا من ترك بعض الدين، وبعض الإسلام، حكاه عن جمهور أهل العلم.

قوله: «**وَاللهِ لَوْ مَنَعُونِي عِقَالًا**» هكذا جاءت في رواية مسلم والبخاري، والعقال: هو ما يُشدُّ به البعير لئلا يقوم، وجاء في رواية البخاري: «**عِنَاقًا**» وهي أنثى المعز الصغير، وفي هذا: أن من وجب عليه حق المال ـ وهو الزكاة ـ وطالبه به الإمام، وجب عليه أن يؤدِّيه، وإذا امتنع حلَّ للإمام أن يقاتله، ولو كان شيئًا يسيرًا: عقالًا أو عناقًا..

وفيه فائدة أيضًا: أن أولاد الغنم تحسب مع الغنم، لأنه قال: «لو منعوني عِنَاقًا» يعني لو أن إنسانًا يملك أربعين شاة كلها من السخال، كلها من أولاد المعز مثلاً، تجب فيها الزكاة، وتخرج من سطة المال، لا من الكريم، ولا من الخسيس، بل من الوسط.

قوله: «**فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه: فَوَاللهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْتُ...**» عمر رضي الله عنه لما رأى طمأنينة أبي بكر لقتال هؤلاء، ورأى قوَّته ومُضِيَّهُ على هذا الأمر، بدون تردُّد ولا شك، عند ذلك انشرح صدره، وقال: «**فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْحَقُّ**» يعني بالحُجَّة لا بالتقليد؛ لأن الرواية التي بعدها: «**وَيُقِيمُوا**

(١) «مجموع الفتاوى» (الجزء ٢٨).



الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ...» وهذا فيه ردٌّ على الرافضة الذين يقولون: إن عمر قد قلَّد أبا بكر في هذه المسألة! ولم يتبعه على دليل! والصواب أنه عن دليل، وهو الحديث الذي بعده، فهو قد اتَّبعه بعد أن عرف أنه الحق، عن دليل لا عن تقليد.

وفي الحديث من الفوائد: أن الناس يعاملون بالظاهر، يعني إذا رأينا إنسانًا يشهد الشهادتين، ويصلِّي، ويزكِّي، ويصوم، فإننا نعتبره مسلمًا، هذا العمل الظاهر هو الإسلام، الذي يُعصَمُ به الدمُ والمالُ، وهذا نصّ حديث رسول الله ﷺ، لكن إن تبيَّن لنا أنا هذا الذي يصلِّي ويصوم ويشهد الشهادتين زنديقًا، بمعنى أنه يظهر الإسلام ويبطن الكفر، فماذا يكون حدُّه؟ حدُّه القتل. وهل له توبة؟ [1] على الصحيح الذي رجَّحه الإمام أحمد، وغيره من العلماء، أنه ليس له توبة؛ لأن توبته أن يقول: أنا أقيم الصلاة، وأزكِّي، وأشهد الشهادتين، وهو كان في السابق كذلك، ولهذا قالوا: لا تُقْبل توبته، لماذا؟ لأنه يعود إلى إخفاء الكفر وإظهار الإسلام، ولهذا لا تُقبل توبة المنافق الذي يُبْطِنُ الكفر ويظهر الإسلام.

** ** **

(١) «الصارم المسلول» (ص ٣٥٣ - ٣٦١) لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى.



باب من قتل رجلاً من الكفار بعد أن قال: لا إله إلا الله

(٦) عَنْ الْمِقْدَادِ بْنِ الْأَسْوَدِ أَنَّهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَرَأَيْتَ إِنْ لَقِيتُ رَجُلًا مِنْ الْكُفَّارِ فَقَاتَلَنِي، فَضَرَبَ إِحْدَى يَدَيَّ بِالسَّيْفِ، فَقَطَعَهَا، ثُمَّ لَاذَ مِنِّي بِشَجَرَةٍ، فَقَالَ: أَسْلَمْتُ لِلَّهِ، أَفَأَقْتُلُهُ يَا رَسُولَ اللهِ بَعْدَ أَنْ قَالَهَا؟ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا تَقْتُلْهُ» قَالَ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّهُ قَدْ قَطَعَ يَدِي، ثُمَّ قَالَ ذَلِكَ بَعْدَ أَنْ قَطَعَهَا أَفَأَقْتُلُهُ؟ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «لَا تَقْتُلْهُ، فَإِنْ قَتَلْتَهُ فَإِنَّهُ بِمَنْزِلَتِكَ قَبْلَ أَنْ تَقْتُلَهُ، وَإِنَّكَ بِمَنْزِلَتِهِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ كَلِمَتَهُ الَّتِي قَالَ».

أَمَّا الْأَوْزَاعِيُّ وَابْنُ جَرِيرٍ فَفِي حَدِيثِهِمَا قَالَ: «أَسْلَمْتُ للهِ» وَأَمَّا مَعْمَرٌ فَفِي حَدِيثِهِ: «فَلَمَّا أَهْوَيْتُ لِأَقْتُلَهُ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ».

❖ **الشرح:**

ذكر المنذري في هذا الباب ثلاثة أحاديث:

أولها: حديث المقداد بن الأسود، وهو المقداد بن عمرو، والأسْوَد كان قد تبنَّاه في الجاهلية، أما أبوه الحقيقي: فاسمه عمرو، وهو صحابي مشهور، شهد بدرًا فارسًا، ولم يثبت أنه ممن شهدها فارسًا غيره، توفي سنة ثلاث وثلاثين.

قوله: «**يَا رَسُولَ اللهِ أَرَأَيْتَ إِنْ لَقِيتُ رَجُلًا مِنْ الْكُفَّارِ..**» فيه السؤال عن شيء لم يحدثْ بعد، لكن لما كان هذا الأمر متوقَّعًا، ويمكن حدوثه للمجاهدين، لم ينكر الرسول عليه الصلاة والسلام على المقداد هذا السؤال،



وكان من عادته عليه الصلاة والسلام أن ينكر المسائل التي لم تحدث، المسائل المستبعدة أو القبيحة(١).

قوله: «**فَقَاتَلَنِي فَضَرَبَ إِحْدَى... يَا رَسُولَ اللَّهِ بَعْدَ أَنْ قَالَهَا؟**» هذا غاية التصوير لضرر هذا المشرك، الذي ضرب إحدى يدي المقاتل المسلم، ثمَّ فرَّ بعد أن انقطعت حيلته، فلما رأى أنه مأخوذ قال: «لا إله إلا الله».

قوله: «**فَإِنْ قَتَلْتَهُ فَإِنَّهُ بِمَنْزِلَتِكَ قَبْلَ أَنْ تَقْتُلَهُ، وَإِنَّكَ بِمَنْزِلَتِهِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ كَلِمَتَهُ الَّتِي قَالَ**» قال الشافعي وابن القصار(٢): وقيل: إنَّ هذا من أحسن الأجوبة: أن معنى «**فَإِنَّهُ بِمَنْزِلَتِكَ**» يعني معصوم الدم بهذه الكلمة، وهي كلمة «لا إله إلا الله» وقد مرَّ معنا في الباب السابق الكلام على قوله ﷺ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**».

قوله: «**وَإِنَّكَ بِمَنْزِلَتِهِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ كَلِمَتَهُ الَّتِي قَالَ**» يعني أنت تصير غير معصوم الدم، بل يحقُّ عليك القصاص. وقال القاضي: إن معنى هذه الكلمة «**وَإِنَّكَ بِمَنْزِلَتِهِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ كَلِمَتَهُ الَّتِي قَالَ**» يعني في عدم تحريم الإثم والمعاصي؛ لأن المشرك لا يحرم الآثام، ولا المعاصي والذنوب، ويستبيحها، لا سيما القتل؛ لأن القتل من أخلاق الكفار، فيكون المعنى: «فإن قتلته فإنه بمنزلتك» يعني في تحريم الآثام والمعاصي «**وَإِنَّكَ بِمَنْزِلَتِهِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ كَلِمَتَهُ الَّتِي قَالَ**» يعني لا تحرم الآثام والمعاصي.

** ** **

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (١/٢٣٥).

(٢) «شرح مسلم للنووي» (٢/١٠٦ - ١٠٧).



(٧) عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ ﷺ قَالَ: بَعَثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي سَرِيَّةٍ فَصَبَّحْنَا الْحُرَقَاتِ مِنْ جُهَيْنَةَ، فَأَدْرَكْتُ رَجُلًا فَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَطَعَنْتُهُ، فَوَقَعَ فِي نَفْسِي مِنْ ذَلِكَ، فَذَكَرْتُهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَقَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَقَتَلْتَهُ؟» قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّمَا قَالَهَا خَوْفًا مِنْ السِّلَاحِ! قَالَ: «أَفَلَا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ أَقَالَهَا أَمْ لَا؟» فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا عَلَيَّ حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنِّي أَسْلَمْتُ يَوْمَئِذٍ، قَالَ: فَقَالَ سَعْدٌ: «وَأَنَا وَاللهِ لَا أَقْتُلُ مُسْلِمًا حَتَّى يَقْتُلَهُ ذُو الْبُطَيْنِ، يَعْنِي أُسَامَةَ، قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: أَلَمْ يَقُلْ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾؟ [البقرة: ١٩٣]، فَقَالَ سَعْدٌ: قَدْ قَاتَلْنَا حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ، وَأَنْتَ وَأَصْحَابُكَ تُرِيدُونَ أَنْ تُقَاتِلُوا حَتَّى تَكُونُ فِتْنَةٌ!

❖ **الشرح:**

هذا هو الحديث الثاني في الباب، وهو حديث أسامة.

عن أسامة بن زيد: هو ابن حارثة الكلبي، الصحابي الشهير الأمير، حِبُّ رسول الله ﷺ وابن حِبِّه، وأمُّهُ: أم أيمن حاضنة النبي ﷺ، استعمله الرسول ﷺ على جيشٍ فيه أبو بكر وعمر، فلم ينفذ حتى توفي رسول الله ﷺ، فبعثه أبو بكر إلى الشام، مات بالمدينة سنة ٥٤هـ.

في حديث أسامة بن زيد هذا: تأكيدٌ لحديث المقداد بن الأسود، وهي واقعة وقعتْ على عهد النبي عليه الصلاة والسلام، وذلك أن الصحابة بعثهم النبي عليه الصلاة والسلام في سريَّةٍ.



قوله: «فَصَبَّحْنَا الْحُرَقَاتِ مِنْ جُهَيْنَةَ» صبحناهم يعني: أغرنا عليهم عند الصبح، وهذا وقت غفلة ومباغتة، يباغت بها العدو.

قوله: «فَأَدْرَكْتُ رَجُلًا.. فَوَقَعَ فِي نَفْسِي مِنْ ذَلِكَ...» يعني بعد أن قال الكلمة، طعنه أسامة، أي: بعد أن شهد الشهادة، وهو من المشركين؛ لأنهم قد بعثهم النبي عليه الصلاة والسلام لغزوهم، فحاكَ في نفس أسامة بن زيد هذا الذنب، فذكره للرسول عليه الصلاة والسلام.

وفي رواية صفوان بن محرز: أن البشير هو الذي أخبر النبي عليه الصلاة والسلام بالذي حصل، والجمع بينهما: أن البشير قد سبق أسامة بالخبر، ثم إن أسامة قد حدّث النبي عليه الصلاة والسلام وسمع منه مباشرةً.

قوله: «قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَفَلَا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ أَقَالَهَا أَمْ لَا؟» يعني أقالها مختارًا لها، مريدًا قاصدًا لها، أم أنه قالها خوفًا من السلاح؟! وهذا يؤخذ منه قاعدة أصوليّة عظيمة، ألا وهي: أن الناس يؤخذون بالظواهر، وأما السرائر فنكِلُها إلى الله ﷻ، وهذا الذي سار عليه الخلفاء الراشدون، فعمر رضي الله عنه كان يخطب في الناس ويقول: «إن إناسًا كانوا يؤخذون بالوحي على عهد رسول الله ﷺ، فمن أظهر لنا خيرًا أمنَّاه وقرَّبناه، وليس إلينا في سريرته شيء، الله يحاسبه في سريرته، ومن أظهر لنا سوءًا لم نؤمِّنه، ولم نصدّقه، وإن قال: إن سريرته حسنة»[1].

فعمر رضي الله عنه كان يعامل الناس بالظواهر، وأما السرائر فلا يعلمها إلا الله، لا يطلع على ما في القلوب إلا علَّام الغيوب، فأنكر النبي عليه الصلاة والسلام قتله بعد أن قال: لا إله إلا الله؛ لأنها معاملة بغير الظاهر.

---

(١) رواه البخاري (٢٦٨٠).



قوله: «فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا عَلَيَّ حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنِّي أَسْلَمْتُ يَوْمَئِذٍ...» لأن الإسلام يَجُبُّ ما قبله، وتمنى أسامة أنه لم يكن قد أسلم قبل، حتى يكون من المسلمين الجدد الذين لم يكتب عليهم ذنب.

وفي الحديث: أن النبي عليه الصلاة والسلام لم يقتصَّ من أسامة، والذي دفع القصاص عنه هو التأويل، وقال في الحديث الأول للمقداد: «وَإِنَّكَ بِمَنْزِلَتِهِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ كَلِمَتَهُ الَّتِي قَالَ» يعني غير معصوم الدم.

أما الكفارة والدية: فلا دليل على سقوطها عن أسامة، يعني لا دليل في الحديث على سقوط الكفارة عن أسامة ، ولا الدية. وإن قيل: لِمَ لَمْ يذكرْها النبي عليه الصلاة والسلام في هذا الحديث؟ قلنا: إنَّ الكفارة والدية غير ساقطتين عن أسامة، أما الكفَّارة فإنها تجب على التراخي، وما كان على التراخي ففي قول كثير من الأصوليين: «يجوز تأخير البيان إلى وقت الحاجة إليه» أما الدية فلعلَّ أسامة كان معسرًا في ذلك الوقت، فلذلك لم يأمره النبي عليه الصلاة والسلام أن يخرجها في الحال؛ لأن هذا الرجل له حكم المسلم؛ لأنه قال: لا إله إلا الله، ثم قتله أسامة، فتجب فيه دية المسلم لا دية الكافر أو المعاهَد، بل دية المسلم.

قوله: «فَقَالَ سَعْدٌ: «وَأَنَا وَاللهِ لَا أَقْتُلُ مُسْلِمًا حَتَّى يَقْتُلَهُ ذُو الْبُطَيْنِ» هذا قاله سعد بن أبي وقَّاص كما قال الشرَّاح، وأنه بعد أن حصَلَتْ هذه الحادثة لأسامة، فإن أسامةَ كان شديد التحرُّزِ عن الدماء، فكان سعد يقول: «أنا لا أقتل مسلمًا، حتى أرى أسامة يستبيح دمه»؛ لأن أسامة حَصَلتْ معه هذه الواقعة، فهو شديد التحرُّز عن أن يقتل معصوم الدم.



قوله: «ذُو الْبُطَيْنِ» هو وصف لأسامة، لعله كان ذو بطن أو كِرشٍ، فوصفه بذلك.

قوله: «قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: أَلَمْ يَقُلْ اللهُ تَعَالَى» وهذا في أيام الحرب بين معاوية وعلي ﵄، والفتن التي حصلت في ذلك العصر، «فَقَالَ سَعْدٌ: قَدْ قَاتَلْنَا حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ...» والفتنة هنا في الآية فسَّرها بعض المفسِّرين: بالشرك، فيكون معنى الآية: وقاتلوهم حتى لا يكون في الأرض شرك؛ لأن الشرك أعظم جريمة على وجه الأرض، فأمر الله ﷻ أن يقاتل الناس حتى لا يكون شركٌ على وجه الأرض.

وقال آخرون: «الفتنة» هي قوة الكفار على فتنة المسلمين عن دينهم، فمعنى الآية: فقاتلوهم حتى لا يكون للكفار قوَّة، ولا دولة، ولا صولة، يصدون بها الناس عن الإسلام، وهذا أيضًا معنى حسن، موافق للمعنى الأول تقريبًا.

قوله: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ يعني يكون الإسلام هو الحاكم في الأرض، وله الكلمة في الأرض.

قوله: «قَدْ قَاتَلْنَا» يعني على عهد النبي ﷺ.

قوله: «وَأَنْتَ وَأَصْحَابُكَ» يريد الذين يدخلون في الفتن، ويشاركون في القتال، فقال: تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة، يعني: لم يمدح القتال الذي حصل في الفتن، وهذا لعله من الأدلة أن سعدًا كان معتزلًا لما حصل بين الصحابة، وهناك كثير من أكابر الصحابة اعتزلوا القتال، كابن عمر، وأبي بكرة نفيع بن الحارث، وأبي سعيد الخدري، وأبي ذرّ، وغيرهم ممن اعتزلَ، ولم يدخل في هذه الأحداثِ، وترك كلا الطرفين ولم يشارك.

(٨) عَنْ صَفْوَانَ بْنِ مُحْرِزٍ أَنَّ جُنْدَبَ بْنَ عَبْدِ اللهِ الْبَجَلِيَّ بَعَثَ إِلَى عَسْعَسِ بْنِ سَلَامَةَ زَمَنَ فِتْنَةِ ابْنِ الزُّبَيْرِ، فَقَالَ: اجْمَعْ لِي نَفَرًا مِنْ إِخْوَانِكَ حَتَّى أُحَدِّثَهُمْ، فَبَعَثَ رَسُولًا إِلَيْهِمْ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا جَاءَ جُنْدَبٌ وَعَلَيْهِ بُرْنُسٌ أَصْفَرُ، فَقَالَ: تَحَدَّثُوا بِمَا كُنْتُمْ تَحَدَّثُونَ بِهِ حَتَّى دَارَ الْحَدِيثُ، فَلَمَّا دَارَ الْحَدِيثُ إِلَيْهِ حَسَرَ الْبُرْنُسَ عَنْ رَأْسِهِ فَقَالَ: إِنِّي أَتَيْتُكُمْ وَلَا أُرِيدُ أَنْ أُخْبِرَكُمْ إِلَّا عَنْ نَبِيِّكُمْ ﷺ، إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعَثَ بَعْثًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى قَوْمٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَإِنَّهُمْ الْتَقَوْا، فَكَانَ رَجُلٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِذَا شَاءَ أَنْ يَقْصِدَ إِلَى رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَصَدَ لَهُ فَقَتَلَهُ، وَإِنَّ رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَصَدَ غَفْلَتَهُ، قَالَ وَكُنَّا نُحَدَّثُ أَنَّهُ أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، فَلَمَّا رَفَعَ عَلَيْهِ السَّيْفَ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَقَتَلَهُ، فَجَاءَ الْبَشِيرُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَسَأَلَهُ فَأَخْبَرَهُ خَبَرَ الرَّجُلِ كَيْفَ صَنَعَ، فَدَعَاهُ فَسَأَلَهُ فَقَالَ: «لِمَ قَتَلْتَهُ؟» فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَوْجَعَ فِي الْمُسْلِمِينَ، فَقَتَلَ فُلَانًا وَفُلَانًا، وَسَمَّى لَهُ نَفَرًا، وَإِنِّي حَمَلْتُ عَلَيْهِ، فَلَمَّا رَأَى السَّيْفَ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَقَتَلْتَهُ» قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: «فَكَيْفَ تَصْنَعُ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ إِذَا جَاءَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟» قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اسْتَغْفِرْ لِي، قَالَ: «فَكَيْفَ تَصْنَعُ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ إِذَا جَاءَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟» قَالَ: فَجَعَلَ لَا يَزِيدُهُ عَلَى أَنْ يَقُولَ: «فَكَيْفَ تَصْنَعُ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ إِذَا جَاءَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟».

* * *

❖ **الشرح:**

وأما الحديث الثالث في هذا الباب، فهو حديث جندب بن عبد الله البجلي، يُكنى أبا عبد الله، له صحبة، وربَّما نسب إلى جده سفيان، وقال خليفة: مات في فتنة ابن الزبير، مات بعد الستين، روى له الستة.

ومن الفوائد في هذا الحديث: أنه يستحبُّ للرجل العظيم الكبير الشريف الرئيس في قومه، أن ينصح قومه إذا رأى فيهم الخطأ، أو رأى فيهم إرادة الشرِّ؛ لأن جندبًا حثَّ إلى رجل يقال له: عسعس بن سلامة، زمن فتنة ابن الزبير (أي: القتال الذي حصل بين ابن الزبير وبين الأمويين) ليجمع له الناس لنصيحتهم.

قوله: «**حَتَّى أُحَدِّثَهُمْ**» أراد أن يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر.

قوله: «**الْبُرْنُسَ**» هو الثوب الذي يلتصق به غطاء الرأس، كالدراعة أو الجبة، أو غير ذلك.

قوله: «**فَكَيْفَ تَصْنَعُ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**» يعني ما عُذرُك في استباحة دمِ هذا الرجل، وقد قال: لا إله إلا الله؟ وكيف تدفع هذه الكلمة إذا جاءت في ميزانه، وفي صحيفته يوم القيامة، وقد أسلم؟

فجندب بن عبد الله البجلي حدَّث بهذا الحديث زمن فتنة ابن الزبير ليخوِّف الناس من استباحة دم المسلم؛ لأن القتال حاصل بين ابن الزبير وعبد الملك بن مروان، وكلا الطرفين من أهل كلمة: لا إله إلا الله، فأراد أن يعظهم ويخوِّفهم بهذا الحديث، الذي حفظه عن أسامة، أو حضره على عهد النبي عليه الصلاة والسلام.

** ** **



باب: من لقي الله تعالى بالإيمان غير شاك فيه دخل الجنة

(٩) عَنْ عُثْمَانَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ».

❖ **الشرح:**

ذكر المنذري تحت هذا الباب ستَّة أحاديث:

الأول: هذا الحديث فيه: أولًا: فضل الشهادة، وأنها كلمة الإسلام العظيمة، وكلمة التوحيد التي يدخل بها العباد إلى دين الإسلام، وأن هذه الكلمة هي أوَّل واجب على العبيد، لا النظر، ولا القصد إلى النظر، كما قال المتكلِّمة، بل أول واجب يجب على العبيد، هو قول: لا إله إلا الله، وهذه الكلمة من فضلها أنها تُكفِّر عن صاحبها ذنبه، فيغفر الله سبحانه وتعالى لأهل التوحيد ما لا يغفره لغيرهم.

وليست هذه الكلمة حجّة للمرجئة الذين قالوا: إن الإيمان هو التصديق والإقرار باللسان فقط، خلافًا لأهل السنة القائلين: إن الإيمان تصديق بالجنان، وقول باللسان، وعمل بالأركان، هذا الحديث ليس حجة لهم؛ لأن المرجئة قالوا: إن هذا الحديث يدل على ما قلناه من أن الإقرار يكفي لدخول العبد الجنة، وأن المعاصي لا تضرُّ مع الإيمان! وهذا قول فاسد؛ لأن مقتضى هذا القول: إلغاء النصوص الكثيرة الواردة بذكر الأعمال داخلة في مسمى الإيمان، كقول الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال]، فجعل لأهل الإيمان أعمالًا، فدلَّ هذا على أن الأعمال في مسمى الإيمان، وكذلك قول الرسول ﷺ: «**الإيمان بضع وستُّون شعبة، أعلاها: قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**» فالعلم من الإيمان، ولا يجوز أن يقال: إن الأعمال ليست من الإيمان؛ لأن هذا القول فيه ردٌّ لنصوص القرآن والسنة، والذي يجب على كل مسلم أن يجمع بين النصوص، وأن يتلقَّاها جميعًا بالقبول، فلا يأخذ منها شيئًا ويترك شيئًا، وهذه عادة أهل الأهواء، وهي صفة لازمة لهم، فما من فرقة من فرق أهل الأهواء إلا وتجدها قد أخذتْ شيئًا وتركتْ أشياء، إلا أهل السنة كما قال عبد الرحمن بن مهدي: «ما من طائفة أو فرقة إلا وتذكر الذي لها، ولا تذكر الذي عليها، إلا أهل السنة، فإنهم يذكرون الذي لهم والذي عليهم»، وهذا من إنصافهم رحمهم الله أنهم يذكرون جميع ما ورد في المسألة من نصوص، ثم يوفقون ويجمعون بينها.

وهذا الحديث لو أخذناه، وتركنا ما جاء في الكتاب والسنة؛ لأهملنا كثيرًا من دلالات النصوص، لكن لا بد أن نجمع بينه وبين بقيَّة النصوص؛ ليكون الفهمُ صحيحًا تامًا، فقال أهل السنة: هذا الحديث له عدَّة محامل.

فقوله: «**مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ**» قالوا: إما أن يكون هذا قبل أن تنزل الفرائض، والرسول عليه الصلاة والسلام كان في مكة، فيقول للناس: «**قولوا لا إله إلا الله تفلحوا**» هذه دعوته عليه الصلاة والسلام في مكة، لم يُحَرِّم عليهم الزنا، ولم يحرِّم عليهم الخمرَ، ولم يحَرِّم عليهم الربا، وما نزلت هذه الفرائض وتمَّت إلا في المدينة بعد أن استقرَّ الإيمان في قلوب الناس، أما قبل ذلك؛ فلم تكن هذه الفرائض، إذًا

يحمل على أن هذا كان قبل نزول الفرائض.

وهناك وجهٌ آخر أن قوله: «**مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ**» هذا الرجل لم يقدر على غير النطق بالشهادتين، فيحمل في حقِّ من لم يقدر على غير كلمة التوحيد، إما أنه قالها ومات، أو أنه لم يبلغه من الإسلام إلا هذه الكلمة فآمن بها، كما جاء في حديث حذيفة ﵁، يقول: قال رسول الله ﷺ: «**يدرس الإسلام كما يدرس (أي ينمحي) وَشْيُ الثوب، حتى لا يعلم صلاة، ولا صدقة، ولا صيام، ويبقى طوائف من الناس يقولون: أدركنا آباءنا يقولون: لا إله إلا الله، فنحن نقول هذه الكلمة**» فقال له جليسه: فما تنفعهم هذه الكلمة؟ قال: بلى تنفعهم، بلى تنفعهم(١).

فيكون هذا الحديث، كحديث الرجل الذي جاء إلى النبي عليه الصلاة والسلام ـ والحديث في صحيح مسلم ـ فقال: يا رسول الله أسلم أو أقاتل؟ قال: «**أسلم ثم قاتل**» رجل مقنع بالحديد جاء إلى النبي ﷺ، فقال: هل أدخل المعركة ثم أسلم، أم أني أسلم ثم أقاتل؟ فقال له ﷺ: «**بل أسلم ثم قاتل**»، أي: لأنك إن قتلت على غير الإسلام؛ متَّ كافرًا، ولا ينفعك نصرك للإسلام بغير إسلام(٢)، فإن الله ﷻ يؤيِّد هذا الدين بالرجل الفاجر، وهذا من آيات الله، أنه يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر الذي لا إيمان له، فأسلم الرجل ثم قاتل فقتل، فقال عليه الصلاة والسلام: «**عمل قليل، وأُجِرَ كثيرًا**» ما صلى، ولا صام، ولا أدَّى غير الجهاد في سبيل الله.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٠٤٩) بنحوه.

(٢) وهذا من حرص نبي الهدى والرحمة على تصحيح الأعمال والاعتقاد، ولو في أشدِّ الحاجة إلى الأفراد لنصرة دين الإسلام، فلم يكن همُّه تجميع الناس دون تصحيحٍ لاعتقاداتهم، فتأمَّل!.



وله محمل ثالث: وهو أن «**مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ**» إن كان من أهل المعاصي وهو موحِّد، فإن الله ﷻ سيغفر له، كما في حديث البطاقة: «**أن رجلًا يأتي يوم القيامة بسجلَّات من الذنوب مدَّ البصر، ويجاء له ببطاقة كتب عليها: لا إله إلا الله، فيقول: يا رب، وما تنفع هذه البطاقة مع هذه السجلَّات؟ فيقول: إنك لا تُظلم اليوم شيئًا، فتوضع السجِلَّات في كفة، والبطاقة في كفة، فطاشتِ السجلات، وثقلت البطاقة، ولا يثقل مع اسم الله شيء**».

وهكذا هنا هذا في الحديث «**مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ...**» محمولٌ على أن الله ﷻ قد تجاوز لهذا الإنسان عن ذنوبه وخطاياه وغفر له، وأدخله بهذه الكلمة الجنة، أو أن الله ﷻ أخرجه من النار بعد أن دخلها، بتوحيده، وبشفاعة الشافعين، من المؤمنين أو النبيين، أو الملائكة، فإنهم يشفعون يوم القيامة، فيكون دخل الجنة بعد مجازاته، يعني من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة، وإن جوزي قبل ذلك - يعني قبل دخوله الجنة - بتعذيبه بالنار وتطهيره بها، فإنه لا بد أن يدخل الجنة.

وهذا هو مذهب أهل السنة في هذه المسألة، وهو: أن أهل التوحيد لا يخلدون في نار جهنم، خلافًا لأهل الاعتزال والخروج، فالخوارج قالوا: إنه إذا عمل كبيرة خرج من الإيمان؛ لأن الإيمان عندهم شيء واحد، إن ذهب بعضه ذهب كلُّه، وأما المعتزلة فقالوا: من عمل كبيرة خرج من الإيمان، ولم يدخل في الكفر، وإنما صار في منزلة بين المنزلتين!! لكن الخوارج والمعتزلة جميعًا يقولون بخلود صاحب الكبيرة في النار، وهذا يخالف ما جاء في الكتاب والسنة وفهم سلف الأمة كما علمت.

(١٠) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، أَوْ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ ﷺ - شَكَّ الْأَعْمَشُ - قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ غَزْوَةِ تَبُوكَ، أَصَابَ النَّاسَ مَجَاعَةٌ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ لَوْ أَذِنْتَ لَنَا فَنَحَرْنَا نَوَاضِحَنَا فَأَكَلْنَا وَادَّهَنَّا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «افْعَلُوا». قَالَ: فَجَاءَ عُمَرُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنْ فَعَلْتَ قَلَّ الظَّهْرُ، وَلَكِنْ ادْعُهُمْ بِفَضْلِ أَزْوَادِهِمْ، ثُمَّ ادْعُ اللَّهَ لَهُمْ بِالْبَرَكَةِ، لَعَلَّ اللهَ أَنْ يَجْعَلَ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «نَعَمْ» فَدَعَا بِنِطَعٍ فَبَسَطَهُ، ثُمَّ دَعَا بِفَضْلِ أَزْوَادِهِمْ، قَالَ: فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَجِيءُ بِكَفِّ ذُرَةٍ، قَالَ: وَيَجِيءُ الْآخَرُ بِكَفِّ تَمْرٍ، قَالَ: وَيَجِيءُ الْآخَرُ بِكَسْرَةٍ حَتَّى اجْتَمَعَ عَلَى النِّطَعِ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ يَسِيرٌ، قَالَ: فَدَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالْبَرَكَةِ، ثُمَّ قَالَ: «خُذُوا فِي أَوْعِيَتِكُمْ» قَالَ: فَأَخَذُوا فِي أَوْعِيَتِهِمْ حَتَّى مَا تَرَكُوا فِي الْعَسْكَرِ وِعَاءً إِلَّا مَلَؤُوهُ، قَالَ: فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا، وَفَضَلَتْ فَضْلَةٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ، لَا يَلْقَى اللهَ بِهِمَا عَبْدٌ غَيْرَ شَاكٍّ فَيُحْجَبَ عَنْ الْجَنَّةِ».

❖ الشرح:

وهو الحديث الثاني في هذا الباب.

أبو هريرة الصحابي الجليل الحافظ، تقدمت ترجمته.

قوله: «لَوْ أَذِنْتَ لَنَا فَنَحَرْنَا نَوَاضِحَنَا» النَّواضح: هي الإبل التي يُسقى عليها الماء، البعير يقال له ناضح، والناقة يقال لها ناضحة، فلما أصابت



الصحابة مجاعة، أرادوا أن ينحروا رواحلهم، ودوابَّهم التي عليها يركبون، فقالوا: «لَوْ أَذِنْتَ لَنَا» ولاحظ كيف أن الصحابة رضي الله عنهم ما كانوا يُقْدِمون على عمل إلا بعد استئذان النبي عليه الصلاة والسلام، وقد يقول قائل: هذه ناقتي وهذا بعيري، وأنا أفعل به ما أشاء! لكن ما كان الصحابة رضي الله عنهم كذلك، وهم خيرة الخلق بعد الأنبياء والمرسلين، بل كانوا لا يقدمون ولا يؤخِّرون شيئًا من الأعمال إلا بعد استئذانه عليه الصلاة والسلام، لا سيما وهم في حالة خروج وغزو، فهم كما أخبر الله تعالى عنهم لما كانوا في الخندق مرابطين، لا يرجع الواحد منهم إلى بيته ليزور أهله إلا بإذن النبي عليه الصلاة والسلام، والخندق قريب من المدينة جدًّا، فقال الله تعالى عنهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ﴾ [النور: ٦٢]، هكذا كان الصحابة رضي الله عنهم مع النبي المصطفى ﷺ.

قوله: «فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «افْعَلُوا» لأنه كان رحيمًا بأمته رؤوفًا، لمَّا رأى حاجاتهم وقرمهم إلى اللحم، أذن لهم في ذلك.

قوله: «فَجَاءَ عُمَرُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنْ فَعَلْتَ قَلَّ الظَّهْرُ» أي: إن أذِنْت لهم بذبح النَّواضح، قلَّتِ الرَّواحل، وفي هذا ضرر بالجيش.

ويؤخذ من هذا: جواز أن يَتَعَقَّب المفضول الفاضل، وأن يستدرك عليه، ولكن بأدب، فلا بأس أن يكون من هو أصغر منك مذكِّرًا لك بأمر مهم، قد تغفل عنه ويغيب عنك، وقد تكون قائدًا سياسيًّا محنَّكًا، وإمامًا في العلوم والدين والشرع، ولكن لا يمنع من أن تستفيد ممن هو أصغر منك سِنًّا، ولا يزال المشايخ يستفيدون من تلاميذهم، وهذا من تواضعهم.

وقد قال الشاعر:

لا تحقرن الرأي وهو موافق حكم الصواب إذا أتى من ناقص
فالدر وهو أعز شيء يقتنى ما حط قيمته هَوانُ الغائص

قوله: «وَلَكِنْ ادْعُهُمْ بِفَضْلِ أَزْوَادِهِمْ» يعني: بما فضل من أزوادهم، يعني: من طعامهم الذي يتزوَّدونه في السفر.

قوله: «ثُمَّ ادْعُ اللَّهَ لَهُمْ بِالْبَرَكَةِ، لَعَلَّ اللهَ أَنْ يَجْعَلَ فِي ذَلِكَ» يعني أن يجعل في ذلك البركة.

قوله: «فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «نَعَمْ» قَالَ: فَدَعَا بِنِطَعٍ» نَطَعَ: لها أكثر من لغة، نِطْع ونَطَع وغير ذلك، والنَّطع: هو بِسَاط من الجلد، أي فدعا ببساط من الجلد.

قوله: «فَبَسَطَهُ، ثُمَّ دَعَا بِفَضْلِ أَزْوَادِهِمْ، قَالَ: فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَجِيءُ بِكَفِّ ذُرَةٍ» حبوب الذرة المعروفة.

قوله: «قَالَ: وَيَجِيءُ الْآخَرُ بِكَفِّ تَمْرٍ، قَالَ: وَيَجِيءُ الْآخَرُ بِكَسْرَةٍ» كسرة خبز، لأنه قد قَلَّ الزاد، وظهر الجوع في جيش الرسول ﷺ.

قوله: «حَتَّى اجْتَمَعَ عَلَى النِّطَعِ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ يَسِيرٌ» دليل على أنهم كانوا قد استنفدوا ما عندهم من طعام.

قوله: «فَدَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالْبَرَكَةِ، ثُمَّ قَالَ: «خُذُوا فِي أَوْعِيَتِكُمْ» قَالَ: فَأَخَذُوا فِي أَوْعِيَتِهِمْ حَتَّى مَا تَرَكُوا فِي الْعَسْكَرِ وِعَاءً إِلَّا مَلَؤُوهُ، قَالَ: فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا، وَفَضَلَتْ فَضْلَةٌ» أي: بعد أكلهم وأخذهم في أزوادهم وأوعيتهم، أكلوا حتى شبعوا، وفضل من ذلك فضلة.



قوله: «فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ» وهذا قاله النبي ﷺ تذكيرًا للناس بهذا الموقف الإيماني، الذي ظهرت فيه آية من آيات الله، وعلامة من علامات النبوة، ودلالة من دلائل الرسالة، قال عند ذلك: «أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله» لأن هذا دليل تأييد من الله ﷻ، فإنه قد أيد نبيه بالآيات التي يسمونها بالمعجزات، والمعلوم أن الله ﷻ إنما يؤيد الصادقين الذين يخبرون بالحق، ولا يفترُون على الله، أما الكذَّاب المفتري فإن الله ﷻ يخذله ولا يؤيده، ومن أعظم الدلائل على صدق نبوة نبيِّنا محمد ﷺ أنه في مدة ثلاثٍ وعشرين سنة يقول: «إني رسول الله» ويؤيده الله وينصره على عدوه، ويكبت من يخالفه، ويؤيده بالنصر والعِزِّ والتمكين والرزق، فهذا من أكبر الأدلة على أنه صادق ﷺ، وأنه لم يقل على الله ﷻ إلا ما أمره الله ﷻ به، قال سبحانه: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة: ٤٤: ٤٧].

ثم انظروا إلى من يَكْذِب على الله، كيف يخذله الله، وكيف يعيش طريدًا؟ وكيف يهزمه ويُزَلزِلُه ويضيِّق عليه الدنيا؟ ولكم في التاريخ عِبَرٌ كثيرة، مسيلمة الكذاب، والأسود العنسي، وغيرهما كثير، وحتى الكذابين في عصرنا لا يمهلون إلا يسيرًا، ثم يأتيهم عذاب الله ﷻ وبطشه وبأسه، لأن الكذب على الله من أقبح الجرائم؛ بل جعله الله في قمة المحرمات، فقال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣].

فالقصَّة إذًا دليل عظيم على نبوَّة محمد ﷺ.

وقوله عليه الصلاة والسلام: «**لَا يَلْقَى اللهَ بِهِمَا عَبْدٌ غَيْرَ شَاكٍّ**» نعلم من ذلك أن من قال: لا إله إلا الله، من غير يقينٍ؛ بل بشك وتردُّد، فإن هذه الكلمة لا تنفعه، فلا بدَّ أن يقولها وهو موقن بها، عالم بمعناها، وإلا فإن قالها جاهلًا بمعناها لم تنفعه فلو أن إنسانًا إنجليزيًا مثلًا، أو فرنسياً قال هذه الكلمة، ولا يعرف معناها، لا تكفي لدخوله في الدين، حتى يعرف معناها ويصدِّق ويوقن ويُقِرَّ، وإلا فإنه لا يتحقَّق له شيء.

وقوله: «**فَيُحْجَبَ عَنْ الْجَنَّةِ**» بشرى عظيمةٌ لأهل التوحيد.

** ** **

(١١) عَنْ الصُّنَابِحِيِّ عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: دَخَلْتُ عليه، وَهُوَ فِي الْمَوْتِ، فَبَكَيْتُ، فَقَالَ: مَهْلًا لِمَ تَبْكِي؟ فَوَاللهِ لَئِنْ اسْتُشْهِدْتُ؛ لَأَشْهَدَنَّ لَكَ، وَلَئِنْ شُفِّعْتُ؛ لَأَشْفَعَنَّ لَكَ، وَلَئِنْ اسْتَطَعْتُ؛ لَأَنْفَعَنَّكَ، ثُمَّ قَالَ: وَاللهِ مَا مِنْ حَدِيثٍ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَكُمْ فِيهِ خَيْرٌ إِلَّا حَدَّثْتُكُمُوهُ إِلَّا حَدِيثًا وَاحِدًا، وَسَوْفَ أُحَدِّثُكُمُوهُ اليَوْمَ، فَقَدْ أُحِيطَ بِنَفْسِي، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، حَرَّمَ اللهُ عليهِ النَّارَ».

❖الشرح:

وهذا هو الحديث الثالث في هذا الباب.

قوله: «**عَنْ الصُّنَابِحِيِّ**» الصنابحي اسمه عبد الرحمن بن عسيله أبو عبد الله، مات النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ قبل أن يَصِلَ إليه الصنابحي بخمس ليالٍ، فالصنابحي ارتحل إلى النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ، فلمَّا وصل المدينة قالوا له: تُوفي الرسول ﷺ قبل خمسِ ليالٍ، فهو من المخضرمين، **والمخضرم**: هو من أسلم في حياة النبي ﷺ ولم يَلْقَهُ، فصار عندنا ثلاث طبقات:

الطبقة الأولى: طبقة الصحابي، وهو من لَقِيَ النبي ﷺ مؤمنًا به، ومات على ذلك.

الطبقة الثانية: المخضرم، وهو من أسلم في حياة النبي ﷺ، ولم يَلْقَهُ.

الطبقة الثالثة: التابعيُّ، وهو من لقي من لقي النبي ﷺ.

فالمخضرمون إذًا أعلى رتبة من التابعين.



قوله: «**عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ أَنَّهُ قَالَ: دَخَلْتُ عليه، وَهُوَ فِي الْمَوْتِ، فَبَكَيْتُ**»: أي بكى على وفاة هذا الصحابي الجليل عُبادة بن الصامت، وله مِنَ الفضائل كثير، وكان مِنْ أشراف الخزرج، وأحد النقباء، شهد بدرًا، ومات بالرملة سنة أربع وثلاثين، وله اثنتان وسبعون، وحديثه في الكتب الستة.

قوله: «**فَقَالَ: مَهْلًا لِمَ تَبْكِي؟ فَوَاللهِ لَئِنْ اسْتُشْهِدْتُ؛ لَأَشْهَدَنَّ لَكَ، وَلَئِنْ شُفِّعْتُ؛ لَأَشْفَعَنَّ لَكَ، وَلَئِنْ اسْتَطَعْتُ؛ لَأَنْفَعَنَّكَ**»: يعني في الآخرة، يقول: إن استطعت أن أفعل ذلك، أفعل إن شاء الله.

قوله: «**ثُمَّ قَالَ: وَاللهِ مَا مِنْ حَدِيثٍ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَكُمْ فِيهِ خَيْرٌ إِلَّا حَدَّثْتُكُمُوهُ إِلَّا حَدِيثًا وَاحِدًا، وَسَوْفَ أُحَدِّثُكُمُوهُ الْيَوْمَ**» الصحابة رضي الله عنهم لم يكتموا العلم، ولم يحجروا شيئًا مما سمعوه من النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ عن الناس، لكن قد يترك الصحابي التحديث ببعض الأحاديث التي لا يفهمها العامة، وهذه الأحاديث ليس فيها حدٌّ من حُدود الله، ولا فريضة من فرائض الله، ولا أمرٌ يتوقف عليه إسلام الناس أو حاجاتهم، وإنما ما قد يتعلق بفضائل الأعمال، أو بقضايا الفتن وأخبار الساعة وعلاماتها، وما أشبه ذلك، يعني أنهم كتموا بعض العلم الذي خافوا بِنَشْرِهِ حُدوث ما يُضَادُّ الخير، من الفتن، وسوء الفهم الذي يدخل الإنسان النار، ونحوه.

قوله: «**وَقَدْ أُحِيطَ بِنَفْسِي**»: يعني: ظننت نزول الموت بي، وخروجي من الدنيا، فأراد أن يخبرهم بهذا الحديث، لئلا يكتم شيئًا سمعه من النبي ﷺ، فيقع في الوعيد الوارد في كتمان العلم[1].

---

(١) وهو قوله: تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ=



قوله: «**مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، حَرَّمَ اللهُ عليهِ النَّارَ**»: عبادة بن الصامت ومعاذ بن جبل، ثبت أنهما كتما هذا الحديث عن الناس خشية سوء الفهم، وقد وقع كما ظننا؛ لأن المرجئة قالوا: يكفي الإقرار، ودليلهم هذا الحديث، وغيره مما يشابهه، والإرجاء لا تظنوا أنه انقطع، كَمْ مِنَ الناس اليوم تُذكِّره بالصلاة، فيقول: أنا الحمد لله مسلم، أشهد أن لا إله إلا الله! وكم من الناس من تُذكِّره: يا أخي لا تأكل الربا، لا تفعل كذا فتصيبك النار، فيقول: أنا مسلم أشهد أن لا إله إلا الله! فيتَّكِلَ على هذه الكلمة ويَدَع العمل! وهذا قد تلاعب به الشيطان، فكان كما قال تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ [النساء] نعوذ بالله تعالى من الغفلة والجهل.

وقد **قال العلماء**: إن هذا الحديث أحد شِقَّي الموجبتين، والموجبتان هما: من مات لا يشرك بالله شيئًا، دخل الجنة، ومن مات وهو يشرك بالله شيئًا، دخل النار.

* * *

= فِي ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾ [البقرة]، وقوله: ﷺ: «**من كتم علمًا، ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار**» رواه ابن حبان، والحاكم، وقال: صحيح لا غبار عليه. «صحيح الترغيب» (١٢١).



(١٢) عن أَبي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: كُنَّا قُعُودًا حَوْلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، مَعَنَا أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ ﵄ فِي نَفَرٍ، فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِنَا، فَأَبْطَأَ عَلَيْنَا، وَخَشِينَا أَنْ يُقْتَطَعَ دُونَنَا، وَفَزِعْنَا فَقُمْنَا، فَكُنْتُ أَوَّلَ مَنْ فَزِعَ؛ فَخَرَجْتُ أَبْتَغِي رَسُولَ اللهِ ﷺ، حَتَّى أَتَيْتُ حَائِطًا لِلْأَنْصَارِ لِبَنِي النَّجَّارِ، فَدُرْتُ بِهِ هَلْ أَجِدُ لَهُ بَابًا فَلَمْ أَجِدْ؛ فَإِذَا رَبِيعٌ يَدْخُلُ فِي جَوْفِ حَائِطٍ مِنْ بِئْرٍ خَارِجَةٍ (وَالرَّبِيعُ الْجَدْوَلُ)، فَاحْتَفَزْتُ كَمَا يَحْتَفِزُ الثَّعْلَبُ، فَدَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «أَبُو هُرَيْرَةَ!» فَقُلْتُ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «مَا شَأْنُكَ؟» قُلْتُ: كُنْتَ بَيْنَ أَظْهُرِنَا فَقُمْتَ، فَأَبْطَأْتَ عَلَيْنَا، فَخَشِينَا أَنْ تُقْتَطَعَ دُونَنَا، فَفَزِعْنَا فَكُنْتُ أَوَّلَ مِنْ فَزِعَ، فَأَتَيْتُ هَذَا الْحَائِطَ، فَاحْتَفَزْتُ، وَهَؤُلَاءِ النَّاسُ وَرَائِي، فَقَالَ: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ!» وَأَعْطَانِي نَعْلَيْهِ، وَقَالَ: «اذْهَبْ بِنَعْلَيَّ هَاتَيْنِ، فَمَنْ لَقِيتَ مِنْ وَرَاءِ هَذَا الْحَائِطِ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُسْتَيْقِنًا بِهَا قَلْبُهُ؛ فَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ»، فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ لَقِيتُ عُمَرُ، فَقَالَ: مَا هَاتَانِ النَّعْلَانِ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟ فَقُلْتُ: هَاتَانِ نَعْلَا رَسُولِ اللهِ ﷺ بَعَثَنِي بِهِمَا مَنْ لَقِيتُ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُسْتَيْقِنًا بِهَا قَلْبُهُ؛ بَشَّرْتُهُ بِالْجَنَّةِ، قَالَ: فَضَرَبَ عُمَرُ بِيَدِهِ بَيْنَ ثَدْيَيَّ فَخَرَرْتُ لِإِسْتِي، فَقَالَ: ارْجِعْ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، فَرَجَعْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَجْهَشْتُ بُكَاءً، وَرَكِبَنِي عُمَرُ، فَإِذَا هُوَ عَلَى أَثَرِي، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا لَكَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟» فَقُلْتُ: لَقِيتُ عُمَرَ فَأَخْبَرْتُهُ بِالَّذِي بَعَثْتَنِي بِهِ، فَضَرَبَ بَيْنَ ثَدْيَيَّ ضَرْبَةً خَرَرْتُ لِإِسْتِي، قَالَ: ارْجِعْ. فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ: «يَا عُمَرُ! مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟» قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي،

أَبَعَثْتَ أَبَا هُرَيْرَةَ بِنَعْلَيْكَ مَنْ لَقِيَ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُسْتَيْقِنًا بِهَا قَلْبُهُ بَشَّرَهُ بِالْجَنَّةِ؟! قَالَ: «نَعَمْ». قَالَ: فَلَا تَفْعَلْ؛ فَإِنِّي أَخْشَى أَنْ يَتَّكِلَ النَّاسُ عَلَيْهَا، فَخَلِّهِمْ يَعْمَلُونَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «فَخَلِّهِمْ».

❖ **الشرح:**

هذا الحديث الرابع في هذا الباب.

قوله: «**عن أَبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: كُنَّا قُعُودًا حَوْلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، مَعَنَا أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ رضي الله عنهما فِي نَفَرٍ**»: يستفاد من هذا: قعود المتعلمين حول المعلم، وأخذهم عنه، واستفادتهم منه، وهكذا كان الصحابة يحيطون بالنبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ، فيحدثهم، ويعلمهم، ويرشدهم.

وفيه أيضًا: حسن إخبار أبي هريرة، وفصاحته، إذ أنه لم يذكر جميع الصحابة الذين كانوا حول النبي ﷺ؛ لأن هذا مما يشق، فذكر أبرزهم فقال: «**مَعَنَا أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ**»، ثم عمَّ الباقين بقوله: «**فِي نَفَرٍ**»، وهذا من دقته أيضًا.

قوله: «**مَعَنَا**»: فيها لغة أخرى، وهي «**مَعْنا**» بتسكين العين، لكن الأشهر بفتح العين.

قوله: «**فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِنَا**»: من بين أظهرنا، يعني: من بيننا، ويقال أيضًا: من بين ظهرانينا، وكلاهما صحيح.

قوله: «**فَأَبْطَأَ عَلَيْنَا**»: يعني تأخر، قام ـ عليه الصلاة والسلام ـ لحاجته، فأبطأ عليهم.

قوله: «**وَخَشِينَا أَنْ يُقْتَطَعَ دُونَنَا، وَفَزِعْنَا فَقُمْنَا**»: وذلك أن الرسول

ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان مستهدفًا من اليهود، والمنافقين، والمشركين، فلما قام من بينهم وأبطأ في الرجوع عليهم، خشي الصحابة أن يكون قد اغتيل، أو مسه سوءٌ، ففزعوا، وقاموا يبحثون عنه ﷺ.

وفيه: إشفاق الصحابة ﷺ على النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وحبُّهم له، والتماس حاجاتِه، فلعله احتاج إلى شيء، فقاموا يبحثون عنه لينفعوه بخير، أو ليصدوا عنه شرًا.

قوله: «**فَكُنْتُ أَوَّلَ مَنْ فَزِعَ؛ فَخَرَجْتُ أَبْتَغِي رَسُولَ اللهِ ﷺ، حَتَّى أَتَيْتُ حَائِطًا لِلْأَنْصَارِ لِبَنِي النَّجَّارِ**»: الحائط هو البستان، وكانوا يحيطون البساتين بالحوائط، فغلب اسم الحائط على البستان، فصاروا يقولون للبستان: (حائط).

وقيل: سُمِّي حائطًا؛ لأنه لا سقْفَ له، والأول أشهر، فوجد بستانًا لبني النجار، وهم أخوال النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ؛ لأن أمه كانت من بني النجار.

قوله: «**فَدُرْتُ بِهِ هَلْ أَجِدُ لَهُ بَابًا فَلَمْ أَجِدْ**»: بحث عن باب لهذا البستان، فلم يجد، لعله ما رآه أو كان في موضع خفي، فلم يرَهُ.

قوله: «**فَإِذَا رَبِيعٌ يَدْخُلُ فِي جَوْفِ حَائِطٍ مِنْ بِئْرٍ خَارِجَةٍ (وَالرَّبِيعُ الْجَدْوَلُ)، فَاحْتَفَزْتُ، فَدَخَلْتُ**»: الربيع على اسم الفصل المعروف، وهو: النهر الصغير، وكذلك الجدول، وكان يأتي من بئر خارجة عن البستان، ويدخل البستان عن طريق فجوة.

قوله: «**فَاحْتَفَزْتُ**» يعني: تضاممت وتصاغرت، حتى أدخل في هذا النفق الصغير الذي يدخل منه الجدول، واستفاد العلماء من ذلك: أنه يجوز للإنسان أن يدخل بستانًا لأخيه إذا غلب على ظنه سماحه بذلك؛ بل قالوا



يجوز له أن يدخل بستانه ومكانه، ويأكل من طعامه، ويشرب من شرابه، ويركب دابته، إذا غلب على ظنه أنه يسمح بذلك بلا حرج، وأنه لا يشق عليه؛ لأن أبا هريرة ما استأذن، ثم النبي ﷺ أقرّه، ولم ينكر عليه، وهذا الإقرار دليل من الأدلة التي يستدل بها في السنة.

قوله: «**فَدَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «أَبُو هُرَيْرَةَ!» فَقُلْتُ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «مَا شَأْنُكَ؟»**» أي: ما خبرك؟

قوله: «**قُلْتُ: كُنْتَ بَيْنَ أَظْهُرِنَا فَقُمْتَ، فَأَبْطَأْتَ... فَقَالَ: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ!»**» ناداه النبي ﷺ باسمه تنبيهًا له، لما سيتكلم به من الأمر المهم، وهي طريقة مستعملة في القرآن كثيرًا، كالنداء بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، أو ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾.

قوله: «**وَأَعْطَانِي نَعْلَيْهِ، قَالَ: «اذْهَبْ بِنَعْلَيَّ هَاتَيْنِ، فَمَنْ لَقِيتَ مِنْ وَرَاءِ هَذَا الْحَائِطِ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُسْتَيْقِنًا بِهَا قَلْبُهُ؛ فَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ»**» الرسول ﷺ أعطى أبا هريرة نعليه؛ لتكون علامة ظاهرة يستدل بها على المتكلم، وأبو هريرة كان مُصَدَّقا عند الصحابة، ومؤتمنًا، ولكن هذا زيادة تأكيد، وعلامة ترجِّح صدق المتكلم.

ويستفاد منها أيضًا: أن العالم الكبير أو الإمام، له أن يعطي رسوله أو نائبه علامةً تدلُّ على صدقه، ككتاب موقع ومختوم ـ مثلًا ـ باسم الإمام، أو أن يكون بخطه المعروف، وهذه كلها براهين يستدل بها على صدق المتكلم، ولو كان الإنسان مصدقًا غير متَّهم بالكذب؛ لكن النفوس جُبِلَتْ على حبِّ البراهين، وعلى حبِّ الشواهد التي تشهد بصدق المتكلم.

قوله: «**مُسْتَيْقِنًا بِهَا قَلْبُهُ؛ فَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ**»: وهذا فيه فائدةٌ لأهل الحق:



أنَّ هذه الكلمة لا تنفع من شكٍّ فيها، كما ذكرنا في الحديث السابق: أن المنافقين كانوا في شك مريب، والله ﷻ ذكر الكفار بهذه الصفة، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾﴾ [سبأ]، فلا تنفع هذه الكلمة من قالها وهو شاك فيها مرتاب؛ بل لابدَّ أن يقولها وهو مستيقن بها من قلبه، أي: يوافق القلب القول، يقول: لا إله إلا الله بلسانه، ويعتقد بها بقلبه، وإلَّا كان هذا القول لا عبرة به، ولا ينفع صاحبه في الآخرة.

قوله: «فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ لَقِيتُ عُمَرُ، فَقَالَ: مَا هَاتَانِ النَّعْلَانِ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟ فَقُلْتُ: هَاتَانِ نَعْلَا رَسُولِ اللهِ ﷺ بَعَثَنِي بِهِمَا مَنْ لَقِيتُ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُسْتَيْقِنًا بِهَا قَلْبُهُ؛ بَشَّرْتُهُ بِالْجَنَّةِ، قَالَ: فَضَرَبَ عُمَرُ بِيَدِهِ بَيْنَ ثَدْيَيَّ فَخَرَرْتُ لِاسْتِي»: ضربه بين ثدييه يعني: على صدره، وهذا دليل على أنه يطلق الثدي على الرجل والمرأة، وجاء ذلك في أكثر من حديث، وضَرْبُ عمرَ لأبي هريرة في صدره؛ لينتبه ويتأكَّد، ولم يقصد عمر أن يضُرَّه أو أن يسقط وراءه، وإنما قصد أن ينبّه ويؤكِّد عليه.

قوله: «فَخَرَرْتُ لِاسْتِي»: يعني: وقعت على دبري، وذكر الاسم الصريح، والذي عليه التعبير والبيان في القرآن والسنة، هو عدم ذكر الأسماء التي يُسْتَحَى منها صراحة، فالله ﷻ قال: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧]، وقال ﷻ: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾ [النساء]، وقال ﷻ: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٧٣]، وقال: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [المائدة: ٦]، فكلُّ هذه ليست أسماء صريحة للجماع؛ لأن هذه الألفاظ تغني عن ذكر الاسم الصريح، ولا لبس ولا إشكال، أمَّا إذا كان



اللفظ يحتمل اللبس والأشكال أو المجاز، فعند ذلك يذكر الاسم الصريح، كقول الله ﷻ: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢]، فذكر الله تعالى الاسم الصريح للفاحشة، وكذلك قول النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ للزاني: «أنكتها» ذكره بالاسم الصريح، لئلا يقع في اللبس والإشكال، وكذا لما سُئل أبو هريرة رضي الله عنه بعد أن حدّث بحديث الرسول ﷺ: «لا يقبل الله صلاة رجل أحدث حتى يتوضأ». قالوا: ما الحدث؟ قال: «فساءٌ أو ضراط»[1] بالاسم الصريح لئلا يقع إشكال، وهنا أبو هريرة قال: «خررت لإستي» ليبين أنه حصل هذا الأمر بالفعل.

قوله: «**فَقَالَ: ارْجِعْ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، فَرَجَعْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَجْهَشْتُ بُكَاءً، وَرَكِبَنِي عُمَرُ، فَإِذَا هُوَ عَلَى أَثَرِي**»: رجع أبو هريرة إلى النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ لما أمره عمر بذلك، وعمر رضي الله عنه كانت له من المنزلةُ والمكانةُ ما لا يخفى عند الصحابة، وكان النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ يشاور أبا بكر وعمر في أمور المسلمين، فلذلك رجع أبو هريرة.

قوله: «**فَأَجْهَشْتُ بُكَاءً**»: وذلك أن الإنسان إذا حزن أو ظلم، أو أصابه شيء وفزع إلى آخر، تجده يتغير وجهه، ويتهيأ للبكاء، ويقال: أجهشت وجهشت.

قوله: «**وَرَكِبَنِي عُمَرُ**»: يعني لحقني عمر وسار على أثري، أثري: يصح فيها الفتح للهمزة والثاء، وكسر الهمزة وإسكان الثاء.

قوله: «**فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا لَكَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟» قُلْتُ: لَقِيتُ عُمَرَ فَأَخْبَرْتُهُ بِالَّذِي بَعَثْتَنِي بِهِ، فَضَرَبَ بَيْنَ ثَدْيَيَّ ضَرْبَةً خَرَرْتُ لِاسْتِي، قَالَ:**

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١/٢٨٢)، ومسلم (٣/١٠٦ـ نووي).



ارْجِعْ. فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَا عُمَرُ! مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟»: لأن عمر كان قد أدركه وسار وراءه مباشرةً، فقال له: لم فعلت ذلك بأبي هريرة؟.

قوله: «**قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، أَبَعَثْتَ أَبَا هُرَيْرَةَ بِنَعْلَيْكَ مَنْ لَقِيَ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُسْتَيْقِنًا بِهَا قَلْبُهُ بَشَّرَهُ بِالْجَنَّةِ؟! قَالَ: «نَعَمْ». قَالَ: فَلَا تَفْعَلْ؛ فَإِنِّي أَخْشَى أَنْ يَتَّكِلَ النَّاسُ عَلَيْهَا، فَخَلِّهِمْ يَعْمَلُونَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «فَخَلِّهِمْ»**»: وفيه فوائد منها: أن الإنسان يجوز له أن يفدي أخاه بالأب والأم، وهذا كثيرًا ما وقع من الصحابة، وتعني فداك أبي أمي.

قوله: «**أَبَعَثْتَ أَبَا هُرَيْرَةَ**» عمر ﷺ أعاد الكلام من أجل أن يتبين ما عنده من رأي، وفي هذا: جواز إبداءِ الرأي من المفضول للفاضل، والرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ سمع من عمر، وفي هذا أن الفاضل العالم الإمام ينبغي له أن يسمع كلام المفضول؛ فإن كان له شبهة على أمره، ردَّ عليه؛ لتكون الطاعة عن قناعة، وينقاد بالحجة والبرهان، والحقُّ أحقُّ أن يُتَّبع، والحق ضالَّةُ المؤمن.

فالرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ لمَّا أمر بهذا الأمر؛ جاء عمر وأبدى ما عنده من رأي، ووافقه النبي ﷺ، فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**فخلِّهم**»، وذلك أن البشرى إذا جاءت للناس، فإن الناس سيتَّكِلُون عليها، فتعجيل البشرى لهم فيه ضرر على أعمالهم؛ لأن الإنسان إذا بُشِّر بهذه البشرى التي هي عمل قليل وأجر عظيم جزيل؛ اتَّكل وضعف عن العمل، وأُعْجِبَ بعمله، والإعجاب بالنفس هلاك، وقد ذكره النبي ـ عليه الصلاة



والسلام ـ في المهلكات الثلاث، فقال: «**ثلاث مهلكات.. منها: إعجاب المرء بنفسه**»[١]، فإذا أعجب الإنسان بنفسه وبعمله هلك، ومن رحمة الله ﷻ بالإنسان أن جعله من أهل الذنوب، ولم يعصِمْهُ من الذنوب مطلقًا؛ لأنه لو عُصم من الذنب؛ لوقع فيما هو من أشدّ الذنوب، كما قال ﷺ: «**لو لم تذنبوا، لخشيت عليكم ما هو أعظم، العُجْب العُجْب**»[٢]. أي: المرء إذا كان دائمًا كلُّ ما يفعله صواب، وكل ما يقوله صحيح، وكل ما يدعو له حقٌّ، ولا يخطئ؛ لأصابه العُجْب بالنفس والكبر؛ لكن الله ﷻ يذلُّ النفوس بالذنوب، فتنكسر بين يديه ﷻ نادمةً خاضعةً، طالبةً العفوَ، والصفح، والمغفرة، وهذا فيه نفع عظيم لنفوس البشر.

وإذا كان الإنسان لا يخطئ ولا يتوب؛ فإنه لن تظهر آثار أسماء الله الحسنى (الغفور، الرحيم، العفوّ، التواب) كل هذه أسماء لها آثار، ولها مقتضيات، فإذا كان الناس لا يذنبون أبدًا لم تظهر آثار هذه الأسماء الحسنى، وجاء في «صحيح مسلم» عن النبي ﷺ قال: «**لو لم تذنبوا؛ لذهب الله بكم، وجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون، فيغفر الله لهم**»[٣]، وقد جاءت أحاديث فيما مضى موافقة لهذه الكلمة كما ذكرنا، وسيأتي أيضًا مثلها.

وفي الحديث أيضًا: أن من العلم ما يجوز كتمانه؛ لأن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ رضي بأن يكتم هذا العلم عن الناس؛ لأنه يضرهم، ولهذا قال العلماء: إن العالم ينبغي له أن يحدث الناس على قدر عقولهم، كما

---

(١) حديث حسن، رواه الطبراني في «المعجم الأوسط»، وانظر: «السلسلة الصحيحة» (١٨٠٢/٤).

(٢) «الترغيب والترهيب» للمنذري.

(٣) (٧٠/١٧ ـ نووي).



قال علي بن أبي طالب: «**حدِّثوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يُكَذَّب الله ورسوله؟**»[(١)]، أي: حدِّثوا الناس على قدر عقولهم، ولا تحدثوهم بما لا تطيقه عقولهم، ولا يفهمونه، فيَقَعُون في تكذيب آيات الله.

وروى مسلم عن ابن مسعود: «**ما أنت محدثًا قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم، إلا كان لبعضهم فتنة**».

وهذا من الحكمة التي أمر الله ﷻ بها في قوله: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، فإذا حدثْنا إنسانًا قد أسلم حديثًا، فإننا نكتم عنه بعض العلم الذي لا يصلح له أن يعلمه الآن، ويُؤخّر حتى يقوى إيمانه، ويشتدَّ عوده ويصلب.

* * *

(١) رواه البخاري في صحيحه (١/٢٢٥) ـ كتاب العلم ـ باب: من خص العلم قوما دون قوم كراهية أن لا يفهموا، تعليقًا بصيغة الجزم، ورواه موصولا أبو نعيم في «المستخرج»، وانظر: «فتح الباري».



(١٣) عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ ﷺ قَالَ: كُنْتُ رِدْفَ النَّبِيِّ ﷺ، لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلَّا مُؤْخِرَةُ الرَّحْلِ، فَقَالَ: «يَا مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ» قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: «يَا مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ» قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: «يَا مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ» قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ، قَالَ: «هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ؟» قَالَ: قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «فَإِنَّ حَقَّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا» ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: «يَا مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ» قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ، قَالَ: «هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ؟» قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ».

❖ **الشرح:**

هذا الحديث الخامس في الباب:

معاذ بن جبل ﷺ هو الأنصاري، أحد علماء الصحابة، بل قال النبي ﷺ: «**أعلمهم بالحلال والحرام معاذ**»[1]. شهد بدرًا وما بعدها، مات بالشام سنة ١٨هـ، روى له الستة.

قوله: «**كُنْتُ رِدْفَ النَّبِيِّ ﷺ، لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلَّا مُؤْخِرَةُ الرَّحْلِ**» الردف: هو الراكب خلف الراكب على الدابة.

وقوله: «**لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلَّا مُؤْخِرَةُ الرَّحْلِ**» دلالة على القرب من النبي - عليه الصلاة والسلام -.

---

(١) حديث صحيح، رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث أنس ﷺ وأوله: «أرحم أمتي بأمتي: أبو بكر».



و«**مُؤْخِرَةُ الرَّحْلِ**» هذا هو اللفظ الأصح، وفيها وجه آخر أيضًا صحيح، وهو: مؤخرة الرحل، بتشديد الخاء والكسر والأول أصح، وهي الخشبة التي يستند إليها الراكب، وتكون خلف ظهره.

قوله: «**فَقَالَ**: «**يَا مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ**» ويصح أن يقول: يا معاذُ بن جبل بالفتح.

قوله: «**قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: «يَا مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ» قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: «يَا مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ» قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ**» نادى النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ معاذًا في هذه المواضع الثلاثة، وسكت بعدها؛ جذبًا لانتباهه، واستحضارًا لقلبه؛ ليسمع العلم النافع عن شوق، وهو من أساليب التعليم المفيدة للمتعلمين.

قوله: «**لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ**» ومعنى لبيك: أي أجيبك إجابة بعد إجابة، وهذا للتأكيد، وسعديك: يعني ساعدت طاعتك مساعدة بعد مساعدة.

قوله «**قَالَ: «هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ؟» قَالَ: قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ**» الحق: هو المتحقق الذي يقع لا محالة، ولذلك يقال للصواب: حقٌّ؛ لأنه يوافق الأمر المتحقق، والحق أيضًا: يكون بمعنى الواجب، كما قال ﷻ: ﴿مَتَٰعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ٢٤١﴾ [البقرة]، أي واجبًا عليهم.

ونلاحظ أن معاذًا ﷺ، لما سأله النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ عن «حق الله على العباد» لم يُبْدِ ما عنده، ولا قال: هو كذا وكذا، وإنْ كان



يُمكنه أن يأتي بشيء من الجواب، وربَّما يوفَّق للجواب الصحيح؛ لكنه ﷺ آثَرَ أن يسمع على أن يتكلم، وقال: الله ورسوله أعلم. ويؤخذ من هذا أن المتعلم ينبغي له أن يستمع، أكثر مما يتكلم بين يدي معلمه ومرشده ليستفيد، وكذلك السائل: ينبغي له إذا سأل أن يصمت ليستفيد، فبعض الناس تجده يسأل، فإذا ابتدأ الشيخ بالجواب؛ ينازع الشيخ الإجابة ويتكلم، فيحرم الفائدة.

قوله: «**قَالَ: «فَإِنَّ حَقَّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا**» حق الله ﷻ على عباده: أن يعبدوه، هذا الفرض الواجب على جميع الخلق، وعلى جميع العباد، و«**الْعِبَادِ**»: كلمة تأتي أحيانًا لتشمل المؤمن والكافر، وتأتي أحيانًا تكريمًا لخيرة خلق الله ﷻ، فقوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم]، هذه تشمل المؤمن والكافر، لكن قوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ [الفرقان: ٦٣]، يقصد بها الله ﷻ خيرة الخلق، والرسول ﷺ قد سمَّاه الله ﷻ باسم «العبد» في أشرف المقامات، في مقام الإسراء، فقال: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١]، وقال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ﴾ [الفرقان: ١]، في مقام التنزيل، وفي مقام الدعوة قال: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ﴾ [الجن: ١٩].

فالعبودية عامة وخاصة، فحقُّ الله على العبيد هنا حقٌّ عامّ على الجميع أن يعبدوه، ولم يسكت ﷺ عند قوله: «**يَعْبُدُوهُ**» وإنما قال: «**وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا**»؛ لأنه لو قال: «**أَنْ يَعْبُدُوهُ**» فقط، لقال الكافر المشرك: أنا أعبد الله؛ لكنه يعبد الله ويعبد غير الله، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ

أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف]، وقالوا مستنكرين: ﴿أَجَعَلَ ٱلْأٓلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾ [ص].

قوله: «وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا» نكرة في سياق النهي تفيد العموم، «شَيْئًا»: أي ولو كان شيئًا يسيرًا صغيرًا، فينبغي لهم أن يتركوه، كالحلف بغير الله، أو قول: حسبي الله وأنت، أو: ما شاء الله وشئت، ونحو ذلك من الألفاظ المحرَّمة، الداخلة في الشرك الأصغر، فإن قصد تعظيم المخاطب؛ دخل في الشرك الأكبر عياذًا بالله تعالى.

قوله: «ثُمَّ سَارَ سَاعَةً» يعني: سار برهةً وساعةً من الزمن.

قوله: «قَالَ: «يَا مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ» قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ، قَالَ: «هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ؟» حق العباد على الله، هل هو ما وجب على الله سبحانه من العباد؟ هذا لا يكون؛ لأن الله ﷻ لا يوجب أحدٌ عليه شيئًا، فـ«حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ» يعني ما أوجبه الله ﷻ على نفسه؛ لأنه لا أحد يُوجب عليه شيئًا؛ بل هو قد كتب على نفسه ذلك، كما قال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنعام]، فقد كتب الله ﷻ على نفسه الرحمة، وذلك في كتاب موضوع عنده على العرش، كما جاء في الحديث، وفيه: «وهو يكتب على نفسه»[(١)]، فلا أحد يكتب على الله ﷻ، ولا يوجب عليه شيئًا، بل هو يكتب على عباده، كما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾ [البقرة: ١٧٨]. و﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ

(١) رواه البخاري في «التوحيد» (١٣/٣٨٤)، ومسلم في «التوبة» (٤/٢١٠٧/٢١٠٨)، من حديث أبي هريرة واللفظ للبخاري.



أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ ﴾ [البقرة: ١٨٠]، فهو يوجب ويكتب على عباده، ولكن العباد لا يكتبون عليه شيئًا؛ بل هو ﷻ قد كتب على نفسه، كما هذا في الحديث: أنه يُدخل عباده الذين لا يشركون به شيئًا الجنة، وأن لا يعذبهم.

وقال بعض أهل العلم: «حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ» هو الحق الذي يتحقق لا محالة، يعني: الشيء الذي يتحقق للعباد الذين لا يشركون به شيئًا لا محالة، هو «أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ»، فهذا متحقِّقٌ لكلِّ مَن لم يشرك به شيئًا، فكلُّ مَن عبده ولم يشرك به شيئًا؛ فإن الله ﷻ لا يعذِّبه.

وزاد في رواية: «أنَّ معاذًا قال: أفلا أبشِّر الناس، قال ﷺ: «لا تبشرهم فيتَّكِلُوا»».

وفي هذا كما ذكرنا سابقًا: دليل على جواز كتمان العلم عمَّن يضرُّه هذا العلم، فإذا علِمْنا أنَّ هذا الإنسان يتضَّرر بهذا العلم يكتم عنه؛ لاسيما إذا كان لا يتعلَّق بحدٍّ من حُدود الله، ولا بفريضةٍ من فَرائض الله، وإنما هو متعلِّق إما بالفضائل، أو البشارات، أو بأخبار الساعة والفتن، أو بأسماء بعض المنافقين، وما أشبه ذلك، فإنَّ الصحابة قد كتموا أشياء من ذلك؛ لأنها لا يتعلَّق بها أعمال المكلفين، وتقديرُ ذلك راجعٌ إلى حكمة المعلِّم والمربِّي وخبرته، فيُخبر خاصته بما لا يطلع عليه غيرهم، كما أطلع النبيُّ ﷺ معاذًا على هذا العلم من بين كثير من الصحابة، لِمَا علم من تقدُّم فهمه وإيمانه، فكان ﷺ يُنزل الناس منازلهم، ويُحَدِّث الناس على قدر عقولهم، ولنا فيه أُسوةٌ حسنةٌ ـ عليه الصلاة والسلام ـ في التربية والتعليم، وسائر شؤون الدين والدنيا.

** ** **



(١٤) عن مَحْمُود بْن الرَّبِيعِ، عَنْ عِتْبَانَ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَدِمْتُ الْمَدِينَةَ، فَلَقِيتُ عِتْبَانَ فَقُلْتُ: حَدِيثٌ بَلَغَنِي عَنْكَ، قَالَ: أَصَابَنِي فِي بَصَرِي بَعْضُ الشَّيْءِ، فَبَعَثْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنِّي أُحِبُّ أَنْ تَأْتِيَنِي فَتُصَلِّيَ فِي مَنْزِلِي؛ فَأَتَّخِذَهُ مُصَلًّى، قَالَ: فَأَتَانِي النَّبِيُّ ﷺ وَمَنْ شَاءَ اللهُ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَدَخَلَ وَهُوَ يُصَلِّي فِي مَنْزِلِي، وَأَصْحَابُهُ يَتَحَدَّثُونَ بَيْنَهُمْ، ثُمَّ أَسْنَدُوا عُظْمَ ذَلِكَ وَكُبْرَهُ إِلَى مَالِكِ بْنِ دُخْشُمٍ، قَالُوا: وَدُّوا أَنَّهُ دَعَا عَلَيْهِ فَهَلَكَ، وَوَدُّوا أَنَّهُ أَصَابَهُ شَرٌّ، فَقَضَى رَسُولُ اللهِ ﷺ الصَّلَاةَ وَقَالَ: «أَلَيْسَ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ؟» قَالُوا: إِنَّهُ يَقُولُ ذَلِكَ، وَمَا هُوَ فِي قَلْبِهِ، قَالَ: «لَا يَشْهَدُ أَحَدٌ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ؛ فَيَدْخُلَ النَّارَ، أَوْ تَطْعَمَهُ» قَالَ أَنَسٌ: فَأَعْجَبَنِي هَذَا الْحَدِيثُ، فَقُلْتُ لِابْنِي: اكْتُبْهُ. فَكَتَبَهُ.

❖ **الشرح:**

هذا الحديث السادس والأخير في هذا الباب.

قوله: «عن مَحْمُود بْن الرَّبِيعِ، عَنْ عِتْبَانَ بْنِ مَالِكٍ» وهذا الحديث فيه من لطائفِ الإسناد: أنه من رواية محمود بن الربيع عن عتبان، والراوي عن محمود بن الربيع هو أنس، فصار من رواية الصحابة بعضهم البعض، وقد اجتمع هنا ثلاثة من الصحابة في الرواية عن بعضهم البعض؛ لأن أنسًا، ومحمود بن الربيع، وعتبان كلهم من الصحابة.

وعتبان: الأشهر فيه بكسر العين، وقال بعضهم: بالضم، وهو أنصاريٌّ مات في خلافة معاوية ﷺ.



قوله: «حَدِيثٌ بَلَغَنِي عَنْكَ» فيه حرص الصحابة ﷺ على تلقِّي الأحاديث النبوية عن بعضهم البعض، والتي فاتتهم بسبب عدم حضورهم مجلسًا من مجالس النبي ﷺ، أو بسبب سفرٍ، أو تأخُّرِ إسلام، أو صِغَر سنٍّ، وما أشبه ذلك من الأسباب، فكان الصحابة ﷺ يحرِصون على سماع أحاديث النبي -عليه الصلاة والسلام- من بعضهم البعض، وإذا قال الصحابي: قال رسول الله ﷺ وهو لم يحضر ذلك المجلس، فإن هذا يكون مرسلًا في عُرف أهل الأصول؛ لكن مراسيل الصحابة مقبولة[1]؛ لأنهم يحدِّثون عن بعضهم البعض، وهم جميعًا ثقات وعدول بتعديل الله ﷻ لهم في كتابه، كقوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة].

وكقوله ﷻ: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ [الفتح].

ورواية الصحابة عن غيرهم من التابعين نادرةٌ وقليلةٌ، وغالبًا ما يَذكر الصحابي اسم من حدَّثه، إذا لم يكن من الصحابة.

ومن الأمثلة على مراسيل الصحابة: روايةُ عائشة عن النبي ﷺ بدأ الوحي؛ فإنها لم تكن وُلدت في ذلك الوقت، وكروايات ابن عباس وأمثاله. فإن قال قائل: قلتم إن الصحابة عُدُول بتعديل الله ﷻ؛ لكن الصحابة بشَرٌ يخطئون وينسَوْن، ويصيبهم الوهم، فكيف نعرف ذلك؟

قلنا: بِعَرْضِ رواياتهم بعضهم على بعض، فنعرف أن الصحابي في

(١) انظر «الباعث الحثيث» (ص٤٧)، و«شرح روضة الناظر لابن بدران» (ص ٣٢٣).



هذا الحديث حفظ أو وَهِمَ؛ لأنَّ الوهم جائز على الصحابة، لكن إذا عُرضت رواياتهم على بعضهم البعض عرفت الوهم والصواب.

قوله: «أَصَابَنِي فِي بَصَرِي بَعْضُ الشَّيْءِ» يعني: ضعف بصره، وفي بعض الروايات أنه: عمي.

قوله: «فَبَعَثْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنِّي أُحِبُّ أَنْ تَأْتِيَنِي فَتُصَلِّيَ فِي مَنْزِلِي؛ فَأَتَّخِذَهُ مُصَلًّى» فعتبان بن مالك ﵁ أصابه عُذر يمنعه من حضور الجماعة، ألا وهو أنه فقد بصره، أو ضعُفَ بصره، وجاء أيضًا: أنه كان رجلًا ضخمًا، يعني ثقِيلَ الحركة، فطلب من النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يأتي إلى بيته ليصلي فيه؛ فيتخذه مصلى، يعني: مسجدًا ليصلي فيه.

قوله: «قَالَ: فَأَتَانِي النَّبِيُّ ﷺ وَمَنْ شَاءَ اللهُ مِنْ أَصْحَابِهِ» وفي هذا فائدة وهي: أنه يجوز للمفضول أن يستدعي الفاضل، لمصلحة من المصالح التي تعرض له، فيأتيه في بيته أو محله.

وفيه أيضًا: أن النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ قد جاء ومن شاء الله من أصحابه؛ فيجوز للإمام والرجل المعظم في قومه، إذا دُعي إلى مجلس أو وليمة، أن يستتبع من شاء من أصحابه، إذا علم أن هذا ممَّا يَرضى به الداعي، أو لا يَشُقُّ عليه.

قوله: «فَدَخَلَ وَهُوَ يُصَلِّي فِي مَنْزِلِي، وَأَصْحَابُهُ يَتَحَدَّثُونَ بَيْنَهُمْ» الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ صلَّى في منزله، وصلى معه بعض أصحابه، وذلك من الضحى، وفيه: جواز صلاة النافلة جماعةً أحيانًا، ولو كانت صلاة سريَّة، كنوافل النهار. وفيه أيضًا: أنه لا بأس أن يتحدَّث المتحدِّث بحضرة المصلي، ما لم يشوِّش عليه صلاته.



قوله: «**ثُمَّ أَسْنَدُوا عُظْمَ ذَلِكَ وَكُبْرَهُ إِلَى مَالِكِ بْنِ دُخْشُمٍ**» يعني: قالوا: إن كبير المنافقين وعظيمهم الذي في المدينة هو: مالك بن دخشم.

قوله: «**قَالُوا: وَدُّوا أَنَّهُ دَعَا عَلَيْهِ فَهَلَكَ، وَوَدُّوا أَنَّهُ أَصَابَهُ شَرٌّ**» وفي رواية: «**أنه أصابه بِشَرٍّ**» بزيادة الباء، وهذا فيه: جواز تمنِّي هلاك أهل الشر، وأهل النفاق والشقاق، الذين يبثون العداوة بين الإخوان، ويفرِّقون الصفوف، ويسعَوْن في إيجاد الفرقة والنزاع والخلاف؛ فيجوز تمنِّي هلاكهم، أو أن يصيبهم الله ﷻ بمكروه ليتَّعِظوا به، فالصحابة ودُّوا لو أن النبي ﷺ دعا على المنافقين الذين يؤذونهم في المدينة.

وقد دافع حافظ المغرب أبو عمر بن عبد البر عن مالك بن الدخشم، وذكر: أن مالك بن الدخشم اختلفوا في شهوده العقبة؛ لكن اتَّفقوا على شهوده بدرًا، والمشاهدَ التي بعدها، وثبت أن النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ قد دافع عنه بقوله لما قذف بالنفاق: «**قال: ألا تراه قد قال: لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله**». فلعله ظُلم بهذه المقالة؛ لأنه ممَّن شهد بدرًا، فالرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ قد أَخبر عن فضل أهل بدر بقوله: «**لعلَّ الله اطَّلع على بدر، فقال: اعلموا ما شئتم، فقد غفرتُ لكم**»[1]. وهذه منقبة جليلة، وفضل عظيم، لمن شهد بدرًا من الصحابة.

قوله: «**فَقَضَى رَسُولُ اللهِ ﷺ الصَّلَاةَ وَقَالَ: «أَلَيْسَ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ؟**» وهذا من الدفاع عنه أيضًا. ويستفاد منه أيضًا: أن الناس يؤخذون بظواهرهم، وأننا نَكِلُ سرائرهم إلى الله، نأخذهم بالظاهر، ونكل السرائر إلى الله ﷻ.

---

(١) أخرجه البخاري في «المغازي» (٧/٥١٩) من حديث علي ﷺ.



قوله: «**قَالُوا: إِنَّهُ يَقُولُ ذَلِكَ، وَمَا هُوَ فِي قَلْبِهِ**» قالوا: إنه يتظاهر بذلك، يتظاهر بالشهادتين وليست في قلبه. وفيه دليل: على أن الصحابة ﷺ كانوا يعدُّون الاعتقاد بالقلب من الإيمان؛ لأنهم قالوا: إن من قال لا إله إلا الله بلسانه، ولم تكن في قلبه، أنها لا تنفعه، فمذهب أهل الحقِّ من أهل السنة والجماعة: أن الإيمان اعتقاد بالقلب، وإقرار باللسان، وفِعْل الأركان، فهذا الذي يوافق ما كان عليه الصحابة ﷺ.

وفيه رد على «الكرَّامِيَّة» الذين قالوا: إنَّ الإيمان يكفي فيه الإقرار باللسان، ولا يلزم فيه التصديق! وهذا قول فاسد، ويقابلهم من يقول: إن الإقرار باللسان ركنٌ زائدٌ، ليس بأصلي! وهو قول الماتريدي، ويروى عن أبي حنيفة[١].

قوله: «**لَا يَشْهَدُ أَحَدٌ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ، فَيَدْخُلَ النَّارَ، أَوْ تَطْعَمَهُ**» هذه تبرئة لأهل التوحيد، أنهم لا يُخَلَّدون في النار، فمن قال: لا إله إلا الله، محمدٌ رسول الله، معصوم عن النار، يعني عن الخلود فيها، أو عن دخولها أصلًا، إذا كان قد قام بما يلزم من العمل الواجب، بحيث لم يقصر فيه.

قوله: «**قَالَ أَنَسٌ: فَأَعْجَبَنِي هَذَا الْحَدِيثُ، فَقُلْتُ لِابْنِي: اكْتُبْهُ. فَكَتَبَهُ**» فيه أن الصحابة ﷺ كانوا يكتبون الحديث النبوي، وفيه ردٌّ على المستشرقين الذين قالوا: إن الحديث النبوي لم يُكتب إلا بعد وفاة النبي ﷺ بعقودٍ من الزمان! وهذا باطل؛ لأن من الصحابة من كان يكتب الحديث النبوي، وفعل أنس ظاهر في هذا.

---

(١) انظر شرح العقيدة الطحاوية (ص ٤٥٩).



فإن قيل: كيف نوفِّق بين هذا، وبين نهي النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ عن كتابة الحديث؟

فالجواب من وجوه:

منها: أن النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ نهى من كان يظن فيه الحفظ أن يتَّكل على الكتابة، والإنسان إذا اتكل على الكتابة وترك الحفظ، ضاع علمه؛ لأن العلم كما لا يخفى هو ما حمله الإنسان في صدره، لا ما حواه الكتاب، كما قيل:

ليس بعلم ما حوى القمطر ما العلم إلا ما حواه الصدر(١)

فكان النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ يريد من الصحابة أن يحفظوا حديثه ليبلِّغوه لغيرهم، وقد كان طائفة من مشايخنا ينهى عن كتابة الفوائد في الدروس، ويقول: احفظوها حفظًا، ويؤثَرُ عن الشنقيطي رحمه الله أنه كان يمنع تلاميذه من الكتابة، حتى كان بعض تلاميذه يكتب تحت الدرج، دون أن يراه الشنقيطي رحمه الله تعالى.

وجه آخر: أن النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ نهى عن الكتابة في أول الإسلام، خشية أن يختلط الحديث بغيره من القرآن الكريم، فلمَّا عرف الصحابة الفرق الواضح بين القرآن وبين الحديث؛ أذن لهم في الكتابة.

وفي الحديث أيضًا من الفوائد: جوازُ إمامة الزائر للمزور برضاه؛ لأنه قد ورَدَ في الحديث الذي في الصحيح: «**ولا يؤَمنَّ الرجلُ الرجلَ في سلطانه، ولا يقعد على تكرمته إلا بإذنه**»(٢).

(١) انظر: «جامع بيان العلم وفضله» (١/٢٦٨)، باب ذكر كراهية كتابة العلم وتخليده في الصحف، تحقيق أبي الأشبال.

(٢) رواه مسلم في المساجد (١/٤٦٥) من حديث أبي مسعود الأنصاري.



والتكرمة: الفراشُ أو السرير مما يبسط لصاحب المنزل ويخص به.

ومعناه: أن صاحب البيت أو المجلس أحقُّ بالإمامة من غيره، وإن كان غيره أفقهَ منه وأقرأ وأفضل، فصاحب المكان أحقُّ، فإن شاء تقدَّم وإن شاء قدَّم من يريده.

وفي الحديث أيضًا: جوازُ ذِكر من يتَّهم من أهل الفساد والريب والنفاق، وممَّن يسعى بالشر للإمام ليحذره، فالصحابة ﷺ حذَّروا النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ أو كأنهم طلبوا منه الدعاء على مالك بن الدخشم وحذروه منه.

وفي الحديث: أن الإنسان إذا دُعي لشيء فجاءَ من أجله، ينبغي له أن يبدأ به؛ فالرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ كما جاء في غير هذه الرواية لما دخل بيت عتبان قال: «**أين تريدني أن أصلي؟**» فما جلس ولا أكل وشرب وتحدَّث، ثم قال: أينُ تريد أن أصلي؟ وإنما بدأ بما دُعي له.

أما في حديث أمِّ سلمة لمَّا دُعي للطعام، أولَّ ما جاء بدأ بالطعام فأكل وشرب، ثم قام وصلى بهم ركعتين.

فالمبادرة إلى الشيء المطلوب من الحزم والعقل، فقد يعرِض للإنسان مانعٌ أو ظرفٌ، يفوِّت ما جاء من أجله، والله أعلم.

** ** **



بابـ: الإيمانـ ما هو؟ وبيانـ خصاله

(١٥) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ: أَنَّ أُنَاسًا مِنْ عَبْدِ الْقَيْسِ قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالُوا: يَا نَبِيَّ اللهِ! إِنَّا حَيٌّ مِنْ رَبِيعَةَ، وَبَيْنَنَا وَبَيْنَكَ كُفَّارُ مُضَرَ، وَلَا نَقْدِرُ عَلَيْكَ إِلَّا فِي أَشْهُرِ الْحُرُمِ؛ فَمُرْنَا بِأَمْرٍ نَأْمُرُ بِهِ مَنْ وَرَاءَنَا، وَنَدْخُلُ بِهِ الْجَنَّةَ إِذَا نَحْنُ أَخَذْنَا بِهِ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «آمُرُكُمْ بِأَرْبَعٍ، وَأَنْهَاكُمْ عَنْ أَرْبَعٍ؛ اعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَآتُوا الزَّكَاةَ، وَصُومُوا رَمَضَانَ، وَأَعْطُوا الْخُمُسَ مِنَ الْغَنَائِمِ، وَأَنْهَاكُمْ عَنْ أَرْبَعٍ: عَنِ الدُّبَّاءِ، وَالْحَنْتَمِ، وَالْمُزَفَّتِ، وَالنَّقِيرِ»، قَالُوا: يَا نَبِيَّ اللهِ! مَا عِلْمُكَ بِالنَّقِيرِ؟ قَالَ: «بَلَى، جِذْعٌ تَنْقُرُونَهُ؛ فَتَقْذِفُونَ فِيهِ مِنَ الْقُطَيْعَاءِ» قَالَ سَعِيدٌ: أَوْ قَالَ: «مِنَ التَّمْرِ، ثُمَّ تَصُبُّونَ فِيهِ مِنَ الْمَاءِ، حَتَّى إِذَا سَكَنَ غَلَيَانُهُ شَرِبْتُمُوهُ، حَتَّى إِنَّ أَحَدَكُمْ ـ أَوْ إِنَّ أَحَدَهُمْ ـ لَيَضْرِبُ ابْنَ عَمِّهِ بِالسَّيْفِ» قَالَ: وَفِي الْقَوْمِ رَجُلٌ أَصَابَتْهُ جِرَاحَةٌ كَذَلِكَ، قَالَ: وَكُنْتُ أَخْبَؤُهَا حَيَاءً مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقُلْتُ: فَفِيمَ نَشْرَبُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «فِي أَسْقِيَةِ الْأَدَمِ الَّتِي يُلَاثُ عَلَى أَفْوَاهِهَا» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ أَرْضَنَا كَثِيرَةُ الْجِرْذَانِ، وَلَا تَبْقَى بِهَا أَسْقِيَةُ الْأَدَمِ، فَقَالَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ: «وَإِنْ أَكَلَتْهَا الْجِرْذَانُ، وَإِنْ أَكَلَتْهَا الْجِرْذَانُ، وَإِنْ أَكَلَتْهَا الْجِرْذَانُ» قَالَ: وَقَالَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ لِأَشَجِّ عَبْدِ الْقَيْسِ: «إِنَّ فِيكَ لَخَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ: الْحِلْمُ وَالْأَنَاةُ».

❖ **الشرح:**

الحديث أخرجه مسلم في الإيمان، وبوَّب عليه النووي (١٧٩/١) باب



الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ وشرائع الدين والدعاء إليه والسؤال عنه وحفظه وتبليغه من لم يبلغه.

وقد ذكر المنذري رحمه الله تحت هذا الباب حديثًا واحدًا، وهذا الحديث قد مرَّ معنا في أول هذا المختصر من «صحيح مسلم»، من رواية أبي جمرة عن ابن عباس رضي الله عنهما، وذكرنا ما يتعلق به من الفوائد، وللفائدة: أن تبويب الإمام زكي الدين عبد العظيم المنذري يختلف أحيانًا عن تبويب «صحيح مسلم»، فإنه قد زاد عليه أبوابًا، وذكر بعض الأحاديث في غير المواضع التي ذكرها الإمام مسلم، بحسب ما رآه من فوائد وتفريعات وتبويبات.

وهذا الحديث في «صحيح مسلم»، مكانه بعد حديث ابن عباس الذي ذكرنا في الحديث الأول.

قوله: **«عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه: أَنَّ أُنَاسًا مِنْ عَبْدِ الْقَيْسِ قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالُوا: يَا نَبِيَّ اللهِ! إِنَّا حَيٌّ مِنْ رَبِيعَةَ، وَبَيْنَنَا وَبَيْنَكَ كُفَّارُ مُضَرَ، وَلَا نَقْدِرُ عَلَيْكَ إِلَّا فِي أَشْهُرِ الْحُرُمِ»** عبد القيس من ربيعة، القبيلة العربية المعروفة، قالوا: إن بينهم وبين النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ قبيلة «مضر» أي: قريشًا، وكانت لا تزال على الكفر، ولا يقدرون على الوصول إلى مكَّة أو إلى المدينة النبوية، إلا في الأشهر الحرم، إذ إن العرب كانت تحرّم القتال فيها وتعظمها.

قوله: **«فَمُرْنَا بِأَمْرٍ نَأْمُرُ بِهِ مَنْ وَرَاءَنَا، وَنَدْخُلُ بِهِ الْجَنَّةَ إِذَا نَحْنُ أَخَذْنَا بِهِ»** فطلبوا منه أن يأمرهم بأمر جامع، وينهاهم أيضًا عمَّا يضرُّهم، ويبلِّغون به قومهم.

قوله: **«فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «آمُرُكُمْ بِأَرْبَعٍ، وَأَنْهَاكُمْ عَنْ أَرْبَعٍ؛**



اعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَآتُوا الزَّكَاةَ، وَصُومُوا رَمَضَانَ، وَأَعْطُوا الْخُمُسَ مِنْ الْغَنَائِمِ» وسبق الكلام على ذلك، وذكرنا السبب في عدم ذكر الحج هاهنا، وإنه إمَّا لعدم الفرضيَّة، وهذا هو الأقوى؛ لأنه قد فُرض في السنة التاسعة على الصحيح، كما قال الإمام ابن القيم[1] وغيره، وإما أن يكون قد اختصره الراوي؛ لكن الأول أقوى.

قوله: «**وَأَنْهَاكُمْ عَنْ أَرْبَعٍ: عَنْ الدُّبَّاءِ، وَالْحَنْتَمِ، وَالْمُزَفَّتِ، وَالنَّقِيرِ**» وقد سبق شرحُها.

قوله: «**قَالُوا: يَا نَبِيَّ اللهِ! مَا عِلْمُكَ بِالنَّقِيرِ؟**» يعني ما الذي تعلمه عن النقير؟ أو كيف علمت النقير؟

قوله: «**قَالَ: «بَلَى، جِذْعٌ تَنْقُرُونَهُ؛ فَتَقْذِفُونَ فِيهِ مِنْ الْقُطَيْعَاءِ**» والقطيعاء هو نوع من التمر صغير.

قوله: «**قَالَ سَعِيدٌ: أَوْ قَالَ: «مِنْ التَّمْرِ، ثُمَّ تَصُبُّونَ فِيهِ مِنْ الْمَاءِ، حَتَّى إِذَا سَكَنَ غَلَيَانُهُ شَرِبْتُمُوهُ**» أي: أنه ينبذ في الجذع المَنْقُور كهيئة الجرَّة أو الوعاء؛ فيقذفون فيه التمر، ثم يصبُّون عليه الماء، وإذا زاد على ثلاثة أيام، فإنه يقذف بالزَّبد ويغْلِي، أي تخرج منه الفقاقِيعُ، كإناءٍ وضعته على النار، فيكون مُسْكِرًا بعد ذلك إذا سكن غليانه.

قوله: «**حَتَّى إِنَّ أَحَدَكُمْ - أَوْ إِنَّ أَحَدَهُمْ - لَيَضْرِبُ ابْنَ عَمِّهِ بِالسَّيْفِ**» وهذا فعل المسكر في الإنسان، أنه يسكر فيضرب ابن عمه وهو من أقرب الناس إليه، وأحبهم له يضربه بالسيف، وهذه إشارة إلى ما يقع من مفاسد الخمور، وأنها تذهب بالعقول، وتُوقع الإنسان في الآثام والذنوب، حتى

---

(١) «زاد المعاد» (١٠١/٢)، لكن قد اعتمر قبل حجه مرتين، ثم عمرة قرنها مع حجة، ثم عمرته من الجعرانة لما خرج إلى حنين، ثم رجع إلى مكة. (المصدر السابق) (٩١/٢).



سمَّاها الشارع ﷺ بـ«**أم الخبائِث**» فهي تجمع الخبائث كلَّها، ومن شربها قادته إلى ما يُستشنع من الأفعال والأقوال، كما قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**الخمر أم الفواحش، وأكبر الكبائر، مَنْ شربها وقع على أمِّه، وخالته، وعمته**»(١).

فهي تُوقع الإنسان في مهالك عظيمة، ومن رحمة الله ﷻ بعباده، أن حرَّم عليهم هذا المُسكر الخبيث. وتَصادف أن كان:

«**فِي الْقَوْمِ رَجُلٌ أَصَابَتْهُ جِرَاحَةٌ كَذَلِكَ**» وجاء في رواية في «**ساقه**» كذلك، يعني بسبب الخمر.

قوله: «**قَالَ: وَكُنْتُ أَخْبَؤُهَا حَيَاءً مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ**» يعني: يُخفيها لئلَّا يراها النبي ﷺ ويسأله عنها، استحياءً منه ﷺ.

فلما منعهم من الشرب في هذه الأسقية، قالوا: «**فَفِيمَ نَشْرَبُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «فِي أَسْقِيَةِ الْأَدَمِ الَّتِي يُلَاثُ عَلَى أَفْوَاهِهَا**» الأدم يعني: الجلود، أي اشربوا في القرب التي تصنع من الجلود، والتي يُلاث، يعني يلفُّ ويُربط على أفواهها، ليعرف المخاطب ما المقصود بالضبط، وهذا من زيادة البيان، كما قال ﷻ: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٦]، زيادة في التأكيد والبيان.

قوله: «**قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ أَرْضَنَا كَثِيرَةُ الْجِرْذَانِ**» الجرذان: جمع جرذ، وهو الفأر، وقيل: هو ذكر الفأر.

قوله: «**وَلَا تَبْقَى بِهَا أَسْقِيَةُ الْأَدَمِ**» لأنها تأكل الجلد بطبعها، فشكوا

(١) رواه الطبراني (١١٣٧٢، ١١٤٩٨) من حديث ابن عباس ﵄.



إليه هذه القضية، وهذا وهو أن الجرذ يأكل القرب، ويصعُبُ عليهم حفظ الأسقية في القرب.

قوله: «**فَقَالَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ**: «**وَإِنْ أَكَلَتْهَا الْجِرْذَانُ، وَإِنْ أَكَلَتْهَا الْجِرْذَانُ، وَإِنْ أَكَلَتْهَا الْجِرْذَانُ**» قالها ثلاث مرات؛ تأكيدًا عليهم في هذا الباب، وهذا كما ذكرنا في شرح الحديث الأول: أمر قد نسخ بعد ذلك، وبين لهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ «إن الأوعية لا تحرم شيئًا، فانتبذوا فيما بدا لكم، واجتنبوا كل مسكر»(١).

وإنما أمرهم بذلك في أوّل الإسلام؛ لقطع هذه المعصية الكبيرة، وحتى يعتادوا على شرب ما يباح لهم من المشروبات، فلما رسخ في قلوبهم الإيمان بعد ذلك، أمرهم بالشرب في جميع الأسقية.

وهذه الأوعية المذكورة ـ الدُّبَّاء والحنتم والمزفَّت والنَّقير ـ يسرع إليها التخمر إذا نُبِذ فيها التمر.

قوله: «**وَقَالَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ لِأَشَجِّ عَبْدِ الْقَيْسِ**» وهو رجل منهم؛ بل سيِّدهم.

«**إِنَّ فِيكَ لَخَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ: الْحِلْمُ وَالْأَنَاةُ**» وهذا الحديث أو هذا القول مدحٌ في الوجه، وقد ورد عن النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ النهي عن التمادح، وعن مدح الرجل في وجهه، ولما سمع النبي ﷺ بعض الصحابة يثني على رجل في وجهه قال: «**ويحك قطعت عنق صاحبك**»(٢).

(١) حديث صحيح، أخرجه الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما، انظر «صحيح الجامع» (١/١٥٨٨).

(٢) أخرجه البخاري (١٠/٦٠٦١)، ومسلم (٤/٢٢٩٦) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه. وجاء من حديث أبي موسى أيضًا.



وقال: «**إياكم والتَّمَادُح، فإنه الذَّبح**»[(١)]؛ لكن ورد عنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ في مواضع كثيرة، أنه مدح في الوجه، مثل: قوله لأبي بكر لمَّا قال: «**مَنْ أصبح اليوم صائمًا؟**» فقال: أنا، «**من تصدَّق؟**» قال: أنا، «**من عاد مريضًا؟**» قال: أنا، حتى قال ﷺ: «**ما اجتمعن في رجل في يوم، إلا دخل الجنة**»[(٢)]. وقوله لعمر: «**دخلت الجنة فرأيتُ قصرًا، فقلت: لمن هذا؟ قالوا: لعمر**»[(٣)]. وقوله لعلي ؓ: «**أنت مني بمنزلة هارون من موسى؛ غير أنه لا نبيَّ بعدي**»[(٤)]. وثناؤه على كثيرٍ من الصحابة، فيجمع بين الأحاديث: بأنه يجوز المدح في الوجه إذا أُمنتْ الفتنة، وعُلم إيمان الرجل، وأنه لا يتأثر بكلمات الإطراء والمدح، لقوَّة إيمانه. وعلى كلِّ حال، فالبعد عن المدح في الوجه أقرب للسلامة في هذه الأزمنة، والله تعالى أعلم.

** ** **

(١) حديث صحيح، رواه ابن ماجه (٣٧٤٣) من حديث معاوية ؓ.

(٢) أخرجه مسلم (٧١٣، ١٨٥٧) من حديث أبي هريرة ؓ.

(٣) أخرجه البخاري (٧/٣٦٨٠)، ومسلم (٤/١٨٦٣)، عن أبي هريرة ؓ، ومثله عن جابر ؓ (٣٦٧٩، ٥٢٢٦، ٧٠٢٤). ومسلم (٤/١٨٦٢).

(٤) أخرجه البخاري (٧/٣٧٠٦، ٤٤١٦)، ومسلم (٤/١٨٧٠، ١٨٧١) مطولًا من حديث سعد بن أبي وقاص ؓ.



باب: الإيمان بالله أفضل الأعمال

(١٦) عَنْ أَبِي ذَرٍّ ﷺ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «الْإِيمَانُ بِاللهِ، وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ»، قَالَ: قُلْتُ: أَيُّ الرِّقَابِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «أَنْفَسُهَا عِنْدَ أَهْلِهَا، وَأَكْثَرُهَا ثَمَنًا» قَالَ: قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ أَفْعَلْ، قَالَ: «تُعِينُ صَانِعًا، أَوْ تَصْنَعُ لِأَخْرَقَ» قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَرَأَيْتَ إِنْ ضَعُفْتُ عَنْ بَعْضِ الْعَمَلِ، قَالَ: «تَكُفُّ شَرَّكَ عَنْ النَّاسِ، فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ مِنْكَ عَلَى نَفْسِكَ».

❖ **الشرح:**

الحديث أخرجه مسلم في الإيمان، وبوَّب عليه النووي (٢/٧٢) باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال، وهنا أورد المنذري في هذا الباب حديثًا واحدًا.

أبو ذر هو الصحابي المشهور، واسمه: جُندب بن جُنَادة على الأصحِّ، الغفاري، تقدَّم إسلامه؛ لكن تأخَّرت هجرته إلى المدينة، فلم يشهد بدرًا، ومناقبه كثيرةٌ جدًّا، مات سنة ٣٢هـ في خلافة عثمان.

قوله: «**قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟**» هذه اللفظة أو هذا السؤال قد تكرر كثيرًا في الأحاديث، أيُّ الأعمال خير؟ أيُّ الأعمال أفضل؟ أيُّ الإيمان خير؟ وكان النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ يجيب بأجوبةٍ مختلفة، فقال العلماء: إن سبيل الجمع في ذلك: أن الرَّسول ـ عليه



الصلاة والسلام ـ كان يجيب الناس على اختلاف أحوالهم وقدراتهم واستطاعتهم، فكان يجيب كلَّ قومٍ بما يستطيعون، أو بما يعلم أنهم عليه قادِرُون، أو أنه يسير سهل عليهم، فاختلفت الأجوبة بحسب السائل، والرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ قد أُوتِيَ من الفِرَاسة بعد الوحي شيء عظيم، ولهذا كان يعلم ما يصلح لكل إنسانٍ، فكان ينصَحُ بعض أصحابه بأن يتركوا بعض الأمور، ويَبْذلوا قدرتهم وجهدهم في أمرٍ آخر، كما قال لأبي ذر رضي الله عنه: **«يا أبا ذر، إني أراكَ ضَعِيفًا، فلا تأمَّرَنَّ على اثنين، ولا تولَيَنَّ مال يتيم»**[(١)]، فكان يَنصح الناس ويوجههم إلى ما فيه الصلاح لدينهم ودنياهم، فاختلفت الأجوبة باختلاف الأحوال، فأعْلَمَ كل سائل بما يحتاج إليه أو بما لم يكمله بعد.

والوجه الثاني في الجمع بين الأحاديث: أنَّ قوله ﷺ أفضل الأعمال، أو خير الأعمال كذا وكذا، لا يُراد به الأفضلية من جميع الوجوه وفي جميع الأحوال والأشخاص؛ بل هو في حال دون حال[(٢)].

قوله: «قال: الإيمان بالله» فالإيمان بالله هو أفضل الأعمال على الإطلاق ولا شك في هذا؛ لأن الإيمان بالله تبارك وتعالى هو أصل الإيمان كله، وعليه تبنى أركان الإيمان كلها، الإيمان بالكتاب، وبالنبيين، وباليوم الآخر، وبالرسل، وبالقدر، كلُّهُ مبنيٌّ على الإيمان بالله تعالى، ويُراد بالإيمان هنا أيضًا: الإسلام؛ لأن الإيمان والإسلام إذا اجتمعا افترقا في المعنى، لكن إذا ذُكِرَ أحدهما دلَّ على صاحبه، كما مرَّ معنا مِرَارًا، فالإيمان بالله

(١) أخرجه مسلم (١٢/٤٥٢ ـ نووي).
(٢) انظر شرح مسلم (٢/٧٧ ـ ٧٨) للنووي.



أيضًا يدخل فيه جميع شرائع الإسلام؛ كإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت، وغير ذلك من أعمال البِرِّ والتقوى، كالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وبِرِّ الوالدين، وما أشبه ذلك.

وقوله ﷺ لما سُئِلَ ههنا: «**أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «الْإِيمَانُ بِاللهِ..**» فيه تصريحٌ بأنَّ العمل يُطلق على الإيمان، فالإيمان قولٌ وعملٌ، عملُ القلب واللسان والجوارح.

قوله: «**وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ**»: وهو من أفضل الأعمال أيضًا، وجاء في حديث معاذ وهو حديث قويٌّ لطرقه[1]: «أن الجهاد ذُروة سَنَام الإسلام» وذُروة السَّنام لاشيء فوقها، فهي أعلى شيءٍ في جسد البعير، وكذلك الجهاد أعلى شيء في بُنيان الإسلام، لفضائله الكثيرة التي نطقت بها النصوص من القرآن والسنة، ولما فيه من الخير العظيم للخلق أجمعين، وهو سبب العز والنصر والتمكين في الأرض، والعلو على الكفر وأهله، والدفاع عن الضعفاء، وبه يبقى الإسلام عزيزًا يهاب جانبه، وتُصان شرائعه والمنتمين إليه، إذا كان بشروطه وضوابطه الشرعية.

قوله: «**قَالَ: قُلْتُ: أَيُّ الرِّقَابِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «أَنْفَسُهَا عِنْدَ أَهْلِهَا، وَأَكْثَرُهَا ثَمَنًا**»، أنفسها يعني أرفعها وأجودها وأحسنها وأكثرها ثمنًا، كما يُقال: هذا مالٌ نَفِيس، يعني مرغُوب فيه، وإذا كان الشيء مرغوبًا فيه، فالتصدُّق به آجر لصاحبه عند الله، كما قال ﷻ: ﴿**لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ**﴾ [آل عمران: ٩٢]، وجاء أن ابن عمر رضي الله عنه أعتق جاريةً له مِنْ أحبِّ الناس إليه، وأن أبا طلحة رضي الله عنه لما نزلت هذه الآية، تصدَّق بأحسن أمواله

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٧٦٢) وابن ماجه (٣٩٧٣).



وأحبها إلى نفسه، وهي بستانُ بِيرُحَاء[١]، فأفضل الرِّقاب ما كان نفيسًا عند أهله، مرتفعَ السِّعر عندهم، فأعتقوه لوجه الله تعالى.

قوله: «**قَالَ: قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ أَفْعَلْ، قَالَ: «تُعِينُ صَانِعًا، أَوْ تَصْنَعُ لِأَخْرَقَ**» الصانع: هو الرجل الحاذق الذي يعرف الصَّنْعَة، يقال: رجل صانِعٌ، وامرأةٌ صَنَاع، أو رجل صَنَعٌ وامرأة صَنَاعٌ، يعني تجيد الصُّنع كالخَبْزِ والغَزْل والخياطة وما أشبه ذلك، فالصانع يحتاج أحيانًا إلى المعونة، فإذا رأيت جارك بحاجة إلى مَنْ يُعينه في شيء من أمور داره أو متاعه فأعنته؛ فإن هذا من الصدقة، ومن التعاون الذي يحبُّه الله ﷻ، والإسلام دعا إلى التعاون والتكافل، وأن لا يُسلم الأخ أخاه ويتخلى عنه في وقت الحاجة، وإذا احتاج إليه وتخلَّى عنه فإنه يبغضه ويُقاطعه، وهذا ملموسٌ مُشاهد فمعونةُ الأخ لأخيه في وقت الحاجة، مما يُثبت المودَّة والمحبَّة ويُقَوِّي الصِّلَةَ.

قوله: «**أَوْ تَصْنَعُ لِأَخْرَقَ**» رجلٌ أخرَقُ وامرأةٌ خرقاء: هو الذي ليس بِصانع، فإذا كانت المرأة لا تُجيد الخَبْز مثلًا فتخبز لها جارتها، فإن هذا من الصدقة، وكانت الصحابيَّات كذلك، كما قالت عائشة ﵂: «وكنتُ لا أجيد الخبز، وكانت لي جاراتٌ من الأنصار يخبِزْنَ لي، وكُنَّ نسوة صدق»[٢]، فاعترفت بهذا الجميل الذي كانت تقوم به نساء الأنصار، من أنَّ إحداهُنَّ كانت تخبز لجارتها وتُعين التي لا تجيد الخبز.

قوله «**قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَرَأَيْتَ إِنْ ضَعُفْتُ عَنْ بَعْضِ الْعَمَلِ،**

(١) أخرجه البخاري في مواضع كثيرة أولها في الزكاة (١٤٦١/٤)، ومسلم في الزكاة (٩٩٨/٢) من حديث أنس ﷺ.

(٢) قطعة من حديث الإفك الطويل.



قَالَ: «**تَكُفُّ شَرَّكَ عَنْ النَّاسِ، فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ مِنْكَ عَلَى نَفْسِكَ**» إذا ضعف الإنسان عمَّا سبق من العمل، عن الجهاد، أو الإنفاق في سبيل الله بتحرير الرقاب، أو إعانة الناس؛ فأقل الأعمال التي يقوم بها: أن يكُفَّ شرَّه عن الناس، فيسلم الناس من شرِّه، فهذا أيضًا من الصدقة كما نصَّ عليه النبي - عليه الصلاة والسلام - بقوله: «**فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ مِنْكَ عَلَى نَفْسِكَ**» فالذي لا يقدِّم الخير، فأقل الأحوال أن يكُفَّ شرَّه عن الناس، فهذا من آخر المراتب.

وإن من أعظم الناس شرًّا: الذي لا يُرجى خيره، ولا يُؤمن شره، نعوذ بالله تعالى من ذلك.

** ** **

باب: في الأمر بالإيمان والاستعاذة بالله عند وسوسة الشيطان

(١٧) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا يَزَالُونَ النَّاسُ يَسْأَلُونَكُمْ عَنِ الْعِلْمِ حَتَّى يَقُولُوا: هَذَا اللهُ، فَمَنْ خَلَقَ اللهَ؟» قَالَ: فَبَيْنَا أَنَا فِي الْمَسْجِدِ، إِذْ جَاءَنِي نَاسٌ مِنَ الْأَعْرَابِ، فَقَالُوا: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ! هَذَا اللهُ خَلَقَنَا، فَمَنْ خَلَقَ اللهَ؟ قَالَ: فَأَخَذَ حَصًى بِكَفِّهِ فَرَمَاهُمْ بِهِ، ثُمَّ قَالَ: قُومُوا، قُومُوا، صَدَقَ خَلِيلِي ﷺ.

(١٧) ب: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا يَزَالُ النَّاسُ يَسْأَلُونَكُمْ عَنِ الْعِلْمِ حَتَّى يَقُولُوا: هَذَا اللهُ، خَلَقَنَا فَمَنْ خَلَقَ اللهَ؟» قَالَ: وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِ رَجُلٍ فَقَالَ: صَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ، قَدْ سَأَلَنِي وَاحِدٌ، وَهَذَا الثَّانِي.

❖ الشرح:

في هذا الباب حديثان، وليس في أحدهما ذِكر للاستعاذة، وإن كان وقد جاء في روايات أخرى عند مسلم، يأتي ذكرها، وقد نبَّه عليه العلَّامة الألباني رحمه الله في تحقيقه لهذا المختصر.

❋ الحديث الأول:

«**عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا يَزَالُونَ النَّاسُ يَسْأَلُونَكُمْ عَنِ الْعِلْمِ حَتَّى يَقُولُوا: هَذَا اللهُ خَلَقَنَا، فَمَنْ خَلَقَ اللهَ؟**» وهذا الحديث له عدَّة روايات، ففي رواية: «**لا يزال الناس يتساءلون مَنْ خلق كذا؟ مَنْ خلق**



كذا؟ حتى يقولوا مَنْ خلق الله؟» وفي رواية: «**يأتي الشيطان أحدكم فيقول: مَنْ خلق كذا؟ فيقول الله، من خلق كذا؟ فيقول الله، حتى يقول فمن خلق الله؟ فإذا بلغ أحدكم ذلك؛ فليستَعِذْ بالله ولينْتَهِ**»، وفي رواية: «**فليقل: آمنت بالله**».

ففي حديث أبي هريرة ﷺ أنه قال: «**لا يزال الناس يسألونكم عن العلم حتى يقولوا: هذا الله خَلَقَنا، فمن خلق الله؟**» أي يستمر بهم السؤال، أو يكثرون من السؤال، حتى ينتهي بهم الأمر أن يقولوا: فمَنْ خلق الله؟! ومَنْ وصل إلى ذلك فعليه أن يستعيذَ بالله، يعني: يلجَأ إلى الله تعالى في دفع شر الشيطان عنه، فإنه لا يزالُ يُوسوس له، ويُلقي في خاطره وفكره الشُّبهات والخواطر السيِّئة؛ فعليه أن يستعيذ بالله منه، ثم لينْتَهِ، يعني: ليعرض عن هذا الخاطر الشيطاني، والفِكْر السَّيِّئ؛ لأنه من الشيطان وهو يسعى بالفساد، ويريد أن يُغوي الإنسان، فعليه أن ينْتَهِ عن الاسترسال في هذا الخاطر، الذي يقطعه عن العلم النافع والعمل الصالح، وليشتغل بغيره، بالنافع من العلم أو العمل؛ لأن الاسترسال مع الخواطر وقوع في حبائل الشيطان[1].

ثم قال العلماء: إن كان هذا الخاطر عبارةٌ عن فكرة رَدِيئَةٍ سيِّئَةٍ، فعليه أن ينْتَهِ عنها ويترُكَها، ويستعيذ بالله من شرِّها، وفي رواية فليقل:

---

(١) وحزن الإنسان وضيق صدره وهمه وغمه، مما يحرص عليه عدو الله وعدوه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [المجادلة: ١٠]. وكان النبي ﷺ يستعيذ من: «الهم والحزن، والعجز والكسل والجبن والبخل، ومن غلبة الدين وقهر الرجال»، وكلها من القواطع عن العلم النافع والعمل الصالح، فتأمل!!.



«آمنت بالله» وهي عبارة تدلُّ على الرِّضا بالله ربًّا وإلهًا، والتَّسليم وعدم الاعتراض، وتثبيت النفس وتذكيرها بالإيمان، وأن العبد لا يزال مقيمًا عليه، فيذكِّر نفسه بهذه الكلمة حتى تَنتهي عن الاسترسال مع وسوسة الشيطان.

ولا شك أن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون والمسلمون؛ ولهذا فهو يُنَكِّد عليهم بالوساوِسِ لعجزِهِ عن إغوائهم، وأما الكافر فإنه يأتيه من حيث شاء، ويتلاعب به كيف شاء.

وإن كانت هذه الخواطر بسبب شُبهة عَرضت له، فعليه أن يتعلم كيف يَرُدّ عليها، ويسأل أهل العلم عنها؛ لأن دواء الشبهات العلم.

وقد تحقَّق هذا الخبر النبوي، فيقولُ أبو هريرة ﷺ: «قَالَ: فَبَيْنَا أَنَا فِي الْمَسْجِدِ؛ إِذْ جَاءَنِي نَاسٌ مِنَ الْأَعْرَابِ؛ فَقَالُوا: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ! هَذَا اللهُ خَلَقَنَا، فَمَنْ خَلَقَ اللهَ؟»، والأعراب لِكَونهم من سكَّان البوادي، بعيدون عن العلم وطلبه، وعن سَمَاع الدُّرُوس النافعة، والخُطب الجامعة، ولهذا يكثر فيهم الجهل، فسألوا هذا السؤال فقالوا: هذا الله خلقنا فمن خلق الله؟

قوله: «فَأَخَذَ حَصًى بِكَفِّهِ فَرَمَاهُمْ، ثُمَّ قَالَ: قُومُوا، قُومُوا، صَدَقَ خَلِيلِي ﷺ» لقُبْحِ سؤالهم فعل بهم هذا. ففيه: الإعراض عن السؤال القبيح، مع التعزير.

وإنما كان هذا السؤال قبيحًا، لخطئه وغلطة؛ لأنه لابُدَّ أن ينتهي كل مخلوق إلى خالق لا خالق له، كما قال الله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الطور]، فقوله: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾، يعني: هل وجدوا من غير موجد ومن غير

خالق؟ والجواب: لا؛ لأن هذا يستحيل في العقول والفطر، أن يكون شيء من غير مكون، ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ يعني: هل هم خلقوا أنفسهم؟! وهذا أيضا مستحيلٌ، يستحيل أن يخلق الإنسان نفسه أو أن يخلق الشيء نفسه ﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، وهذا أيضًا الجواب فيه: لا، إذا بقي أن هناك خالقًا خلق الخلق، وخلق السماوات والأرض، وهو جلَّ وعلا، ولا خالق له؛ لأن التسلسل باطل، إذا قلنا: إن المخلوق قد خلقه هذا، وهذا قد خلقه هذا، وهذا قد خلقه هذا؛ لابد أن نَصِلَ إلى أول ليس قبله شيء، وهو الله ﷻ.

*** وفي الحديث الثاني:**

أن أبا هريرة جاءه رجل فسأله مرةً أخرى عن هذا السؤال، فقال: «**صَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ**» يعني: وقع الأمر كما أخبر النبي -عليه الصلاة والسلام- «**قَدْ سَأَلَنِي وَاحِدٌ، وَهَذَا الثَّانِي**».

ومن الفوائد أيضًا في هذا الحديث: صِدْقُ نُبُوَّة النبي ﷺ، ووقوع الأخبار كما أخبر. وفيه: أن من العلوم ما هو قبيح لا ينبغي الخوض فيه، وأن الخواطر إن كانت أفكارًا رديئةً، أعرض عنها الإنسان واستعاذَ بالله من شرِّها واشتغل بغيرها، وإن كانت الخواطر شبهات، طلب لها الجواب من الكتاب والسنة، وسؤال أهل العلم.

وفي الحديث أيضًا: أنَّ الشيطان يَسْعَى في التنكيد على المؤمنين لعجزه عن إغوائهم، ولذا قال ﷺ في الرواية الصحيحة في «صحيح مسلم»[1]: «**ذلك محض الإيمان**» يعني: كون الإنسان يكره هذه الوسوسة،

---

(١) مسلم (٢/١٥٣ - نووي).



هو دليل الإيمان، كونه يكره التصريح بما في صدره؛ فهذا دليل الإيمان.

وفي الحديث أيضًا: أنَّ من سأل سؤالًا قبيحًا يجوز الإعراض عن جوابه؛ بل أبو هريرة ﷺ حصَبَهم بالحصى لَمَّا كان السؤال في غاية القبح، وأيضًا في الحديث: جوازُ طرْدِ مَنْ تكلم بكلام سَيِّئ من المجلس، لأن أبا هريرة قال: «**قُومُوا، قُومُوا**» فطردهم من مجلسه ﷺ وأرضاه، وكان كثير من أئمة السلف يطردون أهل البدع والأهواء من مجالسهم، كما جاء أن الإمام مالك بن أنس سأله رجل فقال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه] كيف استوى؟ فتضايق منها الإمام مالك حتى علاه الرحضاء، يعني: حتى عَرِقَ من شِدَّة السؤال على نفسه، وقال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة، فأمر بعد ذلك بطرده من مجلسه، لأنه سأل سؤالًا لا ينبغي.

** ** **

باب: في الإيمان بالله والاستقامة

(١٨) عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللهِ الثَّقَفِيِّ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا بَعْدَكَ (وَفِي حَدِيثِ أَبِي أُسَامَةَ: غَيْرَكَ). قَالَ: «قُلْ: آمَنْتُ بِاللهِ، ثُمَّ اسْتَقِمْ».

❖ **الشرح:**

الحديث أخرجه مسلم في الإيمان، وبوَّب عليه النووي (٢/٨) باب جامع أوصاف الإسلام.

سفيان بن عبد الله الثقفي الطائفي، صحابي أسلم مع الوفد، وسأل النبي ﷺ عن أمر يعتصم به، وكان عامل عمر على الطائف[١].

قوله: «**قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا بَعْدَكَ**» يعني: قل لي قولًا جامعًا في الإسلام، بحيث أني لا أحتاج إلى سؤال أحد بعدك، لِكِفاية هذا الجواب، فقال ﷺ: «**قُلْ: آمَنْتُ بِاللهِ، ثُمَّ اسْتَقِمْ**» وهذا من بديع جوامع الكلم، والرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ صحَّ عنه أنه قال: «**أوتيت جوامع الكلم**» وجوامع الكلم هو: التعبير عن المعاني الجليلة الكثيرة، بعباراتٍ قليلة أو قصيرة، أي هو قول العرب: «خير الكلام ما قلَّ ودَلَّ» وهو دليل الفصاحة، وورد عنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنه قال: «**أُوتيت فواتح الكلم وخواتمه وجوامعه**» فواتح الكلم: يعني كيف يبدأ الإنسان ويستهلّ كلامه، وخواتم الكلم: كيف ينتهي أي:

(١) انظر «الإصابة» (٢/٥٤)، والتقريب والتهذيب.



بماذا يختم؛ لأن فاتحة الموضوع فَنٌّ، وختام الموضوع فَنٌّ أيضًا، وكذلك جوامع الكلم.

وقد قالت عائشة ﵂: إن النبي - عليه الصلاة والسلام - ما كان يتكلَّم بكلامٍ ككلامكم يعني: ما كان يتكلَّم بكلامٍ كثير، إن كان ليتكلم بالكلام القليل، الذي لو عَدَّهُ العَادُّ لَعَدَّهُ، يعني يتكلم بكلام قليل لو أراد الإنسان أن يحصيه لفعل.

وهذا فيه فوائد عظيمة منها: حفظ هذا الكلام بسهولة، فإن الكلام الكثير يُنسي بعضه بعضًا، بخلاف الكلام القليل فإن يُحفظ، ولهذا استحب العلماء أن تكون كلمات الإنسان في مجالسه ومواعظه وتذكيره قليلة، خاصة يوم الجمعة، وأن تكون في موضوعٍ واحدٍ لكي تُحفظ، أما التشعُّب في المواضيع، فإنه ممَّا يُضيِّع الفائدة على المستمعين، ويشتت أذهانهم.

قوله: «**قُلْ: آمَنْتُ بِاللهِ**» قال بعض العلماء: أي وَحِّدِ الله ﷻ، وآمن له الإيمان الذي يُخرجك من الشرك والكفران، وقال ابن كثير: «**قُلْ: آمَنْتُ بِاللهِ**» يعني: أخلص العبادة لله، وهي بمعنى القول الأول.

قوله: «**ثُمَّ اسْتَقِمْ**» أي: الزم طاعة ربك ﷻ وشريعته، ويشهد لهذا الحديث قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت]، وأخذ العلماء من قوله: «**ثُمَّ اسْتَقِمْ**» التعجيل بالطاعة بعد الإيمان، وعدم التأخير، وأن لا يكتفي الإنسان بقوله آمنت بالله، ويجلس وينام! بل يقول آمنت بالله، ثم يستقيم، يعني: يلتزم طاعة الله ﷻ بأداء الفرائض وترك المحرمات، ولهذا كثيرًا ما يذكر الله تعالى الإيمان مقرونًا بالعمل



الصالح، ولا يكتفي بذكر الإيمان وحده، فإذا ذكر الإيمان ذكر أعماله، كقوله ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال].

وقوله: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ [التوبة].

فلابدَّ إذًا من إتباع الإيمان بالعمل، وإلَّا كان الإيمان ناقصًا، لم يصدَّق صاحبه في دعواه.

ثمَّ هذه الاستقامة يجب أن تكون كما أمر الله تعالى، وأمر رسولُه ﷺ، يعني تستقيم كما أمرك الله، لا كما تشتهي وتشاء وتهوى وتظن، وإنما كما أمرك الله، قال ﷻ: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟﴾ [هود: ١١٢]، ومعنى ﴿وَلَا تَطْغَوْا۟﴾ يقول المفسرون: يعني استقم كما أمرك الله ﷻ من غير طغيان، والطغيان هو: مجاوزة الحدِّ، ومجاوزة الحد يكون بالإفراط، ويكون بالتفريط، فالاستقامة لابدَّ أن تكون وفق الشرع، والمتابعة للرسول ﷺ من غير انحراف عن السنة أو الرغبة عنها. وقال ﷻ أيضًا مؤكدًا هذا المعنى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [الشورى: ١٥].

وكثيرًا من الناس فيهم حماسٌ وغيرةٌ على الدِّين، ولديهم شِدّةٌ وقُوَّةٌ، ولكن يُحرمون التوفيق؛ لأنهم يسلكون غير سبيل الشريعة، «وكم من مريد للخير لم يبلغه» كما قال ابن مسعود ﷺ وقال السلف: مَنْ عَبَدَ الله بما لم

يشرع؛ كان ما يُفسد أكثر مما يُصلح، وقالوا: مَنْ عَبَدَ الله ﷻ كما أمر؛ فهو عابد لمولاه، ومَنْ عَبَدَ الله ﷻ كما يشتهي؛ فهو عابد لهواه؛ لأن الله تعالى لم يأمره به، وإنما أمره به هواه وظنه ورأيه!

فالاستقامة لابدَّ أن تكون كما أمر الله تعالى، من غير طُغيان ولا مجاوزة حدٍّ، بإفراط أو تفريط.

وثمرات الاستقامة ذكرها الله تعالى في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت].

تتنزل عليهم الملائكة قال المفسرون: عند موتهم ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ لا تخافوا على أولادكم، ولا تحزنوا على فراقهم، أو فراق أهلكم؛ فإن الله ﷻ حسيبهم، وهم في حفظ الله ﷻ، و﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ﴾ أيضًا عند قيامهم من القبور، ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ تطمئنهم بهذا.

وقوله: ﴿وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ أي: يبشرونهم بالقدوم على الجنان، وهذا كما جاء في حديث البراء ﷺ مرفوعًا: أن الملائكة تقول لروح المؤمن: «اخرجي أيتها الروح الطيّبة، التي كانت في الجسد الطيب، اخرجي إلى رَوْحٍ وريحان، وربٍّ غير غضبان».

وقوله: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [فصلت: ٣١]، أي: تقول الملائكة للمؤمنين أهل الاستقامة عند الاحتضار: نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا، نسدِّدكم ونوفِّقكم، ونحفظكم ونؤيدكم بأمر الله ﷻ، وكذلك نكون معكم في الآخرة، نؤنس وحشتكم، ونؤمِّن روعتكم وفزعكم يوم البعث والنشور، حتى نوصلكم إلى جنات النعيم.

وقوله: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيَ أَنفُسُكُمْ﴾ أي: في الجنة، من جميع ما تختارونه مما تشتهيه الأنفس، وتقرُّ به الأعين، ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ أي: ما تطلبون، فمهمَا طلبتم من شيءٍ، حَضَرَ بين أيديكم كما اشتهيتم واخترتم ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [فصلت] أي: هذا الإكرام والإنعام والإحسان، وهذه الضيافة والعطاء الواسع، من رب ﴿غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ غفور لذنوبكم، رؤوف رحيم لطيف بكم(١).

فيالله ما أعظم ثمرات الإيمان، والاستقامة على دين الله تعالى، وما أكرم ثواب من سلك سبيل السنة ووقف عندها، ولم يتجاوزها، ولم يخالف سلف الأمة قولًا ولا عملًا، عقيدةً أو شريعةً، فإن السُّنَّة عصمة ونجاة، كما قال الإمام مالك رحمه الله: السنَّة سفينةُ نوح، مَنْ ركبها نجا، ومَنْ تخلَّف عنها هلك.

نسأل الله تعالى أن يجعلنا من أنصار دينه، وسُنَّة نبيه ﷺ.

** ** **

(١) انظر تفسير الحافظ ابن كثير (٤/٦٦).

باب: في آيات النبي ﷺ والإيمان به

(١٩) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا قَدْ أُعْطِيَ مِنْ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَى اللهُ إِلَيَّ؛ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

❖ **الشرح:**

الحديث أخرجه مسلم في الإيمان، وبوَّب عليه النووي (١٨٦/٢) باب: وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس، ونسخ الملل بملته.

وتضمن هذا الباب ثلاثة أحاديث:

❋ **الحديث الأول:**

«**عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا قَدْ أُعْطِيَ مِنْ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ**» في هذه الجملة ثلاثة أقوال:

القول الأول: أن كل نبي قد أُعطي من الآيات، مثل من كان قبله من الأنبياء، فحصل إيمان البشر على ذلك، والآيات هنا هي التي يسميها العلماء: بالمعجزات، أي: الخوارق للعادات، أي: كل نبي قد أعطاه الله تعالى من المعجزات ما يكون على مثله الإيمان من البشر، وإنما كانت معجزتي العظيمة الباهرة الظاهرة هي: القرآن العظيم، الذي لم يُعْطَ أحد من الأنبياء مثلها أبدًا، ولهذا رجا النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يكون

أكثرهم تابعًا يوم القيامة؛ لأن آيته آية فريدة في إخوانه من الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ.

القول الثاني: أن معجزات الأنبياء من قبله، كان يتطرَّق إليها التخييل بالسحر والشبهات، مثل: عصا موسى وغير ذلك، فكان يقوم بعض الناس بالتخييل والتشبيه بها، أما معجزة النبي ﷺ فلا يتطرق إليها تخييل ولا مقاربة؛ بل هي محفوظة من ذلك؛ لأنه كلما حاول الناس أن يأتوا بمثل القرآن، كان كلامهم بعيدًا جدًّا، مفضوحًا مكشوفًا لكل بصير.

القول الثالث: وهو أيضًا قول قويٌّ في تفسير هذا الحديث، أن معجزات الأنبياء السابقة قد انقرضت بانقراض عصر النبي، ولم يشاهدها إلَّا مَنْ حضر بحضرة ذلك النبي، فمن جاء بعده لم يرها، أما معجزة نبينا ﷺ فهي القرآن المستمر إعجازه إلى يوم القيامة، فهذا القرآن باقٍ فيه التحدِّي، في أسلوبه وبلاغته وفصاحته، وأخباره بالغيبيات، وأحكامه الشرعيات، تحدَّى الله به الإنس والجن، متفرقين ومجتمعين إلى يوم القيامة: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء]. وهذا إلى يوم القيامة.

ولهذا رجا النبي ﷺ أن يكون أكثر الأنبياء تابعًا يوم القيامة؛ لأن مدة بقاء معجزته وآيته أعظم المدد، فهي باقية إلى قيام الساعة، بخلاف الآيات السابقة فإنها قد انقرضت.

وقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ «**فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» فيه دلالة من دلالات النبوة؛ لأن الرسول ﷺ قال هذه المقالة

والصحابة يومئذ قليل، والمسلمون في أهل الشرك قليل، ثم تحقَّق ما قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ فاتَّسعت رُقعة الإسلام، وكَبُرت دولة المسلمين، صار المسلمون كثرة في أهل الأرض؛ بل هم أكثر أمم الأنبياء يوم القيامة، كما جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا: **«عُرِضت علي الأمم، فجعل يمُرُّ النَّبِيُّ معه رجلٌ، والنبيُّ معه الرجلان، والنبي معه الرَّهْطُ، والنبي ليس معه أحد، ورأيت سوادًا كثيرًا سد الأفق، فرجوتُ أن تكون أمَّتِي، فقيل: هذا مُوسى وقومه، ثُمَّ قيل لي: انظر فرأيت سوادًا كثيرًا سدَّ الأفق، فقيل لي: انظر هكذا وهكذا، فرأيتُ سوادًا كثيرًا سَدَّ الأفق، فقيل: هؤلاء أمَّتُك، ومع هؤلاء سبعون ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب...»**[١].

** ** **

(١) الحديث في الصحيحين، انظر الفتح (١٠/٢١١).

(٢٠) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، يَهُودِيٌّ، وَلَا نَصْرَانِيٌّ؛ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ؛ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ».

❖ **الشرح:**

هذا هو الحديث الثاني، أخرجه مسلم في الإيمان، وبوب عليه النووي باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس، ونسخ الملل بملَّته.

قوله: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، يَهُودِيٌّ، وَلَا نَصْرَانِيٌّ**» الأمة هنا المراد بها: أمة الدعوة، وأمة الاستجابة، وأمة الدعوة الأمة التي هو موجود في زمنها، ومن سمعت به إلى يوم القيامة، فكل أمَّةٍ سمعت بدعوة النبي ﷺ إلى يوم القيامة فهي من أمة محمد ﷺ، يعني أمة الدعوة، أما «أمَّة الإجابة» فهي الأمة التي استجابت للنبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ ودخلت في دين الله، وأعلنت إسلامها والتزمت شرائع الإسلام، وأول هذه الأمة: صحابة رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ ثم التابعون لهم بإحسان إلى يوم الدين.

وقوله: «**لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ**» ما معنى السَّماع هنا؟ هل مجرد السَّماع باسمه ـ عليه الصلاة والسلام ـ دون معرفة دعوته ودينه؟! أم لابُدَّ أن يسمع بالنبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ وبشريعته وبدينه وبدلائل نبوته، التي تقوم بها الحجة الرسالية؟ الصحيح: هو الثاني؛ لأن الله ﷻ لا

يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة الرِّسالية عليه، قال ﷻ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء]، فالعذاب والتعذيب لا يكون إلا بعد بعثة الرسول أو النبي.

مثاله: لو أن إنسانًا عربيًّا قرأ القرآن على رجل أعجمي، لا يفقه من العربية شيئًا، فهل يقال: إن هذا قد أقام الحجة عليه؟ لا يصحُّ ذلك؛ بل ذلك مثل من قرأ على من به صمم، فهذا لا تقوم عليه الحجة بذلك، حتى يفهم المراد من الكلام.

وقوله: «**يَهُودِيٌّ، وَلَا نَصْرَانِيٌّ**» يعني: أي أحد يسمع به سواء كان يهوديًا أو نصرانيًا، ولم خص اليهودي والنصراني بالذكر؟ والجواب أنه إذا كان اليهود والنصارى وهم أهل الكتاب هذا شأنهم، فغيرهم ممن ليس له كتاب أولى بالدخول في أمته، ووجوب الانقياد لطاعته ﷺ، فأهل الكتاب وغيرهم يجب عليهم أن يدخلوا في دينه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بعد بعثته؛ لأن بعثته ـ عليه الصلاة والسلام ـ ناسخة لجميع الملل التي قبله.

قوله: «**ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ؛ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**» أي: كل من سمع بدعوة النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ ولم يؤمن بالذي أرسل به وهذا يشمل العقائد والشرائع إلا كان من أصحاب النار، ويستفاد من هذا الحديث: نسخ جميع الملل بعد بعثته ـ عليه الصلاة والسلام ـ فلا يجوز لأحدٍ من أي أمَّةٍ كان، من اليهود أو النصارى أو غيرهم، أن يَبْقَى على دينه بعد بِعْثَة محمد ﷺ.

ويُستفاد أيضًا من مفهوم هذا الحديث: أنَّ من لم تبلغه الدعوة فهو معذور؛ لأن الحديث يقول: «**لا يسمع بي أحد... ولم يؤمن بالذي**



أرسلت به إلا كان من أصحاب النار» إذًا من لم يسمع به فهو معذور.

وهذا الذي يتفق مع النصوص، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء]، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ [التوبة] وغير ذلك من الآيات والأحاديث، كما سبق.

** ** **

(٢١) عَنْ صَالِحِ بْنِ صَالِحٍ الْهَمْدَانِيِّ، عَنْ الشَّعْبِيِّ قَالَ: رَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ خُرَاسَانَ سَأَلَ الشَّعْبِيَّ فَقَالَ: يَا أَبَا عَمْرٍو! إِنَّ مَنْ قِبَلَنَا مِنْ أَهْلِ خُرَاسَانَ يَقُولُونَ فِي الرَّجُلِ إِذَا أَعْتَقَ أَمَتَهُ ثُمَّ تَزَوَّجَهَا فَهُوَ كَالرَّاكِبِ بَدَنَتَهُ، فَقَالَ الشَّعْبِيُّ: حَدَّثَنِي أَبُو بُرْدَةَ بْنُ أَبِي مُوسَى، عَنْ أَبِيهِ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ وَأَدْرَكَ النَّبِيَّ ﷺ فَآمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ وَصَدَّقَهُ، فَلَهُ أَجْرَانِ، وَعَبْدٌ مَمْلُوكٌ أَدَّى حَقَّ اللهِ تَعَالَى عَلَيْهِ وَحَقَّ سَيِّدِهِ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَرَجُلٌ كَانَتْ لَهُ أَمَةٌ، فَغَذَّاهَا فَأَحْسَنَ غِذَاءَهَا، ثُمَّ أَدَّبَهَا فَأَحْسَنَ أَدَبَهَا، ثُمَّ أَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا فَلَهُ أَجْرَانِ»، ثُمَّ قَالَ الشَّعْبِيُّ لِلْخُرَاسَانِيِّ: خُذْ هَذَا الْحَدِيثَ بِغَيْرِ شَيْءٍ، فَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يَرْحَلُ فِيمَا دُونَ هَذَا إِلَى الْمَدِينَةِ».

* * *

❖ **الشرح:**

هذا الحديث الثالث: في هذا الباب، وأخرجه مسلم في الموضع السابق.

قوله: «عَنْ صَالِحِ بْنِ صَالِحٍ الْهَمْدَانِيِّ» أبو حيان، قال أحمد: ثقة ثقة، روى له الستة.

قوله: «عَنْ الشَّعْبِيِّ» والشعبي هو عامر بن شراحيل، من علماء التابعين وأفاضلهم. قال مكحول: ما رأيت أفْقَهَ منه، مات بعد المائة، روى له الستة.

قوله: «**رَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ خُرَاسَانَ سَأَلَ الشَّعْبِيَّ فَقَالَ: يَا أَبَا عَمْرٍو!**» وهي كنية الشعبي.

قوله: «**إِنَّ مَنْ قِبَلَنَا مِنْ أَهْلِ خُرَاسَانَ يَقُولُونَ**» يعني الناس في خراسان عندنا يتحدثون بأن: قوله: «**الرَّجُلِ إِذَا أَعْتَقَ أَمَتَهُ ثُمَّ تَزَوَّجَهَا فَهُوَ كَالرَّاكِبِ بَدَنَتَهُ**» إذا أعتق أمته يعني جاريته، ثم تزوَّجها يكون كمن ركب بدنته، والبدنة: هي الهدي الذي يهدى للكعبة من الإبل، والإنسان إذا أهدى هديًا للكعبة لا يجوز له أن يركبها، إلا إذا احتاج، يعني إذا فقد الظهر ولم يجد مركوبًا له سواها، جاز له أن يركبها، فقد أخرج الشيخان: أن النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ رأى رجلًا يسوق بدنة، فقال له: «**اركبها**» قال: إنها بدنة يا رسول الله! قال: «**اركبها**»، قال: إنها بدنة يا رسول الله! قال: «**ويلك اركبها**».

فالنبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ علم أنها بدنة، ولكن الصحابي وقع في خاطره أنها هدي للكعبة، فلا يجوز له أن يستفيد منها بشيء؛ لكن النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ بين أن هذا لا حرج فيه، إذا احتاج إليها.

قوله: «**فَقَالَ الشَّعْبِيُّ: حَدَّثَنِي أَبُو بُرْدَةَ بْنُ أَبِي مُوسَى**» وهو ابن أبي موسى الأشعري، واسم أبي موسى عبد الله بن قيس.

قوله: «**عَنْ أَبِيهِ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ وَأَدْرَكَ النَّبِيَّ ﷺ فَآمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ وَصَدَّقَهُ، فَلَهُ أَجْرَانِ**» من آمن من أهل الكتاب بنبيه قبل النسخ، ثم آمن بنبينا محمد ﷺ، فله أجران، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ

مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [القصص] فبشرهم الله تعالى بأن لهم أجرهم مرتين: مرة بإيمانهم بنبيهم، ومرة بإيمانهم بخاتم النبيين ﷺ وعلى إخوانه.

والثاني من الذين يؤتون أجرهم مرتين هو:

قوله: «وَعَبْدٌ مَمْلُوكٌ أَدَّى حَقَّ اللهِ تَعَالَى عَلَيْهِ وَحَقَّ سَيِّدِهِ فَلَهُ أَجْرَانِ» يعني قام بما يجب عليه من حقوق لله تعالى، فقام بالواجبات وترك المحرمات، ثم أدى حق مواليه من الطاعة لهم، والعمل بما يحبون، وحفظ عهودهم، وعدم خيانتهم، وحفظ أموالهم وما أشبه ذلك، فهذا يكون قد أدى حقَّ الله، وأدى حق مواليه، أو حق سيده؛ فيكون له الأجر مرتين بما صبر؛ لأن القيام بذلك كله يحتاج إلى صبر وإلى عزم، ولذا يؤتى أجره مرتين.

والثالث من الذين «يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ» وهو موضع الشاهد الذي أراد الشعبي أن يحتج به هو:

قوله: «وَرَجُلٌ كَانَتْ لَهُ أَمَةٌ، فَغَذَّاهَا فَأَحْسَنَ غِذَاءَهَا» غذَّاها يعني: أطعمها وربَّاها فأحسن غذائها.

قوله: «ثُمَّ أَدَّبَهَا فَأَحْسَنَ أَدَبَهَا» أي: علَّمها ما ينفعها من العلم النافع، وأمرها بالمعروف، ونهاها عن المنكر، هذا هو الأدب المطلوب، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦].

قوله: «ثُمَّ أَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا فَلَهُ أَجْرَانِ» يعني من فعل ذلك، بأن أطعم أمته فأحسن إليها، وأدَّبها فأحسن أدبها، ثم لمَّا كبرت تزوَّجها، فله أجران،

أجرٌ على القيام بكفالتها وغذائها، وإحسان أدبها، والأجر الثاني: وهو أنه تزوَّجها وحفظها بالزواج، فإن نعمة الزواج نعمة عظيمة، ولا يقدر قدرها إلَّا من حرمها، ولذلك يكون قد أمتن عليها مرَّتين: مرَّة بالتربية والغذاء، ومرَّة بالزواج، وهذا العمل ليس من الرجوع في الصدقة في شيء، فالناس كانوا يتحدَّثون أن الذي يفعل هذا، كالذي يتصدَّق ويرجع في صدقته؛ لأنه أعتقها ثم تزوجها، لكن بيَّن النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن هذا الفاعل له الأجر مرَّتين بما عمل، وأن هذا الفعل إحسان إليها بعد إحسان.

قوله: «**ثُمَّ قَالَ الشَّعْبِيُّ لِلْخُرَاسَانِيِّ**» ولم يذكر اسمه.

«**خُذْ هَذَا الْحَدِيثَ بِغَيْرِ شَيْءٍ، فَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يَرْحَلُ فِيمَا دُونَ هَذَا إِلَى الْمَدِينَةِ**» وهذا تحريضٌ من الشعبي لهذا الرجل أن يحفظ حديث الرسول ﷺ، وهذا الدليل الواضح، فقال: خُذه بلا تعبٍ ولا نَصَبٍ، فقد كان الناس يرحلون إلى «المدينة» فيما هو أقلّ من هذا الحديث، وأنت أخذته بلا تعبٍ؛ بل غنيمة باردة.

ويستفاد من هذا الحديث: أن السلف رحمهم الله تعالى كانوا يرحلون في طلب الحديث، كما بين الشعبي هنا، وورد أن جابر بن عبد الله رضي الله عنه رحل إلى مصر من أجل سماع الحديث، وغير ذلك مما ذكره الخطيب البغدادي في كتابه: «الرحلة في طلب الحديث».

وفي هذا الحديث: أن المدينة كانت دارًا للعلم والمحدثين والعلماء، وأن الناس كانوا يقصدونها لطلب العلم، وسماع حديث النبي ﷺ، والله سبحانه أعلم.

** ** **



باب: ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان

(٢٢) عَنْ أَنَسٍ ﷺ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ».

❖ **الشرح**

تحت هذا الباب ثلاثة أحاديث، كلها عن أنس ﷺ.

الحديث الأول: أخرجه مسلم في الإيمان، وبوَّب عليه النووي (٢/١٣) باب: بيانِ خِصَال من اتَّصف بِهِنَّ وجد حلاوة الإيمان.

قوله: «عَنْ أَنَسٍ ﷺ»: هو ابن مالك بن النضر الأنصاري الخزرجي، خادم رسول الله ﷺ، وأحد الصحابة الذين رَوَوا عن النبي - عليه الصلاة والسلام - فوق الألف من الأحاديث. مات سنه اثنين وقيل: ثلاث وتسعين، وقد جاوز المئة.

قوله: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ»: يعني ثلاث خصال، أو ثلاث خلال.

قوله: «وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ»: معناه أن يستلذَّ بالطاعات ويجد لها حلاوة؛ فيتحمل التكاليف أو المشقَّة في رضا الله ﷻ، ويقدِّم طاعة إلهه ومولاه على طاعة هواه، ويؤثر الآخرة على الدنيا؛ لما يجد من حلاوة الإيمان في نفسه وصدره.



فأوَّلها: «مَنْ كَانَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا»: يعني أن يُحِبَّ الله تعالى، ويُحِبَّ رسوله ﷺ أكثر من كل شيءٍ سواهما، ودليل محبة العبد ربه ﷻ هو فعل أوامره، وترك زواجره، وكذا محبة النبي -عليه الصلاة والسلام-، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

وأمر آخر: وهو أن النفس البشرية تحِبُّ مَن يحسن إليها ويدفع الضر عنها، فإذا تذكَّر العبد أن كل فضلٍ، وبرٍّ، وإحسانٍ، وكرامةٍ، ونعمةٍ في الدنيا والآخرة، إنَّما هي من الله ﷻ، وكلّ شَرٍّ يدفع عنه، وكل مُصيبة ترفع عنه ونقمة، إنما هو أيضًا بفعل الله ﷻ؛ فإن هذا يوجب محبَّة عظيمة لربه سبحانه، وكذلك إذا تذكَّر أن رسوله ﷺ تمَّ على يديه أعظم إحسان بشري، فإنه -عليه الصلاة والسلام- أنقذه الله به من النار، وهداه إلى الصراط المستقيم، وبصّره بعد العمى، وعلّمه بعد الجهالة، فإذا تذكر هذه النعم العظيمة التي جرتْ على يدي نبيِّه ﷺ، لا شكَّ أنه سيكون أحب الخلق إلى قلبه.

الخصلة الثانية: قوله: «وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ» المرء يعني الشخص، لا يحبّه إلا لله ﷻ.

قوله: «إِلَّا للهِ»: يعني طاعةً لله، يحبُّه طاعة لله ﷻ، لماذا؟ لأن هذا الشخص من المُطِيعين لله ﷻ، فهو يحبُّه لله ﷻ، لا لقرابة، ولا لنسب، ولا لغرض دنيوي، وإنما يحبُّ الإنسان لله ﷻ، وهذا من الدين، فمن لوازم قولك: لا إله إلا الله، محمد رسول الله؛ أن تحبَّ كل إنسان قالها في مشارق الأرض ومغاربها، هذا من لوازم الشهادة، فتُوالي من يقولها،

وتُعَادي من يُعاديها، تحبّ من يقولها ويعمل بها، وتبغض من كان بضد ذلك؛ فإن الله سبحانه قال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، فحصر الأُخُوّة في الإيمان.

ـ ما الفرق بين أن أقول أحبّه لله، وأحبه في الله؟

الحب لله: هو العمل يتقرب به إلى الله تعالى، وليس لغرض دنيوي.

أما الحب في الله: فهو ميلُ النفوسِ لبعضها، بسبب تمسُّكها بشريعة الله ﷻ أي لاشتراكهم في محبوبٍ واحد.

وثالث الخصال: قوله: «وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ»: وفي رواية لمسلم: **«وأن يكره أن يعود يهوديًا أو نصرانيًا، كما يكره أن يقذف في النار»**.

قوله: «أَنْ يَعُودَ» يعني: أن يرجع، فيكره أن يرجع كافرًا بعد أن صار مسلمًا، كما يكره أن يقذف في النار التي تشتعل، ولا يكون ذلك إلا لمن عرف فضل الهداية، ونعمة الإسلام، وما فيه من الخير العظيم في الدنيا والآخرة.

وأما الذي لا يعظِّم الإسلام ونعمة الإسلام والهداية؛ فإنه قد تضعف عنده كراهية الكفر، وبحسب إيمان العبد وقوته؛ تكون عنده كراهية الكفر وأهله؛ لأنه تعظم عنده الموالاة لمن كان من أهل دينه، والمعاداة لمن خالف دينه وشريعته.

وقد ذكر أهل العلم هاهنا الإشكال الذي في قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا» كيف النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ



جمع في الضمير، وقد نهى ﷺ عن ذلك لمّا سمع الخطيب يقول: من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصِهما فقد غوى، فقال له: «**بئس خطيب القوم أنت**»، وفي ذلك أجوبة للعلماء، منها: أن النبي ﷺ يجوز في حقه ما لا يجوز لغيره؛ فهو ـ عليه الصلاة والسلام ـ لكونه معصومًا مأمون الجانب أي: لا يقع في الشرك ﷺ، بخلاف غيره، الذي قد يعبر ببعض الكلمات التي تجرّه إلى الشرك.

وقيل: لأن الخطبة يستحبُّ فيها تبسيط القول ونشره، وعدم الاختصار، وهذا القول فيه اختصار، وقيل غير ذلك؛ لكن لعل القول الأول هو الأرجح.

** ** **

(٢٣) عَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ، وَوَالِدِهِ، وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ».

❖ الشرح:

هذا الحديث الثاني في هذا الباب، وهو عن أنس ﷺ أيضًا قال رسول الله ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ» يعني لا يستكمل الإيمان، ويكون إيمانه تامًا كاملًا.

قوله: «حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ، وَوَالِدِهِ، وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ» ليس المراد حُبَّ الطبع؛ بل حب الاختيار، يعني أن يختار حب الرسول ﷺ ويقدمه على كل شيء، ويفنى في طاعة رسوله ﷺ، ويؤثر رضاه ﷺ على هوى نفسه، فهذا دليل المحبة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، فاتباع الرسول ﷺ يكون بفعلِ ما أمر وترك ما نهى عنه وزجر، فبهذا تظهر المحبة التي مقرها الباطن، وموقعها القلب.

فصلاح الجوارح وقيامها بما أمر رسول الله ﷺ، وكفها عمَّا نهى عنه؛ دليل على صلاح القلب، وعلى محبة القلب للرسول ﷺ؛ لأن هناك تلازُمًا بين الظاهر والباطن؛ إذا صلح الباطن صلح الظاهر، وصلاح الظاهر دليل على صلاح الباطن؛ إذا رأينا إنسانًا يقول الفُحْشَ ويتكلم بالكفر، ويُؤذي المؤمنين بلسانه، علمنا أن في قلبه رِجْسًا وغِلًّا ودَغَلًا، والعكس إذا رأينا منه صلاح الظاهر، وقيامه بما أمر الله تعالى كان هذا دليلًا من دلائل صلاح الباطن.



ومن دلائل محبته ـ عليه الصلاة والسلام ـ نُصرة سنته، ونشرها بين الناس، وتذكير الناس بها، وكذا الذَّبُّ عنها وعن شريعته ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأن يتمنى الإنسان أنه كان حيًا زمنه ﷺ فيبذل دونه ماله ونفسه، ويفنى في طاعته ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

وقال ابن بطال من المالكية والقاضي عياض: إن في قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ «**حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ، وَوَالِدِهِ، وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**» دليل على أن المحبة تنقسم إلى ثلاث أقسام:

١ ـ محبة الإنسان لولده، وهي محبة شفقة ورحمة.

٢ ـ محبة الإنسان لوالده، وهي محبة إجلال وتعظيم وإكبار.

٣ ـ محبة الناس أجمعين، وهي محبة مشاكلة واستحسان.

فجمع ﷺ المحبة بأنواعها الثلاث في محبته ﷺ، فلا يؤمن الإنسان الإيمان التام الكامل، حتى يجمع هذه المحبة بأنواعها الثلاثة لرسول الله ﷺ.

** ** **

(٢٤) عَنْ أَنَسٍ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «وَالذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُحِبَّ لِجَارِهِ ـ أو قال: لِأَخِيهِ ـ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ».

❖ الشرح:

هذا الحديث الثالث.

يُقْسِم النبي ﷺ فيقول:

«وَالذِي نَفْسِي بِيَدِهِ» أي بِيَدِ الله ﷻ، فالله هو مالكها ومدبِّرها ومصرِّفها كيف يشاء، وكثيرًا ما كان النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ يقسم بهذا القَسَم، الدال على تعظيم الله تعالى المحلوف به.

قوله: «**لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ**» والمرادُ الإيمان التام الكامل، كما سبق.

قوله: «**حَتَّى يُحِبَّ لِجَارِهِ ـ أَوْ قَالَ: لِأَخِيهِ ـ**» هكذا وقع في مسلم على الشك، ووقع عند البخاري دون شك: «**حتى يحب لأخيه**» دونَ ذكر الجار.

قوله: «**مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**» والمراد: أن يحب لأخيه أو يحبُّ لجاره ما يحبُّ لنفسه من الطاعات والمباحات، دون المحرَّمات والفواحش؛ لأن بعض الناس قد يُحِبُّ نوعًا من المعاصي، فإذا أحب ذلك لأخيه لا يكون هذا من تمام الإيمان؛ بل المراد: لا يؤمن أحدكم حتى يُحب لأخيه من الخير، وهذا ما دلَّت عليه رواية عند النسائي «**حتى يحب لأخيه من الخير، ما يحب لنفسه**».



فهذه الخصلة بين النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنها من خصال الإيمان، ومن أخلاق أهل الإيمان: أن واحدهم يحبُّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه من الخير، وهذا سهل على النفس إذا كان القلب سليمًا، أمَّا إن كان القلب مريضًا بالحسدِ أو بالغِلِّ والحقد على المؤمنين، فإن هذا من أصعب الأمور، وأعسرها، ولذلك ذكر الله تعالى في دعوات المؤمنين: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ١٠﴾ [الحشر].

فصاحب القلب السليم يسهل عليه أن يتمنى لأخيه من الخير مثل ما عنده، لكن إن كان بينهما عداوة، أو كان بينهما حسد أو غِلٌّ أو حِقْدٌ؛ فإنه يكره له الخير، نعوذ بالله ﷻ من هذا المرض.

** ** **

باب: ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًا

(٢٥) عَنْ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ﷺ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا».

❖ **الشرح:**

الحديث خرَّجه مسلم في الإيمان، وبوَّب عليه النووي (٢/٢) باب: الدليل على أنَّ من رضي بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ رسولًا؛ فهو مؤمن، وإن ارتكب المعاصي الكبائر.

قوله: «**عَنْ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ**» عمٌّ النبي ﷺ مشهورٌ، مات سنة اثنتين وثلاثين أو بعدها، وهو ابن ثمان وثمانين.

قوله: «**أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا»**»، معنى رَضِيَ: أي قنع به واكتفى، ولم يطلب معه غيره، فمعنى الحديث: أن المؤمن لا يطلب غير الله ﷻ، بل يرضى به، ولا يسعى في طريق غير طريق الإسلام، ولا يسلك غير شريعة محمد ﷺ، بل هو قد رضي بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمدٍ ﷺ رسولًا، وهذا لصحَّة علمه وإيمانه؛ لأن الإنسان الذي يصِحُّ إيمانه، تطمئن نفسه بالإسلام؛ فيرضى بالله ﷻ ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمدٍ ﷺ رسولًا، ولأن رضاه بهذه الأمور الثلاثة دليل على ثبوت علمه ومعرفته، وأن الإيمان قد خالط بشاشة قلبه، ولذلك تسهُل عليه الطاعات والقربات، ولا تشقُّ عليه، بل يرضى بها ويتحمل مشاقها.



ومن فوائد هذا الحديث: أن علم الإنسان بالله ﷻ وبأسمائه وبصفاته مما يزيده إيمانًا؛ لأنه كلَّما علم من صفات الله تعالى وأسمائه الحسنى شيئًا؛ ازداد رضًا بذلك، ولم يطلب غير الله تعالى رازقًا ولا كافيًا ولا ناصرًا، فالعلم بالله تعالى وبأسمائه وصفاته يوجب الرضا به ربًا وإلهًا قادرًا عالمًا رازقًا قديرًا حكيمًا رحيمًا، وكذا علمه بالإسلام وشرائعه، فإذا علم ما في دين الإسلام من التشريعات والأحكام، التي هي في غاية الكمال والإعجاز، وغاية الإحكام والإتقان، لم يَبْغِ سواها، ولم يتطلب دينًا غيرها.

وكذلك علمُه بالرسول ﷺ، وبما كان عليه من السجايا ومكارم الأخلاق، من الجود والشجاعة، والقوة في دين الله تعالى، والصبر على البلاء، والصبر على الطاعة، والصبر عن المعصية، وما كان عليه ﷺ من الرحمة بالأمَّة، ومن التدبير لها، والسهر على راحتها، كل ذلك مما يوجب له الرضا بشخص النبي ﷺ، واتخاذه إمامًا يُقتدى به، وقائدًا يسير خلفه، فهذه الأمور لها تعلُّقٌ عظيم بالعلم النافع، فهذا الحديث يبيِّن: أن العلم بالله وبدينه وبرسوله ﷺ، يوجب الرضا بهذه المذكورات العظيمة، وأن من جَهِلَ هذه الأمور، فقد نقص من إيمانه بقدر جهله بها، فالعلم طريق إلى الإيمان.

** ** **

بابٌ: أربعٌ من كُنَّ فيه كانَ منافقًا خالصًا

(٢٦) عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو ﵄ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَ فِيهِ خَلَّةٌ مِنْهُنَّ كَانَ فِيهِ خَلَّةٌ مِنْ نِفَاقٍ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ» غَيْرَ أَنَّ فِي حَدِيثِ سُفْيَانَ: «وَإِنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ».

❖ **الشرح:**

في الباب حديثان، خرَّجهما مسلم في الإيمان، وبوَّب عليهما النووي (٤٦/٢) باب: بيان خصال المنافق.

❋ **الحديث الأول:**

حديث ابن عمر ﵄ قوله: «**أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا**» خالصًا: يعني لا شائبة فيه، أو شديد الشّبه بالمنافقين بسبب هذه الخصال.

قوله: «**وَمَنْ كَانَ فِيهِ خَلَّةٌ مِنْهُنَّ كَانَ فِيهِ خَلَّةٌ مِنْ نِفَاقٍ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ**» والخَلَّة: هي الخصلة والصفة، والفجور: هو الميل عن القصد، يُخبر الرسول ﷺ في هذا الحديث بأن هناك أربعًا من الخصال أو الخلال أو الصفات، إذا كانت في الرجل واحدة منهن كان منافقًا، وإن كانت فيه هذه الخلال الأربع كان منافقًا خالصًا، يعني منافقًا لا شك فيه، أو شديد الشبه



بالمنافقين، وهذه الخصال: «**إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ**» هذه الخصال خصال نفاق، وصاحبها شبيه بالمنافقين، متخلق بأخلاقهم؛ لأن النفاق إظهار خلاف الباطن، وهذا المعنى موجود في هذه الخصال العملية «**إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ**» الكذب يخالف الحقيقة في باطن الأمر.

وكذا قوله: «**وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ**» كل ذلك فيه إظهار خلاف ما يبطن، وقد اختلف أهل العلم في معنى أن هذه الخصال خصال نفاق، والراجح أن هذه الخصال خصال نفاق، وصاحبها شبيه بالمنافقين ولم يُرِد النبي ﷺ أن صاحبها منافق نفاقًا يخلِّده في نار جهنم على كل حال مع المنافقين الكفار الذي قال الله فيهم: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾ [النساء]، بل نقل الترمذي عن أهل العلم فقال: إنما معنى هذا عند أهل العلم: نفاق العمل، أي أن هذا نفاقًا عَمَلِيًّا، وليس عَقَدِيًّا مُخرِجًا من المِلَّة.

وقوله: «**خَالِصًا**» يعني شديد الشّبه بالمنافقين، ولا يعني أنه خارج من الملَّة.

** ** **

(٢٧) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ».

* * *

❖ **الشرح:**

ولا مُنافاة بينه وبين حديث عبد الله بن عمر السابق الذي فيه: «**أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا**».

وقوله ههنا: «**آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ**» فإن الشيء الواحد قد تكون له عدة علامات، وهذه العلامات قد تكون شيئًا واحدًا، وقد تكون عدَّة أشياء، وقال النووي ﷺ: إن قوله: «**وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ**» داخل في قوله «**وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ**»؛ لأن الغدر في العهد خيانة.

ومعنى: «**آيَةُ الْمُنَافِقِ**» يعني علامته ودلالته، يعني أن هذه الأمور الثلاثة من علامات المنافقين «**إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ**» في الحديث قُبْحُ هذه الذنوب، وهي: الكذب، والخيانة، وإخلاف الوعد.

ومعنى قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ**» يعني إن حصلت بينه وبين أحدٍ من الناس خصومة ـ أي خِلاف ـ فجر في خصومته، يعني مال عن الحق إلى الباطل والكذب؛ لأن الفجور: هو الميل عن القصد.

وفي الحديث: أن النفاق نوعان: نفاق عَمَلي، ونفاق عَقَدي، والنفاق العملي لا يُخرج من المِلَّة، بخلاف النفاق العَقَدي الذي قال الله عن



أصحابه أنهم: ﴿فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء]، وهذا يعني أنه قد يوجد في بعض المسلمين من يكون فيه بعض خصال النفاق، وهذا يستفاد منه فائدة، هي دليل لأهل السُّنة، وهي أنه يمكن أن يجتمع في الرجل إسلامٍ ونفاق، أو إيمان ونفاق، أو إيمان وشرك، وقال بعض أهل العلم: إن إخوة يوسف ـ عليه الصلاة والسلام ـ وُجدت فيهم هذه الخصال، ولم يكونوا بذلك كفارًا، فهذا دليل لمذهب أهل الحق من السلف، أنه لا يكفر من أتى كبيرة من الكبائر، ولو كانت له خُلَّة وخصلة ملازمة، يعني لو لازم الإنسان هذا الخصلة طول حياته، لا يكون بذلك كافرًا، لأن النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ يقول: «**وَمَنْ كَانَ فِيهِ خَلَّةٌ مِنْهُنَّ كَانَ فِيهِ خَلَّةٌ مِنْ نِفَاقٍ حَتَّى يَدَعَهَا**» إذًا هو لا يكفر ولو أصرَّ على هذا الذنب طول حياته، خلافًا للخوارج والمعتزلة الذين يقولون: إن العبد إذا أَصَرَّ على فعل المعصية حتى مات، دخل النار خالدًا مخلدًا فيها أبدًا، أما أهل السنَّة فيقولون: إذا أَصَرَّ على خصلة مُحَرَّمة، أو كبيرة من الكبائر، فإنه إذا مات عليها، كان أمره إلى الله ﷻ، إن شاء عذَّبه، إن شاء عفا عنه، وأسقط عنه العقوبة، وهناك عشرة أنواع من مُسْقِطَات العقوبات، ذكرناها غير مرة.

** ** **

باب: مثل المؤمن كالزرع، ومثل المنافق والكافر كالأرزة

(٢٨) عن كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ الْخَامَةِ مِنْ الزَّرْعِ، تُفِيئُهَا الرِّيحُ، تَصْرَعُهَا مَرَّةً وَتَعْدِلُهَا أُخْرَى حَتَّى تَهِيجَ، وَمَثَلُ الْكَافِرِ كَمَثَلِ الْأَرْزَةِ الْمُجْذِيَةِ عَلَى أَصْلِهَا، لَا يُفِيئُهَا شَيْءٌ حَتَّى يَكُونَ انْجِعَافُهَا مَرَّةً وَاحِدَةً».

وفي رواية: «وَتَعْدِلُهَا مَرَّةً حَتَّى يَأْتِيَهُ أَجَلُهُ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ مَثَلُ الْأَرْزَةِ الْمُجْذِيَةِ الَّتِي لَا يُصِيبُهَا شَيْءٌ».

❖ الشرح:

تحت هذا الباب حديثان، وقد أخرجهما مسلم في كتاب: صفات المنافقين وأحكامهم، أما المنذري فقد أوردهما ههنا في كتاب الإيمان من مختصره.

«عن كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ ﵁»، هو الأنصاري السلمي المدني، الصحابي المشهور، وهو أحد الثلاثة الذين خُلِّفوا، مات في خلافة علي ﵁، روى له الستة.

قوله: «الْخَامَةِ مِنْ الزَّرْعِ» الخامة: هي القَصَبة الليِّنة من الزرع. «تُفِيئُهَا الرِّيحُ» أي: تقلبها يمينًا ويسارًا. «تَصْرَعُهَا مَرَّةً» أي: تخفضها. «وَتَعْدِلُهَا أُخْرَى» أي: ترفعها. «حَتَّى تَهِيجَ» أي: تَيْبَس.

وقوله: «الْأَرْزَةِ الْمُجْذِيَةِ» الأرزة: هي الشجر المعروف، يكون بالشام



وفي لبنان خاصَّة، وهو شجر فوق الجذع والأغصان، أما «**الْمُجْذِيَةِ**» فهي الثابتة المنتصبة «**حَتَّى يَكُونَ انْجِعَافُهَا**»، الانجعاف: الانقلاع.

ومعنى الحديث: إن المؤمن يُبْتَلَى في نفسه وأهله وماله، فتكفَّر سيئاته، وتُرفع درجاته، ويكثر أجره، فمَثَله كمثل الزرع الذي تقلبه الريح يمينًا وشمالًا، وهذا مثل الابتلاءات عليه.

وأما الكافر: فلا يُرزأ في شي إلا قليلًا، وإذا أُصيب لم يُؤْجَر فيلقى الله تعالى بذنوبه كاملةً، فهو كالأرزة التي لا تتمايل حتى تقلعها الرياح مرة واحدة، كالزرع إذا يبس انقلع مرة واحدة.

ولهذا كان النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ لا يُحَبِّذ أن يكون الإنسان لا يصاب بشي من الابتلاء، جاءه أعرابيٌّ أو أعرابيةٌ فقالت: إن عندي ابنة من أحسن الناس، وعَرَضَتْ عليه أن يتزوجها، فكأن النبي ﷺ قَبِلَ، ثم ذكرت أنها لم تصدع في حياتها، فقال ﷺ «**لا حاجة لي فيها**» كأنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أخذ هذه علامة على أن هذه المرأة ليس ممن فيه خير؛ لأن الله تعالى «**من يرد به خيرًا يُصِبْ منه**»(١).

فإذا كانت هذه المرأة ما أصيبت بصداع في حياتها، فكأنها ليست من المؤمنين الصالحين، ولذلك اجتنبها ﷺ، والحديث صحيح في مسند الإمام أبي يعلى وغيره.

ومع هذا فالمؤمن لا يتمنى البلاء، وإنما يسأل الله ﷻ العافية، ولكن إذا أُصيب بشيءٍ فليصبر، وليسال الله ﷻ أن يعافيه وليعلم أن في الصبر على ما يكره خيرًا كثيرًا، كما قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

** ** **

---

(١) كما جاء في حديث أبي هريرة ﷺ عند البخاري كتاب المرض (١٠/١٠٣).



(٢٩) عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ ﵄ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «أَخْبِرُونِي بِشَجَرَةٍ شِبْهِ أَوْ كَالرَّجُلِ الْمُسْلِمِ، لَا يَتَحَاتُّ وَرَقُهَا تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ» قَالَ ابْنُ عُمَرَ: فَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ، وَرَأَيْتُ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ لَا يَتَكَلَّمَانِ، فَكَرِهْتُ أَنْ أَتَكَلَّمَ وَأَقُولَ شَيْئًا، فَقَالَ عُمَرُ: لَأَنْ تَكُونَ قُلْتَهَا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كَذَا وَكَذَا.

❖ **الشرح:**

قوله: «عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ ﵄ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «أَخْبِرُونِي بِشَجَرَةٍ شِبْهِ أَوْ كَالرَّجُلِ الْمُسْلِمِ، لَا يَتَحَاتُّ وَرَقُهَا» لا يتحاتُّ ورقها: يعني لا يسقط ولا يتناثر.

قوله: «تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ» قَالَ ابْنُ عُمَرَ: فَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ» يعني حدَّث نفسه وأُلْقِيَ في رُوعه، كما جاء في الرواية: أنها النخلة، فعرف الجواب، لكن قال: «وَرَأَيْتُ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ لَا يَتَكَلَّمَانِ، فَكَرِهْتُ أَنْ أَتَكَلَّمَ وَأَقُولَ شَيْئًا، فَقَالَ عُمَرُ: لَأَنْ تَكُونَ قُلْتَهَا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كَذَا وَكَذَا».

هذا الحديث فيه فوائد جمَّة، منها: استحباب أن يُلقي العالم المسألة على طُلَّابه ليختبر فِكْرَهم وذكاءهم، ويرغِّبهم في إعمال الفكر والعقل؛ لأن الرسول -عليه الصلاة والسلام- ألقى المسألة على أصحابه، وقال: «أخبروني بشجرة شبه المؤمن» فسألهم ابتداء وهذه طريقة من طرق التدريس فيها جذب الانتباه وتشغيل الفكر، ويقال: إن هذه الطريقة كان يعتمدها الإمام أبو حنيفة ؒ، فإنه كان يطرح المسألة الفقهية على تلاميذه

ويطلب منهم الجواب، فإذا سمع أجوبتهم جميعًا، وجَّه الجواب الصحيح، ودلَّل عليه بالدليل.

وفيه: أن ضرب الأمثال والأشباه يُفيد في تفهيم المسائل؛ لأن المسائل المعنوية إذا ضربت لها أشباه وأمثال حسية؛ قربت من الفهم، وكان النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ كثيرًا ما يضرب الأمثال، وهكذا كتاب الله تعالى، القرآن مليء بالأمثال: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ...﴾ [البقرة: ٢٦١]، كثيرًا ما تقرأ هذا في كتاب الله تعالى، وقد شرح جملة طيبة من أمثال القران الإمام المحقق ابن القيم رحمه الله في كتابه «أعلام الموقعين» وجمع بعضُ المحدثين أمثال الرسول ﷺ في حديثه، ككتاب الأمثال للرامهرمزي، وغيره.

وفي الحديث: توقير الكبار، وأن هذا كان خُلُقًا معروفًا عند الصحابة رضي الله عنهم فكانوا يحترمون الكبير، ولا يتحدَّثون بين يديه، يعني لا يسبقونه بالكلام، فإذا حصل سؤالٌ تركوا الكلام للأكبر، لكن ينبغي لمن يَعرف جواب مسألة أن يُجيب ولو كان صغيرًا، إذا لم يتكلَّم الكبار؛ لأن عمر قال لابنه لما انفض المجلس: «**لَأَنْ تَكُونَ قُلْتَهَا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كَذَا وَكَذَا**»، فأخبره أن كلامه كان أحسن من سكوته.

وفي الحديث أيضًا من الفوائد: أن الإنسان يَفْرَح بنجابة ولده وحسن فهمه، وعمر لمَّا قال: لَأن تكون قلت: هي النخلة، أحبُّ إلي من كذا وكذا، كان يقصد أوَّلًا: أن يُعْلِمَ النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن ابنه عبد الله حَسَنُ الفهم، الأمر الثاني: لعلَّه أراد أن يفوز من النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ بدعوة صالحة فينتفع بها في حياته.

وفي الحديث أيضًا: فضل النخل، وأن النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ شبَّه النخلة بالمسلم في كثرة خيرها، والنخلة شجرةٌ عجيبة في كثرة الخير ودوامه، فثمرها دائم، بمعنى أنَّ ثمرها يُؤكل من حين يطلع إلى أن ييبس، وهو ينتفع به ولا يفسد إلى الحول التالي، فخيرها دائم، كذلك ينتفع بكربها وأوراقها وسعفها في الحطب، وفي صنع الحُصُر والسلال والحبال، وبالنوى فإنه يكون عَلَفًا للدواب، ثم جِمَارها وهو مناسبة الحديث، فإن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ جِيء له بجمار فذكر هذا السؤال، والجمار: هو ما يكون في قلب النخلة، ويُستخرج بعد قلعه النخلة وهو أبيض طيب الطعم.

فالنخلة فيها من المنافع ما ذكرنا، بالإضافة إلى جمال الشكل، وحسن الهيئة والصورة، وكذلك المؤمن خيرٌ كله، في كثرة طاعاته، ودوام صلاته وصيامه وزكاته، وذكره وقراءته، وسائر طاعاته، ولهذا شبَّه النبي ﷺ النخلة بالمسلم؛ لدوام الخير وكثر المنافع.

** ** **

باب: الحياء من الإيمان

(٣٠) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنْ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ».

❖ **الشرح:**

في الباب حديثان، خرَّجهما مسلم في الإيمان، وبوَّب عليهما النووي (٢/٣): باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها وفضيلة الحياء، وكونه من الإيمان.

❋ **الأول: حديث أبي هريرة ﷺ.**

وهذا الحديث فيه فوائد عظيمة، وهو من الأحاديث التي يَكثر ذكرها وتكرارها على الألسن، ووقع في أكثر الروايات كما قال القاضي عياض: «**الإيمان بضع وستون شعبة**» ولذلك صوَّب هذا اللفظ على غيره واختاره وأعلت رواية: «**بضع وسبعون**» بأنها شك من سهيل بن أبي صالح، الراوي عن أبيه عن أبي هريرة، والبخاري رحمه الله اعتمد رواية: «**بضع وستون شعبه**».

قوله: «بِضْعٌ» بكسر الباء وفتحها هو للعدد، أما بالضم (البُضْعُ) فهو للَّحم أو قطعة اللحم، (والبضع) ما بين الثلاث إلى التسع، وقيل: إلى العشر، وزاد بعضهم ما بين الاثني عشر إلى العشرين.



و«**شُعْبَةً**» هي القطعة من الشيء، وهنا معناها: الخصلة، فيكون المعنى: أن الإيمان بضع وسبعون خصلة، أو بضع وستون خصلة، وقد اجتهد بعض العلماء في عدِّ هذه الشُّعب، وصنفوا فيها مصنفات، من أغزرها فائدةً كتاب أبو عبد الله الحليمي واسمه: «المنهاج في شعب الإيمان» مطبوع في ثلاث مجلدات، وعلى منواله صَنَّف الإمام أبو بكر البيهقي رحمه الله كتابه الجليل الحفيل «شعب الإيمان»، وفيه روايات ضعيفة؛ لكنه كتاب عظيم، فيه من الفوائد والفرائد الشيء الكثير. وقال أبو حاتم بن حيان: عدَدْتُ الطاعات فوجدتها أكثر من بضع وسبعين، ثم أحصيت عدد الأحاديث التي ذكر فيها الأعمال التي ربطت بالإيمان فوجدتها تنقص عن بضع وسبعين، ثم أحصيت ما في الكتاب فوجدته ينقص عن بضع وسبعين، فلما جمعت ما بين الكتاب والسنة صارت تسعًا وسبعين لا تزيد ولا تنقص، وذكرها في كتابه المعروف بـ «صحيح ابن حبان»، والرسول ﷺ لم يعدد أو يسرد هذه الشعب؛ ليجتهد الناس في العمل بخصال الإسلام كله، وأعظم تلك الخصال التوحيد فقال هنا: «**فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**» فالتوحيد متعين على كل أحدٍ، لا يصح الإيمان إلَّا به، ولا تصح شعبة من الشُّعب إلا بعد صحة الإيمان، فأعلى درجات الإيمان التوحيد، وما جاء في الكتاب من برِّ الوالدين والإحسان إلى القرابة، والإحسان إلى الجارِ، وإلى الصاحب، وإلى المسكين واليتيم والمملوك، والصِّدق والعفاف والجود والشجاعة، وكل ما مدح في الكتاب والسنة من خلق، ومنه الحياء، فهو من خصال الإيمان.

وقوله: «**وَأَدْنَاهَا**» أدنى شُعب الإيمان وخصاله:

«**إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنْ الطَّرِيقِ**» يعني: أن ينحِّي عن طريق المسلمين كل



شجر أو مدر أو شوك يؤذي المسلمين، وهذه من خصال الإيمان التي يغفل عنها الناس اليوم، فتجد بعض الناس يُضايق المسلمين في طرقاتهم، إما بسيارته، وإما بأن يَصُبَّ ماءً في طريقهم فيتأذون به، وربما يُلقي القمامة في طريق المسلمين، وربما يكون عنده بناءٌ أو شيء فيلقي الرُّكام من التراب والصخر في طريق المسلمين، وربما بعضهم يبني بناءً أو يضع سورًا يقطع به طريق المسلمين بحجة أن هذا أمام بيته، وهذا كلُّه مما نهت عنه الشريعة؛ إذ لا يجوز للمسلم أن يؤذي المسلمين في طرقهم، ومنه ما جاء في الحديث الصحيح في النهي عن قضاء الحاجة في طريق المسلمين؛ لأن هذا مما يجلب للإنسان اللعنة، وهو قوله ﷺ: «**اتقو اللعانَيْن**» قالوا: وما اللعانان يا رسول الله؟ قال: «**الذي يتخلى في طريق الناس، أو في ظلهم**»[(١)].

وفي الحديث الآخر: «**من آذى المسلمين في طرقهم، وجبت عليه لعنتهم**»[(٢)].

قوله: «**وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الْإِيمَانِ**» الحياء يعرفه العلماء بأنه: خلق يبعث على ترك القبيح، ويمنع من التقصير في حق ذي الحق، فمن له حق عليك، الحياء يمنعك من التقصير في حقِّه، والحياء مشتقٌّ من الحياة، ولذلك يصح أن يقال: يستحي ويستحيي، وهذه أفصح، وبها نزل القرآن: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦].

---

(١) رواه الإمام مسلم في الطهارة (١/٢٢٦)، وأحمد (٢/٣٧٢).

(٢) حديث حسن، رواه الطبراني في الكبير (٣٠٥٠) من حديث حذيفة بن أسيد رضي الله عنه وله شاهد من حديث أبي ذر مرفوعًا، رواه أبو نعيم في تاريخه (٢/١٢٩) وحسنه الألباني في الصحيحة (٢٢٩٤).



والحياء من صفات الله ـ تبارك وتعالى ـ اللائقة به، وكلُّ صفة ثبتت لله تعالى وثبتت للمخلوق، فإننا نثبت لله ﷻ أعلى هذه الصفة، من غير تمثيل ولا تأويل. أما الأشاعرة وغيرهم فقالوا: الحياء المراد به: الترك!! يقولون: إننا نفسِّر صفات الله التي فيها انفعالات، بنهاية تلك الانفعالات وهي المفعول! فقالوا: الحياء انقباض في النفس، وهذا انفعال في داخل الإنسان، لكن الله ﷻ يتنزه عن هذا! هكذا يقولون، فما هو نتيجة هذا الانقباض؟ قالوا: الترك، فيكون معنى الحياء في حق الله الترك! والرحمة: قالوا هي رِقَّةٌ في القلب، وهذا انفعال، مفعوله ماذا؟ قالوا: الإحسان والصلة، فأنت إذا رحمت إنسانًا، أحسنت إليه وأثبته، ففسروا الصفات بنهاياتها!!

وهذا كله مما يُخالف القرآن؛ لأن الصحابة ﭫ تلَّقوا هذا بالقبول، ولم يتكلموا فيه، ولم يؤولوه أو يحرِّفوه.

وقوله: «**وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الْإِيمَانِ**» يعني خلق من أخلاق الإيمان، وقد روى الحاكم في «مستدركه» أن الرسول ﷺ قال: «**إن الحياء والإيمان قرنا جميعًا، فإذا رفع أحدهما رفع الآخر**».

ولهذا؛ فقليل الحياء من الناس قليلُ الإيمان، وقليل الإيمان قليل الحياء؛ لأن الحياء خلق من أخلاق أهل الإيمان، فإذا زاد الإيمان زاد الحياء.

وما أعظم الحياء؟ أعظم الحياء أن تستحي أن يراك الله على معصية، هذا هو أعظم الحياء، كما قال ﷺ: «**ليستحي أحدكم ربه، كما يستحي**



الرجل الصالح من قومه»[١]، أو كما قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ يعني لو كان في المجلس رجل صالح، فإنك تستحي أن تصنع أمامه شيئًا قبيحًا، فاستحِ من الله مثل ذلك بل أعظم؛ لأن الله تعالى يراك على كل حال، وقد أحسن من قال:

وإذا خلوت بريبة في ظلمة ... والنفس داعية إلى العصيان
فاستحي من نظر الإله وقل لها: ... إن الذي خلق الظلام يراني

وفي الحديث قال ﷺ: «**ألا تستحيون؟**» قالوا: إننا لنستحي يا رسول الله، قال: «**ليس ذلك، من استحيا من الله حق الحياء، فليحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، وليذكر الموت والبِلَى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا، فمن فعل ذلك، فقد استحيا من الله حق الحياء»**[٢].

** ** **

(١) حديث صحيح رواه أحمد في الزهد (ص٤٦)، والطبراني في الكبير (٥٥٣٧)، والبيهقي في الشعب ( ) بلفظ: «**أوصيك أن تستحي من الله**».

(٢) حديث حسن رواه أحمد (٣٨٧/١) والترمذي (٦٣٧/٤)، وغيرهما. انظر: تحقيقنا لكتاب «الورع» لابن أبي الدنيا (٥٩).



(٣١) عن أَبي قَتَادَةَ ﷺ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ فِي رَهْطٍ، وَفِينَا بُشَيْرُ بْنُ كَعْبٍ، فَحَدَّثَنَا عِمْرَانُ يَوْمَئِذٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الْحَيَاءُ خَيْرٌ كُلُّهُ»، أَوْ قَالَ: «الْحَيَاءُ كُلُّهُ خَيْرٌ» فَقَالَ بُشَيْرُ بْنُ كَعْبٍ: إِنَّا لَنَجِدُ فِي بَعْضِ الْكُتُبِ أَوْ الْحِكْمَةِ أَنَّ مِنْهُ سَكِينَةً وَوَقَارًا للهِ، وَمِنْهُ ضَعْفٌ. فَغَضِبَ عِمْرَانُ حَتَّى احْمَرَّتَا عَيْنَاهُ، وَقَالَ: أَلَا أَرَانِي أُحَدِّثُكَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَتُعَارِضُ فِيهِ، قَالَ: فَأَعَادَ عِمْرَانُ الْحَدِيثَ، قَالَ: فَأَعَادَ بُشَيْرٌ، فَغَضِبَ عِمْرَانُ، فَمَا زِلْنَا نَقُولُ فِيهِ: إِنَّهُ مِنَّا يَا أَبَا نُجَيْدٍ، إِنَّهُ لَا بَأْسَ بِهِ.

❖ **الشرح:**

الحديث الثاني في هذا الباب.

حديث أبي قتادة ﷺ واسمه: الحارث بن ربعي السلمي، وشهد أحدًا وما بعدها، وهو فارس من فوارس الأنصار، ومات سنه أربع وخمسين.

وعمران بن حصين ﷺ هو ابن عبيد الخزاعي، أسلم عام خيبر، وصحب رسول الله ﷺ وكان فاضلًا، وقضى بالكوفة، ومات سنة ٥٢ هجرية بالبصرة.

«عَنْ أَبي قَتَادَةَ ﷺ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ فِي رَهْطٍ» الرهط: ما دون العشرة، من الرجال خاصة، ولا يكون فيهم امرأة.

«وَفِينَا بُشَيْرُ بْنُ كَعْبٍ، فَحَدَّثَنَا عِمْرَانُ يَوْمَئِذٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الْحَيَاءُ خَيْرٌ كُلُّهُ»، أَوْ قَالَ: «الْحَيَاءُ كُلُّهُ خَيْرٌ» فَقَالَ بُشَيْرُ بْنُ كَعْبٍ: إِنَّا لَنَجِدُ فِي بَعْضِ الْكُتُبِ أَوْ الْحِكْمَةِ أَنَّ مِنْهُ سَكِينَةً وَوَقَارًا للهِ، وَمِنْهُ ضَعْفٌ. فَغَضِبَ



عِمْرَانُ حَتَّى احْمَرَّتَا عَيْنَاهُ» هذه لغة صحيحة على لغة من يقول: أكلوني البراغيث، والأصل: حتى احمرَّت عيناه، وهي رواية لأبي داود.

«وَقَالَ: أَلَا أَرَانِي أُحَدِّثُكَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَتُعَارِضُ فِيهِ، قَالَ: فَأَعَادَ عِمْرَانُ الْحَدِيثَ، قَالَ: فَأَعَادَ بُشَيْرٌ، فَغَضِبَ عِمْرَانُ، فَمَا زِلْنَا نَقُولُ فِيهِ: إِنَّهُ مِنَّا يَا أَبَا نُجَيْدٍ، إِنَّهُ لَا بَأْسَ بِهِ» هذا الحديث فيه أن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال: **«الْحَيَاءُ خَيْرٌ كُلُّهُ»** لماذا؟ لأنه كما قلنا: خلق يبعث على ترك القبيح، ويمنعك في التقصير في حقِّ ذي الحق، فإن قال قائل: إن بعض الناس يترك الخير حياءً، مثل أن يترك الآمر بالمعروف، أو النهي عن المنكر، أو التعليم، حياء من الناس، فنقول له: إن هذا ليس بحياء، وإن تعارف بعض الناس على تسميته حياءً؛ بل هو كما قال العلماء: ضعف وخَوَر ومهانة؛ لأن القوي في إيمانه، لا يضعف عن تبليغ الدين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فإن قيل: إن الحياء أمرٌ فطري، فكيف يكون من الإيمان؟

فالجواب: إن الحياء وإن كان فِطْريًا، فإن توجيه هذا الخلق وجعله في الموضع الذي يحبه الله تعالى ويرضاه، يحتاج إلى مجاهدة وتربية.

قوله: **«فَقَالَ بُشَيْرُ بْنُ كَعْبٍ: إِنَّا لَنَجِدُ فِي بَعْضِ الْكُتُبِ أَوْ الْحِكْمَةِ»** لعله يقصد التوراة.

قوله: **«أَنَّ مِنْهُ سَكِينَةً وَوَقَارًا للهِ، وَمِنْهُ ضَعْفٌ. فَغَضِبَ عِمْرَانُ»** هذا الكلام يعارض قول النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ: **«الْحَيَاءُ خَيْرٌ كُلُّهُ»** والمعارضة أن تتكلم بكلام يخالف ما يتكلم به المتكلم، فغضب عمران منه وما زال الصحابة والجالسون يهدِّئونه ويقولون: **«إِنَّهُ لَا بَأْسَ بِهِ»** يعني: أنه

ليس من أهل النفاق، أو الزندقة، أو البدعة، أو الهوى؛ بل إنه رجل صالح مستقيم، وهذا يبيِّن لنا أن الصحابة ﷺ كانوا يغضبون من معارضة حديث الرسول ﷺ، ولا يرضَوْن لأحد أن يسلك هذا المسلك؛ لأن هذا يخالف الإيمان، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء].

فمن تعظيم الله تعالى، وتوقير رسوله ﷺ، أن لا تُعارض ما ورد في الكتاب الكريم أو السنَّة المطهَّرة؛ بل تسلِّم وتنقاد وتستجيب، وإذا وجدت في نفسك حديثًا يُعارض حديثًا أو آية؛ فاسأل عنها أهل العلم إذا لم تستطع حل الإشكال ومعرفة الجواب، فلتعلم أن النصوص ليس فيها اختلاف ولا تعارض إلا بحسب ما يقع في نفوسنا، وإلا ففي حقيقة الأمر ليس هناك اختلاف ولا تعارض، ومن أعظم الناس تقديسًا للنصوص: أهل السنة والجماعة؛ لأنهم لا يقدِّمون على قول الله تعالى ولا قول رسوله ﷺ، لا قياسًا، ولا رأيًا، ولا سياسة، ولا عقلًا، أو فلسفةً، بخلاف غيرهم من أهل الأهواء، فأهل الفلسفة والكلام يُقدِّمون العقل على النقل، ويقولون: إذا تعارض العقل والنقل قدَّمنا العقل، وأهل السياسات الجائرة قالوا: إذا تعارضت السياسة والدين، قدَّمنا السياسة! وأهل التصوف قالوا: إذا تعارضت النصوص مع الوجد والكشف والذَّوق، قدَّمنا الوجد والكشف والذوق، وأهل الرأي إذا تعارضت عندهم النصوص مع أرائهم، قدموا آرائهم وأهواءهم على كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ.

أما أهل الحديث ـ أهل السنة والجماعة ـ فإنهم لا يقدِّمون على كتاب الله ولا سنة رسول الله ﷺ قولَ أحد، كائنًا من كان.



باب: من الإيمان حسن الجوار وإكرام الضيف

(٣٢) عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ الْخُزَاعِيِّ ﷺ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ؛ فَلْيُحْسِنْ إِلَى جَارِهِ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ؛ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ؛ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَسْكُتْ».

❖ **الشرح:**

الحديث خرَّجه مسلم في الإيمان، وبوَّب عليه النووي (١٨/٢): باب الحث على إكرام الجار والضيف، ولزوم الصمت إلا عن خير، وكون ذلك كله من الإيمان.

أبو شُريح الخزاعي، والكعبي، اسمه: خويلد بن عمرو أو عكسه، وقيل غير ذلك، صحابي نزل المدينة، مات سنة ٦٨ هجرية على الصحيح، قاله الحافظ، أخرج له الستة.

قوله: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ؛ فَلْيُحْسِنْ إِلَى جَارِهِ**» وفي رواية البخاري، وهي أيضًا رواية لمسلم: «**فليكرم جاره**».

ومعنى: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ**» أنه مَنْ كان عنده الإيمان والإسلام، فإن أخلاق الإيمان والإسلام تستوجب أن يكرم الجار، ويحسن إليه.

والرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ في هذا الحديث، لم يُعَدِّد أنواع الإحسان الذي ينبغي أن يكون إلى الجار، وورد في بعض الأحاديث

ـ وفيها مقال ـ أن النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ عدَّدَ هذا الإحسان، فقال: «**يُقرضه إذا استقرضه، ويعينه إذا استعانه، ويَعُوده إذا مرض، ويُعَزِّيه إذا أُصيب، ويتبع جنازته إذا مات، وإذا طبخ مرقة فلا يؤذه بريحها، ولا يعطيه منها شيء، وإذا دخل فاكهة يُدخِلُها سرًّا، ولا يخرج ولده بها ليؤذي ولد جاره**».

وقد أوصى الله تعالى بالإحسان إلى الجار في كتابه في قوله: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ [النساء: ٣٦].

فالجار ذو القربى: هو الجار الذي بينك وبينه قرابة، **والجار الجنب**: هو الجار البعيد عنك نَسَبًا.

فالجيران ثلاثة: فجار له حق واحد: وهو الجار المشرك الذي لا رحم له.

وجار له حقان: وهو الجار المسلم، له حق الجوار وحق الإسلام.

وجار له ثلاثة حقوق: وهو الجار المسلم ذو القرابة، له حق الجوار، وحق الإسلام، وحق القرابة(١).

والإحسان إلى الجار من شعب الإيمان المذكورة في حديث أبي هريرة السابق: «الإيمان بضع وستون شعبة»(٢).

قوله: «**وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ؛ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ**» هذا عطف

---

(١) وقد ورد معنى ذلك مرفوعًا من حديث جابر، أخرجه البزار (١٨٩٦ زوائد)، والطبراني، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/٢٠٧) ولا يصح، وانظر: «ضعيف الجامع» (٢٦٧٣).

(٢) متفق عليه.



على الجملة الأولى، وهو أيضًا من خصال الإيمان وشعبه.

وإكرام الضيف من أدب الإسلام، وهو خلق كان مشهورًا في الجاهلية، فجاء الإسلام وأقَرَّه وحثَّ عليه، وبيَّن أنه من أخلاق النبيين والصالحين، وذكر الله تعالى قصَّة إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وكيف أكرم ضيفه، وجاء لهم: ﴿بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ ولم يتأخَّر عليهم في إحضاره بحيث يتركهم يجوعون، ثم وضعه بين أيديهم، وغير ذلك من أنواع الإحسان والإكرام للضيف المذكورة في قصة إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

وظاهر قوله ﷺ: «فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ» يدل على الوجوب، لأنه أمر، والأمر يقتضي الوجوب كما هو معلوم، وقال كثير من الفقهاء: إنَّ إكرام الضيف من مكارم الأخلاق، وليس من الواجبات، لكن يُرَدُّ عليهم بهذا الحديث: «فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ» ويُرَدُّ عليهم أيضًا بحديث عقبه رضي الله عنه مرفوعا: «**إن نزلتم بقوم فأمروا لكم بحق الضيف فأقبلوا، فإن لم يفعلوا، فخذوا منهم حق الضيف الذي ينبغي لهم**»(١) يعني يأخذون منهم قَصْرًا ما ينبغي للضيف أن يكرم به من الطعام، وهل هو واجب على الحاضر والبادي، أو أنه يجب على أحدهما؟ قال الشافعي رحمه الله: أنه يجب على الحاضر والبادي إكرام الضيف، وقال الإمام مالك: إنه يجب على البادي فقط، وأما الحاضر فإنه سيجد في الفنادق وفي الأسواق من الأطعمة ما يغنيه عن النزول على الناس.

والأصل أن يبقى اللفظ على عمومه؛ لأنه لم يأتِ ما يخصص هذا اللفظ، وما قاله الإمام مالك له وجه: من حيث إنه يزداد تأكدًا عند انقطاع الإنسان، يعني إذا علمت أن هذا الإنسان منقطع، وإذا لم تُعْطِهِ ولم تكرمه

(١) متفق عليه.



ربما يهلك، لا شكَّ أن هذا أوجب وآكد من الضيف الذي يَقْدِرُ على الاستغناء عن النزول على الناس.

واحتج من قال بأنها من مكارم الأخلاق بقوله -عليه الصلاة والسلام- في رواية البخاري: «**فليكرم ضيفه جائزته**» قالوا: الجائزة هي الصلة والعطية، وهذه الصلة والعطية ليست واجبة؛ بل هو من الاختيار، وقال غيرهم: إن الجائزة هنا بمعنى أن يجيزه، بمعنى يعطيه ما يستطيع به الجواز والمرور.

وترجع إلى قوله -عليه الصلاة والسلام-: «**فليكرم ضيفه جائزته يوم وليلة، والضيافة ثلاثة أيام، فما زاد بعد فهو صدقة، ولا يحل له أن يبقى عنده حتى يحرجه**» فقوله -عليه الصلاة والسلام-: «**فما زاد فهو صدقة**» دليل على أن ما كان قبل ذلك واجب، وهذا أيضًا من حُجَجِ مَنْ قال بوجوب الضيافة، وهو قويٌّ متَّجِهٌ، ونصره الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى وغيره. فإكرام الضيف يوم وليلة جائزة، يعني زيادة في التكلف في الاستقبال وفي الطعام وفي الحديث معه. والضيافة ثلاثة أيام، وهل يدخل معها اليوم والليلة؟ أو ثلاثة أيام غير اليوم والليلة؟ قد قال بِكِلَا القولين طائفة، ولعل الراجح أن إكرام الضيف الجميع، ثلاثة أيام، منه يوم وليلة جائزة، وما كان بعد ذلك فهو على عادته من غير تكلف، وما زاد على الثلاثة أيام فهو صدقة. ولا يحلُّ له أن يَبقى عند مُضِيفِهِ حتى يُحْرِجَهُ، يعني يُوقعه في الحرج أو في الإثم، ولا يحِلُّ له أن يَبْقَى حتى يتكلَّف صاحب البيت الاستدانة أو الاستقراض، من أجل أن يضيفه.

قوله: «**وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ؛ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَسْكُتْ**»



ومن خصال الإيمان: أن يمتنع الإنسان عن الكلام إلا في الخير، وقد ورد في هذا الباب أحاديث كثيرة، منها: الحديث المتفق عليه: **«المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»** فالمسلم هو الذي يَسْلَمُ الناس من شَرِّ لسانه، فعلى الإنسان إذا أراد أن يتكلم أن يتفكر في كلامه، فإن كان فيه خير فليمضي، وإن كان فيه شر فليسكت، وإن كان مُباحًا فالأفضل له أيضًا أن يسكت؛ لأن الكلام إما أن يؤول به إلى الخير، وإما أن يؤول به إلى الشر، وكثير من المُباحات يكره التوسع فيها، لأنها تَجُرُّ إلى الحرام أو إلى المكروه، ولهذا يستحَبُّ للإنسان الصمت إذا كان لا مجال للكلام في الخير؛ لا أن يسكت عن الخير، كأن يسكت عن الأمر بالواجب، فإن الساكت عن الحق شيطان أخرس، كما قال أبو علي الدقَّاق رحمه الله، كما أن المتكلم بالباطل شيطان ناطق. وقال الفضيل بن عياض: «من عَدَّ كلامه من عمله، قَلَّ كلامه فيما لا يعنيه». وقال الإمام الجليل أبو محمد عبد الله بن أبي زيد المالكي صاحب كتاب «الرسالة»: «جِمَاع آداب الخير يتفرع من أربعة أحاديث: قول النبي ﷺ: **«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت»** وقوله ﷺ: **«من حُسْنِ إسلام المرء، تركه ما لا يعنيه»** وقوله ﷺ للذي أختصر له الوصية: **«لا تغضب»** وقوله ﷺ: **«لا يؤمن أحدكم حتى يُحِبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه»**[1].

** ** **

---

(١) شرح النووي (١٩/٢).



باب: لا يدخل الجنة من لا يأمنُ جارُه بوائِقَهُ

(٣٣) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ».

❖ الشرح:

الحديث خرَّجه مسلم في الإيمان، وبوب عليه النووي (١٧/٢): باب بيان تحريم إيذاء الجار.

الصحابي الجليل أبو هريرة ﷺ مضت ترجمته.

قوله: «**أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ**» البائقة وجمعها بَوائق، هي: الدَّواهي، والأمور التي فيها مصائب، ومعنى الحديث: أن الإنسان الذي لا يأمن جارُهُ شَرَّهُ وبوائقه ودواهيه، لا يدخل الجنة، وهل هذا على الإطلاق؟ أم أنه يُؤَخَّر عن دخول الجنة بسبب هذه الكبيرة؟ الثاني هو الصحيح. فالمقصود بقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ**» يعني يُؤَخَّر عن دخول الجنة بسبب هذه الكبيرة، ويُحرم أن يكون مع أول الداخلين، جمعًا بينه وبين نصوص الكتاب والسنة الكثيرة التي فيها مثل هذا التعبير، كقوله: «**لا تدخلوا الجنة حتى تحابُّوا**»[1]، يعني: لا يكون دخولكم مقطوعًا به في أول الداخلين حتى تحابُّوا، وهذا يدلُّ على أن هذا الفعل من كبائر الذنوب، إذ

---

(١) رواه مسلم في صحيحه.



منع الإنسان من دخول الجنة ابتداء، نعوذ بالله مولانا من ذلك، فالمؤمن الحق هو الذي يأمنه جاره، كما قال ﷺ في الحديث المشهور: «**المؤمن من أَمِنَهُ الناس على أنفسهم وأموالهم**»(١)، فالذي يؤمن جانبه، ويؤمن شره هو المؤمن، والذي يستأمنه الناس ويثقون به هو المؤمن، وكان الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ قَبْلَ الإسلام وقبل عصر النبوة والرسالة، كان الناس يأمِّنُونه ويثقون به، ويستودعونه أموالهم، وكان يسمى بالصادق الأمين؛ لكثرة ما يأتمنه الناس، فهذه من خصال الخير العظيمة، والإسلام جاء بالحث على التخلُّق بها.

**   **   **

(١) حديث صحيح رواه أحمد، والترمذي (٢٦٢٧)، والنسائي (٨/١٠٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.



باب: من الإيمان تغيير المنكر باليد واللسان والقلب

(٣٤) عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ قَالَ: أَوَّلُ مَنْ بَدَأَ بِالْخُطْبَةِ يَوْمَ الْعِيدِ قَبْلَ الصَّلَاةِ مَرْوَانُ، فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ فَقَالَ: الصَّلَاةُ قَبْلَ الْخُطْبَةِ، قَدْ تُرِكَ مَا هُنَالِكَ، فَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ: أَمَّا هَذَا فَقَدْ قَضَى مَا عَلَيْهِ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ».

❖ **الشرح:**

في الباب حديثان، الأول: أخرجه مسلم في الإيمان، وبوب عليه النَّووي (٢/٢١): باب كون النهي عن المنكر من الإيمان، وأن الإيمان يزيد وينقص، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان.

«عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ» هو الأحمسي، وعلى الراجح أنه صحابي له رؤية، مات سنه ٨٢ أو٨٣ هـ، أخرج له الستة.

قوله: «أَوَّلُ مَنْ بَدَأَ بِالْخُطْبَةِ يَوْمَ الْعِيدِ قَبْلَ الصَّلَاةِ مَرْوَانُ» أي مروان بن الحكم، وكان يومئذ أميرَ المدينة، وقد جاء أن عثمان كان قد بدأ بالخطبة قبل الصلاة، ويروى عن عمر، وعن ابن الزبير، ولكن هذا كله لا يصح، والله أعلم؛ لأنه قد ثبت أن الخلفاء الراشدين كلهم كانوا يبدؤون بالصلاة قبل الخطبة يوم العيد، وهو شِبْه إجماع منهم، وعلى هذا سار المسلمون على مَرِّ العصور، فيقول طارق بن شهاب: أن أول من بدأ بالخطبة قبل الصلاة مروان بن الحكم.



قوله: «**فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ فَقَالَ: الصَّلَاةُ قَبْلَ الْخُطْبَةِ**» يعني أنكر عليه، لماذا تبدأ بالخطبة قبل الصلاة؟ بل الصلاة قبل الخطبة.

قوله: «**فَقَالَ: قَدْ تُرِكَ مَا هُنَالِكَ**» يعني قد ترك هذا الأمر.

«**فَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ: أَمَّا هَذَا فَقَدْ قَضَى مَا عَلَيْهِ**» وقد يقول قائل وما السبب الذي منع أبا سعيد من أن ينكر على مروان بن الحكم؟ في ذلك عدة احتمالات منها: أن أبا سعيد الخدري لم يكن حاضرًا عندما بدأ بالخطبة قبل الصلاة، أو ربَّما كان حاضرًا لكن بادره هذا الرجل وسبقه إلى الإنكار، أو ربَّما كان أبو سعيد الخدري يخشى من عواقب إنكاره على هذا الإمام، وقد جاء في رواية للصحيحين: «**أن أبا سعيد الخدري أنكر على مروان وجذبه بردائه**» فلعل الأمر قد تكرر، يعني أن هناك أكثر من حادثة في هذا الباب.

أما قوله: «**فَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ: أَمَّا هَذَا فَقَدْ قَضَى مَا عَلَيْهِ**» يعنى من الواجب، فالواجب الذي على هذا الإنسان أن يُنْكِرَ بلسانه، وهو قد قام بذلك، فسقط ما عليه من الواجب.

قوله: «**سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ**» هذه درجات إنكار المنكر، أنها تكون باليد الذي يزيل به الإنسان المنكر الموجود، كأن يُهْرِق الخمر، أو يكسر الصليب، أو يكسر آلة اللهو والطرب، هذا كله من تغيير المنكر باليد، وإما أن يكون ذلك باللسان، أن ينكر بلسانه كما فعل هذا الرجل، فيذكر بأمر الله تعالى أو أمر رسوله ﷺ وَيعِظَ ويُخوِّف: «**فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ**» يعني أقله ثمرة أن ينكر الإنسان بقلبه؛ لأن ثمرة الإيمان في هذه الحالة تكون قليلة،

وعائدته على الشخص نفسه فقط، وهو آخر مراحل الإيمان، وإن لم يوجد في القلب ذلك دل على انتقاء الإيمان بهذه الفريضة من القلب. وهذا الحديث في الحقيقة فيه مباحث طويلة لا نستطيع أن نفصِّلها في هذه العُجَالة، لكن لا بأس أن نشير إلى أهمِّها أو إلى رؤوسها:

أولًا: دَلَّ هذا الحديث على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب؛ لأن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال: «**مَنْ رأى منكم منكرًا فليغيره**» وهذه اللام لام الأمر، وهي تفيد الوجوب، ودل على وجوبه أيضًا الكتاب، وإجماع المسلمين، ليس بينهم اختلاف في أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب، وأما قول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]، فمعنى هذه الآية: أنكم إذا فعلتم ما كُلِّفتم به من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فإنه لا يضرُّكم ضلال مَنْ لم يقبل منكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأن الله تعالى كلفنا بالأمر والنهي ولم يكلفنا القبول، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦].

ثانيًا: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية، إذا قام به من يكفي، سقط الإثم عن الباقين، وإذا لم يقم به أحد أَثِمَ الجميع، وإذا كان في موضع لا يعلم به إلا أنت؛ فقد تعين عليك، مثل: أن يكون هذا المنكر في بيتك، أو في زوجتك، أو في ولدك، ولا يعلم به أحد من الناس إلا أنت، ففي هذه الحالة يتعيَّن عليك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأنه لا يمكن إزالته إلا عن طريقك، ومَنْ رأى في أهله منكرًا فإنه لا يكفي أن يغيِّره بقلبه ولا بلسانه؛ بل لابُدَّ أن يغيره بيده، مثل: مَنْ رأى في يَدِ ابنه



آلة طَرَبٍ؛ وجب عليه أن يكسِرَها، لا يكتفي بأن يُنكر عليه باللِّسان، ومن سمع في داره مزمارًا أو رأى فيه صورةً أو صليبًا؛ وجب عليه أن يغيره بيده؛ لأنه لا يكفي فيه التغيير باللسان مع قدرته على إزالته باليد والقوة.

ثالثًا: ومن المسائل: أن مجرَّد الظن أن المأمور لا يَنْتَهِ بالأمر بالمعروف، ولا بالنهي عن المنكر، لا يسقط عنك هذه الفريضة؛ لأن الله تبارك وتعالى قد أوجب علينا الأمر والنهي، ولم يوجب علينا القبول، كما ذكرنا.

وقال الله تعالى لرسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾﴾ [النحل]، فالرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ مكلَّف بالبلاغ وليس مكلفًا بأن يَقبل منه الناس، لكن إن غلب على ظنك أنه لا ينتفع (أي المأمور)، كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مستحبًّا؛ لقول الله تعالى ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾﴾ [الأعلى].

رابعًا: ومن المسائل: لا يشترط أن يكون الآمر بالمعروف ممتثلًا لما يأمر به، والناهي عن المنكر أن يكون منتهيًا عن ينهى عنه، لا يشترط ذلك؛ بل يجب عليك أن تأمر بالمعروف ولو كنت تخالفه، وتنهى عن المنكر ولو كنت تأتيه؛ لأن تركك للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر معصية، وقيامك بفعل المحرم أو ترك الواجب معصية أخرى.

فحقٌّ على كلِّ مُسلم أن ينهى عن المنكر، ويأمر بالمعروف ولو كان مقصِّرًا، ثُمَّ إن هذا الشرط صعبُ التحقيقِ، ولو قلنا: لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر، إلا مَنْ حقَّق أوامر الله، وتَرَكَ نواهيه وزواجره، لم يبق مَن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، كما قال القائل:

إذا لم يعظ الناس من هو مذنب فمن يَعِظُ العاصين بعدك يا محمد

فمن ذا الذي يخلو من الذنب والمعصية ؟!

خامسًا: ومن المسائل: أن الأمر بالمعروف لابدَّ له من علم، يعني أن يكون الآمر بالمعروف عالمًا بما يأمر به، عالمًا بما يَنْهى عنه، لئلَّا يأمر بمنكر، وينهى عن معروف، أما المسائل الظاهرة كوجوب الصلاة والصيام والزكاة والحج، وكحرمة الزنا والخمر والربا وما أشبه ذلك، فهذا كل الناس تستوي في معرفته، وأما دقائق الأفعال والأقوال؛ فإن المرجع في الأمر بها والنهي عنها إلى العلماء؛ فإن كانت المسائل دقيقة؛ فلا يستعجل الإنسان، حتى يتثبت ويتأكَّد من صحة ما يأمر به أو ينهى عنه.

سادسًا: لابد للآمر بالمعروف من التزام الرفق واللين مع من يأمره أو ينهاه؛ لأن الله تعالى قال لموسى: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه].

وقال سبحانه عن رسول الله ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، فاللين مظنة القبول، فإذا تكلمت مع الإنسان بلين؛ فالغالب أنه يقبل منك، أما العنف؛ فإنه يحرم الإنسان الاستجابة في الغالب، إلا إن كان في موضعه؛ لأن العنف في موضعه من الحكمة، والرفق في موضعه من الحكمة، ولابد لذلك من فقه للداعي، والآمر بالمعروف، والناهي عن المنكر.

سابعًا: ومن المسائل أنه لا إنكار في مسائل الاجتهاد، يعني إذا اختلف العلماء في مسألة، فقالت طائفة بأن هذه جائزة، وطائفة قالت بأنها حرام؛ فإنه لا إنكار فيها إن كانت المسألة سائغة الاختلاف، فهذه ليست



من مسائل الإنكار؛ لكن هي من مسائل الدعوة والإرشاد، والتباحث والتناقش.

ثامنًا: لا ينبغي للإنسان أن يَهَاب مَنْ يُنْكِرُ عليه، ولو كان رفيع المنزلة، فهذا الرجل أنكر على الوالي في حضرته، هذا هو الواجب، لا أن يتكلم في مجالس الناس ويغتاب، وإنما من أراد أن يأمر أو ينهى، يذهب إليه أو يذهب إلى مَنْ يُوصل إليه الكلام؛ ليحصل النفع المطلوب، فالمراد هو النصح وتحقيق الخير، والنهي عن الشر، لا التشفِّي بالكلام والطعن والاغتياب!

قال الله ﷻ: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج: ٤٠]، قال ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾ [العنكبوت]، ولا شكَّ أن أجر الإنسان على قدر نَصَبه وتعبه، وجاء في الحديث: «**سيِّد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجلٌ قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله**»[1]، فهذا من أفضل الشهداء عند الله ﷻ.

تاسعًا: وكما أنه لا يترك الأمر بالمعروف لمهابة الناس، كذلك لا يتركه لصداقته ومحبته للإنسان، فبعض الناس يسكت عن الأمر بالمعروف أو النهي عن المنكر إذا صدر من حبيب أو قريب له، ويداهنه، يعني يسكت عن باطله! وهذا خلاف الصداقة الحقيقية؛ لأنه لو كان صادقًا في محبَّته؛ لأحب له الخير، ومن الخير له أن ينتهي عن الشر؛ لأن في ذلك إصلاح الدين والدنيا والآخرة.

(١) حديث حسن، أخرجه الحاكم (٣/١٩٥)، والخطيب البغدادي في «تاريخه» (٦/٣٧٧)، انظر «الصحيحة» (٣٧٤).



عاشرًا: ومن المسائل في هذا الباب: أنه ليس على الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أن يبحث وينقر عن المخالفات، أو يتجسس على المنكرات في البيوت وغيرها، فهذا ليس من واجبات الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر من المتطوعة، وإنما هذا من أعمال المحتسب، أي: المعيَّن من قبل الدولة أو الوالي، والذي أُمِرَ بأن يُغيِّر المنكرات في الأسواق وفي البيوت، وأن يبحث عنها، لكن إن وصل إلى علم الإنسان أن رجلًا قد اختلى برجلٍ ليقتله، أو اختلى بامرأةٍ ليزني بها، فهل عليه أن يُبادر إلى الذهاب إلى ذلك الموضع؟ قالوا: نعم؛ لأن هذا يفوت لو تركه الإنسان، وربما لا يصل هذا الأمر إلى المحتسب، فإن لم يقدر على منعه، أبلغ رجال الحسبة.

الحادي عشر: ومن الفوائد ههنا قول الإمام ابن القيم رحمه الله: إن إنكار المنكر أربع درجات:

الدرجة الأولى: أن تُنكره فيزول بالكليَّة، وهذا محبوبٌ إلى الله ورسوله ﷺ.

الدرجة الثانية: أن تنكره ولا يزول بالكليّة، لكن يزول بعضه أو أكثره، وهذا أيضًا محبوب إلى الله ورسوله.

الدرجة الثالثة: أن يزول ويخلفه ما هو أكبر منه، وهذه درجة محرمة، يعني إذا علمت أنك إذا أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر، تحقق ضرر عظيم، ففي هذه الحالة يحرم عليك الإنكار، ويحرم عليك الأمر بالمعروف، ومن ذلك أن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: كان مع بعض أصحابه، فمرُّوا على طائفةٍ من التَّترِ، فرأوهم يشربون الخمر، فنهاهم بعض أصحاب الشيخ، فقال له الشيخ: اتركهم، فإنهم إذا صحوا قتلوا الذرية،



وسفكوا الدماء، وانتهكوا الأعراض. لذا يقول العلماء: إذا رأيت إنسانًا مشتغلًا بمُنْكر يسيرٍ، فلا تَنْهَه حتى تحوله إلى خير؛ لأنك ربما لو نهيته عن هذا المنكر اليسير، تحوَّل إلى منكر أكبر وأشدّ، وهذا خلاف مصالح العباد.

الدرجة الرابعة: أن يزول هذا المنكر ويخلفه مثله، وهذه محلّ اجتهاد العلماء، يعني يحتاج فيها إلى الاجتهاد.

هذه بعض المسائل التي تيسَّر بحثها الآن في هذا الحديث[١].

** ** **

---

(١) راجع للاستزادة: «الأمر بالمعروف» للخلال، «الحسبة» لشيخ الإسلام ابن تيمية بتحقيقنا، «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» له أيضًا، والكنز الأكبر من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للصالحي.

* **الحديث الثاني في هذا الباب:**

(٣٥) عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ، ثُمَّ إِنَّهَا تَخلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ، يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ، وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ، فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ». قَالَ أَبُو رَافِعٍ: فَحَدَّثْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ فَأَنْكَرَهُ عَلَيَّ، فَقَدِمَ ابْنُ مَسْعُودٍ فَنَزَلَ بِقَنَاةَ فَاسْتَتْبَعَنِي إِلَيْهِ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ يَعُودُهُ، فَحَدَّثْتُ عَبْدَ اللهِ بنَ عُمَرَ فَانْطَلَقْتُ مَعَهُ، فَلَمَّا جَلَسْنَا سَأَلْتُ ابْنَ مَسْعُودٍ عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ، فَحَدَّثَنِيهِ كَمَا حَدَّثْتُ ابْنَ عُمَرَ.

❖ **الشرح:**

الحديث أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، وبوَّب عليه النووي (٢/٢٧) الباب السابق.

قوله: «**عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ**»، هذا الحديث من اللطائف في إسناده: أنه من رواية أربعة من التابعين، بعضهم عن بعض: فرواه صالح بن كيسان، عن الحارث بن فضيل، عن جعفر بن عبد الله، عن عبد الرحمن بن مسور، وهؤلاء أربعة كلهم من التابعين، جاؤوا في سند واحد.

ومعنى حواريون: هم أصفياء الرسل وخواصّهم، وهم الذين نَقَّوا أنفسهم من كلِّ عيبٍ. وقيل: الحواريون هم: الأنصار، أنصار الرسل، والمجاهدون



عنهم وعن سنتهم، وقول النبي - عليه الصلاة والسلام -: «**مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي**» من صيغ العموم.

وقوله: «**إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ**» السنة: هي الطريقة والهدي والسمت، أي: كل نبي كان له أصحاب وأتباع وخلصاء وأنصار، يقتدون بسنته، ويعملون بها، ويأخذون.

وقوله: «**ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ**» الخُلُوف جمع خَلْف، والخَلْف بتسكين اللام هو الخالف بِشَرٍّ، وأما الخالف بخير فيقال له: خلف، كما قال الله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ٥٩﴾ [مريم].

والمعنى إنها تحدث بعد الأنصار وأتباع الرسل، خُلُوف يخلفون الرسل بِشَرٍّ، يتغيرون عمن كان قبلهم من الأنصار والأتباع، إذ أنهم:

«**يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ**» يعني: يقولون بألسنتهم، ولا يصدِّقون بأعمالهم.

وقوله: «**وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ**» أي: أنهم يشتغلون بفعل أشياء ما أُمِرُوا بها، وهذا دليل على مخالفتهم للرسل إذ اشتغلوا بغير ما أوصتهم به الرسل، وفعلوا أمورًا ما أُمِروا بها، ومن اشتغل ببدعة ألهته عن سنةٍ، كما قال علماء السلف رحمهم الله: ما أُحدِثَت بدعة إلَّا أُمِيتَتْ سُنة؛ لأن الإنسان له قدرة وطاقة ووقت، إذ شغل ذلك بأعمال لم يؤمر بها، ترك ما أمر به، ولا يمكن للإنسان أن يجمع بين الاثنين في الغالب، ولهذا قالوا: ما أُحييت بدعة إلا أُميتت سنة، ولهذا تجد أن أهل الأهواء والبدع أقلّ الناس التفاتًا إلى السنن؛ لأنهم شغلوا أنفسهم بما لم يشرع الله ﷻ، وهذه من أثار البدع السيئة.

وقوله: «فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ» أي: إن الناس كانوا على درجات في مجاهدة هؤلاء الخالِفِين للرسل بِشَرٍّ، كما سبق تفصيله في الحديث السابق.

وهذا الحديث وإن كان فيمن سبق من الأمم، فهو أيضًا واقع في هذه الأمة كما هو معلوم.

وقوله: «وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنْ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ» يعني إن كراهية القلب للمنكر، هي آخر درجات فعل الإيمان في هذا الباب، وليس معنى الحديث: أنه من لم ينكر بقلبه؛ لا يكون في قلبه إيمان مطلقًا! ليس هذا هو مُراد الحديث، وإنما آخر فعل يقوم به العبد في هذا العمل الذي هو من الإيمان هو أن ينكر المنكر بقلبه.

قوله: «قَالَ أَبُو رَافِعٍ» وهو الراوي عن عبد الله بن مسعود، عبد الرحمن بن مسور يرويه عن أبي رافع، وهو أسلم مولى النبي ﷺ، الذي كان الرسول بين الرسول ﷺ وبين ميمونة في الزواج، كما جاء في الحديث، قيل: إن اسمه أسلم، وقيل غير ذلك.

قوله: «قَالَ أَبُو رَافِعٍ: فَحَدَّثْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ فَأَنْكَرَهُ عَلَيَّ» يعني أنكر علي هذا الحديث.

قوله: «فَقَدِمَ ابْنُ مَسْعُودٍ فَنَزَلَ بِقَنَاةَ» قناة: وادي من أودية المدينة.

«فَاسْتَتْبَعَنِي إِلَيْهِ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ» يعني طلب مني أن أتبعه إلى عبد الله بن مسعود، فلما جلسنا سأل بن مسعود عن هذا الحديث، فصدَّق ابن مسعود أبا رافع، وحدَّث به كما حدث أبو رافع.



في الحديث من الفوائد: أن الأصحاب والخُلَصاء هم أكثر الناس عملًا بسنن المرسلين، فأصحاب النبي وأنصاره الذين في عصره هم أكثر الناس عملًا بسنَّتِه، وأنه تخلف من بعد أولئك خُلُوف يخالفونهم، فيقصرون عن العمل بسنته.

والحديث أيضًا: فيه الحثُّ على جِهَادِ المبطلين المغيِّرين للسنن، المشيِّعين للبدع، باليد واللسان، ما استطاع الإنسان إلى ذلك سبيلًا، وحيث لا يلزم ذلك إثارة فتنة، أو ترتب مفسدة أكبر من مصلحة إنكار المنكر، كما مرَّ معنا في الحديث السابق.

والحديث أيضًا: يدلُّ أن الإنكار بالقلب هو آخر درجات الإنكار، وأنه إذا لم يوجد في القلب، دلَّ على أنه لم يَبْقَ فعل من أفعال الإيمان في هذا الباب.

وفي الحديث أيضًا: تثبت الصحابة ممن يروي عن النبي ﷺ، وليس فيه دليلٌ على رَدِّ خبر الآحاد، وإنما فيه التثبت، فالصحابة كانوا يتثبتون من الأحاديث النبوية، خشية أن يتجرأ الناس على رواية ما لا يَصِحُّ عنه ﷺ.

** ** **

باب: لا يحب عليًّا إلا مؤمن ولا يبغضه إلا منافق

(٣٦) عَنْ زِرِّ بنِ حُبَيْشٍ قَالَ: قَالَ عَلِيُّ بنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ: وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، إِنَّهُ لَعَهْدُ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ ﷺ إِلَيَّ: أَنْ لَا يُحِبَّنِي إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلَا يُبْغِضَنِي إِلَّا مُنَافِقٌ».

❖ **الشرح:**

الحديث أخرجه مسلم في الإيمان، وبوَّب عليه النووي (٢/٦٤): باب الدليل على أن حُبَّ الأنصار وعلي ﷺ من الإيمان، وعلاماته وبغضهم من علامات النفاق.

قوله: «عَنْ زِرِّ بنِ حُبَيْشٍ» الأسدي الكوفي أبو حريم، ثقة جليل مخضرم، والمخضرم: من أسلم في حياة النبي ﷺ ولم يَرَه، مات سنة إحدى أو اثنتين أو ثلاث وثمانين، وهو ابن مائة وسبع وعشرين سنة، روى له الستة.

«قَالَ عَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ: وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ» فلَقَ الحبة: يعني شقَّها وأخرج منها النبات، كما قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ [الأنعام: ٩٥]، فالنواة إذا وضعت في الأرض وجاءها الماء؛ انفلقت وانشقت وخرج منها النبات، وهذا بقدرة الله ﷻ، ومن الأعاجيب التي تذكر عن النمل: أنه إذا خزَّن الحبة كسرها لئلا تُصِيبها رطوبة الأرض فتنفلق وتنبت.



والنسمة: هي النَّفْسُ والرُّوحُ، ومعنى برأ النسمة: يعني خلقها، وكل دابَّة في جوفها روح يقال لها: نسمة.

فيخبر علي ﷺ، مؤكدًا كلامه بالقَسَمِ بالله ﷻ، الذي فلق الحبة وبرأ النسمة.

قوله: «**إِنَّهُ لَعَهْدُ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ ﷺ إِلَيَّ**» يعني أخبره وأبان له.

قوله: «**أَنْ لَا يُحِبَّنِي إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلَا يُبْغِضَنِي إِلَّا مُنَافِقٌ**» لأنَّ عليًّا ﷺ من السابقين الأولين إلى الإسلام، ومن عرَفَ عليًّا ﷺ وقُرْبَه من رسول الله ﷺ، وحُبَّه للرسول ﷺ، وحُبَّ الرسول ﷺ له، وجهاده وقتاله بين يدي رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ، أحبَّه رضي الله عنه وأرضاه، كيف لا وهو أبو السبطين، ورابع الخلفاء الراشدين، الذي أعزَّ الله ﷻ بهم الإسلام والمسلمين.

** ** **

باب: آية الإيمان حبُّ الأنصار وبغضهم آيةُ النفاق

(٣٧) عَنْ عَدِيِّ بْنِ ثَابِتٍ قَالَ: سَمِعْتُ الْبَرَاءَ ﷺ يُحَدِّثُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ فِي الْأَنْصَارِ: «لَا يُحِبُّهُمْ إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلَا يُبْغِضُهُمْ إِلَّا مُنَافِقٌ، مَنْ أَحَبَّهُمْ أَحَبَّهُ اللهُ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ أَبْغَضَهُ اللهُ».

❖ الشرح:

الحديث أخرجه مسلم في الإيمان، وهو في الباب السابق نفسه.

عدي بن ثابت هو الأنصاري الكوفي، ثقة، رمي بالتشييع، مات سنة ١١٦هـ.

والبراء هو: ابن عازب بن الحارث الأنصاري الأوسي، صحابي ابن صحابي، استُصْغِرَ يوم بدر هو وابن عمر ﷺ، نزل الكوفة ومات سنة ٧٢هـ وتبويب المنذري هو لفظ للحديث رواه مسلم من طريق آخر بلفظ: «**آية الإيمان حُبُّ الأنصار، وآية النفاق بُغْضُ الأنصار**». وفي لفظ آخر له أيضًا: أن النبي ﷺ قال: «**لا يُبْغِضُ الأنصار رجلٌ يؤمن بالله واليوم الأخر**» ومن عرف مرتبة الأنصار وما كان منهم من نُصرة الرسول ﷺ، والدفاع عن الإسلام والدين، وإيوائهم للمهاجرين، والسعي في إظهار الدين، وتحملهم عداوة العرب أجمعين؛ لأنهم لمَّا بايعوا النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال لهم أسعد بن زرارة: «اعلموا أنكم تبايعونه على حرب العرب جميعًا» ومع ذلك تحمَّلوا عداوة العرب جميعًا، وآووا النبي ﷺ ونصروه مما ينصرون



منه أنفسهم وأهليهم وأموالهم، وكانوا يحبونه ﷺ حبًّا شديدًا، وكان النبي ﷺ يحبهم حبًّا شديدًا، وبذلوا أموالهم وأنفسهم بين يديه، رضوان الله عليهم أجمعين، ولهذا لا يبغضهم إلا منافق، يكره ما قاموا به من نُصرة للإسلام وأهله، ويبغض رفعة الإسلام وعلوَّ كلمته في الأرض، كما قلنا في شأن علي رضي الله عنه؛ لأن هؤلاء بذلوا ما بذلوا في سبيل الله تعالى، ولذلك جعل النبي ﷺ حبهم «آية الإيمان» يعني: علامة الإيمان، ومن هاهنا قال أئمة الحديث: إنه لا يبغض الصحابة إلا زنديق، يعني كافر مستَتِرٌ بالكفر، أما المؤمن فلا بد أن يحبَّهم، فمن علامات الزندقة الطعن في الأنصار، أو الطعن في الصحابة عمومًا، ومن علامات النفاق الاعتقادي بغضهم، فمن جرح الصحابة؛ عرفنا أن له مقصدًا خبيثًا في إبطال الإسلام والعمل به؛ لأن الصحابة هم الذين نقلوا لنا الإسلام، كما جاء عن الإمام أبي زُرعة أنه قال: إنما نقل لنا الدين والقرآن صحابة رسول الله ﷺ، وهم يريدون أن يجرحوا شهودنا، وهم بالجرح أولى، وهم زنادقة.

لأنك إذا أردت أن تبطل شهادة إنسان، تجرح عدالته، فتسقط شهادته، والذي أدى إلينا القرآن والسنن هم الصحابة، فإذا طُعِن فيهم، سَقَطَ ما نقلوا؟! ها ما لاحظهُ أئمة الحديث رحمه الله في هذا الباب، فتأمَّل!

** ** **

باب: إن الإيمان ليأرز إلى المدينة

(٣٨) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْإِيمَانَ لَيَأْرِزُ إِلَى الْمَدِينَةِ كَمَا تَأْرِزُ الْحَيَّةُ إِلَى جُحْرِهَا».

❖ **الشرح:**

الحديث أخرجه مسلم في الإيمان، وبوَّب عليه النووي (١٧٥/٢): باب بيان أن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا، وأنه يأرز: بين المسجدين.

قوله: «**عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْإِيمَانَ لَيَأْرِزُ إِلَى الْمَدِينَةِ كَمَا تَأْرِزُ الْحَيَّةُ إِلَى جُحْرِهَا**» تأرز: يعني تأوي وتنضم وتجتمع، وهذا الحديث رواه مسلم بزيادة في أوَّله، وهي قوله ﷺ: «**إن الإسلام بدأ غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ، وهو يأرز بين المسجدين كما تأرز الحية إلى جحرها**» فالإيمان كما تعلمون قد بدأ غريبًا في مكة، وكذلك بدأ غريبًا في المدينة، والرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ يخبر بأن هذا الإسلام، وهذا الدين سيعود غريبًا في آخر الزمان كما بدأ.

ثم أخبر أن الإيمان يأرز إلى المدينة، يعني ينضمُّ إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها، أي: كما ترجع وتنضم إلى جحرها، وفي الرواية الأخرى: «**وهو يأرز بين المسجدين**» يعني المسجد الحرام والمسجد النبوي الشريف، يعني: أن الإيمان يكون بينهما، فالإيمان أولًا وآخرًا بهذه الصِّفة؛ لأنه في أول الإسلام كان كل من خلص إيمانه، وصح إسلامه،

أتى المدينة إما مهاجرًا، وإما مُستوطنًا، أو متشوِّقًا إلى رؤية الرسول ﷺ، وقاصدًا المدينة للتعلم منه، والاقتداء به ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

كذلك الحال في زمن الخلفاء الراشدين، فإن الناس كانوا يهاجرون إلى المدينة من أجل لقاء الخلفاء، ورؤية سيرهم، والأخذ عنهم، والاقتداء بجمهور الصحابة الذين كانوا يسكنون المدينة النبوية، ثم من بعدهم أيضًا من التابعين كانوا أئمة المسلمين، الذين يقتدى بهم، فكان الناس أيضًا يهاجرون إلى المدينة ويأخذون عنهم السنن، ويهتدون بهديهم الصالح.

فالرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ يخبر أنه كما كان الحال في أول الإسلام بهذه الصورة؛ فإنه في آخر الزمان سيرجع إلى هذه الصورة، فيكون أهل المدينة محلًا لتوافر أهل الدين وأهل الخير عليهم، وأنهم يكونون قدوةً يَقتدي بهم الناس، وأن الإيمان يرجع إليها كما بدأ منها، فإن «طيبة» هي مطلع الإيمان، ومكَّة هي مهبط الوحي، وكذلك ستكون في آخر الزمان مقرًّا للإيمان، وموئلًا لأهل الإسلام يرجعون إليه.

** ** **

باب: الإيمان يمان والحكمة يمانية

(٣٩) أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: جَاءَ أَهْلُ الْيَمَنِ هُمْ أَرَقُّ أَفْئِدَةً، وَأَضْعَفُ قُلُوبًا، الإِيمَانُ يَمَانٍ، وَالْحِكْمَةُ يَمَانِيَةٌ، السَّكِينَةُ فِي أَهْلِ الْغَنَمِ، وَالْفَخْرُ وَالْخُيَلَاءُ فِي الْفَدَّادِينَ أَهْلِ الْوَبَرِ قِبَلَ مَطْلِعِ الشَّمْسِ».

❖ **الشرح:**

في الباب حديثان: الأول: أخرجه مسلم في الإيمان وبوَّب عليه النووي في «صحيح مسلم» باب: تفاضل أهل الإيمان في ورجحان أهل اليمن فيه، وأورد فيه الإمام مسلم أحاديث من روايات متعددة، منها: رواية أبي هريرة التي أوردها المنذري ههنا: قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**جَاءَ أَهْلُ الْيَمَنِ هُمْ أَرَقُّ أَفْئِدَةً، وَأَضْعَفُ قُلُوبًا، الإِيمَانُ يَمَانٍ، وَالْحِكْمَةُ يَمَانِيَةٌ، السَّكِينَةُ فِي أَهْلِ الْغَنَمِ، وَالْفَخْرُ وَالْخُيَلَاءُ فِي الْفَدَّادِينَ**» الفدادين: هم الذين يرفعون أصواتهم في إبلهم ومواشيهم، وفي خيلهم وحروثهم، «**أَهْلِ الْوَبَرِ قِبَلَ مَطْلِعِ الشَّمْسِ**» يعني جهة الشرق.

واختلف العلماء في قول النبي ﷺ «**الإِيمَانُ يَمَانٍ، وَالْحِكْمَةُ يَمَانِيَةٌ**» فقال بعضهم: إن النبي ﷺ قال «**الإِيمَانُ يَمَانٍ**» نسبة إلى مكة، حيث إن مكَّة من تهامة، وتهامة من أرض اليمن، وأن النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ قد قال هذا بتبوك وأشار إلى ناحية اليمن، وهو يريد مكة والمدينة.

وقول آخر: إن المراد بقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**الإِيمَانُ يَمَانٍ**»



هو الأنصار؛ لأن الأنصار أصلهم من اليمن، وهذا وجه رجحه القاضي أبو عبيد بن القاسم بن سلام، لكن الراجح في هذه المسألة، ما رجَّحه أبو عمر وابن الصلاح ومال إليه النووي: أن الحديث على ظاهره، وهذا كلُّه صرف للحديث عن ظاهره وتأويل؛ لأن الرسول ﷺ قال: «**جَاءَ أَهْلُ الْيَمَنِ**» فمعناه أنه يريد غير أهل المدينة وغير أهل مكة؛ لأن اليمن علم على البلد المعروف، والقول بخلاف ذلك؛ خلاف الظاهر المتبادر للذهن.

ثم الذي يُساعد على هذا: قول الرسول ﷺ: «**أتاكم أهل اليمن**» وفي هذه الرواية: «**جَاءَ أَهْلُ الْيَمَنِ**» ولا شكَّ أنه يريد بهذا غير الأنصار.

وقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**الْإِيمَانُ يَمَانٍ**» إشارة إلى إيمان من أتاه من أهل اليمن، فنسب الإيمان إليهم إشعارًا بكمال إيمانهم، من غير أن ينفي الإيمان عن غيرهم.

وفيه مدحٌ بكمال إيمان مَنْ جاءه من أهل اليمن، وتميُّزهم به وكمال حالهم فيه، قال العلماء: هكذا كان أهل اليمن في وقته، فحال الوافدين من اليمن في حياة الرسول ﷺ كانوا على هذه الصورة، فمدحهم ﷺ، وهذا لا يقتضي أن يكون أهل اليمن في كل زمان بهذه الصورة، كما هو واضح، والواقع يدلُّ على هذا؛ فإنه جرت أيامٌ وفتن ومِحَنٌ على اليمن، وأهله، وتغيَّر فيها الناس، فهذا ليس على الإطلاق ولا على الدوام.

قوله: «**هُمْ أَرَقُّ أَفْئِدَةً، وَأَضْعَفُ قُلُوبًا**» المشهور أن القلب والفؤاد شيء واحد، ولهذا قال أهل العلم: إنه من باب تكرير اللفظ مرتين، وهو أولى من تكريره بلفظ واحد، وقيل: الفؤاد غير القلب، قيل: إن الفؤاد هو التجويف الذي يكون فيه القلب، يعني محل القلب، ويستدل لذلك بقول

الله ﷻ: ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ۝٤٣﴾ [إبراهيم]، قال بعض أهل التفسير: إن قلوبهم تصعد إلى حناجرهم، فيكون محل قلوبهم هواء. والرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وصفها بالرقَّة واللين والضعف، بمعنى أنها متَّصفة بالخشية والاستكانة وسرعة الاستجابة، والتأثر بالتذكير والإنذار، وهذه الخصلة لا تزال موجودة في أهل اليمن إلا من شَذَّ عن ذلك، فالرقَّة واللين وسرعة الاستجابة وَصَفَ النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ بها قلوب أهل اليمن، وأنها بخلاف غيرها التي تتميز بالغلظة والشدة والقسوة التي وصف بها الآخرين.

قوله: «**الْإِيمَانُ يَمَانٍ، وَالْحِكْمَةُ يَمَانِيَةٌ**» المشهور أن الحكمة هي الفقه في الدين، والعلم بالقرآن والسنن والأحكام العملية، وأنواع ما ذكر الله ﷻ في كتابه من المواعظ والتذكير، ولكن بعد ذلك صار العلماء يخصون الفقه بالأحكام العملية، ولابن دُريد كلمةٌ جيِّدة في هذا يقول: كل كلمة وعظتك وزجرتك، أو دعتك إلى مكرُمة، أو نهتك عن قبيح، فهي حكمة أو حكم، ومنه قول الرسول ﷺ «**إن من الشعر حكمة**»(١).

يعني منه ما يدعو إلى مكارم الأخلاق، وينهى عن فواحش الأمور، ويذكر ويعظ، فإن من الشعر ما يكون كذلك.

ومعنى قوله ﷺ: «**الْإِيمَانُ يَمَانٍ**» يعني في أهل اليمن، والألف قالوا مزيدة عوض من ياء النسب، بدل أن يقول: يمني قال: يمان، فهي عوض من ياء النسب المشدَّدة، فلا يجمع بينهما.

قوله: «**السَّكِينَةُ فِي أَهْلِ الْغَنَمِ**» يعني: أن فيهم الطمأنينة والسكينة والتواضع، والبعد عن الخيلاء.

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأدب (٦١٤٥).



قوله: «**وَالْفَخْرُ وَالْخُيَلَاءُ فِي الْفَدَّادِينَ**» الفخر: هو الافتخار بمآثر الآباء، يعني بمناقب الآباء هذا هو الفخر، والخيلاء معناه الكبر، واحتقار الناس.

قوله: «**فِي الْفَدَّادِينَ**» قلنا: إن الفدادين هم الذين تعلُو أصواتهم في إبلهم.

قوله: «**أَهْلِ الْوَبَرِ**» والوبر كما تعلمون يختص بالإبل، وجاء في رواية: «**أهل الخيل والوبر**».

قوله: «**قِبَلَ مَطْلِعِ الشَّمْسِ**» وفي رواية: «**حيث يطلع قرن الشيطان**» والمعلوم أن الشيطان يكون عند طلوع الشمس حين يسجد لها الكفار، فيسجدون له، وأشار هنا بأنه قبل مطلع الشمس يعني: قِبَلَ المشرق، وهذا يُستفاد منه أن الإنسان يتأثر بمن يُعاشر، فلما كان من طبع الغنم وجبلتها تواضعها وسكينتها وضعفها، فإن أهلها الذين يعاشرونها ويربونها يكتسبون منها ذلك، ولما كان من طبع الإبل النفرة والغلظة والقسوة، فإن من يكثر تربيتها ومعاشرتها يكتسب منها مثل هذه الخصال، وهذا في الغالب.

** ** **

(٤٠) جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ ﷺ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «غِلَظُ الْقُلُوبِ وَالْجَفَاءُ فِي الْمَشْرِقِ، وَالْإِيمَانُ فِي أَهْلِ الْحِجَازِ».

❖ الشرح:

الحدث الثاني: عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«غلظ القلوب والجفاء في المشرق»**.

فصرح بذكر المشرق أي مشرق المدينة، فكأن المراد اختصاص المشرق بمزيد من تسلُّط الشيطان والكفر، وجاء في الأحاديث أن الدجال يخرج من قِبَل المشرق، وورد في حديث عند الإمام أحمد: أنه يخرج من أرض يقال لها: خُراسان، وذكر النووي رحمه الله: أن المشرق فيما بين ذلك، يعني من بعد النبي - عليه الصلاة والسلام - إلى خروج الدجال. هو منشأ الفتن العظيمة، وأيضًا ذكر أن منه الكفرة من الترك الغاشمة[1].

قوله: **«وَالْإِيمَانُ فِي أَهْلِ الْحِجَازِ»** وهذا أيضًا منقبة ومأثرة لهم، وصفهم بالإيمان كما وصف به أهل اليمن، وهو أيضًا يؤيد قول من قال: إن المراد بذلك هو: أهل مكَّة والمدينة، ولكن الصحيح: أنه لا مانع من أن يكون هذا منقبة لأهل الحجاز، وذاك منقبة لأهل اليمن، لصراحة اللفظ فيهم، والأصل أن الإنسان لا يؤوِّل اللفظ، وإنما يحمله على ظاهره.

** ** **

(١) شرح مسلم (٢/٣٤).



باب: من لم يؤمن لم ينفعه عمل صالح

(٤١) عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! ابْنُ جُدْعَانَ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ، وَيُطْعِمُ الْمِسْكِينَ، فَهَلْ ذَلِكَ نَافِعُهُ؟ قَالَ: «لَا يَنْفَعُهُ، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ».

❖ **الشرح:**

أورده النووي رحمه الله تعالى تحت باب: الدليل على أن من مات على الكفر لا ينفعه عمل.

«**عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! ابْنُ جُدْعَانَ**» ابن جدعان اسمه عبد الله بن جدعان، وهو من تميم بن مرة، يعني من أقرباء عائشة ﷺ؛ لأن أبا بكر الصديق من تميم بن مرة، وكان عبد الله بن جدعان رأسًا من رؤوس قريش، وكبيرًا من كُبرائهم المشهورين بالإنفاق والتصدق والإطعام.

«**كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ**» الجاهلية هي الفترة التي سبقت الرسول ﷺ، هذه هي الجاهلية المطلقة، أما بعد مَبعث النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ فلا توجد جاهلية مطلقة، إنما توجد جاهلية في بلدٍ دون بلدٍ، وفي شخص دون شخص، وقد توجد بعض أخلاق الجاهلية في بعض المسلمين، كما قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة**»[1].

(١) رواه مسلم في الجنائز (٢/٦٤٤).



هذه من أخلاق الجاهلية التي هي باقية في كثير من المسلمين إلى أن يشاء الله تعالى.

وقال ﷺ لأبي ذر: «إنك امرؤ فيك جاهلية» لمَّا عَيَّر أحدهم بأمه[1].

قوله: «رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ» يعني أنه لم يكن مصدقًا بالبعث، والذي لا يصدق بالبعث يكون كافرًا، والله تعالى قد حكى عن الكفار هذه المقالة، قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالُواْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]، وقال ﷻ: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن: ٧]. فبهذا يتبين أن إنكار البعث من المكفرات. ويُستفاد من هذا الحديث: أن الإنسان إذا لم يكن مؤمنًا؛ لم تنفعه صلة الرحم، وإطعام الطعام للمساكين، وما أشبه ذلك من الأعمال الصالحة، وهذه قاعدة قد دلَّ عليها القرآن: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ﴾ [الأنبياء: ٩٤]. وأما غير المؤمنين فإن أعمالهم تكون يوم القيامة هباء منثورًا، كما قال ﷻ: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣].

وقول الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ عن ابن جدعان: «إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ» يكون جوابًا لقول عائشة: هل ينفعه؟ يعني الجواب: لا ينفعه صلة رحم، ولا إطعام الطعام.

قال القاضي عياض: إن الذي مات على الكفر لا ينفعه عمل صالح،

---

(١) رواه البخاري في الإيمان (٤٨/١) باب المعاصي من أمر الجاهلية لا يكفر صاحبها بارتكابها إلا الشرك، ومسلم في الإيمان (١٢٨٣/٣).



لا في تخفيف العذاب، ولا في الخروج من النار.

وحكى على ذلك إجماعًا البيهقي، ففي البعث والنشور يقول: إن الذي يعمل من الصالحات وهو كافر؛ لا ينفعه عمله بحيث يخرج من النار؛ لكن ذلك يخفف من عذابه في جهنم، كما أنَّ من كفر وصدَّ عن سبيل الله، وحارب المؤمنين، يكون أشد عذابًا من الكافر فقط، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النحل: ٨٨].

فالكفر بالله ذنب عظيم، لكن الصد عن سبيل الله أعظم.

وهذا القول فيما يظهر أقرب إلى الحق والصواب؛ لأن الله تعالى لا يظلم الناس شيئًا، ومما يشهد لهذا المعنى: حديث الرسول ﷺ لما قال له العباس: إن عمك أبا طالب كان يحوطك وينصرك، فهل نفعته بشيء؟ قال ﷺ: «**هو في ضحضاح من النار يغلي منه دماغه، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار**» فهذا يستدل به على أن عمل الكافر يسهم في تخفيف العذاب عنه، كما أن زيادة الكفر والصَّد عن سبيل الله تزيد في عذابه.

وسيأتي مزيد بيان لهذه المسألة عند حديث: «**وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يجزى بها**».

** ** **

باب: لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا

(٤٢) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ».

❖ الشرح:

هذا الحديث أخرجه مسلم في الإيمان، وبوَّب النووي عليه باب: لا يدخل الجنة إلا المؤمنون.

«عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ» هكذا بإثبات النون، ويصح أن يقال: **«لا تدخلوا الجنة»** بحذف النون، وهي لغة صحيحة ورواية صحيحة أيضًا.

قوله: **«حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ»** أفشوا: يعني انشروا، فالإفشاء معناه الظهور والانتشار.

هذا الحديث يستفاد منه: أن إطلاقه يدل على أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون **«لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا»** فإذا لم يؤمن الإنسان لا يدخل الجنة.

ومعنى: **«لَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا»** يعني لا يكمل إيمانكم، ولا يصلح حالكم في الإيمان، إلا بالتحابِّ في الله تعالى.

قوله: «**أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ**» فيه: أن السلام أول أسباب المحبة، ومفتاح التآلف بين المسلمين، وباب الدخول إلى التعارف والتحاب والمودَّة في الله تعالى، كما أن في إفشاء السلام رفع التقاطع والتهاجر، فمن سلم عليك لم يقطعك ولم يهجرك؛ لأن المتهاجِرَيْن لا يسلم بعضهما على بعض، ففي إفشاء السلام رفع للتقاطع والتدابير، كما أن في السلام إصلاح ذات البين؛ لأنه إذا رفع التقاطع والتدابير والتهاجر، وجد صلاح ذات البين، فصلاح ذات بينكم أيها المؤمنون بالسلام.

وفي الحديث: الحثُّ على إفشاء السلام وبذله للمسلمين لمن عرفت ومن لم تعرف، وقد روى البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: في كتاب الإيمان من حديث عبد الله بن عمر قال: قلت يا رسول! أي الإسلام خير؟ قال: «**تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف**». فمن خصال أهل الإيمان: أنهم يسلمون على العالم جميعًا، على جميع المسلمين، وجاء أيضًا في كلام عمار رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، الذي أورده البخاري أيضًا في كتاب الإيمان: «**ثلاث من كُنَّ فيه وجد بهنَّ حلاوة الإيمان، أو كان بهن مؤمنًا: الإنصاف من نفسك، وبذل السلام للعالم**، وفي رواية بكسر اللام «للعالم» والإنفاق من الإقتار، فهذه خصال من خصال الإيمان.

والمؤمنون من صفاتهم أنهم يحب بعضهم بعضًا في الله، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، فحصر الأخوة في الإيمان، ومَرَّ معنا حديث: «**لا يؤمن أحدكم حتى يُحِبَّ لأخيه ما يحب لنفسه**»، وفي رواية النسائي: «**من الخير**».

وكان هذا أول ما أوصى به النبي ﷺ أصحابه حينما قدم المدينة، فقال لهم: «**أيها الناس، أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلُّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام**»[1].

فهذه وصاياه عندما وصل إلى المدينة النبوية الشريفة، ثم إنَّ السلام شعار المسلمين، فالمسلمون يتميزون عن غيرهم من أهل الملل والكفر بهذه التحية، وهي: السلام عليكم، فهذا شعار أهل الإسلام. وهي تحية الرب للمؤمنين في الجنة، كما قال تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ۝٥٨﴾ [يس: ٥٨]، وهي تحية الملائكة للمؤمنين قال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤]، وغيرها من الآيات. فإطلاق السلام فيه خير كثير، وفضل عظيم كما سمعتم.

** ** **

(١) حديث صحيح، رواه أحمد (٥/٤٥١)، والترمذي (٢٦٠٣) وصححه، وابن ماجه (١٣٣٤)، (٣٢٥١) من حديث عبد الله بن سلام رضي الله عنه.



باب: لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن

(٤٣) قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ». وَكَانَ أَبُو هُرَيْرَةَ يُلْحِقُ مَعَهُنَّ: (وَلَا يَنْتَهِبُ نُهْبَةً ذَاتَ شَرَفٍ يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ حِينَ يَنْتَهِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ). وَفِي حَدِيثِ هَمَّامٍ: (يَرْفَعُ إِلَيْهِ الْمُؤْمِنُونَ أَعْيُنَهُمْ فِيهَا وَهُوَ حِينَ يَنْتَهِبُهَا مُؤْمِنٌ)، وَزَادَ: (وَلَا يَغُلُّ أَحَدُكُمْ حِينَ يَغُلُّ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، فَإِيَّاكُمْ إِيَّاكُمْ).

❖ **الشرح:**

حديث الباب أخرجه الإمام مسلم في الإيمان، وبوَّب عليه النووي: «باب: بيان نقصان الإيمان بالمعاصي، ونفيه عن المتلبس بالمعصية على إرادة نفي كماله» هكذا بوَّب عليه الإمام النووي رحمه الله.

ومعنى النُّهبة: من النهب، وهي السلب والغارة.

والغُلُول: الخيانة، وأكثر ما يطلق الغلول على الأخذ من الغنيمة قبل القسمة، وهو أعم من ذلك، فيطلق على كل خيانة.

وهذا الحديث القول الصحيح في معناه: أن المؤمن لا يفعل هذه المعاصي، فمن فعلها فهو ليس بمؤمن كامل الإيمان، وهذا من الألفاظ التي تُطلق على نفي الشيء، ويراد به نفي كماله، كما تقول: لا علم إلا ما

نفع، أو: لا عيش إلا عيشُ الآخرة، أو قول العرب: لا مال إلا الإبل، فليس المراد نفي الشيء من أصله، وإنما يراد به نفي الكمال.

والذي يدلُّ على هذا القول أدلة الكتاب والسنة الكثيرة، وكنا قد ذكرنا شيئًا منها في الأحاديث السابقة، فمن ذلك: قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، فدل على أن ما سوى الشرك مغفور، وأن الشرك هو الذي يخرج صاحبه من الإيمان بالكلية، أما الكبائر فلا تخرج من الإيمان بالكلية.

ومنها: حديث أبي ذرٍّ في «الصحيحين» أن النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال: «**من قال: لا إله إلا الله، دخل الجنة**» قال أبو ذر: وإن زنى وإن سرق، فقال ﷺ «**وإن زنى وإن سرق**» فأعادها، فأعادها عليه، حتى قال في الثالثة: «**على رغم أنف أبي ذر**»[1].

ومنها أيضًا: حديث عبادة بن الصامت أن النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال لأصحابه: «**بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئًا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تعصوا في معروف**» إلى أن قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن فعل من ذلك شيئًا فعوقب به؛ فهو كفارة له، ومن فعل من ذلك شيئًا فلم يعاقب؛ فأمره إلى الله تعالى، إن شاء عفا عنه، وإن شاء عذَّبه**»[2].

كما أن هذا إجماع أهل الحق من أهل السنة والجماعة، أن الزاني والسارق والقاتل وغيرهم من أصحاب الكبائر والذنوب، لا يكفرون بذلك،

(١) رواه البخاري ومسلم (٢/٩٤ ـ نووي).
(٢) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان (١/٦٤).



بل هم مؤمنون ناقصوا الإيمان، إن تابوا سقطت عقوبتهم في الآخرة، وإن لم يتوبوا فأمرهم إلى الله تعالى، إن شاء عفا عنهم فأدخلهم الجنة أولًا، وإن شاء عذبهم ثم أدخلهم الجنة.

فقول النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ: **«لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ»** يعني: وهو كامل الإيمان.

وكذا قوله: **«وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ»**.

وقوله: **«وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ»** يعني وهو كامل الإيمان، بل إذا فعل ذلك، فعله لنقص إيمانه.

وكان أبو هريرة يلحق معهن: **«وَلَا يَنْتَهِبُ نُهْبَةً»** يعني لا يَسلب شيئًا.

«ذَاتَ شَرَفٍ» يعني ذات قدر عظيم.

«يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ حِينَ يَنْتَهِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ» فالنهبة ذات الشرف، يعني ذات القدر العظيم، إذا أخذها سلبًا ونهبًا وإغارة، والناس يرفعون إليه أبصارهم فيها، فإن هذا دالٌّ على نقص إيمانه وأنه مرتكب لكبيرة، وهذا القول وإن كان قد يظهر أنه مُدْرَجٌ من قول أبي هريرة، لكنه قد جاء مرفوعًا من طرق أخرى[1] أنه من كلام النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

وفي حديث همام: **«يَرْفَعُ إِلَيْهِ الْمُؤْمِنُونَ»** بدل: يرفع الناس إليه.

«أَعْيُنَهُمْ فِيهَا وَهُوَ حِينَ يَنْتَهِبُهَا مُؤْمِنٌ» وزاد: **«وَلَا يَغُلُّ أَحَدُكُمْ حِينَ يَغُلُّ وَهُوَ مُؤْمِنٌ»**. إذًا هذه الذنوب والمعاصي من يقترفها دل ذلك على نقص إيمانه، وأنه ليس بتام كامل.

---

(١) أخرجها مسلم (٢/٤٢ ـ نووي).



ثم قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**فَإِيَّاكُمْ إِيَّاكُمْ**» يعني: احذروا احذروا هذه المعاصي والذنوب الكبائر، والتكرير أسلوب من أساليب التأكيد والمبالغة في التحذير.

زاد أيضًا في رواية لمسلم: «**والتوبة معروضة بعد**» يعني أمام المسلم، أن يتوب وأن يرجع إلى الله ﷻ، وقد أجمع العلماء على أن توبة العبد مقبولة ما لم يغرغر؛ لقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ في حديث الترمذي: «**وإن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر**»[(١)].

ما لم يغرغر يعني: ما لم تبلغ الروح إلى الحلقوم، ويصل إلى حد الغرغرة عند خروج الروح من الجسد، والتوبة لها ثلاثة أركان: الإقلاع عن الذنب، والندم على فعله، ويعزم على ألَّا يعود إليه أبدًا، فإن تعلقت بحق مخلوق زادت رابعًا وهو: أن يرجع الحقوق إلى أصحابها.

وزاد بعض أهل العلم: الإخلاص، وهو مطلوب في كل عبادة.

ويقول العلماء كما نقل القاضي عياض[(٢)]: إن هذا الحديث فيه تنبيه على جميع أنواع المعاصي، فنبَّه بالزنا على جميع أنواع الشهوات، ونبَّه بالسرقة على الرغبة في الدنيا، والحرص على جمع الأموال من الحرام، ونبَّه بالخمر على جميع ما يصد عن ذكر الله تعالى، ويوجب الغفلة عن حقوقه جل وعلا، وبالانتهاب نبه على الاستخفاف بعباد الله ﷻ؛ لأن الانتهاب أن تأخذ مال الإنسان وهو ينظر إليك، بخلاف السرقة، فالسرقة أن تأخذ ماله في حال غفلة وعدم انتباه، أما النهب أن تأخذه عيانًا كما يقولون: عينك عينك، هذا هو الانتهاب، ومن فعل ذلك دَلَّ على أنه

---

(١) رواه الترمذي في الدعوات (٣٥٣٧) من حديث ابن عمر ﵄، وقال: حسن غريب.
(٢) شرح مسلم للنووي (٢/٤٥).



مستَخِفٌّ بعباد الله ﷻ، قد ترك الحياء من خلق الله ﷻ وترك توقيرهم، وأيضًا ينضم إليه أنه جمع الدنيا والمال من غير وجهها المشروع، فهذه الذنوب فيها تنبيه على جميع أنواع الشهوات أو الذنوب المحرمة، التي من فعلها لم يكن كامل الإيمان، بل لا يفعلها المؤمن بإطلاق، المؤمن صاحب الإيمان المطلق لا يفعل هذه، أما من معه مطلق الإيمان فيفعل، يقع في مثل ذلك.

وقال بعض العلماء: معنى: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ» يعني: إذا زنى لا يقال له مؤمن؛ بل يقال له: زاني، وإذا سرق لا يقال له مؤمن، بل يقال له: سارق، وهكذا يعني هذا اللفظ لفظ التشريف، والإيمان يزول عنه إذا ارتكب هذه الموبقات.

** ** **

باب: لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين

(٤٤) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ وَاحِدٍ مَرَّتَيْنِ».

❖ **الشرح:**

هذا الحديث أخرجه الإمام مسلم في كتاب الزهد، وبوَّب عليه النووي: «باب في أحاديث متفرقة» فالإمام مسلم رحمه الله لم يخرج هذا الحديث في كتاب الإيمان، ولكن هذا الحديث كما لا يخفى له علاقة بكتاب الإيمان؛ لأن النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال: «**لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين**» فإيراد الإمام المنذري رحمه الله لهذا الحديث هاهنا، له وجهة ظاهرة.

فقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**لَا يُلْدَغُ**» بضم الغين، فيه روايتان الأولى: بضم الغين على الخبر، أي: أن هذا القول خرج مخرج الخبر، فيكون معنى الحديث: أن المؤمن الكيس العاقل الحازم لا يستغفل فيخدع مرة بعد أخرى ولا يفطن إلى ذلك، فهذا نفيٌ لوقوع مثل ذلك من أهل الإيمان الصادقين الممدوحين.

والوجه الثاني: بكسر الغين «**لا يُلدغِ المؤمن من جحر واحد مرتين**» أي: على النهي، أن يكون قد خرج مخرج النهي، فالرسول ﷺ ينهى المؤمن أن يؤتى من جهة الغفلة، فيلدغ من جحر مرتين.



فيستفاد من هذا الحديث: أنه ينبغي لمن ناله الضرر من جهة أن يتجنبها؛ لئلا يقع فيها مره ثانية.

ويستفاد منه: أن المؤمن الممدوح الكامل الإيمان، الحازم العاقل، وأن تمام العقل والحزم من تمام الإيمان، وأن من تمَّ له عقله وحزمه كمل له إيمانه؛ لأنه لا يؤتى من جهة يتضرر منها مرتين.

ويستفاد منه أيضًا: أن المؤمنين درجات؛ لأن من أهل الإيمان من يلدغ من جحر مرتين، وهذا بسبب نقص إيمانه، ونقص عقله وحزمه، وأما الكامل الإيمان العاقل الحازم فلا يلدغ من جحر مرتين.

وأيضًا في الحديث فائدة وهي: ضرب الأمثال لتقريب المعاني، فالأمثال المحسوسة تقرب المعاني، فالجحر هو موضع الهوام والحيات، فإذا أدخل الإنسان يده في جحر فلدغ من هذا الجحر، فالعقل والحزم يقضي بأنه لا يدخل يده مرة ثانيةً في الجحر نفسه.

فالرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان يضرب الأمثال؛ ليقرب المعاني للأفهام والعقول، وضرب الأمثال في الحديث النبوي كثير ومتعدد، وقد جمع فيه بعض أهل العلم كتبًا «كأمثال الحديث» للرامهرمزي وغيره، شرح فيه الأمثال النبوية الشريفة، كما ذكرنا سابقًا.

** ** **

باب: في الوسوسة من الإيمان

(٤٥) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: جَاءَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فَسَأَلُوهُ: إِنَّا نَجِدُ فِي أَنْفُسِنَا مَا يَتَعَاظَمُ أَحَدُنَا أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ، قَالَ: «وَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ؟» قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «ذَاكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ».

❖ **الشرح:**

الحديث في الإيمان من «صحيح مسلم» وبوَّب عليه النووي (١٥٣/٢): باب بيان الوسوسة في الإيمان، وما يقوله من وجدها.

وقد مرَّ معنا الكلام في معنى هذا الحديث تقريبًا في باب: في الأمر بالإيمان والاستعاذة بالله عند وسوسة الشيطان.

قوله: «**عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: جَاءَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فَسَأَلُوهُ: إِنَّا نَجِدُ فِي أَنْفُسِنَا مَا يَتَعَاظَمُ أَحَدُنَا أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ**» يتعاظم: يعني يستعظم في نفسه، أن يتكلم بهذا الكلام الذي يجده في صدره.

فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**وَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ؟**» **قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ:** «**ذَاكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ**» معنى هذا الحديث: أن استعظامكم لهذا الكلام الذي يخطر في النفس، هو صريح الإيمان؛ لأن استعظام هذا الخاطر وشدة الخوف منه ومن النطق به، فضلًا عن اعتقاده، دليل على أن صاحبه مؤمن، ولولا أنه مؤمن ما خاف من هذا الخاطر وما استعظم الكلام به ولكنه مؤمن قد انتفت عنه الريبة والشك، ولذلك فهو يستعظم ما يسوس به الشيطان في



صدره، كما جاء في بعض الروايات عن الإمام أحمد: «**لأن يكون حممة أحب إليه من أن يتكلم به**» يعني: أن يحترق حتى يكون فحمةً، أحب إليه من أن يتكلم بمثل هذا الكلام، ولا شكَّ أنه لا يكره الكفر إلى هذه الدرجة؛ إلا من وجد حلاوة الإيمان، كما قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**ثلاث من كن فيه، وجد بِهِنَّ حلاوة الإيمان...**» فذكر منها: «**وأن يُقذف في النار أحب إليه من أن يعود إلى الكفر**»(١).

وقيل إن المراد: إن الشيطان إنما يوسوس لمن أيس من كفره وردته، فمن أيس منه الشيطان أن يكفر ويرتدَّ فإنه يوسوس في صدره؛ لأنه عاجز عن أن يفعل أكثر من ذلك، وأما الكافر فإن الشطان يأتيه من حيث شاء، ولا يقتصر في حقه على الوسوسة؛ بل سلطانه أعظم من الوسوسة، فإنه يضلّه ويغويه ويتلاعب به كما يتلاعب الصبيان بالكرة، نعوذ بالله مولانا من ذلك.

وهذا لا يعني أن الإنسان يستسلم للوساوس، بل عليه أن يستعيذ بالله ﷻ وإن ينته، ولا يسترسل، وأن يقول: آمنت بالله، أو يقول: لا إله إلا الله، وفي حديث ابن عباس: «أن يقرأ قل هو الله أحد والمعوذتين» وما أشبه ذلك من الأذكار التي تطرد الشيطان، أما الاسترسال مع الوساوس وفتح الصدر لها، فإن هذا ينافي استعظام الكلام؛ لأن الإنسان إذا استعظم الكلام أعرض عنه، وهذا الخاطر الذي يمُرُّ، والطائف الذي يعرض لا ينبغي له القرار عندك، بل ينبغي لك أن تدفعه وتفر منه حين تشعر به كما قال الله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾ [الأعراف].

(١) قد مرَّ معنا شرح هذا الحديث قريبًا.



أي: إذا أحسست بوسوسة الشيطان وإغوائه، أو حثِّه على الشر والإزعاج إليه ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾ أي: التجئ إليه، واعتصم به، واحتمِ بحماه ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ سميع لقولك، عليم بحالك وبنيتك، وسيحميك من كيده وشره وفتنه.

ثم قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ۝٢٠١﴾ [الأعراف] أي إذا حصلت لهم غفلة، ونال منهم الشيطان شيئًا على حين غِرَّة، وأصابوا ذنبًا، تذكروا ما يجب أن يكون عليه من الإيمان والطاعة والعبادة، وتعظيم الله ﷻ، واستغفروا وتابوا، واستدركوا ما فاتهم من الحسنات.

وأما إخوان الشياطين: فحالهم كما قال ﷻ بعد هذه الآية: ﴿وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ ۝٢٠٢﴾ [الأعراف] أي: إذا وقعوا في الوساوس والخواطر الشيطانية، ولابسوا الذنوب والمعاصي، لم يقلعوا عنها، ولم يتذكروا الله تعالى؛ بل لا يزالون يواقعون الذنب بعد الذنب، ولا يزال الشياطين يمدونهم في الغي و﴿لَا يُقۡصِرُونَ﴾ أي: لا الشياطين تقصِّر عن إغوائهم، ولا هم ينتهون عن فعل الشر والانقياد لهم.

** ** **

باب: أكبر الكبائر الشرك بالله

(٤٦) عَنْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي بَكْرَةَ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ ثَلَاثًا: الْإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَشَهَادَةُ الزُّورِ، أَوْ قَوْلُ الزُّورِ»، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُتَّكِئًا، فَجَلَسَ، فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا لَيْتَهُ سَكَتَ.

❖ **الشرح:**

تحت هذا الباب حديثان: الحديث الأول: هذا الحديث رواه الإمام مسلم في كتاب الإيمان، وبوب عليه النووي رحمه الله (٨١/٢): باب الكبائر وأكبرها.

قوله: «**عَنْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي بَكْرَةَ، عَنْ أَبِيهِ**» وأبو بكرة هو نُفيع بن الحارث الثقفي.

قوله: «**كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ**» وهذا من أساليب التشويق، أن المعلِّم يشوِّق تلاميذه لمعرفة الشيء ويقول: ألا أخبركم، ألا أنبئكم، ففيه جذبٌ لانتباه السامعين.

قوله: «**بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ**» قال العلماء: تقديره: ألا أخبركم بأشياء من أكبر الكبائر؛ لأنه قد ورد عنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أحاديث أُخَرُ قال فيها ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «أكبر الكبائر كذا...».

وذكر أشياء غير التي ذكرت في هذا الحديث، كحديث ابن مسعود



قال: قلت: يا رسول الله! أي الذنب أعظم؟ قال: «**أن تدعوَ لله نِدًّا وهو خلقك**» قال: قلت: ثم أي؟ قال: «**أن تقتل ولدك خشيةَ أن يطعم معك**» قال: قلت: ثم أي؟ قال: «**أن تزاني حليلة جارك**» ومنه حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: قال الله تعالى: «**ومن أظلم ممن ذهب يخلق خلقًا كخلقي**» وغير ذلك من الأحاديث التي فيها الإخبار بأشياء أنها من أكبر الكبائر، وأظلم الظلم.

والكبائر اختلفوا في ضبطها اختلافًا كثيرًا، وفي عددها أيضًا، فسأل سائل ابن عباس فقال: الكبائر سبع؟ فقال: هي إلى السبعين أقرب.

وما ضابط الكبيرة؟ قال بعض أهل العلم: كل ذنبٍ ختمَهُ الله ﷻ بنار، أو بلعنة أو بغضب، أو بطردٍ من رحمة الله، أو نحو ذلك فهو من الكبائر، وهذا القول منسوب إلى ابن عباس، واختاره الحسن البصري.

وذهب آخرون إلى أنه: ما أَوْعَدَ الله عليه بنارٍ في الآخرة أو حَدٌّ في الدنيا، وهذا قال به الإمام أحمد، كما ذكره أبو يعلى عنه، وكذا الماوردي من الشافعية، وعلى كل حال فالضابط في هذا: أن الذنوب التي تختم بنار أو بلعنة أو بغضب أو بطرد من رحمة الله أو بِحَدٍّ في الدنيا، فهذه لا شكَّ أنها من الكبائر، والإمام الواحدي رحمه الله له كلمةٌ طيبةٌ في هذا، إذ يقول: «ما لم ينص الشارع على كونه كبيرة، فالحكمة في إخفائه أن يمتنع العبد من الوقوع فيه، خشية أن يكون كبيرة، كإخفاء ليلة القدر، وساعة الجمعة، والاسم الأعظم».

يعني: من الحكمة أن الله ﷻ لم يحصر الكبائر بنصٍّ واحدٍ، لئلا يتجرَّأ الناس على وما سواها فيقولون: هذه هي الكبائر وما سواها ليست من



الكبائر، فجعل الأمر فيه خفاء لئلا يتجرَّأ الناس على معصية الله، ولهذا قال بعض السلف: لا تنظر إلى صغر المعصية، وانظر لمن تعصي.

والحديث يدل على أن الذنوب تنقسم إلى كبائر وصغائر، كما هو مذهب الجمهور من أهل العلم، وحجتهم هذا الحديث وغيره، من الأحاديث والآيات، كقوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [النساء] فهذه الآية نصٌّ على أن في الذنوب ما هو كبائر.

وذهبت طائفة وشذَّت فقالت: ليس في الذنوب صغيرة؛ بل كل ما نهى عنه الله فهو كبيرة، وهو قول طائفة من الأشعرية، كالباقِلّاني أبي الطيب، وأبي إسحاق الإسفراييني وغيرهم.

واحتجوا لقولهم: بأن كل مخالفةٍ لله فهي بالنسبة إلى جلاله كبيرة. ولكن الآيات والأحاديث تردُّ عليهم هذا القول.

وقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «الْإِشْرَاكُ بِاللهِ» الإشراك بالله ذكره النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ خصوصًا؛ لكونه هو الشائع عند العرب قبل الإسلام، وإلا فيدخل فيه الكفر بأنواعه؛ لأن الكفر أعمُّ من الشرك فكل شرك كفر، وليس كل كفر شركًا، فذكر النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ الإشراك؛ لأنه هو الشائع العام في العرب سابقًا، وأعظمه: شرك التعطيل، كشرك فرعون الذي قال ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]، فعطل الخالق بالكلية، وهذا أعظم الشرك وأعظم الكفر، فالإشراك بالله تعالى هو أكبر الكبائر باتفاق المسلمين؛ لأن الله ﷻ قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، فنص جل وعلا على

أن الشرك لا يغفره الله تعالى لصاحبه إن مات عليه، ولقيه به، وقال ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة]، فنصَّ على أن الشرك صاحبه يُحرم من الجنة ومأواه النار، وغلَّظ الله ﷻ الآيات تلو الآيات في أمر الشرك، حتى في خطابه مع الرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ كان يقول: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر]، وهذا خطاب للأنبياء فما بالك بغيرهم؟!

قوله: «**وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ**» العق في اللغة: القطع، فعقوق الوالدين يعني قطعهما، أو قطع صلتهما، وهو ضد بِرِّ الوالدين، وبِرّ الوالدين معناه الإحسان إليهما بكل وجوه الإحسان، بالقول وبالعمل، فلا تدع وجهًا من وجوه الإحسان إلا قدَّمته لوالديك، وأن تصاحبهما في الدنيا معروفًا، فلا تَقُلْ لهما أفٍّ، ولا ترفع صوتك عليهما، ولا تخرج إلا بإذنهما إلى الجهاد وما أشبه ذلك، فتحسن صحبتهما ما استطعت، حتى إن العلماء جعلوه من أعظم ما يقترب به العبد إلى ربه بعد التوحيد.

وعن ابن عباس، أنه أتاه رجلٌ فقال: إني خطبت امرأة فأبت أن تنكحني، وخطبها غيري فأحبت أن تنكحه، فغرت عليها فقتلتها، فهل لي من توبة؟ قال: أمُّكَ حيَّة؟ قال: لا، قال: تُبْ إلى الله ﷻ، وتقرب إليه ما استطعت، قال عطاء بن يسار: فذهبت فسألت ابن عباس: لم سألته عن حياة أمة؟ فقال: إني لا أعلم عملًا أقرب إلى الله ﷻ من بِرِّ الوالدة[1].

وهذا الأثر يدل على عظيم فقه الصحابة ﷺ للكتاب والسنة.

---

(١) أثر صحيح رواه البخاري في الأدب المفرد (٤) وصحَّحه الألباني رحمه الله.



وقد أمر الله تعالى ببِرِّ الوالدين بعد أمره بالتوحيد، فقال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقال: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [النساء: ٣٦] فوصى الله ﷻ بالإحسان إليهما بعد التوحيد.

والآيات والأحاديث في هذا الموضوع كثيرة يطول سردها.

وقوله: «وَشَهَادَةُ الزُّورِ، أَوْ قَوْلُ الزُّورِ» الزور: هو الكذب، وهو خلاف الواقع وشهادة الزُّور سبب عظيم للفساد بين الناس، يقول القرطبي: «شهادة الزور هي الشهادة بالكذب، ليتوصل بها إلى الباطل، من إتلاف نفس، أو أخذ مال، أو تحليل حرام، أو تحريم حلال، فلا شيء من الكبائر أعظم ضررًا منها، ولا أكثر فسادًا بعد الشرك بالله» انتهى.

وقوله: «قَوْلُ الزُّورِ» أقل من شهادة الزور، وقول الزور هو قول الكذب، فشهادة الزُّور أعمُّ وأعظم، إذ أن شهادة الزور يتضرَّر بها الآخرون في الغالب، فقول الزور ربما يكون ضرره أقل من شهادة الزور، وقد ذكرهما جميعًا ﷺ في الكبائر.

وقوله: «وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُتَّكِئًا، فَجَلَسَ، فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا أَيْ: وَقَالَ: أَلَا وَقَوْلِ الزُّورِ وَشَهَادَةِ الزُّورِ أَوْ أَلَا وَشَهَادَةِ الزُّورِ وَقَوْلِ الزُّورِ» كان مُتَّكِئًا فجلس حين قال هذه الكلمات، ليس لأن شهادة الزور وقول الزور أعظم من الشرك بالله ﷻ، وأعظم من العقوق، لا، ولكن لأن شهادة الزور وقول الزور هما الأكثر وقوعًا، ويتهاون فيهما كثير من الناس، ومفسدتهما عظيمة، قالوا: ولأن الشرك يحذَرُهُ المسلم، وينبو عنه ويكرهه، وعقوق الوالدين أيضًا الإنسان بطبعه يستقبحه، أما قول الزور فإن الدوافع إليه

كثيرة، ولذلك اهتمَّ النبي ﷺ بالتنبيه عليه لخطورته على المرء المسلم.

أما قول الصحابة: «**فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا لَيْتَهُ سَكَتَ**» يعني إشفاقًا عليه، لما رأوا من انزعاجه وغضبه لهذا الأمر، لا تخلُّصًا من حديثه - عليه الصلاة والسلام -، وإنما لشفقتهم عليه، وحبهم له ﷺ.

نقول: **فهذا الحديث فيه فوائد: منها**: أن الذنوب تنقسم إلى كبائر وصغائر. وأن الكبائر ليست برتبة واحدة؛ لأنه قال: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر**» فالكبائر والمحرمات درجات، وليست على درجة واحدة.

وأيضًا: يستفاد منه التكرير في التنبيه على الشيء، إذا كثر التهاون فيه؛ لأن النبي - عليه الصلاة والسلام - كرَّر هذا الأمر على الصحابة في المجلس الواحد.

وأيضًا: تكرير الشيء يكون للتنبيه عليه ليحفظ، أو ليحضر السامع قلبه، فعند التكرير ينتبه الإنسان الغافل.

وفيه أيضًا: إشفاق التلميذ على المعلم إذا رآه منزعجًا، وتمنى عدم غضبه؛ لأن بالغضب يتغير المزاج، وربما يحرم التلميذ الفائدة، فأنت إذا أغضبت شيخك، ربما ينقطع عن الحديث ويترك الكلام لتغيُّر حاله، فالصحابة رضي الله عنهم كرهوا لهذا غضب النبي ﷺ.

وفيه أيضًا: أنه لا بأس أن يظهر الخطيب أو المعلم أو المرشد غضبه وانزعاجه من الشيء، إذا كان من حرمات الله التي تنتهك، ليبين أهمية الشيء للناس وخطورته.

** ** **



(٤٧) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ» قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ! وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «الشِّرْكُ بِاللهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصِنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ».

❖ الشرح:

هذا هو الحديث الثاني في هذا الباب، وأخرجه مسلم في الإيمان، وبوَّب عليه النووي (٢/٨١): باب الكبائر وأكبرها.

قوله: «**الْمُوبِقَاتِ**» أي المهلكات، وسمِّيت بذلك؛ لأنها سبب لإهلاك مرتكبها في الدنيا والآخرة، أي: اجتنبوا هذه الكبائر السبع، لزيادة قبحها وفحشها.

قوله: «**الشِّرْكُ بِاللهِ**» قد مَرَّ معنا مِرَارًا أنه أعظم الكبائر، وأظلم الظلم، ولا يغفره الله تعالى لمن مات عليه أبدًا.

قوله: «**وَالسِّحْرُ**»: السِّحر في اللغة: عبارة عما خفي ولطف سببه.

وعرَّفه ابن قدامة المقدسي في «الكافي» بقوله: السحر: عزائم ورقى، وعقد يؤثر في القلوب والأبدان، فيمرض ويقتل، ويفرق بين المرء وزوجته، ويأخذ أحد الزوجين عن صاحبه، قال تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ [البقرة: ١٠٢]. وقال سبحانه: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ إلى قوله: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤﴾ [الفلق]، يعني: السَّواحر اللاتي يعقدن في سحرهن وينفثن، ولولا أنَّ للسحر حقيقة، لم يأمر بالاستعاذة منه. انتهى مختصرًا.

وقد قال تعالى عمَّن مالَ إلى السحر من أهل الكتاب وترك ما أنزل إليه، ومتابعة الرسل: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ [البقرة: ١٠٢].

أي: ما له من نصيبٍ أو حظّ.

وهو محرَّم في جميع الأديان، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴿٦٩﴾﴾ [طه]. واختلف العلماء: هل يكفر الساحر أم لا؟ فذهب أبو حنيفة، ومالك، وأحمد إلى تكفيره، وقال الشافعي: لا يكفر إلا أن يكون في سحره شرك فيكفر.

واستدل الأولون بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢]، وقوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ [البقرة: ١٠٢].

وورد في مسند أحمد (١/١٩٠ ـ ١٩١) وأبي داود (٣٠٤٣): أن عمر بن الخطاب ﷺ أمر بقتل كل ساحر وساحرة. وإسناده صحيح.

ـ قوله: «**وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ**» أي: قتلها عمدًا وعُدوانًا لا خطأ، وهو من الكبائر العظيمة، قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النساء]، وقال ﷺ: «**لزوال الدنيا أهْوَن على الله من قتل رجل مسلم**»(١).

وقال ﷺ: «**لا يزال الرجل في فسحة من دينه، ما لم يُصِبْ دمًا حرامًا**» [رواه البخاري].

---

(١) حديث صحيح، رواه الترمذي (١٣٩٥)، والنسائي من حديث ابن عمر ﷺ.



قوله: «**وَأَكْلُ الرِّبَا**» أي: أخذه بأي وجه كان، وعبَّر بالأكل لأنه أعمُّ وجوه الانتفاع. وقد آذن الله تعالى آكل الربا بالمحاربة، في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾ [البقرة].

روى ابن جرير: عن ابن عباس ﷺ قال: يقال يوم القيامة لآكل الربا: خذ سلاحك للحرب!! ومن الذي له طاقة بحرب الله تعالى؟! أو حرب رسول الله ﷺ ؟!

وآكل الربا يُريد الزيادة في ماله، فيعاقبه الله تعالى بنقيض قصده، قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «.. **الربا وإن كثر، فإن عاقبته تصير إلى قل**»(١).

وقال ابن دقيق العيد: وهو مجرَّب لسوء الخاتمة(٢).

قوله: «**وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ**» يعني: التعدي عليه، وأخذه بغير حق، أو بتبذيره فيما لا فائدة فيه لليتيم، وعبَّر بالأكل كما قلنا في الربا؛ لأنه أعم وجوه الانتفاع.

وقد عظَّم الله تعالى هذه الكبيرة، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا ﴿١٠﴾﴾ [النساء]، وقد كانت العرب في الجاهلية تظلم اليتامى، وتأكل أموالهم بغير وجهِ حقّ، وهكذا فعلهم مع كل مستضعف، فأمَرَ الله تعالى بالإحسان إليهم وعدم قهرهم، فقال: ﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ﴿٩﴾﴾ [الضحى]، وأباح الله لوالي اليتيم إذا كان فقيرًا مُحتاجًا أن يأكل بالمعروف من ماله.

---

(١) رواه الحاكم (٣٧/٢) بسند صحيح عن ابن مسعود ﷺ.

(٢) فيض القدير (١٥٣/١).



قوله: «**وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ**» أي: الفِرَار من وُجُوه الكفار «**يَوْمَ الزَّحْفِ**» أي: عند التقاء الطائفتين والتحام الصفين، وهو من الكبائر، إلا إنْ علم أنَّه إن ثبت قُتِلَ بغير نكاية في العدو، وكذا لو فرَّ إلى جهة المؤمنين: قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾ [الأنفال]، قال العز بن عبد السلام: وأشدُّ منه: ما لو دَل الكفارِ على عورة المسلمين، عالمًا بأنهم يستأصلونهم، ويَسْبُون حريمهم[1].

قوله: «**وَقَذْفُ الْمُحْصِنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ**» المحصنات: أي الحرائر العفيفات المحفوظات من الزنا. والقذف هو رميهُنَّ بالزنا أو اللواط.

وقوله: «**الْمُؤْمِنَاتِ**» احترازٌ عن قذف الكافرات، فإنه من الصغائر، ولا يجب به الحدّ؛ لأن حرمتهم ناقصة، ولذا فلا يجب الحدُّ على قاذفِ الكافر والمملوك والفاجر[2].

وكذا لا يجب الحد على قاذف المجنون، والصغير الذي لا يجامِع مثله؛ لأن زناهما لا يوجب الحدّ عليهما، فلا يجب الحَدُّ بالقذف به؛ ولأن قاذف الصغير يتيقن كذبه.

وقوله: «**الْغَافِلَاتِ**» أي: عن الفواحش وطُرُقِها، وما قُذِفْنَ به، فهو كنايةٌ عن البراءة، وكل غافل بريء مما بُهِتَ به.

---

(١) فيض القدير (١٥٣/١).

(٢) لكن قاذف المملوك ينال عقوبته في الآخرة، قال ﷺ: «**من قَذَفَ مملوكة بالزنا يقام عليه الحدُّ يوم القيامة، إلا أن يكون كما قال**» رواه البخاري ومسلم واللفظ له (١٢٨٢/٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.



باب: لا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ

(٤٨) عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ: «وَيْحَكُمْ ـ أَوْ قَالَ: وَيْلَكُمْ ـ لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ».

❖ **الشرح:**

الحديث أخرجه مسلم في الإيمان، وقد بوَّب عليه النووي (٢/٥٥): باب: بيانِ معنى قول النبي ﷺ: **«لا ترجعوا بعدي كفارًا، يضرب بعضكم رقاب بعض»**.

«عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ» وفي رواية للبخاري: أن النبي ﷺ قال ذلك في يوم النَّحْرِ، قال: **«أتدرون أي يوم هذا؟»** قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: **«أليس بيوم النحر؟»** قالوا: بلى، وفي روايةٍ أنه قاله في يوم عرفة، فالذي يظهر أنَّه كرَّره للتأكيد والتنبيه على أهميَّته.

قوله: **«وَيْحَكُمْ ـ أَوْ قَالَ: وَيْلَكُمْ ـ»** ويحٌ، ويلٌ، استعملها العرب بمعنى التَّعجُّب والتوجُّع، وقال سيبويه: إن «ويل» كلمة لمن وقع في هَلَكة، وأما «ويح» فهي كلمة ترُّحم، فويل فيها تهديدٌ ووعيدٌ، وأما ويح ففيها ترحُّم لمن وقع في شيءٍ مؤذٍ أو مهلك.

قوله: **«لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ»** قوله:



«**كُفَّارًا**» فيه أقوال، ذكر النووي منها سبعة، وذكر الحافظ عشرة، وبعضها يدخل في بعض.

منها: أنَّ هذا في حقِّ المستَحِلِّ، فمن استحَلَّ قتل المسلم فقد كفر، ومنها: أن المرادَ بذلك هو كفر النعمة وحق الإسلام، ومنها: أن هذا العمل يُقَرِّب إلى الكفر، وذلك أن بعضَ الآثام والذنوب إذا عَمِلَها الإنسان ساقته إلى الكفر بالله، والعياذ بالله، كأن يُخْتَم له بسوء وما أشبه ذلك.

ومنها: أنَّ هذا العمل وهذا الفعل هو فِعْل الكفار، فإنَّ الكفار يستحِلُّ بعضهم دماءَ بعض، فقال ﷺ «**لا ترجعوا بعدي كفارًا**» يعني لا تفعلوا فِعْلَ الكَافرين، حيث إنهم يستحلُّون دماءَ بعضهم بعضًا، وهذا القول هو الذي اختاره النووي رحمه الله ورجَّحه، وذكر أنه اختيار القاضي عياض، وهو قولٌ قويٌّ قريب، ويلتئم مع الأحاديث النظائر التي مرَّت معنا، كحديث: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**» وقلنا: إن المراد به هو أن هذه الأفعال تُنافي الإيمان وأعمال أهل الإيمان، وليس المُراد أنه يَخرج من الإيمان بالكليَّة، ونقل الحافظ أيضًا: أن الخوارج قالوا بهذا الحديث على ظاهره، فقالوا: إن المقاتِلَ كافر يخرج من الملَّة!! على مذهبهم في أنَّ فِعْلَ الكبائر مما يُخرج من مِلَّة الإسلام؛ لأنهم يكفرون بالذنوب.

وجاء في رواية للبخاري: «**لا ترتدوا بعدي كفارًا**» ففيه تحذير من الشرك والكفر، وتحذيرٌ من الارتداد عن أخلاق أهل الإيمان، إلى أخلاق أهل الكفران، وفي رواية أيضًا «**لا ترجعوا بعدي كفارًا**» كلّها في الصحيح، والحديث مخرَّج في البخاري في مواضع: في الحج، وفي الديات، وفي الفتن.



ومن فوائد هذا الحديث: أنَّ حَجَّة الوداع اصطلاحٌ كان معروفًا عند الصحابة، فالصحابة سَمُّوا حجَّة النبي ﷺ الوحيدة: حَجَّة الوداع؛ لأن النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ ودَّع الناس فيها، وعلَّمهم في خطبته في تلك الحَجَّة أمْرَ دينهم، مما فيه فلاحهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة، وأوصاهم بتبليغ ذلك لمن غاب عن موقفهم هذا، فقال: «**فليبلغ الشاهد منكم الغائب**»، فحثَّهم على تبليغ وصاياه إلى الناس، وقد ذكر علماء السِّيَر ومَنْ تكلَّم في عدة أسماء الصحابة: أن تلك الحَجَّة جَمَعَتْ ما يقرب من: مائة ألف أو أكثر من الخلق، كلهم سَمِعُوا كلامه ﷺ، وأخذوا عنه، وجاء في الحديث: أن الصحابة لما خَطَبَ بهم النبي ﷺ في يوم «القَرِّ» الذي هو يسبق يوم النَّفْر، يعني: اليوم الحادي عشر؛ لأن اليوم الثاني عشر يحق للإنسان أن ينفر فيه، قال: ففتحت أسماعنا حتى سمعنا كلامه ونحن في منازلنا في منى، فكان كلامه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بلاغًا للجميع، وسمعه الجَمُّ الغفير من الصحابة رضوان الله عليهم.

ومن الفوائد في هذا الحديث: أن من الأعمال ما يَجُرُّ إلى الكفر؛ لأن من شُؤْمَ المعصية، أنَّها تَجُرُّ إلى معصية أخرى، فالمعاصي تتوالد، كما أن الحسنات تتوالد، وقد يختم لصاحب المعصية بسوء بسبب معصيته.

وفي الحديث: أن النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان يستخدم بعض أساليب اللغة في الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، تأكيدًا لكلامه ـ عليه الصلاة والسلام ـ، فتارةً بالقَسَم، وتارةً بما تَعَارَفَ الناسُ على استعماله من الألفاظ، كما في هذا الحديث أنه قال: «**ويلكم أو قال: ويحكم**» وهي من الأساليب العربية المعروفة.



باب: من رغب عن أبيه فهو كفر

(٤٩) عَنْ أَبِي عُثْمَانَ قَالَ: لَمَّا ادُّعِيَ زِيَادٌ، لَقِيتُ أَبَا بَكْرَةَ فَقُلْتُ لَهُ: مَا هَذَا الَّذِي صَنَعْتُمْ؟ إِنِّي سَمِعْتُ سَعْدَ بْنَ أَبِي وَقَّاصٍ يَقُولُ: سَمِعَ أُذُنَايَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: «مَنْ ادَّعَى أَبًا فِي الْإِسْلَامِ غَيْرَ أَبِيهِ، يَعْلَمُ أَنَّهُ غَيْرُ أَبِيهِ، فَالْجَنَّةُ عَلَيْهِ حَرَامٌ» وَقَالَ أَبُو بَكْرَةَ: وَأَنَا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

❖ الشرح:

الحديث أخرجه مسلم في الإيمان، وبوَّب عليه النووي (٥١/٢): باب بيان حال إيمان من رغب عن أبيه وهو يعلم.

«**عَنْ أَبِي عُثْمَانَ**» وهو النهدي من رجال الشيخين، واسمه: عبد الرحمن بن مل، مخضرم ثقةٌ ثَبْت.

قوله: «**لَمَّا ادُّعِيَ**» وفي رواية: «**لما ادَّعى**» فالرواية الأولى أن الادِّعاء كان من غير زياد، وفي الرواية الثانية أن الادِّعاء كان من زياد نفسه.

«**زِيَادٌ**» وهو المعروف بزياد ابن أبيه، وبزياد بن أمِّه، وهو أخو أبي بكرة لأمه، أمهما سُمَيَّة أمة الحارث بن كلدة، الطبيب العربي المعروف في الجاهلية، وكان قد ادعاه معاوية لأبي سفيان، أي ألحقه بأبي سفيان، كان زياد ممَّن يميل إلى علي ﷺ، وكان على فارس، ثم استماله معاوية، وألحقه بأبيه ـ أبي سفيان ـ فصار يسمى: زياد بن أبي سفيان.

«**أَبَا بَكْرَةَ**» وهو نفيع بن الحارث، وجاء في السِّيَر أنه سمي: أبا



بكرة؛ لأنه تدلى من حصن الطائف ببكرة إلى النبي ﷺ، فسمِّي أبا بكرة.

قوله: «**فَقُلْتُ لَهُ: مَا هَذَا الَّذِي صَنَعْتُمْ؟**» أبو عثمان أنكر على أبي بكرة، يعني ما هذا الذي صنعتم، وهو ادِّعَاءُ زياد إلى أبي سفيان، إنكارًا عليه، ولعل أبا عثمان لم يبلغه إنكار أبي بكرة؛ لأن أبا بكرة كان قد أنكر على أخيه لأمه وهو زياد، وحلَفَ أن لا يُكَلِّمه أبدًا وهجره، فلعل أبا عثمان لم يبلُغْهُ إنكار أبي بكرة، أو يكون المراد بقول أبي عثمان: ما هذا الذي صنعتم؟ يعني: ما هذا الأمر العظيم الذي صنعه أخوك؟ أي: زياد، وهو أمر عظيم قبيح؛ لأن النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ حرَّم الجنة على فاعله.

قوله: «**إِنِّي سَمِعْتُ سَعْدَ بْنَ أَبِي وَقَّاصٍ يَقُولُ: سَمِعَ أُذُنَايَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: «مَنْ ادَّعَى أَبًا فِي الْإِسْلَامِ غَيْرَ أَبِيهِ، يَعْلَمُ أَنَّهُ غَيْرُ أَبِيهِ؛ فَالْجَنَّةُ عَلَيْهِ حَرَامٌ**». وقال أبو بكرة: وأنا سمعته من رسول الله ﷺ. فهو أيضًا من رُواة هذا الحديث.

ومعنى هذا الحديث ـ كما مَرَّ معنا من الأحاديث النظائر، في قوله: «**الجنة عليه حرام**» ـ أي: إن الجنة حَرَامٌ عليه إن استَحَلَّ ذلك، أو: إن الجنة حرامٌ عليه أن يدخلها مع السابقين، بل يؤخَّر عنها وينظر حاله، إما أن يعاقب وإما أن يُعفى عنه فيدخلها، فالتحريم هنا تحريم مؤقت، بخلاف تحريم الجنة على المشركين، الذي جاء ذكره في الكتاب والسنة، كقوله ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة].

فالتحريم هنا مؤبَّد، وأما تحريم الجنة على عصاةِ الموحدين فهو تحريم مؤقَّت، إما يزول بعفوِ الله ﷻ ومغفرته وصفحه ابتداءً، وإمَّا أن يكون

بعد أن يدخل صاحب المعصيةِ النارَ، فيتطهر منها ويدخل بعدُ الجنة.

ومن فوائد الحديث: أنَّ الجِيلَ الأوَّل من الصحابة ومن لقيهم من التابعين، كانوا آمِرِينَ بالمعروف ناهِينَ عن المنكر، لا يخافون في الله لومةَ لائمٍ، فأبو عثمان النهدي وهو التابعي الجليل الذي لقي عددًا كبيرًا من الصحابة، ينكر هنا على أبي بكرة ما حَدَث من انتساب زياد لغير أبيه، ثم يحدِّثه بما سمع من سعد بن أبي وقاص في هذا الأمر.

وفيه أيضًا: أنَّ أبا بكرة صدَّق أبا عثمان وأيدَّه، ولم يدافع عن نفسه بالباطل، بل أيَّدَ كلامه ووافقه فيما قال، خلافًا لبعض الناس الذي قد تأخذهم الحمِيَّة، فيدافع عن نفسه أو عن أهله أو عن عشيرته أو عن قومه بالباطل، عصبية وحميَّة، وهذه من الجاهلية التي حذَّرنا الله عزَّ وجل منها.

وفي الحديث: أن الادِّعاء إلى غير الوالد مع العلم بذلك من الكبائر العظيمة، التي يستوجب فاعلها النار، إلَّا أن يعفوَ الله عنه، وأنه يحرم على الإنسان أن يدَّعِي لغير أبيه، وقد جاء في الصحيحين أيضًا وصف هذا الفعل بالكفر، فقال ﷺ: «**كفرٌ بالرجل، ادِّعاء إلى غير أبيه**»، وكان العرب يَشِيع فيها هذا الفعل، فيدَّعي الرجل إلى غير أبيه طلبًا للنجابة ولرفعة الشأن، وكان في الصحابة رجال نُسِبوا إلى غير آبائهم: كالمقداد بن الأسود، فالأسود هذا، ليس أبوه، إنما هو المقداد بن عمرو، ونسب إلى الأسود لتبنِّيه له، وصار يعرف به، وهو بلا شكٍّ لا إثم عليه؛ لأنه ليس من فعله، وإنما من فعل الناس في الجاهلية.

وهذا الفعل وصَفَه الشارع بالكفر؛ لأنه كفر لنعمة الوالد، فالوالد هو الذي كان سببًا في إيجاده، وهو الذي تربَّى على يده، وفي بيته، وغذاه



بأنواع النعم والطعام، فإذا جَحَد هذه النعم كلّها، وانتسب إلى غير أبيه يكون قد كَفَرَ هذه النعمة، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله، ولهذا جاء في الكتاب شكر الوالدين بعد شكر الله، فقال سبحانه: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤]، لأن أعظم الناس حقًّا عليك هما الوالدين.

وفي الحديث: استعمالُ الراوي ما يؤكِّد كلامه، وهو قول سعد بن أبي وقاص: سمع أذناي من رسول الله ﷺ، وهذا تأكيد للكلام.

تنبيه: قد يقول قائلٌ: كيف يفعل معاوية رضي الله عنه مثل هذا الأمر؟ نقول: نلتمس له العذر في ذلك بعدم العلم، فمعاوية رضي الله عنه فعل ذلك وهو لا يعلم حُرمة هذا الأمر، وهو كما قلنا أمرٌ كان شائعًا في الجاهلية، والله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ۝٤ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾ [الأحزاب].

وقيل: إنَّه قد شَهِدَ أناسٌ بنسبه لأبي سفيان، فألحقه معاوية به رضي الله عنه.

وهذا أقرب، والله تعالى أعلم.

** ** **

باب: من قال لأخيه كافر

(٥٠) عَنْ أَبِي ذَرٍّ ﷺ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «لَيْسَ مِنْ رَجُلٍ ادَّعَى لِغَيْرِ أَبِيهِ وَهُوَ يَعْلَمُهُ؛ إِلَّا كَفَرَ، وَمَنْ ادَّعَى مَا لَيْسَ لَهُ فَلَيْسَ مِنَّا، وَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنْ النَّارِ، وَمَنْ دَعَا رَجُلًا بِالْكُفْرِ أَوْ قَالَ عَدُوَّ اللهِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ؛ إِلَّا حَارَ عَلَيْهِ».

❖ **الشرح:**

هذا الحديث أخرجه مسلم في الإيمان، وبوَّب عليه النووي رحمه الله (٤٩/٢) «باب: بيان حال إيمان من قال لأخيه المسلم: يا كافر».

يعني: ما حال إيمان من قال: لأخيه المسلم يا كافر؟

قوله: «**وَلْيَتَبَوَّأْ**» يعني: ليتَّخِذْ منزلًا، أو لينزِل منزلًا.

قوله: «**حَارَ عَلَيْهِ**» يعني: رجع عليه تكفيره.

وقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**لَيْسَ مِنْ رَجُلٍ ادَّعَى لِغَيْرِ أَبِيهِ وَهُوَ يَعْلَمُهُ؛ إِلَّا كَفَرَ**» تقدم شرحه في الحديث السابق، وبينَّا أن هذا الفعل من كبائر الذنوب، حيث إنه أطلق عليه لفظ «**الكفر**»، وذكرنا المراد بمعنى الكفر في هذا الحديث.

وقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**وَمَنْ ادَّعَى مَا لَيْسَ لَهُ فَلَيْسَ مِنَّا، وَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنْ النَّارِ**» الدعوى إضافة الإنسان إلى نفسه شيئًا، ملكًا، أو استحقاقًا، أو ما أشبه ذلك، وهي في الشرع: إضافة إلى نفسه استحقاق شيءٍ في ذمة غيره، أو في يد غيره، وما أشبه ذلك.



والنبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ يقول هنا: «وَمَنْ ادَّعَى مَا لَيْسَ لَهُ» وهذا يعم جميع الأشياء سواء كانت، كما قلنا ملكًا أو استحقاقًا أو صفقةً أو ولدًا، كل ذلك يدخل في الحديث.

قوله: «فَلَيْسَ مِنَّا» يعني: ليس على سنَّتنا وجميلِ طريقتنا، ولا هو على سنَّة محمد ﷺ، وليس في ذلك إخراج له من الإسلام، وإن كان ظاهره التكفير، وأنه ليس من أمة محمد ﷺ، لكن ظاهره غير مرادٍ، وإنما المراد: أنه ليس على سنَّتنا ولا على جميلِ أخلاقنا وهدْيِنَا، وقد جاء في الدعاوى الحديث الذي رواه البخاري ومسلم: أن النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال: «**لو أعطي الناس بدعواهم، لادَّعى رجالٌ دماءَ قومٍ وأموالهم، لكن البينة على المدعي**» يعني: لو أن الإنسان يُعطى بدعواه، بمجرد أن يدَّعي أنه يملك هذا المنزل، أو هذا العقار، أو أن هذا الولد له، بمجرَّد الدعوى، لو يعطي الناس بدعواهم، ربما يدِّعي الإنسان مالَ إنسان، أو دَمَه، فيتهمه بقتل أو نحو ذلك، لكن البينة على من ادعى، واليمين على المدَّعَى عليه.

وفي لفظ آخر: «**البيِّنة على المدعي، واليمين على المدعى عليه**»(١).

فمن ادَّعى ما ليس منه: فـ«لْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنْ النَّارِ» يعني: ليتخذ له منزلًا في النار والعياذ بالله، وهو كما قال العلماء: إما أن يكون دعاء عليه من النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ، أو أن يكون خبرًا بلفظ الأمر، واستظهره النووي رحمه الله، وقال: هو أظهر القولين، ومعناه: هذا جزاءه، فمن ادعى ما ليس منه، فجزاؤه أن يكون له منزل في النار والعياذ بالله.

---

(١) رواه الترمذي (١٣٦٤) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده مرفوعًا.



ومعنى قولنا: هذا جزاؤه، لا يعني أنه يُصِيبه على كل حال، فقد يَعفُ الله عنه، وقد يجازيه، فقد يوفِّقه الله ﷻ لتوبةٍ فيتوب مما فعل.

وقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**وَمَنْ دَعَا رَجُلًا بِالْكُفْرِ أَوْ قَالَ عَدُوَّ اللهِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ؛ إِلَّا حَارَ عَلَيْهِ**» وفي لفظ البخاري «**لا يرمي رجلٌ رجلًا بالفسوق، ولا يرميه بالكفر إلا ارتدَّت عليه**» يعني: رجعت إليه إذا لم يكن صاحبه كذلك، فهذا يقتضي أنَّ مَنْ قال لأخيه المسلم: يا فاسق، أو قال له: يا عدُوَّ الله، أو قال له يا كافر، فإنْ كان ليس كما يقول، كان هو المستحق للوصف والعياذ بالله، يعني: ترجع إليه، وإذا كان كما قال، لم يرجع إليه شيء؛ لكونه صَدَقَ فيما قال، لكن يقول الحافظ بن حجر: لا يلزم من كونه صادقًا أن لا يكون آثمًا، يعني: رُبَّ رجل يقول لأخيه المسلم: يا فاسق، وهو صادق في قوله أنه فاسق، لكن هذا لا يلزم منه ألا يكون آثمًا.

وذلك ما إذا كان قصده أن يعيِّره بذلك، أو أن يفضحه بين الناس، أو يشهِّر به، فهذا لا يجوز؛ لأنه مأمور بالستر عليه، ومأمور بأن يعلمه ويرشده بالرفق واللين والحكمة كما قال الله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥].

ولأن كثيرًا من الناس إذا قيل له: يا فاسق، أو يا عدُوَّ الله، أو ما أشبه ذلك، تأخذه العزة بالإثم، ويُغريه الشيطان بالتمادي، فيقول: نعم أنا كذلك!! ويتمادى في الفعل، لاسيما إذا كان الآمر دون المأمور في المنزلة، إما بالسِّنِّ أو بالمنزلة عند الناس، كالجاه والمنصب، فينبغي التنبّه عند استعمال هذه الكلمة.

وأما إذا كان قصده بقوله: يا فاسق، تنفيره مما يفعل من الذنوب، أو



نصحه، ونصح غيره من هذا الفعل الذي يتعاطاه، كان صادقًا ومأجورًا في نفس الوقت.

وقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «إِلَّا حَارَ عَلَيْهِ» هل يكون كافرًا بهذه الكلمة.

يعني: إذا كان كفَّر مسلمًا بغير حق، كما هو ظاهر الحديث؟ قال قوم: إن هذا في حق المستحلّ، يعني: من استحَلَّ تكفير المسلمين، فإنه يكفر والعياذ بالله، وقال الإمام مالك: هذا في حق الخوارج؛ لأن الخوارج كفَّروا الصحابة، والنووي رحمه الله ضعّف هذا القول، لكن إن كان قصد الإمام مالك أن الذي كفّر الصحابة، ليس عليه ذنب التكفير فقط، وإنما هو مكذِّب لشهادة الله تعالى لهم؛ لأن الله تعالى شهد لهم بالعدالة وشهد لهم بالإيمان والإسلام فقال سبحانه: ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ﴾ [البقرة: ١٣٧]، فشرط لهداية من يأتي بعدهم أن يكون مؤمنًا بمثل ما آمنوا به، وغير ذلك من الآيات الكثيرة، كقوله: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد: ١٠] يعني: المهاجرين والأنصار، ومن كان قد آمن وأسلم بعد الفتح (مسلمة الفتح) وقوله: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ يعني: الجنة.

ومنهم من قال: «إِلَّا حَارَ عَلَيْهِ» يعني: أن هذا ذنب يَجُرُّ إلى الكفر، يعني: من وقع في أعراض المسلمين وكفر بغير حق، جرّه هذا الذنب إلى الوقوع في الكفر والعياذ بالله؛ لأن المعاصي والكبائر تجر إلى الكفر.

فعلى كل حال ينبغي الحَذَرُ من التسرُّع في إطلاق لفظ الفسق والكفر



وما أشبه ذلك على المسلم؛ لأن الكفر حكم شرعي يتوقف على النصوص، فلا نكفر إلا من كفره الله تعالى ورسوله ﷺ، فلا يكفر الإنسان إلا بدليل، فالكفر ليس لي ولا لك، ولا يجوز لي أن أكفر أحدًا من الناس لأنني اختلفت معه، أو لأنتقم لنفسي!! فهذا لا يجوز، بل هذه كبيرة من الكبائر كما نصَّ الحديث على ذلك.

كما لا يجوز أن يقول ذلك عند الغضب، فإذا غضب على أحدٍ قال له: يا كافر، يا عدوَّ الله، يا فاسق! لأن هذه كبيرة من الكبائر، فالكفر إذًا لابد أن يكون عليه دليل شرعيّ من كتاب أو سنةٍ أو إجماع، ثم لابد فيه من العلم بانتقاء الموانع التي تمنع من تكفير الشخص؛ لأن التكفير حكم شرعي، له شروط وله موانع، فإذا توافرت الشروط في العبد، بأن كان عالمًا بأن هذا العمل كفر، وأتاه من غير إكراه، لا جهل ولا تأويل، وإنما كفر طائعًا مختارًا عالمًا، وانتقت الموانع في حقه، فإنه يكفر ويحكم عليه بالردة فليس كل من وقع في الكفر يكون كافرًا، ولهذا تفصيل في موضع آخر، والله يعصمنا من الخطأ والزلل والتسرع، إنه سميع مجيب.

** ** **

باب: أي الذنب أكبر

(٥١) عَنْ عَبْدُ اللهِ بن مسعود رضي الله عنه: قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَيُّ الذَّنْبِ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ؟ قَالَ: «أَنْ تَدْعُوَ للهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ» قَالَ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ مَخَافَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ» قَالَ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ» فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ تَصْدِيقَهَا: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾﴾ [الفرقان].

❋ الحديث الأول:

هذا الحديث أخرجه مسلم في الإيمان، وبوَّب عليه النووي (٢/٧٩) باب كون الشرك أقبح الذنوب، وبيان أعظمها بعده.

❖ الشرح:

قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «أَنْ تَدْعُوَ للهِ نِدًّا» النِدُّ هو المثل، وقيل: هو الضدّ، يقال: فلان نِدُّ فلان ونديده، يعني: مثيله، وقد جاء في الكتاب في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة]، والمشركون قد جعلوا لله تعالى آلهة، سموها بأسمائه، وأعطوها صفاته، ونسبوا لها ما لا يليق نسبته إلى مخلوق، فجعلوها مثل الله تعالى في إجابة الدعاء، والنفع ورفع البلاء، وغيره مما يختص بربّ الأرباب سبحانه، فأعظم الذنب: أن تدعوا لله نِدًّا وهو خلقك، أي: أعظم الذنوب الشرك



بالله، وأكبر الكبائر الإشراك بالله، كما جاء في حديث أبي بكرة وغيره «**أكبر الكبائر الإشراك بالله**».

قوله: «**قَالَ: ثُمَّ أَيٌّ؟**» وفي رواية قال: «**إن ذلك لعظيم، قلتُ: ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك**» يعني: أن تقتل ولدك خشية أن يأكل معك ويشاركك في طعامك وشرابك، فينقص من رزقك شيئًا، وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ [الإسراء: ٣١]، يعني: خوفًا من الفقر، وهذه أحد أسباب الوَأْدَ في الجاهلية، أنهم كانوا يئدون أولادهم خشية الفقر، فبيَّن الله تعالى أن الرازق للوالد والولد هو الله ﷻ، ونهى عن قتل الولد خوفًا من الفقر، وبعض المسلمين اليوم قد يقع في هذا المعنى، فيمنع أهله من الحمل خشية أن يكثر ولده فتضيق معيشته، وهذا لا شكّ اعتقادٌ جاهِلِيٌّ، ولا يجوز للإنسان أن يُقَلِّل ولده، أو يمنع الحمل بالعزل أو بغيره خوفًا من الفقر، وإلا يكون قد شارك أهل الجاهلية في اعتقادهم الفاسد هذا، الذي رده الله تعالى عليهم.

وقال في رواية: «**إن ذلك لعظيم، قلت: ثم أي؟ قال: أن تزاني حليلة جارك**» الحليلة هي الزوجة، سُمّيت حليلة؛ لأنها تحِلُّ للرجل، وقيل: لأنها تحِلُّ معه، يعني: تسكن معه، وتنزل حيث ينزل.

ومعنى تزاني يعني: أن تَزْنِيَ بها بِرِضَاها، وهذه كبيرة من الكبائر، التي عظَّمها النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وذكرها بعد الشرك والقتل، وهي: الزنى بزوجةِ الجار، وفيه مفاسد: ففيه أوّلًا الزنى الذي حرَّمه الله، وفيه أيضًا: إفساد زوجةِ الجار، وإفساد قلبها على زوجها، واستمالتها إلى الزاني، فلا يزال قلبها متعلِّقًا بهذا الزاني، وهذا ذنبٌ على ذنب، وأمر آخر:



أن الجار يتوقع من جاره حماية بيته، والذَّبَّ عن حريمه، ويأمن بوائقه، ويطمئن إليه في الغالب، وقد أمر أن يحسن إلى جاره، كما مرَّ معنا في الحديث «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره**»، وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ في حديث الصحيحين «**ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه**» يعني: سيجعل الجار وريثًا لجاره، من شِدَّة القرابة، فإذا قابل ذلك كله بالزنا وإفساد الزوجة؛ كان هذا في غاية القبح، وقد روى البخاري في «الأدب المفرد» وغيره أن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ سأل أصحابه عن الزنا، قال: «**ما تقولون في الزنا؟**» قالوا: حرام حرَّمه الله ورسوله، فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**لَأَن يزني الرجل بعشر نِسوة؛ أيسر عليه من أن يزني بامرأة جاره**»، قال: «**ما تقولون في السرقة؟**» قالوا: حرام حرمها الله ورسوله، قال: «**لَأَن يسرق الرجل من عشرة أبيات؛ أيسر عليه من أن يسرق من بيت جاره**» لأن الجار يتمكن من جاره ما لا يتمكن منه غيره؛ لقرب الباب، والتِصاق الجدار، ومعرفة المدخل والمخرج، ومعرفة أوقات خلوّ البيت وما أشبه ذلك، فإذا استغل هذا بالخيانة، ومقابلة الجار بالإساءة، كان هذا في غاية القبح.

قوله: «**فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ تَصْدِيقَهَا: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾**» تصديق الآية، يعني: تصديق كلام النبي ﷺ، والرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ هو الصادق المصدوق، ﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝٤**﴾ [النجم]، فكلامه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بوحيٍ من الله، فأنزل الله تصديق كلام رسوله ﷺ ههنا ﴿**وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ**﴾ [الفرقان: ٦٨]، وأحيانًا النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ يتكلم بما يوافق الكتاب، وأحيانًا كانيوافقه الكتاب على كلامه، وهذه من الأحاديث التي

وافق الكتاب فيها السنة، فأنزل الله تصديق كلام نبيه ﷺ هذه الآية ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ يعني: لا يعبدون، فالدعاء بمعنى العبادة، وقد قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**الدعاء هو العبادة**»(١)، والدعاء المقصود به: نوعي الدعاء: دعاء الثناء، ودعاء المسألة والطلب، فالذين لا يدعون مع الله إلهًا آخر، أي: لا يعبدون مع الله إلهًا آخر، بل يخلصون له العبادة.

قوله: ﴿وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: لا يقتلون النفس المعصومة، التي حرَّم الله تعالى قتلها إلا بالحق، وهو إما بكفر بعد إسلام، أو بزنى بعد إحصان، أو النفس بالنفس، فهذه صورُ قتل النفس بالحق، فهم لا يقتلون النفس التي حرم الله تعالى إلا بالحق.

قوله: ﴿وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا﴾ أي: يلْقَ جزاء إثمه، فيلق من عذاب الله تعالى وعقوبته ونكاله، ما يكون جزاء إثمه الذي ارتكبه، ثم فصل وشرح فقال: ﴿يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ﴾ [الفرقان]، أي: يمكث في العذاب دهورًا أبدية لا تنقطع، وهو مع ذلك العذاب مهان محتقر، إضافة إلى تعذيبه.

ومن فوائد الحديث: سؤال الصحابة وحرصهم على معرفة الشَّرِّ لتوقيه؛ فالصحابة ﷺ كانوا يسألون النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ عن الشَّرِّ، كما كانوا يسألون عن الخير، يسألون عن الشر لاجتنابه، كما قال القائل:

عرف الشر لا للشر ولكن لتوقيه ... ومن لا يعرف الشر من الخير يقع فيه

فقد كان حذيفة يقول: كان الناس يسألون النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ

(١) حديث صحيح رواه الإمام أحمد والبخاري في «الأدب المفرد» وأصحاب السنن من حديث النعمان بن بشير ﷺ.



عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يُدركني، وجاء عن عمر أنه قال: إنما تُنقض عُرَى الإسلام عُروة عروة، إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الشِّرك.

فالذي لا يعرف الشرك يقع فيه وهو لا يشعر، ولهذا فلا يعترض على من عَلَّم الناس التوحيد، وحذَّرهم من الشرك، ولو كان في وسط ديار المسلمين، لا يعترض عليه ويقال له: نحن مسلمون موحِّدون مصلُّون صائمون؛ فكيف تذكر لنا الشرك وأنواعه وأحكامه؟! نقول: الذي لا يعرف الشرك يقع فيه من حيث لا يشعر.

وفي الحديث: أن أكبر المعاصي الشرك بالله، ثُم قتل النفس المعصومة، ثم الزنى، وأعظمه الزنى بحليلةِ الجار، كما سبق الكلام فيه، وأن الكبائر تتفاوت في الكبر والعِظَم، وليست على درجةً واحدةً، وهو دليلٌ لأهل السنة على أن الذنوب منها عظيم ومنها ما هو دون ذلك، وأنها كبائر وصغائر، وفي الحديث أيضًا: أنه كلما سهلة المعصية زيد في التشديد والتخذير منها، فكلَّما عَظُمَ اقتراب الإنسان من المعصية، زاد الشارع التعظيم والتشديد في العقوبة على الفاعل، وهنا الزنى بحليلة الجار لأنه سهلٌ قريب ضوعفت العقوبة، وصارت أعظم عشر مرات من الزنى بالأجنبية البعيدة.

وفي الحديث أيضًا: أن السنة صِنْوُ الكتاب، وأن النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ أوتي الكتاب ومثله معه(١)، وهي السنة المطهرة، وأن نصوص الكتاب والسنة يُصَدِّق بعضها بعضًا؛ لأنهما يخرجان من مشكاة واحدة.

---

(١) كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد (١٣١/٤)، وأبو داود (٤٦٠٤) من حديث المقدام بن معديكرب ﷺ.



وفي الحديث أيضًا: أنَّ من رَدَّ السنة فكأنما رَدَّ الكتاب، إذ لا فرق بينهما؛ لأن هذا من عند الله، وهذا من عند الله، كما قال ﷻ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم]، وقال ﷻ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

** ** **

باب: من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة

(٥٢) عَنْ جَابِرِ بنِ عَبْدِ اللهِ ﷺ قَالَ: أَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! مَا الْمُوجِبَتَانِ؟ فَقَالَ: «مَنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ مَاتَ يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ».

❖ الشرح:

الحديث أخرجه مسلم في الإيمان، وبوَّب النووي ﷺ على هذين الحديثين (٢/٩٢) باب: الدليل على أن من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة، وأن من مات مشركًا دخل النار.

الحديث الأول: «**عَنْ جَابِرِ بنِ عَبْدِ اللهِ ﷺ قَالَ: أَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! مَا الْمُوجِبَتَانِ؟**» يعني: ما الخَصْلَتَان اللتان توجبانِ دخول النار، ودخول الجنة.

فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**مَنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ مَاتَ يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ**»، أما: من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة، فهذا قال الله تبارك وتعالى فيه: ﴿**وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ**﴾ [النساء: ٤٨]، وهذا كما قلنا سابقًا: دليلٌ لأهل السنة: أنَّ من مات لا يشرك بالله شيئًا، ولم يكن من أصحاب الكبائر: فإنه يدخل الجنة قطعًا، أمَّا مَن مات وهو لايشرك بالله شيئًا، لكنه صاحب كبيرة، مات مصِرًّا عليها، فهو تحت المشيئة، إن شاء عفاالله عنه وأدخله الجنة، وإن شاء

أدخله النار وعذبه، ثم أدخله الجنة وخُلِّد فيها، ففيه رَدٌّ على الخوارج الذين يُخرجون صاحب الكبيرة من المِلَّة الإسلامية.

وأما الخصلة الثانية، الموجبة للنار ـ والعياذ بالله ـ فهي: مَنْ مات يشرك بالله شيئًا دخل النار، وهذا يؤيده قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨]، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر]، وذكر الله تعالى جملةً من الأنبياء ثم قال: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنعام]، فهذا فيه بيان أن الشرك يحبط العمل، ولا ينفع صاحبه يوم القيامة حسنة عملها في الدنيا، ولا فرق في ذلك بين الكافر الكتابي (اليهوي والنصراني) وبين المشرك الوثني، وسائر الكفرة، فحكمهم واحد وهو الخلود في النار، إن لم يتوبوا ويسلموا قبل ذلك، وقد بَسَطْنا الكلام على هذا في الأبواب السابقة.

** ** **

(٥٣) عن أَبي الْأَسْوَدِ الدِّيلِيِّ، أَنَّ أَبَا ذَرٍّ ﷺ حَدَّثَهُ أَنَّهُ قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ نَائِمٌ، عَلَيْهِ ثَوْبٌ أَبْيَضُ، ثُمَّ أَتَيْتُهُ فَإِذَا هُوَ نَائِمٌ، ثُمَّ أَتَيْتُهُ وَقَدْ اسْتَيْقَظَ، فَجَلَسْتُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: «مَا مِنْ عَبْدٍ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، ثُمَّ مَاتَ عَلَى ذَلِكَ؛ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ» قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى، وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: «وَإِنْ زَنَى، وَإِنْ سَرَقَ» قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى، وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: «وَإِنْ زَنَى، وَإِنْ سَرَقَ» ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ فِي الرَّابِعَةِ: «عَلَى رَغْمِ أَنْفِ أَبِي ذَرٍّ». قَالَ: فَخَرَجَ أَبُو ذَرٍّ وَهُوَ يَقُولُ: وَإِنْ رَغِمَ أَنْفُ أَبِي ذَرٍّ.

❖ **الشرح:**

هذا الحديث الثاني: أخرجه مسلم في الموضوع السابق.

قوله: «عن أَبي الْأَسْوَدِ الدِّيلِيِّ» أهل الحديث يقولون: الديلي (بكسر الدال وسكون الياء) نسبةً إلى الدِّيل، وهم بطن من كنانة، وأهل العربية يقولون: الدُّؤَلي، على وزن: الجُهَني، وهو من ثقات التابعين، ويقال: أنه هو الذي أشار على علي ﷺ، أن يُدرك هذه الأمة لمَّا فشا فيها اللحن، فأمره علي أن يضع قواعد العربية (علم النحو).

قوله: «أَنَّ أَبَا ذَرٍّ ﷺ» واسمه جندب بن جنادة الغِفاري، من بني غفار، صحابي شهير، تقدَّم إسلامه، وتأخَّرت هجرته، فلم يشهد بدرًا، ومناقبه كثيرة جدًّا، مات سنة ٣٢هـ في خلافة عثمان ﷺ.

قوله: «قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ نَائِمٌ، عَلَيْهِ ثَوْبٌ أَبْيَضُ، ثُمَّ أَتَيْتُهُ فَإِذَا هُوَ نَائِمٌ، ثُمَّ أَتَيْتُهُ وَقَدْ اسْتَيْقَظَ» ما فائدة قول الراوي: أتيت النبي ﷺ

وهو نائم، أتيته وعليه ثوب أبيض، حدثني وهو قائم؟ قال العلماء: هذا لتحقيق الرواية وتأكيدها، وأن الراوي يتذكَّر حال تحديث النبي ﷺ له كيف كان؟ وهذا مما يؤكِّد كلام الراوي، ومن الشواهد على صدقه.

قوله: «**عَلَى رَغِمَ أَنْفُ أَبِي ذَرٍّ**» بفتح الراء وضمها وكسرها، ثلاث لغات في الراء، ذكر ذلك الجوهري رحمه الله.

فأبو ذرٍّ رحمه الله إنما قال: «**وَإِنْ زَنَى، وَإِنْ سَرَقَ؟**» لأنه استبعد ذلك، لحديثه ﷺ: الآخر: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن...**» فسمع من النبي ﷺ هذا الحديث، وهنا يسمعه ـ عليه الصلاة والسلام ـ يقول: «**مَا مِنْ عَبْدٍ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، ثُمَّ مَاتَ عَلَى ذَلِكَ؛ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ**» فاستبعد ذلك، وأيضًا كان ذلك من أبي ذرٍّ لشدة نفرته من الذنب وكراهيته للمعصية، وكرَّر لتعجبه، فالتكرير هذا يدلُّ على شدة التعجب من أبي ذرٍّ.

ومعنى: «**وَإِنْ رَغِمَ أَنْفُ أَبِي ذَرٍّ**» يعني: على ذُلٍّ منه، أو: وإن كره هذا، وكَرِهَ وقوعه، فإنه واقع؛ لأن الله تعالى يغفر لمن قال: لا إله إلا الله ومات على ذلك، وإن زنى وإن سرق.

فالحديث فيه حُجَّة لمذهب أهل السنة: أنَّ صاحب الكبيرة لا يخلَّد في النار، ما دام مات موحِّدًا.

وفيه أيضًا: أن صاحب الكبيرة تُغفر كبيرته في الآخرة، وإن مات مُصِرًّا عليها، وذلك إما بأن يعفو الله عنه ابتداءً، وإما أن يعذبه ثم يُدخله الجنة، وأن أصحاب الكبائر لا يقنطون من رحمة الله، قال الله ﷻ: ﴿**قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥٣**﴾ [الزمر].



وفيه: أن أصحاب الكبائر إن ماتوا مُصِرِّين عليها لا يقطع لهم بدخول النار، يعني: من مات على كبيرة لا يجوز لنا أن نقطع أنه يدخل النار، فربما الله ﷻ يعفو عنه أو يتجاوز عنه لعمل صالح، والمكفِّرات للذنوب أكثر من ذلك، بل هي عشرة أسباب كما جمعها العلماء: المصائب في الدنيا، عذاب القبر، وأهوال القيامة، والتوبة، والاستغفار، والأعمال الصالحة، وشفاعة النبي ﷺ، وشفاعة المؤمنين، ودعاؤهم له، وإهداؤهم له الأعمال الصالحة، ثم عفوُ أرحم الراحمين ﷻ، هذه كلها من أسباب المغفرة والتوبة، وقد تدفع عن العبد عقوبة ما وقع فيه من السيئات.

وفي رواية لمسلم: أنَّ النبي ﷺ قال: «**أتاني جبريل فبشرني أنه من مات من أمتك لا يُشرك بالله شيئًا دخل الجنة**»، قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «**وإن زنى إن سرق**» فيكون النبي ﷺ قد قال ذلك أيضًا لجبريل وتعجب منه، قبل أن يقوله أبو ذرٍّ ويتعجب منه.

ومن فوائد الحديث أيضًا: استحباب لباسِ البَيَاض، فإن النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان يلبَس البياض ويحُثُّ على لبسه، كما قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ في حديث الترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وأحمد: «**البسوا الثياب البيض؛ فإنها أطهر وأطيب، وكفِّنوا فيها موتاكم**».

وفي الحديث أيضًا: حرصُ الصحابة على مجالس النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وحرصهم على إتيانه والأخذ عنه، فلاحظ أن أبا ذرٍّ جاء إلى النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهو نائم، ثم ذهب فغاب فترة فرجع إليه مرة أخرى حرصًا على أن يجلس إليه ويسمع منه ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وهكذا يؤخذ من أن الصحابة كانوا طلبة علم من الدرجة الأولى، في

حرصهم على الخير وحرصهم على التعلم، مع أن كثيرًا منهم أسلم وقد كَبِرَ بالسِّن، رضي الله عنهم وأرضاهم، فينبغي أن يكونوا لنا قدوة في الحرص والدأب في طلب العلم، فمثلًا إذا قرأت كتابًا مرة واحدة، ورأيت أنك لم تنتفع به إلا شيئًا يسيرًا، وهو كتاب عظيم يوصي به أهل العلم، فكرِّر قراءتك، ولا تفشل، ولا تكسل، ولا تفتر عزيمتك، بل كرِّر مرة، ومرتين، وثلاثًا حتى تفهم مسائل الكتاب، وتحيط به علمًا.

وفي الحديث أيضًا: أن إتيان الكبائر لا يُخرج من الملة ولو تكرر، خلافًا لطائفةٍ من الخوارج الذين قالوا: إذا تكرر الذنب من الإنسان، أخرجه من الملة، أي: إذا أَصَرَّ عليه دلَّ على أنه ليس بمؤمن بالكلية!! وهذا التخصيص باطل؛ لأن النصوص جاءت عامَّة، أن من زنى وسرق لا يخرج من الملة، ولم يذكر النبي ﷺ ولم يذكر الله تعالى: هل وقع منه ذلك مرة أو مرتين أو ثلاث، فمن قال: إن الإصرار على الكبائر يُخرج من الملة، فهذا يكون قد خصص نصوص الكتاب والسنة بغير مخصص! ومثله قول من يقول: إن من حكم بغير ما أنزل في قضية أو قضيتين أو ثلاث، ليس كمن حكم بمائة وألف، ونقول هنا أيضا: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ [البقرة]، ما هو الدليل على التفريق بين هذا وهذا؟ لأن نصوص الكتاب عامة، صحيح أن تكراره يدُلُّ على قلة الإيمان وضعفه ومخالفته لصفات أهل الإيمان، لكن هذا لا يجرُّنا إلى الحكم عليه بغير ما يستحق، من الإخراج من الملة.

والآية السابقة تؤيد ذلك ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟﴾ [الزمر: ٥٣].

ومعلوم معنى الإسراف، وسبب نزول الآية كما جاء في الصحيح: أن قومًا قالوا للنبي ﷺ: إن الذي تدعو إليه لحسن، لو تُخبِرُنا إنَّ لِمَا صنعنا



توبة، وكانوا قد زنوا فأكثروا، وقتلوا فأكثروا فنزلت هذه الآية.

وفي حديث جابر هذا أيضًا: دليلٌ لمذهب أهل الحق: أن الله ﷻ قد أوجب على نفسه: أن يُدخل الجنة من مات لا يشرك به شيئًا، خلافًا لقول المعتزلة الذين قالوا: لو شاء الله ﷻ أن يُدخل أهل الإيمان النار لفعل! ورأوا أن هذا ليس بظلم! وقوله القائل:

وجاز للمولى أن يعذب الورى … من غير ما ذنب ولا جرم جرى

فكل ما منه تعالى يجمل … لأنه عن فعله لا يسأل[1]

فهذا ليس من قول السلف!! ولا من الثَّناء الثابت في الكتاب والسنة على الله تعالى، بل هذا في الحقيقة من الظلم الذي حرمه الله على نفسه، وهو جل وعلا يكتب على نفسه، ويحرم على نفسه، ولا أحد يكتب عليه، فقول أهل الحق في هذه المسألة: أنَّ الله تبارك وتعالى كتب على نفسه أنه مات لا يشرك به شيئًا أدخله الجنة، وهذا وعدٌ، والله لا يخلف الميعاد، وأن من مات يشرك به شيئًا فقد حرم الله عليه الجنة، لكن من مات وهو مستحِقٌّ للعقوبة، فلله تعالى أن يخلف إبعاده لأصحاب الكبائر؛ لأن إخلاف الوعد قبيح، أما إخلاف الإنذار والوعيد فكَرَمٌ ورحمة وفضل وإحسان، فهذا يجوز في أفعال الله تبارك وتعالى، وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة في المسألة.

** ** **

---

(١) من نظم العقيدة السفارينية، انظر شرحها (ص١٤١) للعلامة محمد بن عبد العزيز المانع، تحقيق أشرف عبد المقصود. ط أضواء السلف ١٤١٨هـ.



باب: لا يدخلُ الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر

(٥٤) عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ» قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا، وَنَعْلُهُ حَسَنَةً، قَالَ: «إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ».

❖ **الشرح:**

الحديث أخرجه مسلم في الإيمان، وبوَّب عليه النووي (٢/٨٩) باب: تحريم الكِبْر وبيانه.

عبد الله مسعود الصحابي الجليل المشهور، سبقت ترجمته.

قوله: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ» ذكر الخطابي فيه وجهين:

أحدهما: إن المراد: التكَبّر عن الإيمان، فصاحبه لا يدخل الجنة أصلًا إذا مات عليه.

والثاني: أنه لا يكون في قلبه كِبْر حال دخوله الجنة، كما قال الله تعالى ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ [الأعراف: ٤٣].

قال النووي: «وهذان التأويلان فيهما بعد؛ فإن هذا الحديث ورد في سياق النهي عن الكبر المعروف، وهو الارتفاع على الناس، واحتقارهم، ودفع الحق».



ثم رجَّح ما اختاره القاضي عياض وغيره من المحققين: أنه لا يدخل الجنة دون مجازاةٍ إن جازاه، وقد يتكرَّم عليه بأن لا يُجازيه، وقد يعذبه كما يُعَذِّب أصحاب الكبائر الذين ماتوا مُصِرِّين عليها، نعوذ بالله مولانا من هذا المرض.

وقال بعض العلماء: «**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ**» معناه: لا يدخلها مع المتَّقين أول ما يدخلونها.

ومعنى: «**مِثْقَالُ ذَرَّةٍ**»، أي: وزن ذرَّة. والذرة واحدة الذرّ، وهو صغار النمل، وفي القاموس: إن مئة منها تزن حبة شعير.

قوله: «**قَالَ رَجُلٌ**» قيل: هذا الرجل هو مالك بن مرارة الرهاوي، قاله القاضي عياض، وابن عبد البر، وأبو عبيد. وقال ابن بشكوال: هو أبو ريحانة، وقيل غير ذلك.

قوله: «**إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا، وَنَعْلُهُ حَسَنَةً**» أي: فهل هذا من الكبر الذي حرَّمه الله تعالى.

وهذه المحَبَّة للتجمُّل وإن كانت طبيعية جبِلِّيَّة، إلا إنها بعد ورود هذا الحديث صارت شرعية، فيستحب للمسلم أن يتجمل في بدنه بالتنظيف والتطيّب، وفي ثوبه بالغسل والتطهير، لاسيما عند لقاء الناس، وعند إرادة الصلاة وغيرها.

قوله: «**إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ**» فيه وصف الله تعالى بالجمال، فالله تعالى هو الجميل على الحقيقة بلا كيف نعلمه، وجماله بالذات والأوصاف والأسماء والأفعال، لا شيء يماثله في ذلك، كما قال ﷻ عن نفسه: ﴿لَيْسَ

كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى]، وقال ﷻ: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص].

فالجميل من أسمائه - جلَّ وعلا - الحسنى، هذا قول السلف رحمهم الله.

وقال الإمام ابن القيم في نونيته مبينا ذلك:

وهذا الجميل على الحقيقة كيف لا ... وجمال سائر هذه الأكوان

من بعض آثار «الجميل» فربُّها ... أولى وأجدر عند ذي العرفان

فجماله بالذات والأوصاف ... والأفعال والأسماء والبرهان

لا شيء يشبه ذاته وصفاته سبحانه ... عن إفك ذي البهتان[1]

وأما قول من قال: إن هذا الحديث من الآحاد! وحديث الآحاد لا تثبت به العقائد، ومنها: أسماء الله تعالى وصفاته!! فإنه نزغة اعتزالية، صان الله تعالى عنها سلف الأمة من الصحابة والتابعين لهم بإحسان من أئمة الهدى، فإنهم كانوا يعتقدون ويعملون بكل حديث صَحَّ إسناده، لا يفرِّقون هذا التفريق المختَرَع المبتَدَع! وقد أطنب الإمام الشافعي في الرَّدِّ على هذه البدعة الحادثة في كتابه «الرسالة».

قوله: «**الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ**» أي: دفعه وإنكاره، ترفُّعًا وتكبُّرًا وتجبُّرًا. وهذا تارةً يكون كُفرًا، وتارةً يكون كبيرةً من الكبائر أو دون ذلك.

وقوله: «**وَغَمْطُ النَّاسِ**» بالطاء، وفي رواية أبي داود والترمذي:

---

(١) وقد قال بعضهم: الجميل هو المجمل كمكرم، وقيل: كل أمره جميل! وكل ذلك من لوازم الجميل، انظر الرد على هذه التأويلات في «النهج الأسمى» (٣/٣٨) و«إبطال التأويلات» للقاضي أبي يعلى (٢/٤٦٥).



«**غمص الناس**» بالصاد، وهما بمعنى واحد، ومعناه: احتقارهم وازدراؤهم.

ففي هذا الحديث من الفوائد، منها: تحريم الكبر والإعجاب بالنفس، وأنه داء عظيم، ومن كبائر الذنوب.

وأن الكبر أنواع: فمنه ما هو كُفْرٌ أعظم، كالاستكبار عن الإيمان واتِّباع الرسل، كقوله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [البقرة].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الصافات]، وكاستكبار إبليس اللعين عن طاعة ربه؛ فاستحَقَّ عليه الطرد من رحمة الله تعالى، قال ﷻ: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة].

ومنه ما هو دون ذلك، إذا كان تكبُّرًا وتعظُّمًا على الخلق؛ لكنه لم يستكبر عن عبادة ربه ﷻ، فهذا من الكبائر التي يستحق عليها العذاب.

ويؤخذ من هذا الحديث أيضًا: أن التواضع وهو ضِدُّ الكبر، خلق يحبُّه الله تعالى ويَمدح عليه، ويُثيب فاعله، فإن الجنة دار المتواضعين، والنار دار المستكبرين.

وإن الله سبحانه من أسمائه الجميل، والجمال صفة من صفاته، وهو واهب الجمال لمن يشاء، والله سبحانه يُحِبُّ التجمُّل في غير إسراف، ولا مخيلة، ولا بطر، ولا كبر.

** ** **



باب: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ وَالنِّيَاحَةُ من الكفر

(٥٥) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ».

❖ **الشرح:**

الحديث أخرجه مسلم في الإيمان، وبوَّب عليه النووي (٥٧/٢) باب: إطلاق اسم الكفر على الطعن في النسب والنياحة.

قوله: «**اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ**» هذا في الحقيقة ليس حصرًا؛ لأنه قد ورد في أحاديث أخر ما يدل على أن خصال الكفر أكثر من اثنتين، كما سيأتي في حديث أبي مالك الأشعري في شرحنا، وهو: «**أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن**»، والرسول ﷺ قد خصَّهما هنا بالذكر لعظم خطرهما؛ ولأنهما خَصْلَتان باقيتان في الأمة على الجملة، إلى أن تقوم الساعة.

فقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ**» لا يعني أن هاتين الخصلتين في كُلِّ واحد من الناس، وإنما هو في عموم الناس.

قوله: «**هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ**» قد مَرَّ معنا مثيل هذه التعبيرات النبوية، وقلنا: إن المقصود أن هذه من خصال الكفر، كما قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**لا ترجعوا بعدي كفَّارًا يضرب بعضكم رقاب بعض**» فهذه من خصال الكفر والجاهلية ومن شعب الكفر، فكما أن الإيمان شُعَب، فكذلك الكفر شُعَب، وليس كل من قام به شُعبة من شعب الكفر يكون كافرًا خارجًا من



المِلَّة، كما أن ليس كل من قام به شعبة من شعب الإيمان يكون مؤمنًا تامَّ الإيمان؛ فالإيمان شُعب، والكفر شُعب، حتى يقع الإنسان في أصل الكفر والعياذ بالله، كالتكذيب لله تعالى ورسوله ﷺ، أو الجحود، أو العناد، أو الاستكبار، أو الإعراض، أو الشكِّ، هذه أنواع الكفر المخرج من الملة، كما أوضحها علماء السلف قديمًا وحديثًا، وهذا التنوع بسبب اختلاف مواقف الناس تجاه الحق الذي أرسل الله به رسله، وأنزل به كتبه.

والكفر قد يكون قولًا باللسان، وقد يكون اعتقادًا، وقد يكون عملًا، كما أن الإيمان قولٌ باللسان، وتصديق بالجَنَان، وعمل بالأركان.

قوله: «**الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ**» هذا بيان الخصلة الأولى، وهي الطعن في النسب، يعني: الوُقوع في أعراض الناس من جهة النسب، وكما تعلمون أن الناس مؤتَمَنُون على أنسابهم، ومن ثبت نسبه بظاهر الشرع؛ لا يجوز لنا أن نطعن فيه، أن نقول: فلان ليس ابنًا لفلان! أو أن نقول: فلان ليس من القبيلة الفلانية! ما دام أنه انتسب إلى أبيه، وهذا هو ظاهر الحال، أو انتسب إلى قبيلة ما؛ فالأصل أن هذا الظاهر لا يزول إلا بما هو أقوى منه من البيِّنات.

قوله: «**وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ**» النِّيَاحة محرمة ومن أعمال الجاهلية، ومن أعمال الكفر، ولو كانت بغير بُكاء، ولو كانت بغير شَقِّ جيب، ولا لَطْمِ خَدٍّ؛ لأن النياحة هي الندب ورفع الصوت بتعداد فضائل الميت.

وقد قال بعض أهل العلم: إن هاتين الخصلتين فيهما كفرٌ للنعمة، أما الطعن في الأنساب: فإن الذي يطعن في أنساب الناس يكون قد كفر نعمة سلامة نسبه من الطعن.



وأما النياحة: ففيها كفر نعمة الرضا بقضاء الله ﷻ؛ لأن الذي ينوح ويُعدِّد فضائل الميت، عمله هذا بظاهره اعتراض على قضاء الله ﷻ، المحي المميت، الذي له الأمر كله، وإليه يرجع الأمر كله.

وقد روى الإمام مسلم في «صحيحه» أيضًا ما يدلُّ على حرمة الطعن في الأنساب والنياحة: من حديث أبي مالك الأشعري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن**» وهذا في الجملة، ولا يعني هذا أن كُلَّ واحدٍ من الأمة تكون فيه هذه الخصلة، وإنما هذا في الجملة، والسَّالم من الناس قليل، وهي «**الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة على الميت**».

والفخر بالأحساب: الأحساب هي مفاخر الآباء.

** ** **

بابـ: من قال مُطِرْنا بالأنواء فهو كافر

(٥٦) عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ ﷺ قَالَ: صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَةِ، فِي إِثْرِ السَّمَاءِ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ، أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ، فَقَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟» قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «قَالَ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ؛ فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ؛ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا؛ فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ».

❖ **الشرح:**

الحديث أخرجه مسلم في الإيمان، وبوَّب عليه النووي (٥٩/٢) باب بيان كفر من قال: مُطرنا بالنوء.

زيد بن خالد الجُهَني صحابي روى إحدى وثمانين حديثًا، اتفق البخاري ومسلم على خمسة وانفرد مسلم بثلاثية، توفي سنة ٧٨هـ، وله ٨٥ سنة، روى له الستة.

الأنواء: جمع نَوْء، والنَّوْءُ هو النجم، وأصل النوء من: ناءَ يَنُوءُ، يقال: ناءَ النجم يعني: سقط وغاب، وقيل: ناء بمعنى طلع وبان، وكانت العرب تنسب الفصول والرياح والأمطار إلى الأنواء، أي: النجوم، فيقولون: إذا غاب النجم الفلاني حصل كذا، وإذا طلع النجم الفلاني جاء كذا، وهذا الحديث فيمن قال: مُطِرْنَا بنوء كذا وكذا.



قوله: «**عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ**» نسبةً إلى جُهينة ـ القبيلة العربية المعروفة ـ وهو صحابي مشهور شَهِدَ الحديبية، وكان معه لواء جهينة يوم الفتح، مات سنة ٦٨هـ أو ٧٠هـ.

قوله: «**قَالَ: صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَةِ**» الحديبية، يصوب الشافعي وطائفة من أهل الحديث أنها بتخفيف الياء، وأكثر المحدثين يقولونها بالتشديد: الحديبيَّة. وهو موضع قريب من مكة.

قوله: «**فِي إِثْرِ السَّمَاءِ كَانَتْ مِنْ اللَّيْلِ**» السماء هنا المقصود به: المطر؛ لأنه ينزل من السماء، والسماء عند العرب: كل ما علا الإنسان، حتى سقف البيت يسمونه سماء، فكل ما علاك يسمى سماء، والمطر نازل من السماء، يعني: من العلو.

قوله: «**إِثْرِ**» يعني: عقب مطر كان من الليل.

قوله: «**فَلَمَّا انْصَرَفَ**» يعني: من صلاة الصبح.

قوله: «**أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟» قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ**» يعني: أن الله تبارك وتعالى قد أوحى إلي بوحي قريبًا.

وقوله: «**هَلْ تَدْرُونَ**» هذا يستخدمه المعلِّم والمربي والمدرس لجذب انتباه السامعين، فيقول: «هل تدرون؟» فيُقْبِلون وينتبهون، وتتفتح أسماعهم لسماع العلم الجديد، فهي وسيلةٌ من وسائل التعليم قديمًا وحديثًا، وقد استعمل هذه الوسيلة وأكثر منها الإمام أبو حنيفة رحمه الله مع أصحابه، فكان يطرح المسائل على أصحابه ويسمع منهم الأجوبة، ثم يُصَوِّب الجواب الصحيح ويستدل له بالأدلة.



والصحابة ﷺ ههنا قالوا: «اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ» فلم يتكلموا بغير علم، وإنما وقفوا عندما عرفوه وعلموه، وهذا من أدبهم ﷺ.

قوله: «قَالَ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ» يعني: على أثر هذه النعمة التي حصلت من الليل، أصبح من عباد الله ﷻ من هو مؤمن به، ومن هو كافر.

قوله: «فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ؛ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا؛ فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ» اختلف أهل العلم في هذه الكلمات، فالنووي رحمه الله وطائفة من الشافعية: يرون أن من قال ذلك معتقدًا أن الكوكب فاعل مدبِّر، ينشيء المطر، كما كان بعض أهل الجاهلية يزعمون، فهذا شرك أكبر، لا شك في كفرِ قائله؛ لأنه لا خالق إلا الله ﷻ، وهذا قد زعم أن مع الله خالقًا آخر.

وأما من قال: إن هذا المطر من رحمة ﷻ، وأنه من فضله وإحسانه على عباده؛ لكن الكوكب والنجم مِيقَاتٌ لهذا المطر وعلامة، فهذا لا يكفر، واختلفوا في كراهة هذه الكلمة، ورجح النووي: أن الأظهر كراهته، فيُكره أن يقال مثل ذلك كراهة تنزيه، وسبب الكراهة: أنها كلمةٌ متردِّدة بين الكفر والإيمان، فيُساء الظن بصاحبها، وأنه يعتقد أن الكوكب هو الذي نزل ذلك ودبَّره، فهذه من الكلمات الموهمة التي ينبغي أن يتجنبها الإنسان.

وفي «الفروع» لابن مفلح رحمه الله: أن الخلاف واقع في مذهب الإمام أحمد في ذلك أيضًا: ورجَّح صاحب «تيسير العزيز الحميد»: أن العرب لم تكن تعتقد أن الأنواء هي فاعلةٌ بنفسها، والدليل قول الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾

[العنكبوت: ٦٣]، فهذا دليلٌ على أن العرب في الجاهلية، كانت تعتقد أن ينزل المطر هو الله ﷻ، إذًا لماذا كَرِهَ الشارع هذه الكلمة ونهى عنها؟ قال: لأنها كلمة موهمة، وقد تجرُّ إلى الشرك، مثل قول القائل: ما شاء الله وشئت، ولأن هذه الكلمة شعار الجاهلية، فلذلك كَرِهَها الرسول ﷺ، بل كرهها الرب ﷻ.

وهناك قول ثانٍ في الحديث: وهو أن الكفر المراد ههنا: ليس هو كفر الخروج من الملة، وإنما المراد به هو كفر النعمة، لكونه نسب النعمة لغير صاحبها الأصلي؛ إذ اقتصر على إضافة الغيث إلى الكوكب، وهذا في الذي لايعتقد أن الكواكب تدبر وتفعل، قال: ويؤيد هذا الرواية الأخرى «**ما أنعمت على عبادي من نعمة إلا أصبح فريق منهم بها كافرين**» يعني: هذا لا يختصُّ بالمطر، وإنما ما أنعم الله على عباده من نعمة، إلا أصبح فريق من الناس بها كافرين، وهذا يَدُلُّ على أن المراد بها هو كفر النعمة، وربَطَ أيضًا الشُّرَّاح بين هذا الحديث وبين قول الله ﷻ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الواقعة]، فنقل عن علي بن أبي طالب، وعن ابن عباس ﷺ، وجمهور أهل التفسير، قالوا: ﴿وَتَجْعَلُونَ﴾ مكان شكرِ الرزقِ، التكذيبَ، يعني: ﴿وَتَجْعَلُونَ﴾ شكركم ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ يعني: بدل أن تشكروا الله على نعمه، تكذبون بنسبة النعمة لغير خالقها ﷻ، فيكون هذا الأمر ممَّا لا يخرج من الملة، كما قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ في النساء: «**تصَدَّقْنَ، فإني رأيتكُنَّ أكثر أهل النار**» قلن: وما لنا يا رسول الله أكثر أهل النار؟ قال: «**لأنكن تُكثِرْنَ اللَّعْنَ، وتَكفُرْنَ**» قُلْنَ: أنكفر بالله؟ قال: «**تكفرن العشير**» يعني: تكفر الواحدة مِنْكُنَّ عِشْرَةَ الزوج، يمكث الرجل يُحسن إلى إحداكن دهرًا، فإذا رأت منه شيئًا قالت: والله ما رأيت منك خيرًا قَطُّ! فهذا

كفران العشير، يعني: كفران نعمة الزوج، وهو لا يُخرج من الملة.

وفي الحديث الذي ذكرناه في السابق: «**أربع في أمتي من أمر الجاهلية لايتركونهن: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة**»: الاستسقاء بالنجوم يعني: نسبة السُّقْيَا إلى النجوم، وهذا الأمر لا يزال موجودًا في الأمة، فلا يزال هناك من ينسب المطر إلى النجوم.

وهذا القول الذي قاله الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب رحمه الله فيه وجاهةٌ، وأنه يمنع من هذه الكلمة ولو كان قصده أن ذلك مجرد علامة، خشية الوقوع في الشرك؛ ولأنها كلمة موهمة قد يُساء الظن بصاحبها، ويُخشى على صاحبها من الوقوع في نسبة الفضل إلى غير أهله.

ويستفاد أيضًا من الحديث: أن الرسول ﷺ كان لا يُؤَخِّر البيان إلى عن وقتِ الحاجة، وكان أيضًا يستغل المناسبات للتذكير والتنبيه على الأخطاء، ولا يؤخِّر ذلك؛ لأن التأخير يفوت الفائدة.

ويؤخذ منه أيضًا: أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا لا يتقدَّمون بين يدي الله ورسوله بقول ولا عمل، وأنهم كانوا يقفون عند علمهم، متأدِّبين بقول الله عز وجل: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [ص]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء].

** ** **

باب: إذا أبق العبد فهو كفر

(٥٧) عَنْ الشَّعْبِيِّ، عَنْ جَرِيرٍ ﷺ أَنَّهُ سَمِعَهُ يَقُولُ: أَيُّمَا عَبْدٍ أَبَقَ مِنْ مَوَالِيهِ فَقَدْ كَفَرَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْهِمْ. قَالَ مَنْصُورٌ: قَدْ وَاللهِ رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ، وَلَكِنِّي أَكْرَهُ أَنْ يُرْوَى عَنِّي هَهُنَا بِالْبَصْرَةِ.

❖ **الشرح:**

في هذا الباب حديثان:

الحديث الأول: بوَّب الإمام النووي رحمه الله على هذا الحديث (٢/٥٧) باب: تسمية العبد الآبق كافرًا.

قوله: «**عَنْ الشَّعْبِيِّ**» وهو عامرُ بن شُراحيل الشعبي، من علماء التابعين، وثقاتهم المبرزين. قال مكحول: «ما رأيت أفقه منه». مات بعد المائة، روى له الستة.

قوله: «**عَنْ جَرِيرٍ**» هو ابن عبد الله البجلي من بجيلة قبيلة عربية، صحابي مشهور، مات سنة ٥١هـ.

ومعنى أبَقَ العبد: بفتح الباء وكسرها لغتان صحيحتان، بمعنى: هَرَب من سيِّده، وقد جاء في القرآن في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٣٩ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۝١٤٠﴾ [الصافات] يعني: خرج من قومه بغير إذن من ربه سبحانه وتعالى.

قوله: «**أَيُّمَا عَبْدٍ أَبَقَ**» يعني: أي عبدٍ هرب من سيده، هذا الهروب



يكون حرامًا وكُفرًا بشرط ألَّا يكون سيِّده قد خوَّفه، أو كلفه بعمل لا يقدر عليه، أو ظلمه وضربه، يعني: ألَّا يكون مظلومًا، إنما هرب من سيِّده بغير ظلم منه، فإن هذا العبد يكون قد كفر.

ما معنى فقد كفر في هذا الحديث؟ الجواب: هو شبيه بما جاء في الباب الذي قبل السابق، وهو قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ «**اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب، والنياحة على الميت**» وقلنا: إن هذا العمل كفر، يعني: ليس من أخلاق المسلمين، ولا من أعمالهم، إنما هو من أعمال الكفار وأخلاقهم، وأخلاق أهل الجاهلية، هذا معنى الكفر في هذه الأحاديث وأشباهها.

وقال بعض العلماء: أي أن هذا العمل يؤدي به إلى الكفر، بمعنى: أن هذا من الكبائر التي قد تقود إلى الكفر، وقال آخرون: الكفر هنا هو كفر النعمة؛ لأن العبد ما دام عند سيده، فهو في ضمانه، وفي حمايته، وفي رعايته، قد ضمن طعامه وشرابه ومأواه، فإذا هرب من سيده بغير ظلم منه، يكون قد كفر هذه النعمة، وهذا أيضًا قولٌ وجيه.

قوله: «فَقَدْ كَفَرَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْهِمْ» يعني: حتى يرجع إلى مواليه، والمولى من كلمات الأضداد، المولى يُطلق على السيِّد، ويُطلق على العبد، وله إطلاقات كثيرة غيرها: فيطلق على الناصر، وعلى ابن العم، والمعتِق، والمعتَق وغير ذلك، فهو في كفر «حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْهِمْ» يعني: حتى يتوب من هروبه وإباقه، ويرجع إليهم.

قوله: «قَالَ مَنْصُورٌ» وهو أحد رواته، ابن عبد الرحمن الغُداني الأشل، وثَّقه ابن معين، وأبو داود، وقال الحافظ: صدوق يَهِمُ./م د.



قوله: «قَدْ وَاللهِ رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ» يعني جرير ﷺ قد روى هذا الحديث مرفوعًا إلى النبي ﷺ.

قوله: «وَلَكِنِّي أَكْرَهُ أَنْ يُرْوَى عَنِّي هَهُنَا بِالْبَصْرَةِ» يعني: كَرِهَ أن يروى عنه هذا الحديث في ذلك الزمن بالبصرة، والسبب: لأن هناك من أهل الأهواء مَن يستدل به على ضلالته، وقلنا إن الذي ضَلَّ في أسماء الإيمان والدِّين طائفتان: الخوارج والمرجئة، وأسماء الدِّين والإيمان هي: مؤمن، مسلم، كافر، فاسق، عاص، هذه هي أسماء الدِّين والإيمان، وهي التي سَمَّى الله ﷻ بها الناس، يعني: الله ﷻ في كتابه لم يُقَسِّم الناس إلا إلى هذه الأقسام، لا تجد في كتاب الله تعالى اسمًا لقبيلة، ولا اسمًا لجنس، ولا اسمًا لِشَعْب، وإنما تجد أسماء الدِّين والإيمان: المسلم، المؤمن، العاصي، الكافر، الفاسق، الظالم، هذه هي أسماء الدين، وهي التي يَجِبُ أن يرتبط بها المسلمون، وأن يتفرَّق لأجلها الناس، فإن الدين فرَّق بين المؤمن والكافر، وبين البَرِّ والفاجر، فقال سبحانه: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [القلم]، وغير ذلك.

فالحاصل أنه قد ضلَّت في هذه الأسماء طائفتان: المرجئة الذين قالوا: لا يضُرُّ مع الإيمان عمل، فما دام أن الإنسان مؤمن مسلم لا يضرُّه ما عمل من الكبائر!

والطائفة الثانية: هم الخوارج والمعتزلة: الذين أخرجوا صاحب الكبيرة من الإيمان! ولذلك كَرِهَ منصور أن يروي هذا الحديث عند أهل الأهواء، خشية أن يستدلوا به على باطلهم.

** ** **



(٥٨) عَنْ جَرِيرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ ﷺ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا أَبَقَ الْعَبْدُ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ».

❖ الشرح:

الحديث الثاني: حديث جابر ﷺ.

قوله: «لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ» هل المعنى: أنه يخرج من الدين بالكلية، فيُصِر كالكافر الذي لو صلَّى لم يقبل الله له صلاة؟ هذا قول قاله بعض أهل العلم، لكنه ليس هو المراد بهذا الحديث على القول الصحيح، وإنما المقصود أن هذا العبد الذي هَرَب من مواليه وهو ظالم، لم يؤذوه ولم يظلموا ولم يضربوه ولم يحملوه من العمل ما لا يحتمل، وإنما هرب وهو ظالم، فإن هذا العمل كبيرة عظيمة فيها كفر للنعمة، وهي مذهبة لثواب صلاته ولو صلى، أي: هذا العمل يمنع قبول صلاته؛ لأن صلاته مقترنة بمعصيته، يُصلي وهو في حال الإباق، يعني: يصلي وهو مرتكب للمعصية، والصلاة إذا استجمعت شروطها، وانتفت عنها موانعها، فهي صلاة صحيحة، والكلام هنا ليس عن الصحة وعدم الصحة، وإنما الكلام عن القبول وعدم القبول، فالرسول ﷺ قال ههنا: «لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ» يعني: أنه إذا صلى سقط عنه إثم المؤاخذة بترك الصلاة، لكن لا ثواب له في صلاته؛ لأنها مقترنة بمعصية تمنع عنه الثواب، وهذا له نظائر في الأحاديث منها:

ما أخرجه مسلم أيضًا في صحيحه: وهو قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ **«من أتى عرَّافًا أو كاهنًا فسأله عن شيء، لم تُقبل له صلاة أربعين يومًا»**



يعني: إذا سألت الكاهن الذي يدَّعي معرفة الغيب، كمن يدعي معرفة المكان الذي وضع فيه المال المسروق، أو الكاهن الذي يدَّعي أنه يعرف الخير لك أو الشر، لم تقبل لك صلاة أربعين يومًا، عقوبة لك!

ومثل هذه المسألة: مسألة الصلاة في الدار المغصوبة، فمن غصب بيتًا مثلًا، دون الورثة، واستأثر به، كما يحصل في كثير من الأحيان، يموت الميت عن بيت وأملاك ويكون أحد الورثة كبيرًا في السن بالغًا والباقون صغار، فيستأثر بالملك دونهم، ويأخذ الميراث، ويسكن في الدار، ويبقى الأخوة الباقين لا شيء لهم، فطائفة من العلماء رأوا أن الصلاة في الدار المغصوبة: غير صحيحة، ليست غير مقبولة؛ وإنما غير صحيحة، والسبب كما قالوا: لأنها تقترن بالمعصية، إنسان يقوم ويركع ويسجد ويقعد وهو عاصٍ كيف تقبل صلاته؟ وكيف تكون صلاته صحيحة؟ وهذه رواية عن الإمام أحمد: أنه رأى أن الصلاة في الدار المغصوبة باطلة، وهو مذهب الظاهرية كابن حزم، فقال: كل من صلى وهو متلبِّس بمعصية، فصلاته باطلة، مثاله: رجل صلى وهو يلبس خاتم الذهب أو صلى وهو يلبس الحرير فهو في صلاته مقترن بمعصية، لكن الصحيح الذي عليه الجمهور الفقهاء والعلماء: أن الصلاة لها شروط وموانع، فإذا استجمعت شروطها، وانتفت عنها موانعها، فإنها صلاة صحيحة بالنظر إلى وجود الشروط وانتفاء الموانع، أما عدم القبول فهذا أمر آخر، وهو لا شك شديد؛ لأن الله تبارك وتعالى قال: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [المائدة]، يعني: القبول للأعمال الصالحة إنما يحصل للذين اتقوا الله ﷻ في أعمالهم، والله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الحشر].



فأمر بتقوى الله قبل العمل، فقبل أن تدخل إلى العمل: تنظر هل عندك معصية تمنعك من ثواب العمل الصالح، فليس كل من صلى فقد صلى؟ ولا كل من صام فقد صام؟ ولا كل من تصدق أو جاهد أو طلب العلم حصل له الآجر والثواب؟ فقد يوجد من الكبائر ما يمنع ثواب هذه الأعمال الصالحة.

إذًا صلاة الآبق إذا استجمعت الشروط، وانتفت الموانع فهي صلاة صحيحة، لكن غير مقبولة لاقترانها بالمعصية.

وفي رواية أيضًا لجرير ﷺ: أن النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال: **«أيما عبد أبق فقد بَرِئَت منه الذمة»**، يعني: أنه لا ذمة له، والذمة هي الذمام، يعني: الحرمة، يعني: لاحرمة لهذا العبد، وقيل: إن ذلك مشابه لقول الرسول ﷺ **«من صلى الفجر في جماعة، فهو في ذمة الله»** يعني: في رعاية الله وحفظه وأمانته وضمانه، وهذا لا شك أنه أجرٌ عظيم، يُحْرَمه هذا العبد الآبق الذي آتي هذا الذنب.

ويُستفاد من هذين الحديثين: أن بعض الذنوب تكون مانعة من حصول الأجر والثواب، ولو قام الإنسان بالعمل الصالح وفق الشروط وانتفاء الموانع.

وفي الحديث أيضًا: أن للذنوب والمعاصي شؤمًا، ومن شؤمها؛ حرمان رحمة الله وثوابه.

وأيضًا: أن للإنسان أن يكتم بعض العلم، إذا رأى أنه يُفهم فهمًا سيِّئًا عند بعض الناس، وهذا مَرَّ معنا، وقلنا أن الرسول ﷺ لما قال له عمر: لا تبشرهم فيتَّكلوا، لقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: **«من قال لا إله إلا الله**



صادقًا بها قلبه، دخل الجنة» فقال ﷺ: **«لا تبشرهم»** فوافقه، فمن العلم إذا ما يكتم خشية أن يقصر عنه فهم بعض الناس، فليس كل ما يعلم يقال، هذا والأمر كما قال عبد الله بن مسعود: «ما أنت بمحدِّث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم، إلا كان لبعضهم فتنة». فلو جئت إلى عوامّ وحدثتهم بأمور من الشبهات أو من الاختلافات، ربما يكون لبعضهم فتنة تعظم في قلبه، وربما يحمله ذلك على الإلحاد في دين الله! أو الشكِّ والريبة.

** ** **

باب: إنما وليي الله وصالح المؤمنين

(٥٩) عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ جِهَارًا غَيْرَ سِرٍّ يَقُولُ: «أَلَا إِنَّ آلَ أَبِي - يَعْنِي فُلَانًا - لَيْسُوا لِي بِأَوْلِيَاءَ، إِنَّمَا وَلِيِّيَ اللهُ، وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ».

❖ **الشرح:**

الحديث بوَّب عليه الإمام النووي رحمه الله في كتاب الإيمان من الصحيح، باب: موالاة المؤمنين ومقاطعة غيرهم والبراءة منهم. أي في الولاء والبراء.

عمرو بن العاص هو ابن وائلٍ السهمي، الصحابي المشهور، أسلم عام الحديبية، وولي إمرة مِصْر مرتين، وهو الذي فتحتها، قال فيه النبي ﷺ: «**أسلم الناس، وآمن عمرو بن العاص**» رواه أحمد، والترمذي، وهو حسن. مات بمصر نيف وأربعين، وقيل: بعد الخمسين.

يخبر أنه سمع النبي - عليه الصلاة والسلام -: «**جِهَارًا غَيْرَ سِرٍّ**» وهذا وصف لحال الكلام الذي تكلم به النبي - عليه الصلاة والسلام -، ووصف الكلام أو الحال، من الشواهد على صدق المتحدث، والأمارات على أنه حَفِظَ ولم يَنْسَ؛ لأنه إذا تكلم بالكلام ولم يذكر له قرينةً ولا حالًا، قد يتطرَّق الشك إلى حفظه، لكنه هنا ذكر قرينةً تدُلُّ على استحضاره للمجلس الذي حدَّث به النبي - عليه الصلاة والسلام - هذا الحديث، وأن ذلك كان في حال الإعلان والجهار.



قوله: «**يَعْنِي فُلَانًا**» هذه من بعض الرواة، وليست من حديث النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ، فالرسول ﷺ قد سمَّاه، لكن الراوي ترك تسميته، خشي أن يسميه فتترتب عليه مفسدة، إما في حق نفسه، وإما في حقه وحق غيره، فكنى عنه ولم يذكر اسمه، وهذا من حكمة، فالرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان من هديه أن يحذر من المعاصي، ومن الأحداث، ومن الذنوب، من غير أن يُسَمِّيَ أصحابها، فكثيرًا ما تسمع في الأحاديث أن النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال: «**ما بال أقوام يقولون كذا...**»، «**ما بال أقوام يفعلون كذا...**» ولا يسمِّيهم؛ لأن ترك التسمية فيه عدَّة منافع وفوائد، منها: أنك إذا سمّيت صاحب الحدث أو صاحب المعصية والذنب، تكون قد شهَّرت به بين الناس، والإنسان إذا اشتهر بين الناس بمعصية يصعب عليه أن يرجع عنها، ولأن في ذلك أيضًا: إعانة للشيطان عليه، فإنه يقف له بطريق التوبة، إذا أراد أن يتوب، يقول له: كيف تتوب وأنت معروف بكذا وكذا بين الناس؟ وهذا أيضًا يُؤخذ من حديث الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ لما جِيءَ له برجل كان يشرب الخمر كثيرًا، فلما جُلِدَ سَبَّه أحد الصحابة، أو قال: عليك لعنة الله، قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**لا تكونوا عون الشيطان على أخيكم**»[(١)]، وأيضًا: في ترك التسمية ترك لمفسدة قد تقع، فإنه إذا سمع الذي ذكر اسمه على المنبر، أو في الدرس، أو في الموعظة، وهو ذو سلطان، أو ذو جاه، أو ذو نسب وعشيرة، فقد يجُرُّ ذلك إلى فتن، فيستعدي عليك بنو قومه أو قبيلته، أو يستعمل سلطانه وجاهه في الإضرار بالمتكلم، أو يمنعه من الكلام على المنبر أو الدرس، كما حصل أن كثيرًا من الخطباء ـ هداهم الله ـ لما تكلموا

(١) رواه البخاري في الحدود (١٢/٦٦، ٧٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.



بأسماء بعض العصاة، كان سببًا في إيقافهم عن الخطابة، أو منعهم من الدروس، لكن إذا كان الرجل المشهور بالإلحاد أو بالنفاق، قد مَرَدَ على الكفر والنفاق والإلحاد، ولا مفسدة في ذكره باسمه، فهذا لا حرج بتسميته، كما قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**مَنْ لكعب بن الأشراف؟ فإنه آذى اللهَ ورسوله**» فذكره باسمه؛ لأنه كان رأسًا من رؤوس اليهود، ومنافقًا من منافقيهم، وكان يؤذي النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ويشبب بنساء المسلمين.

أما أهل الإسلام، فالأحسن والأولى أن لا يذكروا بأسمائهم، وإنما تُذكر المعصية التي انتشرت، دون نسبتها إلى شخص معين، لذلك الراوي هنا قال: «**أَلَا إِنَّ آلَ أَبِي**» وسكت، ولم يذكر الذي ذكره النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وقد قيل: إنه قصد ناسًا من عقيل، من بني عمه ﷺ؛ لأن عقيلًا كان أخًا لعلي رضي الله عنه، لكن الراوي ترك تسميته للمصلحة.

قوله: «**لَيْسُوا لِي بِأَوْلِيَاءَ**» أي: لست وليًّا لهم، ولا هم بأوليائي، مع أنهم يشتركون معه في النسب والقرابة! لكنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ تبرَّأ منهم، وقاطعهم جهارًا غير سِرٍّ، ليبيِّن أن القريب عنده وعند الله تعالى، والرفيع في المنزلة، إنما هو صاحب الايمان والعمل الصالح، وأما من بَطَّأ به عمله، فإنه لا يُسرع به نسبه، كما صح عنه ﷺ ذلك. أي: من كان بطيئًا عن طاعة الله تعالى ورسوله ﷺ، فإن نسبه لا يقرِّبه إلى الله زلفى. وهاهنا الرسول ﷺ يتبرأ من قريب له.

قوله: «**إِنَّمَا وَلِيِّيَ اللهُ، وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ**» يخبر الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن الله تعالى وليٌّ له، والولي بمعنى الناصر والمحب، فالله تعالى

يحب أولياءه من المرسلين وأتباع المرسلين، وهو ناصرهم ﷻ، وهو الذي يدافع عنهم، وصالح المؤمنين أيضا أولياء للنبي ﷺ، ولو كانوا بعيدين منه في النسب، فمن كان من الصالحين فهو من أولياء الله تعالى، وأولياء رسول ﷺ، ولو كان بعيدًا منه في النسب، وأما من كان بعيدًا عن العمل الصالح والإيمان، فإنه ليس من أولياء الرسول ولو كان قريبًا منه في النسب.

ولا يخفى عليكم أن الله ـ تبارك وتعالى ـ قد أنزل في عبد العزى بن عبد المطلب الشهير بأبي لهب، أنزل في ثلبه وذمه سورة تتلى إلى يوم القيامة، وهو عمٌّ من أعمامه ـ عليه الصلاة والسلام ـ، أنزل قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾ [المسد].

والمؤمن أيضًا يجب عليه موالاة المؤمنين، ولو كانوا بعيدين منه في النسب، ومقاطعة غيرهم والبراءة منهم، ولو كانوا أقرباء له، أبًا أو أخًا أو ابنًا، وهذه من أصول الإسلام العظيمة: الولاء والبراء، أن تحب في الله، وأن تبغض في الله، وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ في هذا: «**من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان**»(١).

وفي رواية: «**وأنكح الله**»، فهذا يدل على أن الإنسان إذا ارتبطت أعماله بالإيمان، فأحب أهله وأبغض أعداءه، فقد استكمل الإيمان.

وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ أيضًا في الحديث: «**أوثق عرى**

(١) حديث صحيح، رواه أبو داود (٤٦٨١/١٥) وغيره من حديث أبي أمامة ﷺ.



الإيمان: الحب في الله، والبغض في الله»[١]، وفي رواية: **«والمولاة في الله والمعاداة في الله»**[٢].

فتتولى من تولى الله ورسوله والمؤمنين، وتتبرأ من أعداء الله تعالى، وأعداء رسوله ﷺ والمؤمنين، هذا هو الموقف الإيماني الذي يحبه الله تعالى ويرضاه من المسلمين، والآيات في هذا كثيرة في التحذير من مخالفة هذا الأصل، فقد ذكر الله تعالى موالاة أهل الإيمان لبعضهم البعض في قوله: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [التوبة: ٧١].

وقوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٢].

وقال ﷻ بعد ذلك: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنفال]، يعني: إن تركتم الموالاة، ولم تنصروا إخوانكم المسلمين، وأسلمتموهم للكفار الذين هم أولياء بعضهم لبعض، وهذا مشاهَدٌ فالكفار في كل زمان، ينصر بعضهم بعضًا على المسلمين، فإذا أنتم أسلمتم المسلمين البعيدين عنكم للكفار؛ كان في الأرض فتنةٌ وفسادٌ كبير، أي: تَسَلَّط الكفار على إخوانكم الضعفاء، كما هو حاصل في بعض البقاع اليوم، ولا حول ولا قوة إلَّا بالله، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

** ** **

---

(١) حديث صحيح لطرقه، رواه أحمد (٤/٢٨٦)، وابن أبي شيبة في الإيمان (١١)، والطيالسي (٧٤٨) من حديث البراء ﷺ.

(٢) رواه الطيالسي (٣٧٨) والطبراني في الكبير (١١٥٣٧) وغيرهما، وانظر الصحيحة (١٧٢٨).



باب: جزاء المؤمن بحسناته في الدنيا والآخرة وتعجيل حسنات الكافر في الدنيا

(٦٠) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مُؤْمِنًا حَسَنَةً يُعْطَى بِهَا فِي الدُّنْيَا، وَيُجْزَى بِهَا فِي الْآخِرَةِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ: فَيُطْعَمُ بِحَسَنَاتِ مَا عَمِلَ بِهَا للهِ فِي الدُّنْيَا؛ حَتَّى إِذَا أَفْضَى إِلَى الْآخِرَةِ، لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ يُجْزَى بِهَا».

❖ **الشرح:**

هذا الحديث أورده هنا المنذري في مختصر مسلم الذي هو من صنعه في كتاب الإيمان، ولكن الإمام مسلم رحمه الله إنما أخرج هذا الحديث في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، وأورده النووي تحت هذا الباب نفسه (١٧/١٥٠).

قوله: «عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ» الصحابي المشهور، وهو أحد الصحابة السبعة الذين رَوَوا عن النبي ﷺ فوق الألف، كما قال الناظم:

سبع من الصحب فوق الألف قد رووا
من الحديث عن المختار خير مضي
أبو هريرة سعد جابر أنس صِدِّيقة
وابن عباس كذا ابن عمر

وسعد هو أبو سعيد الخدري، والصديقة هي عائشة رضي الله عنهم.



وأنس ﷺ قد دعا له النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ: بطول العمر وكثرة المال والولد، فبلغ أكثر من مائة سنة، وهو من آخر الصحابة المشاهير موتًا، وإلا فقد مات بعده: الطفيل بن عمرو الدوسي هو آخر الصحابة موتًا، لكن أنس آخر مشاهير الصحابة موتًا، وكان ثَمر نخله يثمر في السنة مرتين، ببركة دعاء النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وبلغ ولده أكثر من مائة ولد، روى له الستة.

قوله: «إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مُؤْمِنًا» الظلم يأتي بمعنى: النقص، وحقيقة الظلم على الله تعالى مستحيلة، كما قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا﴾ [يونس: ٤٤]، وقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٤٠﴾ [النساء]، فالله تعالى لا يظلم، يعني: لا ينقص الناس شيئًا ولا مثقال ذرَّة، بل إن كانت حسنةً يضاعفها، وفي الآية الآخرى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة].

فالله لا يظلم المؤمن حسنة يعطى بها في الدنيا، يعني: أن المؤمن يعطى من سعة الرزق، وانشراح الصدر، وقُوَّة البدن، والعافية في الولد والأهل والمال، وحُسن السمعة والسيرة بين الناس، وغيرها من أسباب السعادة، ما يجعل الله تعالى بها حياته حياةً طيبةً، كما وعد ﷻ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةًۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩٧﴾ [النحل]، فمن الخطأ إذًا أن نظن أن غير المؤمن أحسن عيشًا من المؤمن! وهو خطأ شائع عند كثير من الناس!

نقول: هذا خطأ؛ لأن الله تعالى قد بيَّن بأن الحياة الطيبة إنما تكون

لأهل الإيمان، وأما أهل الكفران والعصيان، فقد توعدهم الله بالضيق والشدة والبلاء، والقحط والسنين، والمصائب والكوارث في الدنيا، قال تعالى: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [النحل]. وقال ﷻ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]، وغير ذلك من الآيات التي تدل على أن الكافر يضيق عليه عيشه، كقوله ﷻ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه].

لكن لا يمنع هذا أن نرى بعض الكفار أكثر مالًا من المسلمين، أو أكثر ولدًا، أو أعرض جاهًا، لكن ليست هذه هي السعادة وحدها، فليست هي بجمع المال ولا بكثرة الولد، فما لم يكن هناك انشراحُ صدر، وطمأنينة بالٍ، وسكينةُ قلب، لا تصلح الحياة، وإلا فبالله عليكم بماذا تفسرون انتحار بعض أصحاب الملايين؟ مع أنهم أوسع الناس رزقًا، ومع ذلك يقدمون على الانتحار، فهل هذا إلا دليل واضح على أنهم ليسوا بحياة طيبة! لإعراضهم عن الإيمان والعمل الصالح؟

قوله: «وَيُجْزَى بِهَا فِي الْآخِرَةِ» قد يمنع المؤمن بعض آثار حسناته؛ ليجزي بها في الآخرة، فلا يعطي كل شيء في الدنيا، ولهذا قال ﷺ: «**الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر**»[1]، فالدنيا بالنسبة للآخرة سجن المؤمنين، إذا قِسْت دنيا المؤمن إلى آخرته فإنها سجن، أما إذا قست دنيا الكفار بالنسبة لآخرتهم، كانت نعيمًا وجنَّة.

ويذكر العلماء في هذا المجال قصَّة الحافظ ابن حجر، وقد كان كبير

(١) رواه مسلم (٤/٢٢٧٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.



قضاة مصر وكان له موكب، عظيم إذا خرج إلى مجلسة، فمَرَّ يومًا في السوق فتعلق به يهودي زيَّات، فقال: أنتم تروون عن نبيكم أنه يقول: «**الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر**»، فانظر إلى ما أنت فيه، وإلى ما أنا فيه!! فقال له الحافظ ابن حجر ﷺ على البديهة: ما أنت فيه الآن بالنسبة إلى الآخرة جنة، وما أنا فيه من الخير والنعيم سجن بالنسبة إلى الآخرة، فعند ذلك شهد شهادة الحق وأسلم، لهذا الكلام العجيب.

وهكذا الحجة إذا توجهت من إمام عالم بالشريعة أفحم خصوم الإسلام وأعداءه، وجزاء المؤمن في الآخرة أعظم وأدوم وأعرض بلا شك من جزائه في الدنيا.

قوله: «**وَأَمَّا الْكَافِرُ: فَيُطْعَمُ بِحَسَنَاتِ مَا عَمِلَ بِهَا للهِ فِي الدُّنْيَا**» الكافر بمقتضى اعتقاده في بعض الأحيان أنه يعمل هذه الأعمال لله، لا يريد من الناس جزاء ولا شكورًا، مثل: صِلة الرحم، والعتق، والصدقة، والضيافة، وتسهيل الخيرات لبعض الناس، فإذا فعل الكافر مثل هذه الحسنات، فإن الله يُطعمه بحسنات ما عمل لله في الدنيا، فيعطيه الله ﷻ ثمرات هذه الحسنات في الدنيا كله، فلا يبقي له في الآخرة حسنة، ولهذا يُوَسِّع عليه في رزقه، ويُبارك له في أمواله، ولكن في الآخرة ليس له حسنة.

وقد أجمع العلماء على أن الكافر الذي مات على كفره لا ثواب له في الآخرة، ولا يُجَازَى فيها بشيء من عمله في الدنيا، ولو عمله متقرّبًا إلى الله، ما دام أنه لم يؤمن، والسبب الذي منع هذا الكافر أن تكتب له حسنة في الآخرة هو: أن العمل فقد شرطًا لقبوله، وهو الإيمان، وهذا مقرر في كتاب الله سبحانه، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ

أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ [النحل: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا يَخَافُ ظُلۡمٗا وَلَا هَضۡمٗا ﴿١١٢﴾﴾ [طه]، فغير المؤمنين لا تكتب لهم حسناتهم في الآخرة. وأخبر الله تعالى أيضًا أنه ليس للكافر ثواب في الآخرة، فقال ﷻ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود].

ومرَّ معنا حديث عبد الله بن جدعان الذي كان يتصدَّق ويطعم ويعتق، فسألت عائشة: هل ذلك نافعه في الآخرة؟ فقال ﷺ: **«لا، إنه لم يقل يومًا: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين»**، يعني أن الله ﷻ لا يعطيه شيئًا من ثواب عمله في الآخرة.

وفي رواية زاد: **«وأما المؤمن فإن الله يدَّخر له حسناته في الدنيا، ويعقبه رزقًا في الدنيا على طاعته»**.

أما إذا فعل الكافر هذه الحسنات كصلة الرحم، والصدقة، والإنفاق على الضعفاء ثم أسلم؛ فإنه يثاب عليها في الآخرة، كما سيأتي إن شاء الله في حديث حكيم بن حزام، إذ قال: يا رسول الله، أرأيت أعمالًا كنت أتحنث بها في الجاهلية، من صِلة رحم وعِتاقة، فقال له ﷺ: **«أسلمت على ما أسلفت من خير»**، فإذا أسلم الكافر؛ فإن الأعمال الصالحة التي كان يؤدِّيها تكتب له، وهذا من رحمة الله ﷻ بعباده، وهو ﷻ لا يظلم الناس شيئًا.

فيستفاد من هذا الحديث: أن الإيمان شرط لقبول العمل الصالح، وأن غير المؤمنين لا يؤجرون على أعمالهم في الآخرة، وإنما تعجل لهم



طيباتهم في الحياة الدنيا، ومن هاهنا خاف بعض السلف من الصحابة وغيرهم من كثرة الأموال وسعة الأرزاق في الدنيا، كما جاء في حديث البخاري: أن عبد الرحمن بن عوف كان صائمًا فحضر وقت إفطاره، فجلس على المائدة فرأى فيها ما طاب من الطعام، فتذكر حال الصحابة، فقال: منا من مات ولم يأخذ من دنياه شيئًا، منهم مصعب بن عمير، فقد قتل يوم أحد، وما وجدنا ما نكفيه فيه إلا بردة، إذا غطينا رأسه بدت رجلاه، وإذا غطينا رجليه بدا رأسه، ومنا من فتحت له الدنيا فهو يقطفها، ثم بكى، وقال: أخشى أن تكون قد عُجِّلت لنا طيباتنا في الحياة الدنيا، ثم قام وترك الطعام رضي الله عنه وأرضاه.

وفي هذا الحديث: أن الظلم حقيقة مستحيلة على الله عز وجل؛ لأن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال: «**إن الله لا يظلم مؤمنا حسنة**».

وفيه أيضًا: أن المؤمنين أحسن الناس عيشًا في الدنيا، وأطيبه، بَلْه الآخرة.

** ** ** **

باب: الإسلام ما هو؟ وبيان خصاله

(٦١) عن طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللهِ ﷺ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ ثَائِرُ الرَّأْسِ، نَسْمَعُ دَوِيَّ صَوْتِهِ، وَلَا نَفْقَهُ مَا يَقُولُ، حَتَّى دَنَا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَإِذَا هُوَ يَسْأَلُ عَنْ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ» فَقَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهُنَّ؟ قَالَ: «لَا، إِلَّا أَنْ تَطَّوَّعَ، وَصِيَامُ شَهْرِ رَمَضَانَ» فَقَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهُ؟ فَقَالَ: «لَا، إِلَّا أَنْ تَطَّوَّعَ» وَذَكَرَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ الزَّكَاةَ، فَقَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا؟ قَالَ: «لَا، إِلَّا أَنْ تَطَّوَّعَ» قَالَ: فَأَدْبَرَ الرَّجُلُ وَهُوَ يَقُولُ: وَاللهِ لَا أَزِيدُ عَلَى هَذَا وَلَا أَنْقُصُ مِنْهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ». وَفِي رِوَايَةٍ قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَفْلَحَ وَأَبِيهِ إِنْ صَدَقَ، أَوْ دَخَلَ الْجَنَّةَ وَأَبِيهِ إِنْ صَدَقَ».

❖ **الشرح:**

هذا الحديث أخرجه مسلم في كتاب الإيمان وبوب عليه النووي (١/١٦٦): باب الصلوات التي هي أحد أركان الإسلام.

وفي هذا الحديث من الغريب:

قوله: «مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ» وهي المنطقة المعروفة في وسط الجزيرة.

وقوله: «ثَائِرُ الرَّأْسِ» يعني: منتفش الشعر أو قائم الشعر.

وقوله: «نَسْمَعُ دَوِيَّ صَوْتِهِ» دوي الصوت: بعد الصوت في الهواء، أي أنهم يسمعون لصوته قوَّةً وشدةً، ولكن لا يفقهون ما يقول؛ لأن الرجل كان أعرابيًّا من نجد.



وهذا الرجل جاء إلى النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وقد سمع بالإسلام، فسأل النبي ﷺ ودنا منه، فقال له رسول الله ﷺ: «**خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ**» سأله عن الإسلام ماذا يجب عليه فيه، فأخبره الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنَّ عليه خمس صلوات في اليوم والليلة، وهي الصلوات المكتوبات.

فقال الرجل: «**هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهُنَّ؟**»، قال ﷺ: «**لَا، إِلَّا أَنْ تَطَّوَّعَ**» تطوع أصلها: تتطوع، فأدغمت إحدى التاءين في الطاء.

وقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**إِلَّا أَنْ تَطَّوَّعَ**» استثناء منقطع، يعني: لكن يستحب لك أن تتطوع، خمس صلوات فرضهن الله عليك في اليوم والليلة يجب عليك القيام بهن، لكن يستحب لك أن تتطوع، وبعض العلماء جعله استثناء متَّصلًا، واستدلوا به: على أن من شرع في صلاة نافلة أو صوم نافلة فإنه يجب عليه اتمامه، وضمَّوا إلى ذلك حجة أخرى، وهي قوله ﷻ: ﴿**وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ** ﴿٣٣﴾﴾ [محمد]، لكن الراجح في المسألة: أنَّ من دخل في صلاة نافلةٍ أو صيام نافلة يستحب له اتمامه ولا يجب، وهذا مذهب الشافعي والإمام أحمد رحمهما الله تعالى، ما عدا الحج والعمرة، لقوله ﷻ: ﴿**وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ**﴾ [البقرة: ١٩٦]، ثم قال له ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**وَصِيَامُ شَهْرِ رَمَضَانَ**» فقال: هل علي غيره؟

قال: «**لَا، إِلَّا أَنْ تَطَّوَّعَ**»، وذكر له رسول الله ﷺ الزكاة، فقال: هل علي غيرها؟ قال: «**لَا، إِلَّا أَنْ تَطَّوَّعَ**»، قال: فأدبر الرجل وهو يقول: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص منه، فقال رسول الله ﷺ: «**أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ**». وفي رواية: «**أفلح وأبيه إن صدق، أو دخل الجنة وأبيه إن صدق**».

هذا الفلاح، هل هو راجع إلى الجميع، كما هو ظاهر في قوله: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص؟ أو هو راجع إلى قوله: ولا أنقص؟! ظاهر الرواية أنه عائد إلى المجموع، بمعنى: أنه إذا لم يزد ولم ينقص كان مُفلحًا؛ لأنه أتى بما وجب عليه، ومن أتى بما وجب عليه فهو مفلح، لكن هذا لا يعني أنه لو جاء بزيادة لا يكون مفلحًا، بل هذا معروف بالضرورة، فإنه إذا أفلح بأداء الواجب، فهل لا يفلح إذا أدى الواجب وزيادة من المستحب؟ بل من أفلح بالواجب وحده، أولى بأن يفلح بالواجب والمندوب.

فإن قيل: كيف قال له الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**أفلح وأبيه إن صدق**» وهو قد قال: لا أزيد على هذا، والحديث ليس فيه جميع الواجبات التي في الإسلام، ولا كل السنن!

فالجواب: أنه قد جاء في رواية هذا الحديث في البخاري، زيادة توضح المقصود: قال: فأخبره رسول الله ﷺ بشرائع الإسلام، فأدبر الرجل وهو يقول: والله لا أزيد ولا أنقص، مما فرض الله تعالى عليَّ شيئًا.

فهذا فيه الجواب.

فأوَّلًا: أن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ كما في الرواية: أخبره بشرائع الإسلام، أي: أخبره بجميع الواجبات.

ثانيًا: قوله: «**مما فرض الله عليَّ**» يزول به الإشكال في الفرائض؛ لأن هذا يعني أنه شمل جميع الواجبات والفرائض في الإسلام.

ولا شكَّ أن هذا الحديث بهذه الروايةلم يأت فيه ذكر الحج، وجاء في بعض الروايات عدم ذكر الزكاة، وفي بعضها ذكر صلة الرحم، وفي

بعضها ذكر أداء الخمس، ولم يذكر في بعضها الإيمان، فهذه الأحاديث متفاوتة في تعديد خصال الإيمان، زيادةً ونقصًا وحذفًا.

وهذا التفاوت هل هو صادر من رسول الله ﷺ أو هو من اختلاف الرواة؟ الصحيح: أنه من تفاوت الرواة في الحفظ والضبط.

والجمع بين هذه الروايات يدل على أن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ ذكر له شرائع الإسلام كلها، والحديث قصة واحدة، يعني: لم تتعدد حتى يقال: ربما ذكر في مجلس الصلاة والزكاة والصيام، وفي مجلس آخر زاد عليها: الحج، وفي ثالث زاد عليها: صلة الرحم، فالمجلس واحد والقصة واحدة، فإيراد الجميع دليل على أن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ قد ذكر له جميع شرائع الإسلام.

وهذا الحديث ليس فيه أنه يقوم بالنوافل، مع أن النوافل لها أثر عظيم، كما جاء في الحديث القدسي أن الله ﷻ يقول لملائكته: **«انظروا هل لعبدي من تطوع؟ فيكمل بها ما انتقص من الفريضة، ثم يكون سائر عمله على ذلك»**[1].

فيكمل النقص الذي وقع في الفرائض بالتطوع الذي هو تبع للفرائض، ولو نظرنا إلى فرائض الإسلام لوجدناها قد حُفت برواتب ونوافل وسنن، تكمل النقص الذي يقع فيها، وهذا من رحمة الله ﷻ بعباده، لكن الرجل قال: **«وَاللهِ لَا أَزِيدُ عَلَى هَذَا وَلَا أَنْقُصُ مِنْهُ»** إذا هو قد اشترط على نفسه شرطًا أنه: لا يزيد على الفرائض.

والشرط الثاني: أنه لا ينقص منها شيئًا، والرسول ـ عليه الصلاة

(١) حديث صحيح، رواه الترمذي (٤١٤)، وابن ماجه (١٤٢٥ ـ ١٤٢٦).



والسلام ـ قال: «**أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ**» فهو قد اشترط على نفسه على أن لا ينقص من الفرائض شيئًا، وما دام أنه لا ينقص من الفرائض شيئًا، يكون قد أتى بجميع الواجب الذي عليه، وإذا كان الإنسان قادرًا على هذه الخصلة أفلح، أي إذا كان مثلًا قادرًا إذا قام يصلي الفريضة لا يسهو ولا يلهو، ولا يدخل في موضوع غير موضوع الصلاة، فهذا لا شكَّ أنه أتى بما يجب عليه، ومن أتى بما يجب عليه فليس هو بمطالب، لكن يعرف الإنسان من نفسه أنه لا بد أن يقع منه خلل وتقصير في أداء الواجب، فلذلك جعلت السنن الرواتب والنوافل جوابر للفرائض، تجبر ما يقع فيها من النقص والخلل.

وأما قَسَمه في قوله ﷺ: «**أفلح وأبيه إن صدق**» فمشكل!!

فالرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ قد صح عنه أنه قال: «**لا تحلفوا بآبآئكم، من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت**»(١)، وقال: «**إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم**».

والجواب عنه: أن قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**أفلح وأبيه إن صدق**» ليس حَلْفًا، وإنما هي كلمة جَرَت على لسان العرب من غير قصد لحقيقة الحلف والقَسَم، والنهي إنما ورد فيمن قصد الحلف والقسم. هذا جواب يذكره كثير من المحدثين والشراح.

وجواب آخر وهو أقل: أن يكون هذا قبل النهي عن الحلف بغير الله، أي أن هذا قبل أن ينهى النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ عن أن يحلف الرجل بغير الله تعالى.

(١) رواه البخاري ومسلم.



وبعض الشراح قال: «**أفلح وأبيه**» أصلها: أفلح واللهِ، فتحرفت على بعض النساخ، لكن هذا في الحقيقة يحتاج إلى إثبات ودليل.

ومن الفوائد: أنه يستدل بهذا الحديث: أن صلاة الليل منسوخة الوجوب في حق الأمة، وهذا مجمعٌ عليه عند العلماء، لكن اختلفوا في صلاة الليل في حق الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ: فمنهم من قال: إن صلاة الليل في حقِّ الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ واجبة لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾ [الإسراء]، فقالوا: هذه الآية تدل على وجوب صلاة الليل في حقه ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

واستدلوا به أيضًا على أن صلاة «الوتر» ليست بواجبة، وأن صلاة العيد أيضًا ليست بواجبة، وهذا مذهب الجمهور، وخالف في ذلك أبو حنيفة، فذهب هو وطائفته إلى وجوب صلاة الوتر، وذهب أبو سعيد الإصطخري من الشافعية إلى أن صلاة العيد فرض على الكفاية، وهو مذهب الحنابلة. وقال أبو حنيفة: إنها فرض عين، وهي رواية عن أحمد واختارها شيخ الاسلام ابن تيمية، وهي الصواب، والله أعلم.

وفي الحديث أيضًا: أنه لا يجب صوم شيء سوى رمضان، وهذا فيه إجماع ولله الحمد، وليس فيه خلاف، وصحَّ أنه صوم عاشوراء، كان واجبًا قبل فرض رمضان، كما في البخاري وغيره أن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ أرسل إلى من كان قد طعم فليمسك، ومن كان لم يطعم فليمسك بقية يومه. وفي هذا إيجاب لصيام عاشوراء قبل أن يفرض رمضان، ثم صار بعد ذلك على الاستحباب.

وفي الحديث أيضًا: أنه ليس في المال حقٌّ سِوى الزكاة، وقد تعقب.

وفي الحديث أيضًا: تعليم النبي -عليه الصلاة والسلام- الإسلام للناس واهتمامه بالجميع، فالرسول -عليه الصلاة والسلام- كان يهتم بجميع الأمة، حتى بالجهلة، والأعراب، والنساء، والأطفال، والغرباء الذين كانوا يَفِدُون إليه، وهذا لعموم بعثته -عليه الصلاة والسلام-، فإن الله ﷻ أرسله إلى الأبيض والأسود، والأحمر والأصفر، والعرب والعجم، والإنس والجان، فكان -عليه الصلاة والسلام- لا يأبى أن يُعَلِّم من جاءه، كائنًا من كان.

وفي الحديث: أن الرسول -عليه الصلاة والسلام- لم يكن له حِجَاب يحتجب به عن الخلق، بل هذا الغريب الذي لم يكن معروفًا عند الصحابة دنا من الرسول -عليه الصلاة والسلام- في مجلسه، حتى علمه هذه الكلمات.

** ** **

باب: بُنِيَ الإسلام على خمس

(٦٢) عَنْ ابْنِ عُمَرَ ﷺ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسَةٍ: عَلَى أَنْ يُوَحَّدَ اللهُ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَصِيَامِ رَمَضَانَ، وَالْحَجِّ»، فَقَالَ رَجُلٌ: الْحَجُّ وَصِيَامُ رَمَضَانَ؟ قَالَ: لَا، صِيَامُ رَمَضَانَ وَالْحَجُّ، هَكَذَا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

❖ الشرح:

بوَّب الإمام النووي على هذا الحديث (١/١٧٦) باب: أركان الإسلام ودعائمه العظام.

وفيه عن ابن عمر عن النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ أربع روايات عند مسلم.

قوله: «**بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسَةٍ: عَلَى أَنْ يُوَحَّدَ اللهُ**» وفي رواية: «**بني الإسلام على خمس**»، فرواية «**خمس**» المراد بها: خمس خصال، أو خمس قواعد، أو خمس دعائم، وفي رواية «**خمسة**» المرادُ بها: خمسة أشياء، أو خمسة أركان.

وفي رواية: «**أن يعبد الله ويكفر بما دونه**»، وفي رواية: «**أن يعبد الله ويكفر بما دونه**»، وفي رواية: «**بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله**»، وهذه الروايات ـ وإن كانت مختلفة الألفاظ ـ إلا أنها متفقة المعاني، فمعانيها ترجع إلى معنى واحد؛ لأن قوله هاهنا «بني

الإسلام على خمس» يعني: هذه هي أركان الإسلام، وأسسه ودعائمه التي يبنى عليها، فهي خمسة أركان عظيمة، أولها:

قوله: «**أَنْ يُوَحَّدَ اللهُ**» يعني: أن يُعبد وحده جل وعلا لا شريك له، ويكفر بما دونه، وهذا معنى شهادة: أن لا إله إلا الله، فالإله هو المعبود، فقولنا: لا إله إلا الله، يعني: لا معبود بحق إلا الله، فمن عَبَدَ أو ألَّه غير الله فقد ظلم نفسه، فاتخاذ إله غير الله، من أبطل الباطل وأظلم الظلم؛ لأن العبودية الحقة إنما هي لله ﷻ وحده لا شريك له.

قوله: «**وشهادة أن محمدا رسول الله**» وهي من لوازم لا إله إلا الله وتابعة لها؛ لأن من كفر بالرسول فقد كفر بالمرسل، قال ﷻ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ [نوح: ١]، وهو تنبيه على أن الذي أرسل نوحًا هو الله ﷻ، فنسب رسالة نوح إلى نفسه سبحانه، وقال ﷻ: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [النساء: ١٦٣]، فالذي يكفر برسول واحد، يكون قد كفر بجميع المرسلين، وكفر بالله رب العالمين؛ لأن الله ﷻ هو الذي أرسلهم، فمن عصى الرسول فقد عصى الله، قال ﷻ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، فمن يعصه يكون قد عصى الله سبحانه.

هذا هو الركن الأول، وهو مكون من الشهادتين: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله.

قال العلماء: وإنما كانا رُكنًا واحدًا مع أنهما من شِقين؛ لأن العبادات تنبني على تحقيقهما معًا، فلا تقبل العبادة إلا بالإخلاص لله ﷻ، وهو ما تتضمنه شهادة أن لا إله إلا الله، واتِّباع الرسول ﷺ، وهو ما تتضمنه شهادة أن محمدًا رسول الله.



قوله: «**وَإِقَامِ الصَّلَاةِ**» أي: أن يُقيم الصلاة تامة بأركانها وواجباتها وشروطها، ولم يقل: ويصلي، وإنما قال: «**وَإِقَامِ الصَّلَاةِ**» يعني: أن يأتي بها تامة مستقيمةً ليس فيها نقص ولا عِوَج، وكم من الناس من يصلي لكنه لا يقيم الصلاة، كما ورد أن رجلًا جاء إلى مسجد النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ فصلى في ناحية المسجد، ثم جاء وسلَّم على النبي ﷺ فسلَّم عليه، وقال له رسول الله ﷺ: «**ارجع فصَلِّ فإنك لم تُصَلِّ**» فرجع الرجل فصلى مرة أخرى كما صلى، ثم جاء فقال له رسول الله ﷺ «**ارجع فصَلِّ فإنك لم تُصَلِّ**»، ثلاث مرات، حتى قال الرجل: والذي بعثك بالحق، لا أحسن غيرها، يعني: هذا الذي أعرفه عن الصلاة، ولا أحسن غيره، فعلمه النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ كيف يقيم الصلاة[1].

وهذا أمر خطير!! أن لا يلتفت العبد إلى كيفية صلاته، هل هي كما أراد الله تعالى وكما شرع رسوله ﷺ، من التكبير وقراءة القرآن كما نزل، وإقامة الركوع والطمأنينة فيه، والسجود والطمأنينة فيه، والجلوس بين السجدتين والطمأنينة فيه، فترتيب هذه الأركان، والإتيان بها كما أحب الله ﷻ وبين رسوله، هو إقام الصلاة.

قوله: «**وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ**» يعني: إعطاء الزكاة، فالزكاة إعطاء، وهذا أحد ما احتج به العلماء، على أن من كان له في ذمة رجل دين، ثم عجز عن أدائه، وحلَّت الزكاة، فلا يجوز للإنسان أن يسقط ما في ذمة هذا الإنسان المستدين على أنها زكاة، وهذا يفعله بعض الناس، فيقول له: الدين الذي لي عليك قد أسقطته، ويحسب ذلك من الزكاة وهذا خطأ!؛ لأن الزكاة

---

(١) الحديث في الصحيحين، البخاري في الأذان (٢٧٧/٢).



إعطاء وليس إسقاط، قال الله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣]، فالزكاة إعطاء.

والأمر الثاني: أن هذا المال قد خرج بغير نية الزكاة، وإنما بنيَّة السلف والرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ يقول: «**إنما الأعمال بالنيات**» فلا يجزئ، والعبادة لا بد فيها من النية وإلا لم تعتبر.

وقد قرَن الله ﷻ بين هاتين الفريضتين في مواضع كثيرة جدًّا من كتابة، تنبيها للعباد على عظم شأنهما عنده، واشترط ذلك لقبول إسلام من أسلم فقال: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١١]، وفي الآية الأخرى: ﴿فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥].

قوله: «**وَصِيَامِ رَمَضَانَ**» ورمضان هو الشهر القمري والمعروف، تارة يكون تِسعًا وعشرون، وتارةً يكون ثلاثين يومًا.

قوله: «**وَالْحَجِّ**» وأصله في اللغة: القصد، والمراد به: قصد البيت الحرام للطواف والوقوف بعرفة والمبيت بمزدلفة، وبقية أركان الحج وواجباته.

قوله: «**فَقَالَ رَجُلٌ: الْحَجُّ وَصِيَامُ رَمَضَانَ؟**» عطفًا على الحديث «**وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ...**».

«**قَالَ**» ـ أي ابن عمر ـ «**لَا، صِيَامُ رَمَضَانَ وَالْحَجُّ، هَكَذَا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ**».

وقد سمَّاه الخطيب البغدادي في كتابه «الأسماء المبهمة»: يزيد السكسكي.

وقد ورد عن ابن عمر نفسه أنه رواه كذلك ـ أي كما قال الرجل ـ في إحدى الروايات الأربع التي في «صحيح مسلم».

ويحمل قول ابن عمر ﷺ: «**لَا، صِيَامُ رَمَضَانَ وَالْحَجُّ**» على أمرين اثنين:

الأمر الأول: أن يكون قصد ابن عمر أني سمعته من النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ بهذه الصورة في أحد المرات، فلا أُغير ما سمعته، يعني: فلا تَرُدَّ عليَّ ما لا علم لك به ولا تعترض.

الأمر الثاني: أن ابن عمر حدَّث بهذه الرواية ثم نسيها، ولذلك أنكر على الرجل.

وذكر ابن الصلاح: أن في هذا الحديث حُجة لكون الواو تقتضي الترتيب؛ لأن ابن عمر حافَظَ على ما سمع وأنكر على من عكس، وهو مذهب كثير من الفقهاء الشافعيين، وشذوذ من النحويين.

ومن قال: إن الواو لا تقتضي الترتيب هو قول الجمهور، وإنما أنكر ابن عمر ﷺ على الرجل؛ لأن صوم رمضان سبق فرض الحج؛ لأن صوم رمضان فرض في السنة الثانية من الهجرة، وأما فريضة الحج فقيل: سنة ست، وقيل: سنة تسع، وهو الذي اختاره ابن القيم وقواه على غيره، ولو كان الحج قد فرض على النبي ﷺ سنة ست، لمَا تأخر النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ عن الحج إلى السنة العاشرة! لكن الحج فرض في السنة التاسعة، وما استطاع النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يحج في السنة التاسعة؛ لكون مكة بها كثير من المشركين، وكان بعضهم يطوف بالبيت، وهو عريان، فأرسل عليًّا في سنة تسع يبلغ الناس في الموسم: «**ألا لا يحُجَّ بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان**»(١)، ثم حج في السنة العاشرة، ومن حق الأول أن يقدم في الذكر.

(١) رواه البخاري في الحج (٤٨٣/٣) ومسلم (٩٨٢/٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.



وفي رواية لمسلم: أن رجلًا قال لابن عمر: ألا تغزو؟! فقال: ابن عمر ﭭ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**بني الإسلام على خمس...**» الحديث، يعني: أن الغزو والجهاد ليس من فرائض الأعيان التي تجب على كل واحد من المسلمين بعينه، ولهذا لما اعترض عليه هذا الرجل قال له: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**بني الإسلام على خمس...**» الحديث، ولم يذكر في الجهاد ولا الغزو؛ لأن الجهاد الأصل فيه أنه فرض على الكفاية، إن قام به من يكفي من المسلمين سقط عن الباقين.

** ** **

بابـ: أي الإسلام خير؟

(٦٣) عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو ﷺ: أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ: أَيُّ الْإِسْلَامِ خَيْرٌ؟ قَالَ: «تُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ».

❖ **الشرح:**

الحديث أخرجه مسلم في الإيمان، وبوَّب عليه النووي (٩/٢): باب بيان تفاضل الإسلام وأي أموره أفضل.

قوله: «أيُّ الاسلام خير»، وفي رواية: «أيُّ المسلمين خير» معناه: أي خصالة وأموره خير.

وقد وقع اختلاف في جواب النبي ﷺ للسائلين في مثل هذه الأسئلة لاختلاف حال السائلين والحاضرين، فكان ـ عليه الصلاة والسلام ـ إذا رأى إهمالًا أو تساهلًا في شيء نبَّه عليه، ولفَتَ الأنظار إليه، وإلا فالإسلام خصاله كثيرة.

قوله: «**تُطْعِمُ الطَّعَامَ**» فيه حثٌّ على إطعام الطعام والجود، وذلك يشمل الزكاة، والصدقة، والهدية، والضيافة، وغيرها، كما قال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [الإنسان: ٨]، أي: يُطعمون الطعام مع أنهم يحبونه، لكنهم قدموا محبَّة الله على محبة أنفسهم، ويتحرون أولى الناس وأحوجهم إلى الطعام، لذلك قال: ﴿مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ⑧﴾ [الإنسان].

قوله: «**وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ**» أي: تسلم على كل من لقيته من المسلمين، سواء عرفته أم لم تعرفه، ولا تخص به من تعرفه، كما يفعله كثير من الناس.

ولماذا خصَّصنا المسلمين بذلك؟ لأن عموم هذا الحديث، مخصوص بقوله ﷺ: «**لا تبدؤوا اليهود ولا النصارى بالسلام**»(١)، فلا يسلم على الكافر ابتداء، لكن لو سلَّم علينا سلامًا صحيحًا؛ رددنا ﷺ، لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾ [النساء: ٨٦].

وقد مَرَّ في الحديث معنا الحث على إفشاء السلام، وأنه من أسباب المحبَّة بين المسلمين، وهو قوله ﷺ: «**لاتدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولاتؤمنوا حتى تحابُّوا، أَوَلَا أَدُلُّكم على شيءٍ إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم**»(٢).

وبلغ من محافظته ـ عليه الصلاة والسلام ـ على ذلك، أنه كان إذا مَرَّ على الغلمان سَلَّم عليهم ـ كما في الصحيحين ـ فضلًا عن غيرهم، وهو من تواضعه ﷺ ايضًا وإفشاء السلام، وكفّ الأذى، من حق الطريق، كما جاء في الحديث: «**فأعطوا الطريق حقَّه**» قالوا: وما حقُّ الطريق يا رسول الله؟ قال: «**غَضُّ البصر، وكَفُّ الأذى، ورَدُّ السلام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**» متفق عليه.

وقال النووي: «وفي هذه الأحاديث جمل من العلم: ففيها الحث على إطعام الطعام، والاعتناء بنفع المسلمين، والكفّ عما يؤذيهم بقول أو فعل بمباشرة أو سبب، والإمساك عن احتقارهم.

---

(١) رواه مسلم.

(٢) هو الحديث رقم (٤٢) من هذا المختصر.



وفيها: الحث على تأليف قلوب المسلمين، واجتماع كليتهم، وتوادِّهم، واستجلاب ما يحصل ذلك.

وقال عياض: والألفة إحدى فرائض الدين وأركان الشريعة، ونظام شمل الإسلام».

** ** **

باب: الإسلام يهدم ما قبله والحج والهجرة

(٦٤) عَنْ ابْنِ شِمَاسَةَ الْمَهْرِيِّ قَالَ: حَضَرْنَا عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ وَهُوَ فِي سِيَاقَةِ الْمَوْتِ؛ فَبَكَى طَوِيلًا وَحَوَّلَ وَجْهَهُ إِلَى الْجِدَارِ، فَجَعَلَ ابْنُهُ يَقُولُ: يَا أَبَتَاهُ! أَمَا بَشَّرَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِكَذَا؟ أَمَا بَشَّرَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِكَذَا؟ قَالَ: فَأَقْبَلَ بِوَجْهِهِ فَقَالَ: إِنَّ أَفْضَلَ مَا نُعِدُّ: شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، إِنِّي كُنْتُ عَلَى أَطْبَاقٍ ثَلَاثٍ، لَقَدْ رَأَيْتُنِي وَمَا أَحَدٌ أَشَدَّ بُغْضًا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ مِنِّي، وَلَا أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ أَكُونَ قَدْ اسْتَمْكَنْتُ مِنْهُ فَقَتَلْتُهُ؛ فَلَوْ مُتُّ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ لَكُنْتُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَلَمَّا جَعَلَ اللهُ الْإِسْلَامَ فِي قَلْبِي أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقُلْتُ: ابْسُطْ يَمِينَكَ فَلْأُبَايِعْكَ؛ فَبَسَطَ يَمِينَهُ، فَقَبَضْتُ يَدِي، قَالَ: «مَا لَكَ يَا عَمْرُو» قَالَ: قُلْتُ: أَرَدْتُ أَنْ أَشْتَرِطَ، قَالَ: «تَشْتَرِطُ بِمَاذَا؟» قُلْتُ: أَنْ يُغْفَرَ لِي، قَالَ: «أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟ وَأَنَّ الْهِجْرَةَ تَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلِهَا؟ وَأَنَّ الْحَجَّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟» وَمَا كَانَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلَا أَجَلَّ فِي عَيْنِي مِنْهُ، وَمَا كُنْتُ أُطِيقُ أَنْ أَمْلَأَ عَيْنَيَّ مِنْهُ إِجْلَالًا لَهُ، وَلَوْ سُئِلْتُ أَنْ أَصِفَهُ مَا أَطَقْتُ؛ لِأَنِّي لَمْ أَكُنْ أَمْلَأُ عَيْنَيَّ مِنْهُ، وَلَوْ مُتُّ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ لَرَجَوْتُ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، ثُمَّ وَلِينَا أَشْيَاءَ مَا أَدْرِي مَا حَالِي فِيهَا؛ فَإِذَا أَنَا مُتُّ، فَلَا تَصْحَبْنِي نَائِحَةٌ، وَلَا نَارٌ، فَإِذَا دَفَنْتُمُونِي؛ فَسُنُّوا عَلَيَّ التُّرَابَ سَنًّا، ثُمَّ أَقِيمُوا حَوْلَ قَبْرِي قَدْرَ مَا تُنْحَرُ جَزُورٌ، وَيُقْسَمُ لَحْمُهَا، حَتَّى أَسْتَأْنِسَ بِكُمْ، وَأَنْظُرَ مَاذَا أُرَاجِعُ بِهِ رُسُلَ رَبِّي.

❖ **الشرح:**

أخرج الإمام مسلم هذا الحديث في الإيمان وبوَّب عليه النووي رحمه الله (١٣٦/٢) باب: كون الإسلام يهدم ما قبله، وكذا الهجرة والحج.

وهو من رواية عمرو بن العاص رضي الله عنه، وعمرو بن العاص كان من دُهاة العرب رأيًا وعقلًا، ويقال: إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا تعجَّب من إنسان قال: سبحان من خلقك، وخلق عمرو بن العاص! وقد وَلِيَ مصر أكثر من ثمانية عشر سنة لِعُمَرَ ثم عثمان ثم معاوية، ومات سنة ثلاث وأربعين عن تسعين سنة، رضي الله عنه.

قوله: «فِي سِيَاقَةِ الْمَوْتِ» في حال حضوره.

قوله: «كُنْتُ عَلَى أَطْبَاقٍ ثَلَاثٍ» أحوال ثلاث، كما قال عز وجل: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ١٩﴾ [الانشقاق] يعني: حالًا بعد حال.

قوله: «يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ» يسقط ويمحو ما قبله.

قوله: «فَسُنُّوا عَلَيَّ التُّرَابَ سَنًّا» صبوه صبًا، وروي بالمعجمة «شُنُّوا علي التراب شنًّا» أي: صبوه صَبًّا رفيقًا وفي تفريق.

قوله: «جَزُورٌ» هي الواحدة من الإبل؛ لأنها تجزر.

قوله: «فَبَكَى طَوِيلًا وَحَوَّلَ وَجْهَهُ إِلَى الْجِدَارِ» وهذا من شفقته على نفسه من ذنوبه، رضي الله عنه وأرضاه.

قوله: «فَجَعَلَ ابْنُهُ يَقُولُ: يَا أَبَتَاهُ! أَمَا بَشَّرَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِكَذَا؟ أَمَا بَشَّرَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِكَذَا؟» وهذا يستفاد منه: استحباب تذكير من حضره الموت بما عمل من أعمال حسنة، ليحسن ظنَّه بالله تبارك تعالى ويموت

وهو على ذلك، فيذكر بآيات الرجاء وأحاديث العفو، وبما أعدَّ الله تبارك وتعالى للمسلمين عنده، كما قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه**»[(١)]، فإذا مات على ذلك؛ فيرجى له الخير.

قوله: «**فَقَالَ: إِنَّ أَفْضَلَ مَا نُعِدُّ: شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ**» وهذا من باب هضمه لنفسه، وتحقيره لعمله، مع أنه ﷺ كان له جهادٌ، ونصرة للإسلام والمسلمين، لكنه استصغر أعماله وغلب على نفسه الخوف من الله ﷻ، والتقصير بحقِّه جل وعلا، أو في حق بعض عباده، ولهذا عدَّ أفضل أعماله هو الشهادتين.

قوله: «**إِنِّي كُنْتُ عَلَى أَطْبَاقٍ ثَلَاثٍ، لَقَدْ رَأَيْتُنِي وَمَا أَحَدٌ أَشَدَّ بُغْضًا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ مِنِّي، وَلَا أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ أَكُونَ قَدْ اسْتَمْكَنْتُ مِنْهُ فَقَتَلْتُهُ**» هذا قبل أن يُسلم، أخبر أنه كان يبغض النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ بُغضًا عظيمًا، وأنه تمنى لو أنه استمكن من الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ فيقتله.

قوله: «**فَلَوْ مُتُّ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ لَكُنْتُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ**» أي: لو مت على تلك الحال، من البغض والكراهية لرسول رب العالمين، لدخلت النار.

قوله: «**فَلَمَّا جَعَلَ اللهُ الْإِسْلَامَ فِي قَلْبِي أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقُلْتُ: ابْسُطْ يَمِينَكَ فَلْأُبَايِعْكَ**» أي: على الإسلام والدخول في الدين.

قوله: «**فَبَسَطَ يَمِينَهُ، فَقَبَضْتُ يَدِي، قَالَ: «مَا لَكَ يَا عَمْرُو**» أي: لماذا قبضت يدك؟

---

(١) رواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٤/٢٢٠٥) من حديث جابر رضي الله عنه.



قوله: «قُلْتُ: أَرَدْتُ أَنْ أَشْتَرِطَ، قَالَ: «تَشْتَرِطُ بِمَاذَا؟» هكذا جاءت في الرواية بإثبات (الباء) في «ماذا»، وهذا للتأكيد أي: ما هو الذي تشترطه؟

قوله: «قُلْتُ: أَنْ يُغْفَرَ لِي» وهذا يدل على أنه أقبل إلى الله تبارك وتعالى بإخلاص، وأنه يخاف أن يسلم ويبقى عليه شيء من التبعات من أعماله وهو مشرك، إذ كان يعادي الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

قوله: «قَالَ: «أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟ وَأَنَّ الْهِجْرَةَ تَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلِهَا؟ وَأَنَّ الْحَجَّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟» أي: أن هذه الثلاثة تهدم ما قبلها من التقصير في حق الله تعالى، وكذا في حقوق عباده بالإجماع، فمن أسلم؛ سقطت عنه المؤاخذات فيما بينه وبين الله، وكذلك إن كان قد أخذ مال أحد أو رابى، أو اغتصب مالًا في الجاهلية قبل الإسلام، فإنه إذا أسلم؛ سقطت عنه جميع التبعات.

واختلف في مَنْ أسلم وفي يده مالٌ مغصوب! فالإمام مالك ألحقه بما سبق، وقال: لأن الإجماع منعقد على أن من أسلم فإن الإسلام يهدم ما كان من تقصير في حق الله، ومن اعتداء في حقوق العباد، فلا يضمن شيئًا، ولا يقتص منه إذا كان قد قَتَلَ أو اعتدى، فإن الإسلام يهدم ما قبله، وهذا الأمر ملتحق بما سبق، وقال الشافعي: إن كان قد أسلم وكان في يده مال مغصوب لأحد، وجب رده. وهو خلاف ظاهر هذا الحديث.

قوله: «وَأَنَّ الْهِجْرَةَ» يعني: لله تعالى، من هاجر من بلد الشرك إلى ديار الإسلام مهاجرًا إلى الله ورسوله، فإن هذه الهجرة تهدم ما كان قبلها من الذنوب والخطايا، وتسقط عنه التبعات.



قوله: «**وَأَنَّ الْحَجَّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ**» والحج أيضًا يُسقط ما كان من تقصير، ويُسقط ما كان من ذنوب بينه وبين الله تبارك وتعالى، ويشهد لذلك قوله ﷺ: «**من حج البيت فلم يرفث ولم يفسق؛ رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه**»[1]، وهذا على أحد القولين، في أن الحج يهدم جميع الذنوب صغيرها وكبيرها، والقول الآخر: إن الحج إنما يهدم صغار الذنوب، لقوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١]، وقوله ﷺ: «**الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفرات ما بينهن، إذا اجتنبت الكبائر**»[2]، لكن ظاهر الحديث أن الحج يهدم جميع ما قبله من الذنوب، صغيرها وكبيرها.

قوله: «**وَمَا كَانَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلَا أَجَلَّ فِي عَيْنِي مِنْهُ**» وهذا بعدما أسلم، يقول: ما كان أحد بعد ذلك أعظم في عيني من رسول الله ﷺ.

قوله: «**وَمَا كُنْتُ أُطِيقُ أَنْ أَمْلَأَ عَيْنَيَّ مِنْهُ إِجْلَالًا لَهُ**» ﷺ، وهذا ما كان عليه الصحابة من توقير لرسول الله ﷺ وإجلال، حتى إن أحدهم ما كان يستطيع أن يضع عينه في عين النبي -عليه الصلاة والسلام-، أو يملأ عينيه منه ﷺ إجلالاً له.

قوله: «**وَلَوْ سُئِلْتُ أَنْ أَصِفَهُ مَا أَطَقْتُ**» أي: لو قال له رجل: صف لنا رسول الله؟ ربما قَصَّر في الوصف؛ لأنه ما كان يطيق النظر إليه، وملأ عينيه منه، وهذا أيضًا فيه ما كان عليه رسول الله ﷺ من المهابة، فقد كان -عليه الصلاة والسلام- مهيبًا، عظيم الجلالة في نفس وعين من رآه، حتى

---

(١) رواه البخاري وأحمد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم في الطهارة (٢٠٩/١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.



إن كان الرجل ليراه، فترتعد فرائضه من هيبته ﷺ، مع ما كان عليه من المحبة في القلوب، فما كانت مهابته مقرونة بالبغض ولا بالفزع، بل كانت مقرونة بالمحبة له والتوقير والاحترام، وكل من اتَّبعه ـ عليه الصلاة والسلام ـ على دينه وتفقه في رسالته، وما جاء به من عند ربه؛ فإن الله تبارك وتعالى يلبسه ثوبًا من المحبة والمهابة في قلوب الخلق، كما ذكر ابن القيم: «إن الله ﷻ يلبس علماء السنة من المهابة والمحبة في قلوب الخلق، بقدر ما عندهم من العلم والإقبال على الله تبارك وتعالى».

وهذا شيء مشاهد ومحسوس.

قوله: «وَلَوْ مُتُّ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ لَرَجَوْتُ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ» يعني: لو مت في العهد النبوي، لرجوت أن أكون من أهل الجنة.

قوله: «ثُمَّ وَلِينَا أَشْيَاءَ مَا أَدْرِي مَا حَالِي فِيهَا» إشارة إلى ما حدث بين الصحابة من اختلاف وفِتَن، وقد كان عمرو بن العاص أحد الحَكَمَيْن اللذين كانا بين معاوية وعلي رضي الله عنهم أجمعين، وهذه الأمور جعلت هذا الصحابي يخاف أن يكون قد قَصَّر في حق الله أو في حق عباده؛ لأنها أمورٌ عظيمة، تمنى كثير من الصحابة لو أنه مات قبلها، فنقل عن علي ﷺ بعد «وقعة الجمل» أنه قال: يا ليتني مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة، ونُقِلَ ذلك أيضًا عن عائشة وغيرها من الصحابة ﷺ، أنهم كَرِهُوا ما وقع بينهم من اختلاف وقتال وفتن، لهذا خاف عمرو بن العاص من هذه الأمور التي تقدمت.

قوله: «فَإِذَا أَنَا مُتُّ، فَلَا تَصْحَبْنِي نَائِحَةٌ» أما النائحة فقد ورد في الصحيح تحريم فعلها، ومَرَّ معنا أن النياحة من أمور الجاهلية، وأن النائحة

إذا لم تتب تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران، ودرع من جرب، نسأل الله العافية.

قوله: «**وَلَا نَارٌ**» قيل: إن هذا كان من شعار الجاهلية، أنهم كانوا يتبعون الجنائز بالنار، وقيل: كراهية أن يكون ذلك فيه تفاؤل بدخول النار.

قوله: «**فَإِذَا دَفَنْتُمُونِي، فَسُنُّوا عَلَيَّ التُّرَابَ سَنًّا**» صبوه علي صبا في سهولة متفرقًا.

قوله: «**ثُمَّ أَقِيمُوا حَوْلَ قَبْرِي قَدْرَ مَا تُنْحَرُ جَزُورٌ، وَيُقْسَمُ لَحْمُهَا**» ابقوا حول قبري قدر ما ينحر الواحد من الإبل من الوقت، ويقرب من عشرة دقائق إلى ربع ساعة تقريبًا.

قوله: «**حَتَّى أَسْتَأْنِسَ بِكُمْ، وَأَنْظُرَ مَاذَا أُرَاجِعُ بِهِ رُسُلَ رَبِّي**».

وفي هذا فوائد:

منها: إثبات فتنة القبر وسؤال الملكين، وقد جاءت فيه أحاديث كثيرة، وقد كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ لا يصلي صلاة إلا استعاذ بالله ﷻ من فتنة القبر فيقول: «**اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، وأعوذ بك من عذاب القبر..**» فكان دائمًا يستعيذ بالله من ذلك، وفي الحديث الذي في الصحيح: لما حضر جنازة رجل من الأنصار قال: «**استعيذوا بالله من عذاب القبر ثلاثًا**»(١)، وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة.

وفيه أيضًا: استحباب المكث عند القبر بعد الدفن قدر ما ذكر من ذبح الجزور وقِسمة لحمة، حتى يستأنس الميت، وكان ـ عليه الصلاة والسلام ـ

---

(١) متفق عليه.



من هديه أنه إذا وضع الميت في قبره لم يفارقه مباشرة كما يفعل كثير من الناس، وإنما يقول لأصحابه: «**استغفروا لأخيكم، وسلوا له التثبيت، فإنه الآن يسأل**»(١).

يعني: بمجرد أن يوضع في قبره ويدفن، يأتيه الملكان فيجلسانه ويسألانه.

وفيه أيضًا: إثبات أن الميت يسمع حينئذ من حول القبر ويشعر بهم، وفي الحديث الذي أخرجه مسلم: «**إن الميت إذا وضعه أصحابه وتولوا عنه، يسمع قرع نعالهم**» يعني: يسمع أصوات نعالهم على الأرض.

وقد يقول قائل: وهل هذا يعارض قول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [النمل: ٨٠].

والجواب: أنه لا معارضة؛ لأن السماع المنفي في الآية هو سماع الانتفاع، وسماع الاستجابة، يعني: أن الميت لا ينتفع بما يسمع من وعظ وتذكير، ولو أراد أن يرجع ويعمل صالحًا لم يُعْطَ ذلك، إذًا سماعه هنا ليس فيه انتفاع؛ لأنه انتقل من دار العمل إلى دار الجزاء، وهذا لا تعارض بينه وبين قول الله ﷻ: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾.

وأيضًا في الحديث: أن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان إذا دخل المقابر قال: «**السلام عليكم دار قوم مؤمنين**» يقول أهل العلم: إن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ ما كان ليُسَلِّم على الجماد! وإنما يسلم على من يسمع تسليمه.

---

(١) رواه الحاكم (١/٣٧٠) عن عثمان ﷺ.



واستفاد العلماء من هذا الحديث: جواز الاشتراك في الجزور، فيشترك جماعة في شراءِ جزور ويتقاسمونه بينهم بالسوية مثلًا، وينظر تفصيله في كتب الفقه.

** ** **

باب: مَنْ أَحْسَنَ فِي الإِسْلَامِ فَلَا يُؤَاخَذُ بِمَا عمل فِي الْجَاهِلِيَّةِ

(٦٥) عن عبد الله بن مسعود ﵁ قَالَ: قَالَ أُنَاسٌ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَنُؤَاخَذُ بِمَا عَمِلْنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ؟ قَالَ: «أَمَّا مَنْ أَحْسَنَ مِنْكُمْ فِي الْإِسْلَامِ؛ فَلَا يُؤَاخَذُ بِهَا، وَمَنْ أَسَاءَ أُخِذَ بِعَمَلِهِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ».

❖ الشرح:

هذا الحديث قد رواه الإمام مسلم في كتاب الإيمان، وبوَّب عليه النووي (١٣٦/٢)، باب: هل يؤاخذ بأعمال الجاهلية.

قوله: «**يَا رَسُولَ اللهِ! أَنُؤَاخَذُ بِمَا عَمِلْنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ؟**» يعني: أنؤاخذ بما كان منا من عمل وقول وسيئات في الجاهلية.

قوله: «**أَمَّا مَنْ أَحْسَنَ مِنْكُمْ فِي الْإِسْلَامِ؛ فَلَا يُؤَاخَذُ بِهَا**» المراد بالإحسان هنا: الدخول في الدين والإسلام ظاهرًا وباطنًا، أي: من يدخل في دين الإسلام بقلبه وبلسانه وجوارحه، فيكون: مسلمًا حقيقًا، فهذا الذي يغفر له بنص القرآن الكريم، والحديث الصحيح، وإجماع المسلمين.

❋ فأما من الكتاب العزيز:

قال ﷻ: ﴿**قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ**﴾ [الأنفال: ٣٨]، وقال ﷻ: ﴿**فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ**﴾ [التوبة: ١١]، وأما من الحديث: فما مَرَّ علينا في الحديث السابق: «**أما علمت يا عمرو أن الإسلام يهدم ما كان قبله**».

إذًا من دخل في دين الله ظاهرًا وباطنًا جميعًا؛ فإنه لا يؤاخذ بما عمل في الجاهلية.

أما من أساء، يعني: لم يدخل في الإسلام بقلبه، بل ظاهرًا فقط، فهو مظهر للشهادتين بغير اعتقاد لمعناهما، فهذا منافق باقٍ على كفره ـ والعياذ بالله ـ بإجماع المسلمين، فيؤاخذ بما عمل في الجاهلية قبل إظهار صورة الإسلام؛ لأنه لم يدخل في العمل الذي يكفر عنه ما سبق منه قبل الإسلام.

** ** **

باب: سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ

(٦٦) عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ».

❖ **الشرح:**

رواه الإمام مسلم في كتاب الإيمان، وبوَّب عليه النووي (٥٣/٢) باب: بيان قول النبي ﷺ سباب المسلم فسوق وقتاله كفر.

قوله: «**سِبَابُ الْمُسْلِمِ**» السباب من السّبب وهو الشتم، والشتم هو التكلم في عرض الإنسان بما يعيبه، وعرض الإنسان موضع الذم والمدح، ويتناول ذلك أيضًا: الآباء والأجداد؛ لأنهم أيضًا موضع المدح والذم من الإنسان.

قوله: «**فُسُوقٌ**» **الفسق في اللغة**: هو الخروج، يقال: فسقت الرطبة، يعني: خرجت، ويقال: فسقت الفأرة، إذا خرجت من جحرها للعيث والفساد.

أما في الشرع: فالفسق والفسوق: الخروج عن الطاعة لله تبارك وتعالى.

وهاهنا يُخبر النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن سباب المسلم فسوق، وهو حرامٌ بإجماع الأمة، فسَبُّ المسلم بغير حق فسُوق، أما سَبُّ مَنْ يستحِقُّ، أو ذَمُّ من يستحق الذم، فلا يدخل في الفسوق، بل هو داخل في



التعزير المباح، يعني: للأب أن يعزِّر ابنه بكلمة توجعة ويسبه بها، إذا رآه مقصِّرًا، وكذلك له أن يعزِّر امرأته إذا رأى منها تقصيرًا في طاعة الله، والإمام له حق التعزير؛ لأن من الناس من يكفيه في التعزير كلمة، لو قلت له: ما كنت أظنك تفعل مثل هذا، ربما كفت في تعزيره.

بل من الناس من تكفيه النظرة، إذا نظرت إليه شزرًا، عرف أنك غضبان عليه انتهى وترك العمل، فعلي ﷺ مثلًا أعطاه النبي ﷺ حلَّةً سِيَرَاء من الحرير فلبسها، فرأى في وجه النبي ﷺ الغضب، فرجع من تَوِّه إلى البيت وقسمها بين نساءه.

وكما قيل: العبد يُقرع بالعصا، والحُرُّ تكفيه الإشارة.

فالتعزير ربما يكون بكلمةٍ، ولا يؤاخذ الإنسان بها؛ لأنها بحق، أما إذا سَبَّ الإنسانُ أخاه المسلم بغير حق، فهذا الذي قال عنه النبي ﷺ أنه «فُسُوقٌ» يعني: خروج عن طاعة الله تبارك وتعالى، وهذا خلاف ما تقتضيه الأخوة الإيمانية.

قال ﷺ: **«وكونوا عباد الله إخوانا»**، وقال ﷻ: **﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾** [الحجرات: ١٠].

قوله: «وَقِتَالُهُ كُفْرٌ» قتاله بغير حق كفر؛ لأن قتال المسلم بحق جائز، بل قد يكون واجبًا، قال تعالى: **﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾** [الحجرات: ٩]، فأمر الله تعالى بقتال الطائفة الباغية، فالقتال هنا ليس كفرًا؛ لأن الله تعالى أمر به، وهو قتال الطائفة التي بغت على أختها، فقتال المسلم بحق لا يدخل في هذا الحديث.

ومثله قتال الخوارج، الذين خرجوا على عليٍّ ﷺ، وقاتلهم بأمر النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**أينما وجدتموهم، فاقتلوهم**»[١] لأنهم يخرجون على الأئمة ويظهرون العصيان، وتكون لهم شوكة، ويخيفون السبيل أحيانًا ويقطعونه، كما هو معلوم ومعروف عنهم قديمًا وحديثًا.

و«**الْكُفْرُ**» هنا، هل هو الكفر المخرج من الملة؟ الذي عليه أهل الحق أهل السنة: أن الكفر هنا، ليس هو الكفر المخرج من الملة، ولا يكون كفرًا يخرج صاحبه به من الملة، إلا إذا استحلَّه: فإذا رأى أن قتال المسلم حلال، فعند ذلك يكفر كفرًا أكبر.

إذًا فما معنى: «**وَقِتَالُهُ كُفْرٌ**»؟ مِنْ أقوى الأقوال التي قِيلت في معنى هذه العبارة «**قِتَالُهُ كُفْرٌ**»، أي: أنه كفعل الكفار، كما مَرَّ معنا في الحديث «**لا ترجعوا بعدي كفارًا، يضرب بعضكم رقاب بعض**»، فقتاله كفر: يعني أنه كأفعال الكفار؛ لأن الكفار يقاتل بعضهم بعضًا، ويقاتلون المسلمين ويستحلون دمائهم.

وأيضًا من الأقوال القوية هنا: أنه فعل يَؤُول بصاحبه إلى الكفر.

وقيل أيضًا: كفر للنعمة؛ لأن الأخوة الإيمانية نعمة عظيمة بين المسلمين، فالذي يُبَدِّل ذلك بالكفر، يكون قد كفر هذه النعمة، والإحسان الذي ينبغي أن يكون عليه الإخوان.

** ** **

(١) الحديث في الصحيحين.



باب: إذا أحسن أحدكم إسلامه فكل حسنةٍ يعملها تكتب بعَشْرِ أَمْثَالِهَا

(٦٧) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ: رَسُولُ اللهِ ﷺ: «قَالَ اللهُ ﷻ: إِذَا تَحَدَّثَ عَبْدِي بِأَنْ يَعْمَلَ حَسَنَةً؛ فَأَنَا أَكْتُبُهَا لَهُ حَسَنَةً مَا لَمْ يَعْمَلْهَا، فَإِذَا عَمِلَهَا، فَأَنَا أَكْتُبُهَا بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، وَإِذَا تَحَدَّثَ بِأَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً؛ فَأَنَا أَغْفِرُهَا لَهُ مَا لَمْ يَعْمَلْهَا، فَإِذَا عَمِلَهَا فَأَنَا أَكْتُبُهَا لَهُ بِمِثْلِهَا». وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «قَالَتْ الْمَلَائِكَةُ: رَبِّ ذَاكَ عَبْدُكَ يُرِيدُ أَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً - وَهُوَ أَبْصَرُ بِهِ - فَقَالَ: ارْقُبُوهُ، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ بِمِثْلِهَا، وَإِنْ تَرَكَهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً، إِنَّمَا تَرَكَهَا مِنْ جَرَّايَ»، وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِذَا أَحْسَنَ أَحَدُكُمْ إِسْلَامَهُ؛ فَكُلُّ حَسَنَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ، وَكُلُّ سَيِّئَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ بِمِثْلِهَا، حَتَّى يَلْقَى اللهَ».

(٦٨) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ يَتَكَلَّمُوا، أَوْ يَعْمَلُوا بِهِ».

❖ **الشرح:**

الحديثان أخرجهما مسلم في الإيمان، وبوَّب عليهما النووي (١٤٤/٢): باب بيان تجاوز الله تعالى عن حديث النفس والخواطر بالقلب إذا لم تستقر، وبيان أنه ﷻ لم يكلف إلا ما يطاق، وبيان حكم الهَمِّ بالحسنة وبالسيئة.

حديث أبي هريرة الأول، حديثٌ شريف عظيم، بيَّن فيه الله تبارك وتعالى مقدار تفضله على خلقه، ورحمته وبره بهم، وهو حديث قدسي.

والحديث يدل على أنَّ الله تعالى يكتب الحسنات والسيئات على عزم القلب وهمه، وإصراره على العمل، فإذا حدث العبد نفسه بأن يعمل حسنة وعزم على ذلك، ووطَّن نفسه عليها، فإنه تُكتب له حسنة؛ فإن عملها كتبت له حسنة كاملةً إلى عشر أمثالها. وإذا تَحدَّث العبد بأن يعمل سيئة، يعني: حَدَّث نفسه وَهَمَّ بها، فإنها تكتب عليه سيئة، وإذا هَمَّ بها ولم يعملها، وكان المانع من ذلك هو خوف الله ﷻ، فإنها تكتب له حسنة، كما جاء في الرواية التي بعدها: «**فاكتبوها له حسنة، إنما تركها من جرائي**».

هذا الحديث يدل على أن الإنسان يؤاخذ بعزم القلب وإصراره، ولو لم يعمل، وهذا الراجح من قولي العلماء في هذه المسألة.

فإن من العلماء من قال: إنه لا يؤاخذ ولو عَزَمَ بقلبه على فِعْل المعصية أو السيئة، ما لم يعمل.

لكن الصحيح أن النصوص تدل على مؤاخذة الإنسان إذا عزم على فعل الشيء، وأَصَرَّ عليه بقلبه، كقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [النور: ١٩]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ﴾، والحب عمل قلبي، ومنه أيضا قول الله ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ ۝٩﴾ [محمد]، فكرهوا شرع الله ﷻ، فأحبط أعمالهم، والكراهية عمل قلبي.

ومثله قوله ﷻ: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥]، وهذا يدل على أن الإنسان يُؤاخذ بما في نفسه وصدره، وفي

قوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ﴾ [الحجرات: ١٢].

أن الظن بالمسلم الدين المستقيم شرًّا، يأثم عليه المسلم، ومثل ذلك الحسد، حسد الإنسان لأخيه المؤمن في قلبه واحتقاره له في قلبه، كل ذلك من أعمال القلوب ويؤاخذ عليها الإنسان إذا استقرت في القلب، وأما إذا كانت مجرَّد خواطر ألَمَّت بالقلب، ومَرَّت دون استقرار، فإن هذه الخواطر لا يؤاخذ بها الإنسان.

وهذا هو الجمع بين هذا الحديث، وبين الحديث الذي بعده وهو: قوله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ يَتَكَلَّمُوا، أَوْ يَعْمَلُوا بِهِ**» فقوله: «**حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا**» يعني: مجرَّد خواطر وأفكار، تمُرُّ في النفس من غير أن تستقر فيها، فإن هذه الخواطر والوساوس إذا دفعها الإنسان، فإنها لا تؤثر فيه، ولا تكتب عليه، وقد مَرَّ معنا حديث أن الصحابة لما اشتكوا إلى النبي ﷺ من بعض الوساوس التي يجدونها في صدورهم، قال لهم: «**ذاك محض الإيمان**»، يعني: هذا هو الإيمان الخالص، إذا كان الإنسان يَفِرُّ بقلبه منها، ويبغضها ويكرها.

قوله: «**فَإِذَا عَمِلَهَا، فَأَنَا أَكْتُبُهَا بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا**».

أي: وإذا عمل العبد حسنة ضاعفها الله تبارك وتعالى بعشر أمثالها، وهذا في كل عمل، كما قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١٦٠﴾ [الأنعام]، لكن هناك أعمال قد جاءت النصوص بمضاعفتها أكثر من عشر مرات، كقول الله ﷻ: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي

كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ﴾ [البقرة: ٢٦١]، يعني: ضوعفت له بسبعمائة ضعف، فالنفقة في سبيل الله ﷻ تُضاعَف لصاحبها بسبعمائة ضعف، وجاء في «صحيح مسلم»: أن رجلًا جاء بناقةٍ مَخْطُومةٍ إلى النبي -عليه الصلاة والسلام-، وقال: هذه في سبيل الله يا رسول الله، فقال له ﷺ: **«لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة مخطومة»** فالحسنة في الإنفاق في سبيل الله، تُضاعف إلى سبعمائة ضعف.

وهناك أعمال لا يَعلم قَدْر مضاعفتها إلا الله تبارك وتعالى كالصيام، فقد جاء في الحديث قوله تعالى: **«الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعافٍ كثيرةٍ، إلا الصوم فإنه لي، وأنا أجزي به»**، وقال العلماء: ذلك لأن الصوم صبرٌ، صبرٌ على الطاعة، وصبرٌ عن المعصية، وصبرٌ على القدر المؤلم الذي هو الجوع والعطش، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ١٠﴾ [الزمر].

ومن ذلك ما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد: من حديث ابن عمر: **«من دخل السوق فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحي ويميت وهو حي لا يموت، بيده الخير وهو على كل شي قدير، كُتب الله له به ألف ألف حسنة، ومُحِيَ عنه به ألف ألف سيئة، ورفع له به ألف ألف درجة، وبنى له بيتًا في الجنة»** لأن هذا الذكر وقع في وقت غفلة، فالناس يبيعون ويشترون ويصخبون وترتفع أصواتهم بالبيع والصفق، ولهذا فمن ذكر الله في موضع الغفلة كان أجره عند الله ﷻ عظيمًا.

وتكون أيضًا مضاعفة الحسنات بحسب إخلاص العبد وحسن نيته، وصدقه، وبحسب فضل العمل أيضًا، وبحسب وقت إيقاع هذا العمل،

وهذا ما أشار إليه ﷺ في الرواية الثالثة: «**إذا أحسن أحدكم إسلامه، فكل حسنة يعملها تُكتب بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف**».

هل هذا واقعٌ لكل شخص؟ أم للذي أحسن إسلامه؟ الجواب: للذي أحسن إسلامه، كما في الحديث الذي مَرَّ معنا من رواية عبد الله بن مسعود: «**أمَّا من أحسن منكم في الإسلام**» معنى إحسان الإسلام: أن يدخل فيه ظاهرًا وباطنًا، يعني: يكون مخلصًا صادقًا في إسلامه، هذا هو معنى إحسان الإسلام.

وتضاعفت الحسنات أيضًا كما قلنا، بحسب فضل العمل وزمن إيقاعة، فالصلاة في أول الوقت، أجرها أعظم من الصلاة التي تكون في آخر الوقت، فالرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ سُئِل: أي العمل أفضل؟ قال: «**الصلاة على وقتها**»[(١)]، وفي رواية: «**الصلاة في أول وقتها**»[(٢)]، يعني: المبادرة بها ما لم تكن صلاة العشاء، فإن وقتها الأخير أفضل من وقتها الأول بالنص.

❋ أما السيئات:

فالسيئة تُكتب حسنة، إذا تَرَكها العبد خوفًا من الله؛ لأن الحديث «**فَقَالَ: ارْقُبُوهُ، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ بِمِثْلِهَا**» وهذا من فضل الله ﷻ أن السيئات لا تتضاعف، إلا في بعض الأحيان، وسيأتي ذكر ذلك.

قوله: «**وَإِنْ تَرَكَهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً، إِنَّمَا تَرَكَهَا مِنْ جَرَّايَ**» يعني: من أجلي وخوفًا مني ورِعاية لمقامي، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ

---

(١) رواه البخاري (٥٩٧٠) من حديث ابن مسعود ﷺ.

(٢) حديث صحيح، رواه أبو داود (٤٢٦) والترمذي (١٧٠) عن أم فروة ﷺ.



رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ [النازعات]، أما إذا تركها خوفًا من الناس، كمن أراد أن يسرق فرأى شرطيًّا وخاف، فإنه لا تُكتب له حسنة في هذه الحالة؛ لأنه قد عزم عليها بقلبه وأَصَرَّ عليها، ووطَّن نفسه على السرقة، وتركها خوفًا من العباد، ففي هذه الحالة يأثم وتُكتب عليه سيئة، وذلك لأنه قَدَّم خوف العباد على خوف رب العباد ﷻ.

وكذلك إذا هَمَّ بالمعصية وحال بينه وبينها القدر، كشخص جاء ليسرق فوجد الباب مغلقًا، فهذا حال بينه وبين المعصية القدر، فذلك تُكتب عليه سيئة، لكن ليست كسيِّئة من باشر السرقة بالفعل حِسًّا، وهذا اختيار الحافظ ابن حجر(١)، وحكى عليه الاتفاق في توجيهه لحديث الرسول ﷺ: «**إذا التقى المسلمان، بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار**»، قالوا: يا رسول الله هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: «**إنه كان حريصًا على قتل صاحبه**»، وهذا دليل أيضًا على أن الإنسان إذا عزم على السيئة والمعصية؛ تُكتب عليه ولو لم يفعلها، لكن كما ذكرنا لا يُعاقب عقاب من باشر القتل حِسًّا، بل عقابه أقلّ وإن كان حريصًا على قتل صاحبه، وهو دليل على عزمه على الوقوع في هذه المعصية.

والسيئات الأصل فيها أنها لا تَتَضاعف، وهذا من فضل الله تبارك وتعالى، ومن فضل الله تبارك وتعالى أن السيئات لا تُكتب على ثلاثة، كما جاء في الحديث «**رفع القلم عن ثلاثة: عن الصبي حتى يحتلم، وعن النائم حتى يستيقظ، وعن المجنون حتى يفيق**»(٢).

---

(١) الفتح (١١/٣٢٨).

(٢) رواه أحمد وغيره (١/١٤٠، ١٥٥، ١٥٨).



فهؤلاء لا يُكتب عليهم شيء من السيئات، لكن يكتب لهم حسنات، فالصبي إذا حجَّ مع أبيه وأمه تكتب له الحسنة، كما في حديث المرأة التي رفعت صبيًّا وقالت: ألهذا حج؟ قال ﷺ: «**نعم، ولك أجر**»(١)، وهذا من كرم الله ﷻ وفضله، أنه يكتب للصبيان الحسنات، ولا يكتب عليهم السيئات.

والسيئات لا تتضاعف إلا بأسباب:

منها: شرف الزمان، كالأشهر الحرم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرًا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٌۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡ﴾ [التوبة: ٣٦].

فظلم النفس بالمعاصي والقتال غير المشروع حرام في سائر السنة، لكنه في الأشهر الحرم وهي: «محرم، رجب، ذو القعدة، ذو الحجة» أعظم إثمًا من غيرها، وكذا سائر المعاصي.

ومنها أيضا: زمن الحج، ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧]، مع أن الرفث والفسوق والجدال في غير الحج أيضًا حرام، كذلك في شهر رمضان، المعصية فيه أشد من غيره، فمعصية الإنسان وهو صائم أشد من معصيته وهو مفطر.

ومنها: شرف المكان، كالبيت الحرام، والأرض الحرام، فالمعصية في الحرم ليست كالمعصية في الحِلِّ، قال الله تعالى في ذلك: ﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ٢٥﴾ [الحج]، فمن أراد فيه المعصية عذبه الله ﷻ عذابًا مؤلمًا، فكيف بمن باشرها؟!

(١) رواه البخاري وغيره.



ومنها: مكانة الإنسان، فالإنسان إذا كانت له مكانة مرموقة عند الناس، صاحب فضلٍ أو صاحب علمٍ، أو صاحب مكانةٍ كريمةٍ، كانت المعصية منه أشدَّ من غيره، كقول الله تعالى في نساء النبي: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا ﴿٣١﴾﴾ [الأحزاب]، فالعذاب والوزر يضاعف لهن لو جرى منهن، والأجر يُضاعف لهن؛ ليزداد حذرهن، وشكرهن الله تعالى.

ولهذا السيئة من العالم أقبح من من الجاهل، فالجاهل العامي الذي لا يعرف، لو رآه الناس يعصي الله عز وجل في السوق جهارًا نهارًا، لقالوا: هذا جاهل، لكن لو رآوا الناس الإمام الذي يُصلي بهم يعصي الله أمامهم في السوق، أو في الجهر، لكان ذلك من أعظم الأمور عندهم، فالسيئة منه أعظم من السيئة من غيره كما لا يخفى.

وفي الحديث أيضًا من الفوائد: سُلوك النبي ﷺ أسلوب الترغيب بالأعمال الصالحة، والترهيب من الأعمال السيئة، فالرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ رغب الصحابة بما ذكر لهم من الخير الذي يكتب لهم إذا هم أحدهم بالحسنة، وأنها تضاعف إلى سبعمائة ضعف، ثم حذرهم في الوقت نفسه من السيئات، وهكذا أكثر نصوص القرآن والسنة، إذا ذكر فيها الترغيب قرن معها الترهيب، إذا ذكرت منازل أهل الجنة ذكرت منازل أهل النار: ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ [الحجر]، كي يتذكر الإنسان الترغيب والترهيب، فلا يفرط في حسن الظن إلى أن يصل إلى الغرور، ولا يقنط من رحمة الله تبارك وتعالى، فيقع في اليأس والحسرة وترك العمل.

واستدل بالحديث على أن الحفظة لا تكتب المباح؛ لأن الله تبارك وتعالى قال: «**إِذَا تَحَدَّثَ عَبْدِي بِأَنْ يَعْمَلَ حَسَنَةً، فَأَنَا أَكْتُبُهَا..**».

وفيه فائدة لغوية وشرعية أيضًا: أنه يجوز أن ينسب الشخص لنفسه فعل شيء لم يباشره بنفسه، إذا كان هو الآمر به، فالله تبارك وتعالى قال: «**فَأَنَا أَكْتُبُهَا لَهُ حَسَنَةً**» والكاتب هو الملك، كما قال تعالى ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾ [الانفطار]، وقال ﷻ: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ۝٢١﴾ [يونس].

فالذي يكتب هم الحفظة، لكن الله ﷻ نسبه إلى نفسه لكونه هو الآمر بذلك، كما لو قال القائل: ضرب الأمير اللصَّ، والذي يضرب هو الجلاد، بنى الأمير قصرًا، والذي يبني هو البناء، لكن نسبه إلى نفسه لكونه هو الآمر بهذا.

وقال بعض العلماء: فيه دليل على أن الله تعالى يطلع الملك على ما في قلب العبد، إذ يعطي الملك قدرة على معرفة هم العبد في صدره، فإذا تحدَّث في نفسه أن يعمل حسنة علمها الملك وكتبها له حسنة كاملة، وهذا يكون بالطريقة التي شاء الله تبارك وتعالى أن يعلم بها الملك، والله أعلم.

** ** **

بابـ: المسلم من سلم المسلمون منه

(٦٩) عن عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ﷺ: إِنَّ رَجُلًا سَأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ: أَيُّ الْمُسْلِمِينَ خَيْرٌ؟ قَالَ: «مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ».

❖ **الشرح:**

هذا الحديث الأول، وأخرجه مسلم في الإيمان، وبوَّب عليه النووي (٢/٩) باب: بيان تفاضل الإسلام، وأي أموره أفضل.

«عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ» من صغار الصحابة، وممن أكثر الرواية عن النبي ﷺ، وهو أحدُ العبادلة الأربعة من الصحابة، وهم: عبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو بن العاص رابعهم. مات سنة تسع وستين، قاله البخاري، وقيل غير ذلك.

قوله: «أَيُّ الْمُسْلِمِينَ خَيْرٌ؟» يعني: أيُّ المسلمين خيرًا، أيُّ المسلمين أفضل، أيُّ المسلمين أكمل.

قوله: «مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ» وهذا الحديث من جوامع كَلِمه ﷺ وفصيحه، فإنها كلمات جامعات لخير كثير، بلفظ قليل.

فقوله: «مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ» أي: سلم المسلمون من شرِّه، فلم يؤذِ مسلمًا، لا بقول ولا بفعل، وخَصَّ اللسان واليد بالذكر؛ لأن معظم الاكتساب بهما، كما قال ﷻ: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النور]، وقال ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ [الحج: ١٠]،

فأضاف الاكتساب إلى اليد ؛ لأن معظم الأفعال بها ، وكقوله: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ [المسد] ، فيدخل في ذلك بلا شك: جميع الجوارح فكل ما يمكن أن يؤذي به الإنسان من جوارحه يدخل في هذا الحديث.

فالرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ يُبيِّن أن المسلم أي الكامل «مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ» ، فالمسلم هاهنا يقصد به: المستكمل لأوصاف الإسلام والإيمان أيضًا ؛ لأن الإسلام والإيمان اسمانِ إذا افترقا اجتمعا ، وإذا اجتمعا افترقا ، فإذا قيل: المسلم ، فالمراد به أيضًا المؤمن المعتقد ، وإذا قيل: المؤمن ، فيراد به أيضًا المسلم بجوارحه ، فالذي يقول كلمة الإسلام يدخل في الإسلام ظاهرًا ، ويعصم دمه وماله ، وإذا اعتقد بقلبه صار مؤمنًا.

وقالوا أيضًا: المسلم هو المستسلم لأقدار الله ﷻ ، ولأمره ﷻ وحكمه ، كما قال ﷻ عن إبراهيم ﵇: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٣١﴾ [البقرة] ، فلا يعترض على أحكام الله ، ولا على أمره ؛ لأنه مستسلم خاضع ، منقاد مطيع.

أما من كان معترضًا على شرع الله ، أو معترضًا على حكم الله أو قدره وقضائه ؛ فإن هذا ينافي الاستسلام الله ﷻ.

فالمسلم المراد به هنا: الكامل ، كما يقال: العلم هو ما نفع ، ويقال كذلك: العالم هو فلان ؛ لأنه استكمل العلم ، والناس هم العرب ، والمال هو الأبل ، فالذي يريده العرب بهذه الكلمات هو التفضيل لا الحصر.

ويقول الحسن البصري ؒ: «الأبرار هم الذين لا يؤذون الذَّرَّ والنمل». ولعل هذا مأخوذٌ من الحديث الشريف: «**أن نبيًّا قرصته نملة ،**

فأمر بقرية النمل فأُحرقت، فأوحى الله إليه: في أن نملة قرصتك، أهلكت أمة من الأمم تسبِّح»[١]، فالبَرُّ يترك حتى أذيَّة النمل والذَّرِّ، ومن عظم حق المسلمين، ضبط جوارحه عن أذيتهم، ومن كان معظمًا لحق المسلمين فهو من باب أولى أن يعظم حق الله ﷻ؛ لأن حفظ حق الله ﷻ أسهل، مع أنه أعظم إلا أنه أسهل على الإنسان.

وقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ» هل يدخل فيه النساء؟ نعم؛ لأن جمع المذكر السالم هنا للتغليب، فيدخل فيه النساء، وهذا كثير في نصوص الكتاب والسنة، كما في قول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فيدخل فيه المؤمنات؛ لأن جمع المذكر السالم يدخل فيه للنساء، أما جمع المؤنث السالم؛ فلا يدخل فيه الذكور، كقوله (المسلمات) أو (المؤمنات).

وقوله: «مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ» أما الكفار؛ فلا يسلمون من يد المسلم، ولا من لسانه، فالكافر لا يسلم من لسان المؤمن، ولا من سنانه؛ لأنه يجاهد بيده ولسانه وماله، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ [التوبة]، وقال ﷻ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ يعني: يجاهدون الكفار بأيديهم وبألسنتهم.

وقال النبي ﷺ لحسان بن ثابت ـ شاعره ـ ﵁: **«هاجهم»** وفي رواية: **«اهجهم، وروح القدس معك»**[٢]، والهجاء هو الذم بالأبيات الشعرية، وبيان عيوب المشركين، وشركهم، وقبح أفعالهم.

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة ﵁ بنحوه.

(٢) رواه البخاري في الأدب (١٠/٥٤٦)، ومسلم (٢٤٨٦).

وقال له: «**وروح القدس معك**» يعني: وجبريل يؤيدك على عدوك، وقال أيضًا ﷺ: «**لكأنما ما تهجوهم به رشق النبل**»، يعني في وقعة عليهم، هذه القصائد الشعرية هي في شدة الأذية عليهم كأذية النبل على الإنسان، كأنك ترميهم بالسهام القاتلة، والشعر كانت له مكانة عظيمة عند العرب أكثر من غيرهم من الأمم.

لكن هذا لا يمنع من إلانة القول للكافر عند الدعوة؛ لأن هذا مقام غير المقام الأول، فمقام الجهاد يقتضي الشدة والقوة، فالكافر الحربي المعلن بالحرب للمسلمين ـ الذي يظهر العداوة ـ ويظهر القتال والمحاربة، له مقام غير مقام الكافر في مقام الدعوة، فعندما تدعو الكافر إلى الله ﷻ، لا يصلح أن تكون معه شديدًا عنيفًا، بل قال ﷻ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقال ﷻ: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، فهؤلاء لهم شأن آخر، وقال ﷻ لنبيه موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأخيه هارون: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه].

ففي هذا الحديث: الحث على حفظ اللسان واليد، والكف عما يؤذي المسلمين بقول أو فعل، لما في ذلك من تأليف القلوب، واجتماع الكلمة. وكثير من الناس يتساهل في هذا الحق، فلا يضبط لسانه عن إخوانه، والرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ يقول: «**إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يلقي لها بالًا، يهوي بها في قعر جهنم**»، كلمة يقولها الإنسان لا يلقي لها بالًا، كأن يتكلم في عرض أخيه المؤمن، أو ربما أحيانًا في عِرض العالم، الذي



هو من سادات المؤمنين ولا يُلقي لذلك بالًا، والأمر ليس بالهين ولا بالسهل، فالذين تكلموا في عرض أم المؤمنين عائشة ﵂؛ قال الله تعالى عنهم: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ١٥﴾ [النور]، فهذا الأمر تحسبونه هينًا لكنه عند الله ﷻ عظيم، وكثير من الناس تجده عفيفًا، لو تذبحه لا يمُدُّ يده إلى الحرام، ولكن ما أسهل الغيبة على لسانه، وما أسهل الكلام في الأعراض على لسانه، وهو أمر ينبغي أن يعظم كما عظمه الله ﷿، وجاء في الحديث: **«إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، أما أحدهما؛ فكان لا يستتر من بوله، وأما الآخر؛ فكان يمشي بالنميمة»** فقوله: **«وما يعذبان في كبير»** أي: هذا في نظر الناس كما قال شراح الحديث، فبعض الناس يرى أن النميمة ليست بالأمر الكبير، أو الغيبة ليست بالأمر الكبير، لكن الرسول ﷺ يُخبر أنها أمر كبير عند الله تعالى.

** ** **

باب: من عمل برًّا في الجاهلية ثم أسلم

(٧٠) عن عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ أَنَّ حَكِيمَ بْنَ حِزَامٍ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ قَالَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: أَرَأَيْتَ أُمُورًا كُنْتُ أَتَحَنَّثُ بِهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ مِنْ صَدَقَةٍ أَوْ عَتَاقَةٍ أَوْ صِلَةِ رَحِمٍ، أَفِيهَا أَجْرٌ؟ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَسْلَمْتَ عَلَى مَا أَسْلَفْتَ مِنْ خَيْرٍ».

❖ **الشرح:**

الحديث أخرجه مسلم في الإيمان، وبوَّب عليه النووي (٢/١٤٠) باب: بيان حكم عمل الكافر إذا أسلم بعد

«حَكِيمَ بْنَ حِزَامٍ» أسلم يوم الفتح، ووُلد في الكعبة، وهي فضيلة لم تتفق لغيره، وعاش ستين سنة في الجاهلية، وستين سنة في الإسلام، ومات سنة أربع وخمسين.

قوله: «أَتَحَنَّثُ» التحنُّث هو: التعبد، كما جاء تفسيره في الحديث عند الإمام مسلم، وفسَّره في رواية أخرى: بالتبرُّر، وهو فعل البر، وهو الطاعة، وأصل التحنث أن يفعل فعلًا يخرج به من الإثم والحرج، وجاء في رواية هشام بن عروة عن أبيه عن حكيم بن حزام بيان الأعمال التي كان يتقرب بها إلى الله ﷻ: أنه أعتق في الجاهلية مِائة رقبة، وحمل على مائة بعير.

فسأل النبي ﷺ، هل له فيها أجر، أي: على ما عمل في حال كفره؟ فقال له رسول الله ﷺ: «أَسْلَمْتَ عَلَى مَا أَسْلَفْتَ مِنْ خَيْرٍ».



فهذا الحديث ظاهره أن الكافر إذا أسلم، ومات على الإسلام، أنه يُثاب على ما فعله من الخير في حال الكفر؛ لأن هذا الحديث ينطق بذلك.

وهو الذي اختاره ابن بطال من فقهاء المالكية، والأبي في شرحه لمسلم.

ويدل عليه حديث آخر رواه الإمام مالك والنسائي، من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، أنه قال: «**إذا أسلم العبد فحسن إسلامه؛ كتب الله له كل حسنة كان أسلفها، ومُحيت عنه كل سيئة كان أزلفها، ثم كان بعد ذلك القصاص، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعفٍ، والسيئة بمثلها إلَّا أن يتجاوز الله عنها**».

وهذا نَصٌّ ثانٍ قاطع في هذه المسألة، وهو أن الكافر إذا أسلم فحَسُن إسلامه ومات على إسلامه؛ فإن الله تبارك وتعالى يكتب له ما كان أسلفه من خير قبل أن يسلم.

وهناك مَنْ أوَّل هذا الحديث، وقال: قواعد الشريعة تَرُدُّ هذا الحديث؛ لأن من شرط الثواب: نية التقرب إلى الله تبارك وتعالى، والإيمان بالله سبحانه، وهذا لم توجد منه نية التقرب، ولم يكن مؤمنًا، فيكون معنى هذا الحديث عندهم: أسلمت وقد تعودت فعل الخير، وسيدوم لك ذلك في الإسلام لأنك تعودته.

وبعضهم أوَّله فقال: أو يقال أسلمت وقد اكتسبت ثناء في الجاهلية، وهو باق عليك في الإسلام!

لكن هذه تأويلات بعيدة عن نص الحديث وعن ظاهر الحديث.



وقال ابن بطال رَحِمَهُ اللَّهُ رادًّا هذا الإشكال: «لله أن يتفضل على عباده بما يشاء، لا اعتراض لأحد عليه» اهـ.

لكن الذي تقرر ولا خلاف فيه: أن الكافر إذا تبرَّر أو عمل صالحًا ثم مات على كفره، أنه يجزي بعمله في الدنيا، ولا يكون له في الآخرة حسنة واحدة، وهذا مَرَّ معنا في الأبواب السابقة، وذكرنا فيه الآية الكريمة: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود].

أما هذا الحديث؛ فهو نص على أن من أسلم ومات على الإسلام، أنه يثاب على مافعله من الخير في حال كفره.

قد يقول قائل: إذًا ما معنى قول الفقهاء: لا يصح من الكافر عبادة؟ فنقول: هذا في أحكام الدنيا، إذ لا يُعْتَدُّ بها في أحكام الدنيا، وليس فيه تعرض لثواب الآخرة، فهذا الكافر الذي حَجَّ ما حج، وتصدق ما تصدق أثناء كفره، نقول له: أَعِدْ ما كان واجبًا عليك في الإسلام، فلا تكفيه الحجة التي حجها وهو كافر، بل إذا أسلم، لزمه أن يحج حجة الإسلام؛ لأن هذا في أحكام الدنيا.

وقد يعتد ببعض أفعال الكفار، وذكر الفقهاء أمثلة منها: من كان عليه كفارة ظهار، وكَفَّر وهو كافر، قالوا: هذا لا يلزمه أن يعيد هذه الكفارة.

وأما معاملاتهم فالأصل فيها الصحة، كبيعهم، وشرائهم، ونكاحهم.

فهذا الحديث إذًا في الأعمال والطاعات التي يُؤجر عليها العبد في الآخرة.



وذكرنا سابقًا أن الأعمال الصالحة إذا عَمِلها الكافر ومات على الكفر، هل يمكن أن ينتفع منها بشيء في الآخرة؟ نعم، ذكرنا حديث أبي طالب الذي رواه سعيد بن المسيب عن أبيه عن جده ﷺ أن النبي ﷺ قال فيه: «**أنه في ضَحْضَاحٍ من النار، ولولا أنا؛ لكان في الدرك الأسفل**».

وذكر العلماء أنه خفف عنه بدفاعه عن النبي ﷺ، فالعمل الصالح للكافر يمكن أن يكون سببًا في تخفيف العذاب في عنه الآخرة.

ثم إن قول الله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النحل]، دليل على أن الكافر إذا حارب الدعوة، وصَدَّ عن سبيل الله؛ زاد عذابه، فيمكن في المقابل أن الكافر إذا كان نافعًا للمسلمين أن ينفعه الله بشيء من عمله في الآخرة؛ لأن الله تبارك وتعالى حكم عدل.

فالكفر دركات، والكفار ليسوا في حال واحدة، ولا في درجة واحدة في النار، بل الكافر المحارب أشد عذابًا من الكافر الذمي المسالم؛ لأن الله قال: ﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾.

** ** **

باب: التحذير من الابتلاء

(٧١) عَنْ حُذَيْفَةَ ﷺ قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «أَحْصُوا لِي كَمْ يَلْفِظُ الْإِسْلَامَ، قَالَ: فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ! أَتَخَافُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ مَا بَيْنَ السِّتِّ مِائَةٍ إِلَى السَّبْعِ مِائَةٍ؟ قَالَ: «إِنَّكُمْ لَا تَدْرُونَ، لَعَلَّكُمْ أَنْ تُبْتَلَوْا»، قَالَ: فَابْتُلِينَا حَتَّى جَعَلَ الرَّجُلُ مِنَّا لَا يُصَلِّي إِلَّا سِرًّا.

❖ **الشرح:**

هذا الحديث رواه مسلم في كتاب الإيمان، وبوَّب عليه النووي (١٧٩/٢) باب جواز الاستسرار بالإيمان للخائف.

«**حُذَيْفَةَ**» هو ابن اليمان العبسي ﷺ، صحابي جليل، وأبوه صحابي أيضًا، قُتِلَ يوم أحد خطأً بأيدي بعض الصحابة، وكان حذيفة كاتب سِرِّ النبي ﷺ، ويعلم من أسماء المنافقين ما لا يعلمه غيره من الصحابة، وكان يقول: «**كان الناس يسألون الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني**».

مات حذيفة في أول خلافة علي ﷺ سنة ٢٦هـ.

قوله: «**كَمْ يَلْفِظُ الْإِسْلَامَ**» يعني: كم يتلفظ بالإسلام من النفوس أي: كم عدد المؤمنين، فالرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ أراد أن يعرف حجم أهل الإسلام، وكم عددهم، ولعل هذا ما يعرف الآن بعلم الإحصاء للنفوس، والذي تبنته الدولة الإسلامية بعد ذلك، والدول غيرها.



قوله: «**فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ! أَتَخَافُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ مَا بَيْنَ السِّتِّ مِائَةٍ إِلَى السَّبْعِ مِائَةٍ؟**» أي أن الصحابة ﷺ، أحصوا أعدادهم، فوجدوا أنهم قريب من الست مائة إلى السبع مائة، وفي بعض روايات البخاري: «**فكتبنا له ألفًا وخمس مائة**»، وفي أخرى: «**فوجدتهم خمس مائة**»، ووجه الجمع بين هذه الروايات أن الألف والخمس مائة معهم الأطفال والنساء، وأن ما ذكر في هذا الحديث وهم «مَا بَيْنَ السِّتِّ مِائَةٍ إِلَى السَّبْعِ مِائَةٍ» من الرجال فقط. وقيل: المراد به رجال المدينة خاصة، ورجحه النووي(١).

قوله: «**إِنَّكُمْ لَا تَدْرُونَ، لَعَلَّكُمْ أَنْ تُبْتَلَوْا**»، قَالَ: **فَابْتُلِينَا حَتَّى جَعَلَ الرَّجُلُ مِنَّا لَا يُصَلِّي إِلَّا سِرًّا**» وهذا لم يقع في زمنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ؛ لأن هذا الحديث قاله في المدينة، ومنذ بلغ الإسلام هذا العدد، أو ما دونه أيضا، ولما هاجروا إلى المدينة، لم يبتلوا حتى إن الواحد منهم ليصلي سرًّا، لكن يحتمل أن يكون ذلك وقع في زمن فتنة عثمان، أو في بعض الفتن الواقعة بعد موته ـ عليه الصلاة والسلام ـ، فكان بعض الصحابة يخفي نفسه، فلا يصلي إلا سِرًّا مخافة الظهور، لئلا يُدْعَى للمشاركة في الحروب، أو في القتال الذي حصل بين بعض الصحابة، أو بينهم وبين الذين خرجوا على عثمان ﷺ، فلعله هذا.

ومما يُؤخذ أيضًا من هذا الحديث: أن الإنسان ينبغي له أن يحذر من الابتلاء، وأن الحذر لا يُنافي التوكل على الله تبارك وتعالى؛ لأن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ عمل هذا الإحصاء، وعد هذا العدد من أجل معرفة حجم المسلمين؛ لئلا يرتكب الإنسان عملًا يفوق حجمه واستطاعته وقُدرته.

(١) شرح مسلم (٢/١٧٩).



وفي حديث حسن رواه الترمذي: أن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال: «**لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه**»، قالوا: وكيف يذل نفسه؟ قال: «**يتعرض من البلاء، ما لا يطيق**»(١)، وقال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ [النساء: ٧١]، إذًا أخذ الحذر والحيطة لا ينافي الإيمان ولا ينافي التوكل على الله تبارك وتعالى، وكان الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ يلبس الدرع في الحرب، ويستعد لقتال أهل الشرك، وغيره.

وفي الحديث أيضًا: أن المؤمن لابد أن يُبْتَلى، كما قال ﷻ ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ﴿٣١﴾﴾ [محمد]، وقال ﷻ: ﴿وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا ﴿٢٠﴾﴾ [الفرقان]، وقال ﷻ: ﴿وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖ﴾ [محمد: ٤]، فالمؤمن مختبر بأنواع من الأعداء، مختبر بالكفار، بالمنافقين، بهوى النفس والشيطان، هؤلاء أعداء محيطون به من كل جانب، وقال بعض السلف: المؤمن بين كافر يجاهده، ومنافق يبغضه، ومؤمن يحسده.

يعني: أن المؤمن لا ينفك من بلاء، إما من كافر يجاهده بيده ولسانه وماله وقلبه، وإما من منافق يجاهده بقلبه ولسانه، وإما من مؤمن قد يحسده ويحصل منه شيء من الحسد، فعند ذلك يجاهد نفسه على ألا يقع في ما يخالف أخلاق الأخوة والإيمان، بل يدفع بالتي هي أحسن كما أمره ربه تعالى.

وجاء في حديث ورقة بن نوفل أنه قال للنبي ﷺ: «ما جاء أحد بمثل ما جئت به إلا عودي أو أوذي». ثم يسأل الإنسان ربه ﷻ العافية،

---

(١) رواه الترمذي (٢٢٥٤) من حديث حذيفة ﷺ، وقال: حسن غريب.



فلا يجوز التعرض للابتلاء قصداً، وإنما الابتلاء من سُنَّة الله تعالى في خلقه وعباده، وقال ﷻ: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنبياء]، فالابتلاء يقع بالخير ويقع بالشر، وجاء عن عمر رضي الله عنه أنه قال: «ابتلينا بالضراء فصبرنا، وابتلينا بالسراء فلم نصبر»، أي: كانت فتنة الكفار وجهادهم، وجهاد المنافقين وأهل الكتاب؛ أخفَّ عليهم من فتنة الرخاء التي حصلت في الدولة الإسلامية بعد ذلك، فكثير من الناس يضعف عند الرخاء، ويقوي عند الشدة والبلاء.

نسأل الله تعالى العفو والعافية في الدنيا والآخرة، وفي الأهل والمال والولد. آمين.

** ** **

باب: بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ وهو يأرز بين المسجدين

(٧٢) عَنْ ابْنِ عُمَرَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ، وَهُوَ يَأْرِزُ بَيْنَ الْمَسْجِدَيْنِ كَمَا تَأْرِزُ الْحَيَّةُ فِي جُحْرِهَا».

❖ **الشرح:**

الحديث أخرجه مسلم في الإيمان، والنووي رحمه الله بوَّب عليه في شرحه، بنحوها بوب عليه المنذري هاهنا[١].

قوله: «**إِنَّ الْإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ غَرِيبًا**» أصل الغربة: البُعد، ومنه سمي الغريب غريبًا: لبعده عن بلده وموطنه، وسمي النفي من الأرض: تغريبًا، فيُسمى من نقل إلى أرض غير أرضه في عرف الفقهاء بالتغريب، كما في قوله ﷺ «**البكر بالبكر، جلد مائة، وتغريب سنة**»[٢]، يعني: ينقل من بلده إلى بلد آخر، عقوبة له.

وهذا الحديث فيه: أن الإسلام قد نشأ وبدأ في أوَّله غريبًا، قليل أفراده، قليل معتنقوه وحاملوه، وسيلحقه النقص حتى يصير في آخره أيضًا غربة وقلة، والله ﷻ قد امتَنَّ على الصحابة بأنهم كانوا قليلًا فكثَّرهم، قال

(١) شرح مسلم (٢/١٧٥).

(٢) رواه مسلم في الحدود (٣/١٣١٦)، وأبو داود (٤٤٥١)، (٤٤١٦) وغيرهما من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه.



سبحانه: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ [الأنفال: ٢٦]، فالصحابة في أول أمرهم كانوا آحادًا وقلة، حتى إن المرء ليعدهم على أصابعه، كما جاء في الحديث: أن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ لما جاءه الصحابي قال له: ومن معك على هذا الأمر؟ قال: «**رجلان وغلام**».

فهكذا كان الأمر أول الإسلام، وسيكون كذلك آخر الزمان.

وحمل الإمام مالك الحديث على أن المعني به هي المدينة، أن الإسلام بدأ بها غريبًا، وسيعود غريبًا، أي: سيصير بها كذلك.

والتفسير الأول أعمّ، فيشمل المدينة، وغيرها من بلاد المسلمين.

وقال محمد بن الحسين الآجري ﵀ في كتابة «الغرباء»: فإن قال قائل: ما معنى قول النبي ﷺ: بدأ الإسلام غريبًا وسيعود كما بدأ؟

قيل له: كان الناس قبل أن يبعث النبي ﷺ أهل أديان مختلفة: يهود ونصارى ومجوس وعبدة أوثان، فلما بُعِث النبي ﷺ كان من أسلم من كل طبقة منهم غريبًا في حَيِّه، غريبًا في قبيلته، مستخفيًا بإسلامه، قد جفاه الأهل والعشيرة، فهو عنهم، ذليل حقير، محتمل للجفاء، صابرٌ على الأذى، حتى أعزَّ الله ﷻ الإسلام وكثَّر أنصاره، وعَلَا أهل الحق وانقمع أهل الباطل، فكان الإسلام ابتداؤه غريبًا بهذا المعنى.

وقوله ﷺ: «وَسَيَعُودُ غَرِيبًا» معناه ـ و الله أعلم ـ أن الأهواء المضلة تكثر، فيضل بها كثير من الناس، ويبقى أهل الحق الذين هم على شريعة الإسلام غرباء في الناس، ألم تسمع إلى قول النبي ﷺ: «**تفترق أمتي على**

ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة» فقيل: من هي الناجية؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي»(١).

وورد في بعض الأحاديث تفسير الغرباء، فروى أبو إسحاق السبيعي عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قيل له: يا رسول الله ومن الغرباء؟ قال: **«هم النزاع من القبائل»**(٢).

النزاع: جمع نازع أو نَزِيع، والمراد به: الذي نزع عن أهله، فتغرب عن أهله وبعُد عنهم، ولجأ إلى عُصْبَة الإيمان، ويعني به: المهاجرين؛ لأن المهاجرين رضي الله عنهم ما كانوا من قبيلة واحدة، وإنما كانوا من قبائل شتى، اجتمعوا على نُصرة الإسلام، وهاجروا إلى الله تعالى ورسوله، تغرَّبوا عن أهلهم وأوطانهم وأموالهم، لله تعالى ولرسوله ﷺ.

وفي لفظ صحيح أيضًا: أن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ، سئل من الغرباء؟ قال: **«الذين يصلحون إذا فسد الناس»**، فالصالحون من المسلمين إذا فسد أكثر أهل الإسلام، هم: الغرباء.

ورويت: **«الذين يُصلحون إذا فسد الناس»** بضم الياء، وهذه أعظم، أن يكون الإنسان ليس صالحًا في نفسه فقط، وإنما مصلحًا لغيره. وهذه

---

(١) «الغرباء» (ص٢٤ ـ ٢٥)، تحقيق الشيخ بدر البدر.

(٢) حديث صحيح، أخرجه أحمد وابنه عبد الله (٣٩٨/١)، وابن ماجه (٣٩٨٨)، والدارمي (٣١١/٢ ـ ٣١٢)، والبغوي في «شرح السنة» (١١٨/١) وقال: هذا حديث صحيح، قال الألباني رحمه الله، وهو كما قال، لولا أن أبا إسحاق وهو السبيعي عمرو بن عبد الله مدلس، وقد عنعنه في جميع الطرق عنه، مع كونه كان اختلط، فأنا متوقف في صحته، بعد أن كنت تابعًا في تصحيحه برهة من الزمن غيري، والله أعلم. «الصحيحة» (١٢٧٣).

قلتُ: قد أخرج الإمام مسلم أحاديث له عن هذا الطريق كما في «التحفة».



الرواية عند الآجري في كتابه «الغرباء»[(١)].

وأوضح منها رواية ابن عمرو قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول ذات يوم ونحن عنده: «طوبى للغرباء» قيل: ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: «**أناس صالحون قليل، في ناس سوء كثير، من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم**»[(٢)].

وقد بشَّر الرسول ﷺ الغرباء بقوله: «**فطوبى للغرباء**» وطوبى فعلى من الطيب، قاله الفراء. واختلفوا في معنى «طوبى» هنا، فروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن معناه: فرحٌ وقُرَّة عين، وقال عكرمة: نعم مالهم، وقال الضحاك: غبطة لهم، وقيل: الجنة، وقيل: شجرة في الجنة، كما ورد في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعًا: «**طوبى شجرة في الجنة، مسيرة مائة عام، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها**»[(٣)].

قوله: «**وَهُوَ يَأْرِزُ بَيْنَ الْمَسْجِدَيْنِ كَمَا تَأْرِزُ الْحَيَّةُ فِي جُحْرِهَا**» تأرز بمعنى: تنضم، وقال بعضهم: أَرَزَ يعني: ثبت، كما قال: شجرة أرز، يعني: شجرة ثابته.

وهذا مدح للمسجدين: المسجد الحرام، والمسجد النبوي، فإن الإيمان يأرز بينهما، أي: ينضم ويجتمع إلى المسجدين، ولم يزل في المسجدين من أئمة الهدى وسرج الوقت، ما يحصل بهم من الهداية والخير والبركة في كل زمن، وهما ملجأ المؤمنين، إذ تشتاق إليهما أرواح المؤمنين، لرؤيتهما

---

(١) «الغرباء» (ص١٦)، وأخرجه أحمد (٣/٧١) وغيره، والحديث صحيح لشواهده.

(٢) «الغرباء» (ص٢٣)، وأخرجه أحمد (٢/١٧٧، ٢٢٢)، وابن وضاح في «البدع والنهي عنها» (١٨٥) وغيرهم.

(٣) حديث حسن، رواه أحمد (٣/٧١) وصححه ابن حبان (٢٦٢٥ـ موارد)، وأصله في البخاري (٦٥٥٣) من حديث أبي سعيد، ومن حديث سهل بن سعد (٦٥٥٢).



وللصلاة فيهما والتعبد فيهما، والتعلم فيهما، وغير ذلك، فهما من مواضع الإيمان العظيمة، التي ينضم إليها أهل الإيمان، كما تنضم وتجتمع الحية إلى بيتها وجحرها في الأرض.

** ** **

باب: ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي

(٧٣) عن عُرْوَة بْن الزُّبَيْر: أَنَّ عَائِشَةَ ﵂ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ أَخْبَرَتْهُ أَنَّهَا قَالَتْ: كَانَ أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةَ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ، فَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ يَتَحَنَّثُ فِيهِ ـ وَهُوَ التَّعَبُّدُ ـ اللَّيَالِيَ أُوْلَاتِ الْعَدَدِ، قَبْلَ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى أَهْلِهِ وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا، حَتَّى فَجِئَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ؛ فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ: اقْرَأْ. قَالَ: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ» قَالَ: فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ. قَالَ: قُلْتُ: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ» فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: أَقْرَأْ. فَقُلْتُ: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ» قَالَ: فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العلق] فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ تَرْجُفُ بَوَادِرُهُ، حَتَّى دَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ فَقَالَ: «زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي» فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، ثُمَّ قَالَ لِخَدِيجَةَ: «أَيْ خَدِيجَةُ! مَا لِي؟» وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ، قَالَ: «لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي». قَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: كَلَّا، أَبْشِرْ، فَوَاللهِ لَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا، وَاللهِ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ، فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى، وَهُوَ ابْنُ عَمِّ خَدِيجَةَ أَخِي أَبِيهَا،

وَكَانَ امْرَأً تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعَرَبِيَّ، وَيَكْتُبُ مِنَ الْإِنْجِيلِ بِالْعَرَبِيَّةِ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ، فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: أَيْ عَمِّ! اسْمَعْ مِنِ ابْنِ أَخِيكَ، قَالَ وَرَقَةُ بْنُ نَوْفَلٍ: يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَى؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ خَبَرَ مَا رَآهُ، فَقَالَ لَهُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى مُوسَى بنِ عِمْرَانَ ﷺ، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا، يَا لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا حِينَ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ؟» قَالَ وَرَقَةُ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا.

❖ **الشرح:**

الحديث أخرجه مسلم في الإيمان، وبوَّب عليه النووي (٢/١٩٧) باب: بدء الوحي إلى الرسول ﷺ.

قوله: «أَنَّ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ» هذا الحديث من مراسيل الصحابة؛ لأن عائشة رضي الله عنها لم تكن قد وُلدت في ذلك الزمان[1].

قولها: «فَلَقِ الصُّبْحِ» ويقال أيضًا: فَرَق الصبح، هو: ضياء الصبح، وشبَّهت ما كان يرى النبي ﷺ من الرؤيا بفلق الصبح، لِوُضوحه وبيانه، وأنه كان يأتي واضحًا بيِّنًا مثل الصبح ونهاره. وقد جاء في الصحيح أنه مكث على هذا ستة أشهر.

قوله: «الْخَلَاءُ» بمعنى: الخلوة، فالرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ

(١) انظر مقدمة ابن الصلاح (٥٠)، «النكت» على كتاب ابن الصلاح للحافظ ابن حجر (٢/٥٤٠).



حُبِّبَتْ إليه الخلوة، وهذا دأب الصالحين المتعبدين، كما قال الخطابي: حبب العزلة إليه ﷺ؛ لأن معها فراغ القلب، وهي معينة على التفكر، وبها ينقطع عن مألوفات البشر، ويتخشع قلبه.

قولها: «فَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ» الغار هو: الكهف وجمعه: غِيرَان.

قولها: «حِرَاءٍ» جبل بينه وبين مكة نحو: ثلاثة أميال، على يسار الذاهب من مكة إلى منى، وفيه لغتان: التذكير والتأنيث، والتذكير أكثر.

فكان النبي ﷺ يخلو بنفسه في غار قريب من مكة ـ معروف إلى اليوم ـ وهذا الغار غارٌ ضَيِّق، لا يكاد الإنسان أن ينتصب فيه لِقِصَر سقفه، ومن أطل منه رأى جانبًا من البيت الحرام.

قولها: «يَتَحَنَّثُ فِيهِ ـ وَهُوَ التَّعَبُّدُ ـ» هذه زيادة مُدرجة، قيل إنها: من تفسير عائشة، وقيل: إنها من تفسير بعض رواة الحديث.

ومعنى التحنث: البعد عن الحنث وهو الأثم، كما يقال: يتحرج بمعنى: يبعد عن الحرج، والضيق والإثم، فكان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يتجنب الإثم بالتعبد.

قولها: «أُوْلَاتِ الْعَدَدِ» أي: الليالي ذوات العدد.

قولها: «قَبْلَ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى أَهْلِهِ وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ» فكان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يتزوَّد ما يكفيه الليالي أولات العدد، يمكث في هذا الغار، فيخلو فيه بنفسه، ويتفكر في خلق السماوات والأرض ويتعبد الله ﷻ، حتى إذا فَنِيَ زاده رجع إلى خديجة.

قولها: «فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا» يعني: يتزود لمثل تلك المدة التي مضت، وهكذا دأبه ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

قولها: «حَتَّى فَجِئَهُ» يعني: جاءه الوحي فجأة وبغته؛ لأنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم يكن مُتوقِّعًا للوحي، كما قال ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢]، وقال: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [القصص].

ففجأه الملك، وسماه في هذه الرواية بالحق؛ لأنه ليس بباطل، ولا شيطان موسوس، وإنما هو الوحي الحق من الله تبارك وتعالى.

والملك المراد به هنا: جبريل ؈، فإنه الملك الأعظم صاحب الوحي إلى المرسلين.

قوله: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ» معناه على الصحيح: أنا لا أحسن ولا أعرف القراءة ولا الكتابة، والرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ كما هو معلوم كان رجلًا أميًّا، وأمية النبي ﷺ إعجاز، وكمال، لا نقص فيه، بخلاف من بعده من الناس، وإعجازه كونه يأتي بمثل هذا الكتاب العظيم، وبمثل هذه العلوم العظيمة، والخير والهداية، والأحكام والتشريع من عند ربه ﷻ، وهو لا يعرف القراءة والكتابة، فهذا من أعظم الإعجاز، وهو دليل من دلائل صدقه ـ عليه الصلاة والسلام ـ؛ لأنه لو كان يقرأ ويكتب، لاتهمه الناس بأنه هو الذي كتب القرآن، وقد اتهم في ذلك وهو لا يعرف القراءة والكتابة!!

وقال بعض العلماء: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ» يعني: ماذا أقرأ؟ أي أن (ما) هنا استفهامية وليست (ما) نافية، وهذا يشكل عليه ويضعفه قوله: «بِقَارِئٍ»، لأن حرف الباء هنا يَرُدُّ هذا القول. فلو قال: ما أنا قارئ، لكان فيه



استفهام، أي: ماذا أقرأ؟ فالصواب أن النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ» يعني: لست ممن يقرأ، لست ممن يجيد القراءة.

قوله: «غَطَّنِي» معناه: عصرني وضمَّني بشدة، ويقال أيضًا: غتني، بالتاء. أي أن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ لما أجاب بهذا الجواب، أخذه الملك، فضغطه وضمه بشدة.

قوله: «الْجَهْدَ» ويجوز أن يُقال الجُهد: أي: الغاية والمشقة.

والدال أيضًا يجوز فيها الوجهان: الجهدَ والجهدُ.

فعلى النصب: يعني بلغ جبريل مني الجهدَ، يعني: قد ضغطني حتى تَعِبَ هو.

وإذا قلنا: «حتى بلغ من الجهد» فيكون الذي تعب وبلغ الغاية في المشقة، الرسول ﷺ.

قوله: «أَرْسَلَنِي» يعني: أطلقني بعد أن ضمني وضغطني.

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾، وهذا دليل صريح على أن هذه الآيات، هي أول ما نزل من القرآن، وهو قول الجماهير من السلف والخلف، وقال بعضهم: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١﴾ [المدثر] هي أول ما نزل من القرآن، لكن هذا مردود بهذه الرواية الثابتة.

قوله: «تَرْجُفُ بَوَادِرُهُ» البوادر: هي لحمة بين الكتف والعنق، تضطرب وترجف عند الخوف وعند الفزع. ولا شك أن النبي ﷺ قد فجأه هذا الأمر، وهو أمر غريب على طبيعة البشرية، وفيه شدة وشقة كما مر معنا.

قوله: «زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي» أي: دثِّروني بالثياب، وغطوني بالأغطية،

ولُفُّوني بها، وهذا شأن من يصاب برجفة، أنه يطلب الدفء لكي تسكن عنه الرجفة.

قوله: «أَيْ خَدِيجَةُ! مَا لِي؟» أي: ما الذي حصل لي؟ ولا يزال النبي ﷺ في دهشة من أمر عظيم قد غشيه، حتى سأل وقال: ما لي؟ وما الذي حصل لي؟

قوله: «لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي» أي: خفت على نفسي مما حصل وجرى.

قولها: «كَلَّا، أَبْشِرْ، فَوَاللهِ لَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا» من الخزي، وهي: الفضيحة والعار في الدنيا. فأقسمت بالله ﷻ وبشرته، لماذا؟ لأنه كما وصفته بهذه الأوصاف الجميلة:

قولها: «إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ» أي: أنك معروف بصلة الرحم.

قولها: «وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ» الرسول ﷺ كان معروفًا بالجاهلية بأنه الصادق، ومعروفًا بأنه الأمين، فكان لا يُسَمَّى إلا: بالصادق الأمين؛ لكثرة صدقة، ولا يعرف عنه الكذب أبدًا، كما جاء في الرواية الصحيحة: «ما جربنا عليك كذبًا».

قولها: «وَتَحْمِلُ الْكَلَّ» الكل هو: الثقل، يعني: العاجز، كما قال ﷻ: ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾ [النحل]، يعني: ثقيل، لا يتصرف بنفسه. فيدخل فيه كل ضعيف من يتيم أو امرأة مسكينة ضعيفة وما أشبه ذلك، وهو أيضًا من الكلال أي: الإعياء.

قولها: «وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ» بالفتح وبالضم والفتح أشهر يعني: تعطي



الناس ما لا يجدون. والمعدوم: هو الذي ليس عنده شيء، وتكسبه يعني: تعطيه وتنفعه بما ليس عنده.

وقال بعض أهل العلم: تعطيه وتنفعه من حسن الأخلاق والفوائد في المعاملة، ما لا يجده عند غيرك، فيكون هنا الكسب، كسب الخلق والخير.

قولها: «وَتَقْرِي الضَّيْفَ» من القرى وهو: إكرام الضيف، أي: إنك معروف بإكرام الضيف، طعام الضيف يقال له: قرى.

قولها: «وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ» النوائب هي: الحوادث، تعين على نوائب الزمان، أي: من حدثت له حادثة، نزلت به مصيبة، فإنك تعينه، وهذه من مكارم الأخلاق التي كان العرب يتغنون بها ويذكرونها في مفاخر الآباء والآجداد، أنهم يعينون الملهوف.

قولها: «تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ» أي: صار نصرانيًّا، فترك ما كان عليه المشركون من عبادة الأصنام، وكان يذهب إلى الشام ويقرأ من كتبهم حتى صار نصرانيًا موحِّدًا، ولم يكن مشركًا.

قولها: «وَيَكْتُبُ مِنْ الْإِنْجِيلِ بِالْعَرَبِيَّةِ» أي: أنه يترجم الإنجيل إلى العربية، والإنجيل مكتوب بالسريانية في أصله، فكان ينقله إلى العربية.

قولها: «وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ» يعني: أنه قد كَبِرَ في السن، وفقد بصره.

«أَيْ عَمِّ!» إنما قالت له: أي عمِّ، لكِبَر سنه، والعرب تسمي كبير القدر والسن: عَمًّا.

قوله: «هَذَا النَّامُوسُ» الناموس هو: صاحب السِّرِّ من أهل الخير،



فقال عن جبريل الذي نزل على النبي ﷺ «**هَذَا النَّامُوسُ**» يعني: هذا صاحب سِرِّ الأنبياء، الذي ينزل بالوحي عليهم.

أما الذي يعرف الأسرار بالشر، فيقال له: الجاسوس.

قوله: «**الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى مُوسَى**» يعني: أن هذا الملك، هو نفسه الذي كان ينزل على موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

قوله: «**جَذَعًا**» الجذع يعني: الشاب القوي، تمنى أن يكون شابًا؛ لأن النبوة أدركته وقد شاخ وكَبِرَ سِنُّه.

قوله ﷺ: «**أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ؟**» يعني: هل هم سيخرجونني من بلدتي وموطني؟!

قوله: «**مُؤَزَّرًا**» يعني: قويًا بالغًا، يشد به أزره، كما قال ربنا ﷻ: ﴿اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾﴾ [طه]، يعني: قويني بأخي وبرسالة أخي.

*** أما فوائد الحديث:**

فقولها: «**أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةَ فِي النَّوْمِ**» يقول العلماء: إنما ابتدأ رسول الله ﷺ بالرؤيا الصادقة، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت كما رآها، واضحة كَفَلَقِ الصبح في الوضوح والبيان، قالوا: لئلَّا يتفاجئ بنزول الملك مرةً واحدةً، ولئلا تأتيه النبوة صريحةً بغتةً، فلا تحتملها قوى نفسه البشرية، وقد جاء أيضًا أن الرسول ﷺ كان يرى بعض التباشير التي تبشِّره بالنبوة، فروى مسلم في صحيحه: أنه قال ﷺ: «**إني لأعرف حجرًا بمكة، كان يسلم عليَّ قبل البعثة، إني لأعرفه الآن**» فهذا التسليم كان قد سبق النبوة، وفيه تهيئة للنبوة، وأيضًا كان يرى الضوء ويسمع الصوت ثلاث سنين، قبل أن تأتيه النبوة، كما جاء في الحديث الصحيح.



هذا كله من إرهاصات النبوة، ومقدمات الرسالة، لئلا يتفاجئ بالنبوة والرسالة مرةً واحدةً فلا يحتمل، ونزول الملك كان صعبًا عسيرًا على النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ لثقل ذلك على النفس البشرية.

وقال بعض أهل العلم: إنما قال مثل فلق الصبح، ولم يقُلْ مثل ضوء النهار؛ لأن هذا في أول النبوة، كما أن فلق الصبح أول النهار، فكأن هناك مناسبة بين التعبيرين.

وقولها: «فَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ» فيه أن العزلة معها فراغ القلب، وهي معينة على التفكير، وبها ينقطع الإنسان عن مألوفات البشر، ويخشع قلبه وتصفو نفسه، مما يهيئ النفس لقبول الحق ولقبول الخير، والرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ قد خُصَّ من ذلك بشيء عظيم، حتى تهيأت نفسه لقبول الرسالة، وحمل أعباء النبوة.

والعزلة تستحب في بعض المواضع وتكره، وربما تحرم في بعض المواضع، كالعزلة عن الجماعة والجمعة.

فأما العزلة عن الشر، فإنه من مستحبات الشريعة وواجباتها، فالاعتزال للشرِّ إما أن يكون مستحبًّا وإما يكون واجبًا، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنعام]. فإذا رأيت من يكفر أو يستهزئ بآيات الله، أو يخوض في دين الله بما لا ينبغي، وليس عنده توقير لله ولا لدينه، فعليك أن تعتزل هذا المجلس، فهاهنا الاعتزال واجب.

وكذلك اعتزال الناس في المعاصي، فلا بد أن توطن نفسك أن لا تعصي الله إذا عصى الناس ربهم. ولا تكن إمعة تقول: إن أطاع الناس أطعت، وإن عصوا عصيت! لا، وإنما تعتزل الشر وتبعتد عن مجالس اللهو المحرم، أو مجالس الغيبة، أو مجالس المنكر والفاحشة، وإلا فمن حضر المجلس الذي يرتكب فيه الحرام ورضي به، فإنه يكتب كفاعله وإن لم يفعل، بل لو بلغ إنسانًا أن منكرًا ما وقع بالأرض، فرضيه، كتب عند الله كمن شهده، وأما من حضر مجلسًا وكرهه، كتب كمن غاب عنه، وهذا من فضل الله تعالى على عباده المؤمنين.

قولها: «حَتَّى فَجِئَهُ الْحَقُّ» أي: جاءه الوحي بغته، فإن النبي ﷺ لم يكن متوقعًا للوحي، كما قال ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢﴾ [الشورى]، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ٤٨﴾ [العنكبوت]، فالرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم يكن له علم بأخبار الأنبياء، إلا ما كان عند قومه؛ لأنه لم يكن يقرأ، فلم يطلع على ما في كتب السابقين من الأنبياء الأولين إلا ما كان مشهورًا عند مشركي مكة، وهذا أقطع للشبهة عن رسول الله ﷺ؛ لأنه لو كان قارئًا كاتبًا متعلمًا لأخبار الكتب الأولى؛ لاتُّهم بأنه قد ادعى النبوة تأثرًا بذلك واعتمد أخبار الأولين، وهو مع ذلك قد اتهم! وهو أبعد ما يكون عن معرفة القراءة والكتابة، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ٤٨﴾ [العنكبوت].



قوله «**فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ**» يقول العلماء: الحكمة في ذلك استحضار القلب وشغله عن الالتفات إلى غير ما يقال، والمبالغة في ذلك. فجبريل ؏ فعل ذلك من أجل أن يستحضر قلب النبي ﷺ، ويشد انتباهه.

ومن هنا أخذوا: أنه ينبغي للمعلم أن يُنَبِّه المتعلم إذا رآه غفل؛ لأجل أن لا يفوته الدرس، ولا ينبغي للمتعلم أن يغفل عما يقال من الخير، فينظر في السقوف أو إلى الزخارف أو ينظر إلى ثيابه، أو ما أشبه ذلك من الأفكار التي تلهيه عن استماع الخير.

وقيل: إن جبريل فعل ذلك ليختبر النبي ﷺ، هل يقول شيئًا من عند نفسه إذا اضطُرَّ؟ أم أنه يبقى ثابتًا ويقول: «**مَا أَنَا بِقَارِئٍ**». هذا إذا فسرنا «**مَا أَنَا بِقَارِئٍ**» ماذا أقرأ؟ والصحيح: أن معنى ما أنا بقائ أي: أنا لست ممن يعرف القراءة والكتابة.

ولا شك أن النبي ﷺ قد بلغ الغاية في النزاهة عن التقول على الله تبارك وتعالى، قال تعالى: ﴿**وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾**﴾ [الحاقة]، وهذا فيه تنبيهٌ للعالم وغيره: أن لا يقول شيئًا من عند نفسه، يقول الإمام مالك: جنَّة العالم إذا سأل عن شيء لا يعلمه، أن يقول: لا أدري، فإن أخطأها أصيبت منه المقاتل.

يعني من لم يتعلم أن يقول لا أدري إذا سأل عن شيء لا يعرفه؛ فإنه تصاب منه المقاتل، والعياذ بالله، يعني: يصيب منه الأعداء المقتل؛ لأنه يكون قد سقط في خطأ عظيم من القول على الله تعالى بغير علم.

قوله: «**لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي**» ليس هو بمعنى الشك بما أتاه من



عند الله ﷻ، لكن يقول العلماء: النبي ﷺ خشي ألا يقوى على حمل أعباء الرسالة والنبوة، إذا قلنا أن معنى «خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي»: ليس هو الخوف مما حدث ومما رأى، وإنما النبي - عليه الصلاة والسلام - خَشِيَ أن لا يقوم بأعباء الرسالة، فيُعذبه الله ﷻ على ذلك، فطمئنته خديجة ﵂.

فقالت له: «**كَلَّا، أَبْشِرْ، فَوَاللهِ لَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا**» وفي رواية معمر: «**كلا والله لا يحزنك الله أبدًا**» أي: لا يصيبك مكروه، لما جعل الله تعالى فيك من مكارم الأخلاق وكريم الشمائل، وهذا دليل على أن مكارم الأخلاق، والإحسان إلى الخلق، وعمل البر والصلاح، مما يدفع عن الإنسان المكروه، كما قال - عليه الصلاة والسلام - فيما رواه عنه أنس ﵁: «**صنائع المعروف تقي مصارع السوء، والآفات والهلكات، وأهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة**»(١).

فخصال الخير سبب للسلامة من الشر، والسلامة من مصارع السوء، ولا شك أن الله تبارك وتعالى أعلم حيث يجعل رسالته، فاختار أكرم الخلق، وأحسنهم أخلاقًا لهذه الرسالة، فكأن خديجة تقول له: كيف يُضيعك الله وأنت فيك ما فيك من خصال الخير، ومن كانت فيه هذه الخصال لا يمكن أن يضيعه الله. وفيه: أعظم دليل وأبلغ حجة، على كمال عقل خديجة ﵂، وأنها كانت من كُمَّل النساء كما قال - عليه الصلاة والسلام - «**خير نسائها مريم بنت عمران، وخير نسائها خديجة بنت خويلد**»(٢).

فهذا الجواب يدلُّ على وفور عقلها وكماله فقهها، فإنها قالت: «**كَلَّا، أَبْشِرْ، فَوَاللهِ لَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا، وَاللهِ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ،**

---

(١) حديث صحيح، رواه الطبراني في الأوسط (٦٠٨٦) وغيره، وهو صحيح لطرقه.

(٢) متفق عليه من حديث علي ﵁.



وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ» أي: كيف يخزيك الله، وأنت فيك مثل هذه الصفات الجليلة الكريمة؟!

وفي هذا: جواز مدح الإنسان في وجهه في بعض الأحوال، فقد يضعف الإنسان ويخاف على نفسه، فيحتاج إلى شيء يقوي نفسه ويشجعه، فخديجة رضي الله عنها مدحته في وجهه، ولا بأس بالمدح في الوجه أحيانًا، إذا كان فيه تثبيت أو كان فيه تشجيع، إذا أُمِنَت الفتنة.

وفيه أيضًا: استحباب تأنيس من حصل له خوف لإزالة الروع عنه، وطمأنته وتبشيره، وذكر أسباب السلامة له، وما يعنيه على الخروج من مأزقه.

قولها: **«أَيْ عَمِّ!»** فيه دليل على أن العرب قد تسمي من ليس عمًّا بعم، من باب التكريم والتبجيل والتوقير، كما تسمي من ليس بأب بالأب، ومن ليس بالابن بابن، فالعرب تقول مثلًا: يا ابن أخي، ولا تريد أنه ابن الأخ حقيقة.

قوله: **«يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا»** تمنى أن يكون أدرك النبوة في وقت الشباب؛ لأن الشباب فيه القوة والحيوية والنشاط، وهذه أمور يحتاجها الإسلام، ويحتاجها أهل الحق، فالشباب هم قوة الإسلام، وإذا صلح الشباب صلح أمر الأمة، فإن الأمة قوية بقوة شبابها، ولهذا تجد أعداء الله تبارك وتعالى يخططون لإفساد شباب المسلمين أكثر مما يخططون لغيرهم؛ لأنهم يعلمون أن الشباب هم عِمَاد الأمة، فإذا فسدت أخلاقهم وانحلت، فلا قيام للأمة بعد ذلك، فالحق يحتاج إلى القوة والشباب.

قوله: **«لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ»** دليل على أن معاداة



الناس للرسل وأتباعهم باقية في كل زمان ومكان، فمعاداة الناس للرسالة السماوية ولتعاليم الله ورسله موجودة في كل زمان ومكان وباقية؛ لأن الإنسان هو الإنسان، وشهواته وأهواؤه هي هي لا تتغير، والناس مجبولون على معاداة من يعارضهم في شهواتهم وأهوائهم وميولهم وعاداتهم، ولهذا فلا يستغرب المرء من عداء الناس للدعوة الإسلامية، ولو من أهلها أحيانًا؛ لأن الناس كما قلنا لهم أهواء وشهوات وميول، يبغضون من يُعارضهم فيها، وليس كل من عادى الحق عاداه لأنه يجهله، بل هناك من يعادي الحق وهو يعلم أنه الحق، ولكنه يكره أن يتبعه، ويكره أن يخضع له وينقاد، وهذا من العناد لله رب العالمين، ولرسله الكرام صلوات الله عليهم أجمعين وأتباعهم من المؤمنين.

وهذا أيضًا من صراع الحق مع الباطل، فإن صراع الحق مع الباطل قديم، قدم الخليقة، فمنذ أن خلق الله تعالى الخليقة؛ والصراع موجود، فنسأل الله تعالى ﷻ أن ينصرنا على أعدائنا من الكافرين والمنافقين، إنه هو السميع العليم.

** ** **

(٧٤) عن يَحْيَى قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا سَلَمَةَ: أَيُّ الْقُرْآنِ أُنْزِلَ قَبْلُ؟ قَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾، فَقُلْتُ: أَوْ ﴿ٱقْرَأْ﴾ فَقَالَ: سَأَلْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ: أَيُّ الْقُرْآنِ أُنْزِلَ قَبْلُ؟ قَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ فَقُلْتُ: أَوْ ﴿ٱقْرَأْ﴾ قَالَ جَابِرٌ: أُحَدِّثُكُمْ مَا حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، قَالَ: جَاوَرْتُ بِحِرَاءٍ شَهْرًا، فَلَمَّا قَضَيْتُ جِوَارِي نَزَلْتُ فَاسْتَبْطَنْتُ بَطْنَ الْوَادِي، فَنُودِيتُ، فَنَظَرْتُ أَمَامِي وَخَلْفِي وَعَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي فَلَمْ أَرَ أَحَدًا، ثُمَّ نُودِيتُ، فَنَظَرْتُ فَلَمْ أَرَ أَحَدًا، ثُمَّ نُودِيتُ فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا هُوَ عَلَى الْعَرْشِ فِي الْهَوَاءِ، يَعْنِي جِبْرِيلَ عليه السلام، فَأَخَذَتْنِي مِنْهُ رَجْفَةٌ شَدِيدَةٌ، فَأَتَيْتُ خَدِيجَةَ فَقُلْتُ: دَثِّرُونِي فَدَثَّرُونِي، فَصَبُّوا عَلَيَّ مَاءً، فَأَنْزَلَ اللهُ عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾.

❖ **الشرح:**

الحديث الثاني في هذا الباب: باب ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي، حديث جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه.

قوله: «**سَأَلْتُ أَبَا سَلَمَةَ**» وهو ابن عبد الرحمن بن عوف الزهري، تابعي ثقة مكثر، روى له الستة.

«**أَيُّ الْقُرْآنِ أُنْزِلَ قَبْلُ؟**» أي: سورة، وأي آية نزلت قبل غيرها من السور والآيات.

«**قَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾**»، فراجعه يحيى فقال له: «**أَوْ ﴿ٱقْرَأْ﴾**» لأنه مشهور أن أول ما نزل من القرآن هو: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ [العلق].

«**فَقَالَ: سَأَلْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ: أَيُّ الْقُرْآنِ أُنْزِلَ قَبْلُ؟ قَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ فَقُلْتُ: أَوْ ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ قَالَ جَابِرٌ: أُحَدِّثُكُمْ مَا حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ**».

والجمع بينهما: أنَّ أوَّل ما أنزل على الإطلاق هو: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١﴾ [العلق]. كما صرح به في حديث عائشة رضي الله عنها السابق.

وأما في حديث الزهري عن أبي سلمة هاهنا، إذ يقول: «**فبينا أنا أمشي سمعت صوتًا من السماء، فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالسًا على كرسي بين السماء والأرض**» فهذا يُفيد أن هذا الذي نزل فيه قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾، كان بعد فترة الوحي؛ لأنه صرح بذلك في أول الحديث وقال: «**فإذا الملك الذي جاءني بحراء**» أي: قد رآه قبل ذلك.

قوله: «**جَاوَرْتُ بِحِرَاءٍ شَهْرًا**» يعني: أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ ظل يتعبد بغار حراء شهرًا، اعتكف وانقطع فيه عن الناس، وهذا يبين لنا أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان ينقطع عن الناس مددًا طويلة ويخلو فيها بنفسه ويتعبد.

قوله: «**فَلَمَّا قَضَيْتُ جِوَارِي نَزَلْتُ فَاسْتَبْطَنْتُ بَطْنَ الْوَادِي، فَنُودِيتُ**» أي: لما صرت في باطن الوادي نوديت، لما نزل من الجبل المعروف بجبل النور الذي فيه غار حراء.

قوله: «**فَنَظَرْتُ أَمَامِي وَخَلْفِي وَعَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي فَلَمْ أَرَ أَحَدًا، ثُمَّ نُودِيتُ**» لعله نودي: يا رسول الله أو نودي يا محمد، فنظر فلم ير أحدا.

قوله: «**ثُمَّ نُودِيتُ فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا هُوَ عَلَى الْعَرْشِ**» على العرش أي كما قلنا: على الكرسي.

قوله: «**عَلَى الْعَرْشِ فِي الْهَوَاءِ**» العرش هو: الكرسي، كما جاء مفسرًا في رواية لمسلم، والمراد به: سرير الملك. وجاء في قصة بلقيس: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [النمل]، يعني: لها كرسي تجلس عليه عظيم في شأنه وزينته.

قوله: «**فِي الْهَوَاءِ، يَعْنِي جِبْرِيلَ** عليه السلام» أي: في جو السماء، والهواء أيضًا يطلق على شيء خالٍ، كما قال تعالى: ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾﴾ [إبراهيم]، يعني: خاليه من كل شيء.

قوله: «**فَأَخَذَتْنِي مِنْهُ رَجْفَةٌ شَدِيدَةٌ**» يعني: اضطراب وفزع وخوف. وفي رواية: «**فأخذتني وجفة**» وهي بنفس المعنى، كقول الله تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾﴾ [النازعات]، يعني: مظطربة خائفة. وفي رواية أيضًا عند مسلم: «**فجئثت منه فرقًا، فرجعت**» يعني: ففزعت منه.

قوله: «**فَقُلْتُ: دَثِّرُونِي، فَدَثَّرُونِي**» يعني: لُفُّوني وغطوني بالدثار، وهو الغطاء. وفي رواية «**فقلت: زملوني زملوني**» وهي: بمعنى واحد، المدثر والمزمل والمتلفف والمشتمل كلها بمعنى واحد، يعني: المدثر بثيابه، وهذا لما أصابه الخوف.

قوله: «**فَصَبُّوا عَلَيَّ مَاءً**» أخذ العلماء: أنه ينبغي أن يصب على الفزع الماء، ليسكن فزعه، وهذه عادة جارية أن من خاف من الأطفال، يغسلون وجهه ويصبون عليه شيئًا من الماء ليذهب عنه الفزع والخوف.

قوله: «**فَأَنْزَلَ اللهُ** عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾»، مرَّ معنا تفسير المدثر.

قوله: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ أمره الله ﷺ أن يقوم بأعباء الدعوة، وأن يترك النوم



ويقوم بما أمره الله ﷻ به من الإنذار. ثم ينذر من؟ ينذر قومه، وينذر الناس أجمعين، بل ينذر الثقلين؛ لأنه - عليه الصلاة والسلام - رسول إلى الثقلين، ولهذا حذف المفعول، فقال الله ﷻ: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ ما قال: قم فأنذر قومك، وإنما حذف المفعول ليدل على عموم نذارته ﷺ للعالمين، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وهو مرسل إلى جميع الثقلين.

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ أي: عظِّم ربك ﷻ وارفع من شأنه، ونزهه عن كل ما لا يليق به جل وعلا من النقائص والآفات.

قوله: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ أي: طهِّر ثيابك من النجاسة الحسية وابتعد عنها، وقال بعض أهل العلم: قصِّر ثيابك، كما قال عمر ﷺ للشاب الذي دخل عليه عند موته: «**يا ابن أخي ارفع ثوبك، فإنه أتقى لثوبك، وأتقى لربك**». فتقصير الثياب أبعد لها عن الأوساخ والقذارة والنجاسة. وقيل المراد هنا بالثياب: هي النفس والروح، يعني: طهِّر نفسك من الذنوب وسائر النقائص والرذائل، وهذا مستعمل في لغة العرب، كما قال الشاعر:

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكـل رداء يرتديـه جميـل

فيجعلون العِرْض والخلق والنفس بمنزلة الثوب والرداء.

قوله: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ قراءة حفص بضم الراء، وقراءة غيره بكسر الراء، وهما قراءتان صحيحتان. والرجز المراد به هنا: الأوثان، كما جاء تفسيره في بعض الروايات عن الرواة. وجاء في قوله تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ [الحج: ٣٠]، فالمراد بالرجس هنا: الشرك والأوثان،

وأيضًا الرجز يأتي في كتاب الله بمعنى: العذاب، فكأنَّ الآية تقول: اجتنب أعظم أسباب العذاب، ألا وهو الشرك، كما قال الله ﷻ: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [البقرة].

ومن فوائد هذا الحديث: يقول أهل العلم: أن جلوس الملك على الكرسي وارتفاعه ونداءه للنبي ﷺ يستفاد منه: استحباب جلوس العالم على كرسي للتعليم، ليستمع إليه الناس، وليكونوا في مواجهته سواء، لاسيما إذا كثروا، فيسهل الأخذ عنه، ومنه المنبر يوم الجمعة وفي الخطب، وفي «صحيح مسلم»: من حديث أبي رفاعة أنه جاء إلى النبي ﷺ وهو يخطب يوم الجمعة فقال: يا رسول الله رجل غريب، لا يدري ما دينه! فنزل النبي ﷺ وأتى بكرسي، قال: حسبت أن قوائمه حديد، فجعل يعلمه ما شاء الله، ثم رجع إلى خطبته ﷺ.

فالكرسي استعمله النبي ﷺ للتعليم والوعظ. ويقول بعض المفسرين أن: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ فيها ملاطفة للنبي ﷺ، إذ أن الله ﷻ لم يخاطبه باسمه، وإنما خاطبه بما جَرَت به عادة العرب إذا قصدت الملاطفة، أنها تسمي المخاطب باسم مشتق من الحالة التي هو فيها، كما قال النبي ﷺ لحذيفة: «**قم يا نومان**»(١)، وقال لعلي رضي الله عنه لما رآه نائمًا في المسجد التصق التراب بجنبه، قال له: «**قم أبا التراب**»(٢)، فهذا من باب التأنيس، وربما لو خاطبه باسمه لكان في ذلك هول عليه وشِدَّة.

** ** **

---

(١) رواه مسلم في الجهاد والسير (١٤١٥/٣) باب غزوة الأحزاب.

(٢) رواه مسلم أيضًا في فضائل الصحابة (١٨٧٥/٤) باب من فضائل علي رضي الله عنه، من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.



باب: في كثرة الوحي وتتابعه

(٧٥) عن أَنَس بْن مَالِكٍ ﷺ أَنَّ اللهَ ﷻ تَابَعَ الْوَحْيَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ قَبْلَ وَفَاتِهِ حَتَّى تُوُفِّيَ، وَأَكْثَرُ مَا كَانَ الْوَحْيُ يَوْمَ تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

❖ **الشرح:**

الحديث خرجه مسلم في أول كتاب التفسير(١).

قوله: «**أَنَّ اللهَ ﷻ تَابَعَ الْوَحْيَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ قَبْلَ وَفَاتِهِ**» أي: أكثر إنزاله قرب وفاته ﷺ.

قال الحافظ ابن حجر: «والسِّرُّ في ذلك: أن الوفود بعد فتح مكة كثروا، وكثر سؤالهم عن الأحكام، فكثر النزول بسبب ذلك»(٢).

قوله: «**وَأَكْثَرُ مَا كَانَ الْوَحْيُ يَوْمَ تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ**» وفي لفظ البخاري: «**حتى توفاه أكثر ما كان الوحي**» أي: الزمان الذي وقعت فيه وفاته، كان نزول الوحي فيه أكثر من غيره من الأزمنه.

قال الحافظ: «وهذا الذي وقع أخيرًا ـ أي من كثرة الوحي ـ على خلاف ما وقع أوّلًا، فإن الوحي في أول البعثة فتر فترة ثم كثر، وفي أثناء النزول بمكة لم ينزل من السور الطوال إلا القليل، ثم بعد الهجرة نزلت السور الطوال المشتملة على غالب الأحكام، إلا أنه كان الزمن الأخير من الحياة النبوية أكثر الأزمنة نزولا بالسبب المتقدم»(٣).

---

(١) مسلم بشرح النووي (١٥٢/١٨) ولم يتعرض له النووي بالشرح!، ورواه البخاري في فضائل القرآن (٣/٩).

(٢) الفتح (٨/٩).

(٣) المصدر السابق.



باب: الإسراء بالنبي ﷺ إلى السماوات وفرض الصلوات

(٧٦) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «أُتِيتُ بِالْبُرَاقِ، وَهُوَ دَابَّةٌ أَبْيَضُ طَوِيلٌ، فَوْقَ الْحِمَارِ وَدُونَ الْبَغْلِ، يَضَعُ حَافِرَهُ عِنْدَ مُنْتَهَى طَرْفِهِ، قَالَ: فَرَكِبْتُهُ، حَتَّى أَتَيْتُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ، فَرَبَطْتُهُ بِالْحَلْقَةِ الَّتِي يَرْبِطُ بِهَا الْأَنْبِيَاءُ، قَالَ: ثُمَّ دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَصَلَّيْتُ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ خَرَجْتُ، فَجَاءَنِي جِبْرِيلُ عليه السلام بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ، وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ؛ فَاخْتَرْتُ اللَّبَنَ، فَقَالَ جِبْرِيلُ ﷺ: اخْتَرْتَ الْفِطْرَةَ، ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ؛ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا؛ فَإِذَا أَنَا بِآدَمَ، فَرَحَّبَ بِي وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عليه السلام، فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، قَالَ: فَفُتِحَ لَنَا؛ فَإِذَا أَنَا بِابْنَيِ الْخَالَةِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَيَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّاءَ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمَا، فَرَحَّبَا بِي وَدَعَوَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ ﷺ. قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا؛ فَإِذَا أَنَا بِيُوسُفَ ﷺ، إِذَا هُوَ قَدْ أُعْطِيَ شَطْرَ الْحُسْنِ، فَرَحَّبَ بِي وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عليه السلام، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا؛ فَإِذَا أَنَا بِإِدْرِيسَ، فَرَحَّبَ بِي وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، قَالَ اللهُ عز وجل: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ

الْخَامِسَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ مُحَمَّدٌ. قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا؛ فَإِذَا أَنَا بِهَارُونَ ﷺ، فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عليه السلام، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا؛ فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى ﷺ، فَرَحَّبَ بِي وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عَرَجَ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، فَقِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ ﷺ. قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا؛ فَإِذَا أَنَا بِإِبْرَاهِيمَ ﷺ مُسْنِدًا ظَهْرَهُ إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ، وَإِذَا هُوَ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ، ثُمَّ ذَهَبَ بِي إِلَى السِّدْرَةِ الْمُنْتَهَى، وَإِذَا وَرَقُهَا كَآذَانِ الْفِيَلَةِ، وَإِذَا ثَمَرُهَا كَالْقِلَالِ، قَالَ: فَلَمَّا غَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ اللهِ مَا غَشِيَ، تَغَيَّرَتْ فَمَا أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْعَتَهَا مِنْ حُسْنِهَا، فَأَوْحَى اللهُ إِلَيَّ مَا أَوْحَى، فَفَرَضَ عَلَيَّ خَمْسِينَ صَلَاةً فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَنَزَلْتُ إِلَى مُوسَى ﷺ، فَقَالَ: مَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَى أُمَّتِكَ؟ قُلْتُ: خَمْسِينَ صَلَاةً. قَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ؛ فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا يُطِيقُونَ ذَلِكَ، فَإِنِّي قَدْ بَلَوْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَخَبَرْتُهُمْ، قَالَ: فَرَجَعْتُ إِلَى رَبِّي، فَقُلْتُ: يَا رَبِّ! خَفِّفْ عَلَى أُمَّتِي، فَحَطَّ عَنِّي خَمْسًا، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى، فَقُلْتُ: حَطَّ عَنِّي خَمْسًا، قَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لَا يُطِيقُونَ ذَلِكَ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ، قَالَ: فَلَمْ أَزَلْ أَرْجِعُ بَيْنَ رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَبَيْنَ مُوسَى عليه السلام حَتَّى قَالَ: يَا مُحَمَّدُ! إِنَّهُنَّ خَمْسُ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، لِكُلِّ صَلَاةٍ عَشْرٌ، فَذَلِكَ خَمْسُونَ صَلَاةً، وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً؛ فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ شَيْئًا؛ فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ سَيِّئَةً

وَاحِدَةً، قَالَ: فَنَزَلْتُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى مُوسَى ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: فَقُلْتُ: قَدْ رَجَعْتُ إِلَى رَبِّي حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ».

❖ **الشرح:**

الحديث أخرجه مسلم في الإيمان، وبوَّب النووي رحمه الله (٢/٢٠٩) على هذا الحديث، العنوان الذي ذكره المنذري هنا. وهو حديث عظيم كثير الفوائد، فيه حكاية حادثة الإسراء والمعراج.

والإسراء والمعراج قد دخلت فيه كثير من الأحاديث الواهية والموضوعة والمكذوبة، واشتهرت بين الناس، فينبغي عند الكلام فيه أن يعتمد على الأحاديث الصحيحة فقط، وأن لا يلتفت إلى الأحاديث الواهية والأحاديث الضعيفة التي تتداولها الألسن، أو يكثر ذكرها أحيانًا بين الخطباء بغير علم، والمعتمد في ذلك على الصحيحين أوَّلًا، وقد أخرجا جملة طيبةً من أحاديث الإسراء وحوادثه، ثم بعد ذلك ما جاء في مسند الإمام أحمد والسنن الصحيحة، ولا يلتفت إلى الأحاديث الضعيفة الواردة في هذا الباب، ففي الصحيح غنية عن الضعيف.

قوله: «أُتِيتُ بِالْبُرَاقِ، وَهُوَ دَابَّةٌ أَبْيَضُ طَوِيلٌ، فَوْقَ الْحِمَارِ وَدُونَ الْبَغْلِ» يدل على أن البراق دابة تركب، ووصفها النبي ﷺ بأنها فوق الحمار، والذي يظهر أنها على شكل الحمار أو على شكل البغل، هذا الذي يظهر؛ لأن النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم يميزه بشيء.

ولكنه سريعٌ جدًا حيث أنه «يَضَعُ حَافِرَهُ عِنْدَ مُنْتَهَى طَرْفِهِ» يعني: عند



منقطع البصر، أي: عند انقطاع البصر في مستوى الأرض، وهذا يدل على سرعته.

أما لماذا سمى بالبراق؟ فقال ابن دريد: اشتقاق البراق من البرق، فسمي براقًا لأنه كالبرق في السرعة.

وقيل سمي بذلك: لبريقه، يعني: لشدة صفاء لونه وتلؤلؤه.

وقيل غير ذلك فيه.

قوله: «بَيْتَ الْمَقْدِسِ» فيه لغتان: الأولى: بفتح الميم وإسكان القاف وكسر الدال المخففة، واللغة الأخرى: بيت المُقَدَّس: بضم الميم وفتح القاف وتشديد الدال، أما من شدَّد: بيت المقدس، فالمقدس يعني: المطهر؛ لأن التقديس هو التنزيه والتطهير، كما قالت الملائكة: ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠]، يعني: ننزهك عن كل ما لا يليق بك.

أما من خفَّف فيكون معناه: المكان الذي جعل فيه الطهارة، وتطهير بيت المقدس إخلاؤه من الأصنام، فلا أصنام فيه تعبد من دون الله ﷻ، وقال الزجَّاج: بيت المقدس: المكان الذي يطهر فيه من الذنوب. يعني: أن هذا المكان يتطهر فيه العبد من ذنوبه، وهذا معلوم، فالأرض المقدسة تطهر أصحابها من الذنوب؛ لأنهم يتعبدون فيها، لا لمجرد السُّكنى فيها، فمجرد السكنى في الأرض المقدسة لا يطهر الإنسان من الذنوب، ولو سكن في البيت الحرام، إنما الذي يطهر الإنسان عمله، كما قال سليمان ؏: «إن الأرض المقدسة لا تطهر أحدًا، ولكن الذي يطهر الإنسان عمله»[1]. فعملك أيها الإنسان هو الذي يطهرك، ولو كنت في غير بيت المقدس

---

(١) رواه أحمد في الزهد (ص١٥٤) بسند حسن.



والبلد الحرام. ويُسمى بيت المقدس أيضا: بإيلياء.

قوله: «**فَرَبَطْتُهُ بِالْحَلْقَةِ الَّتِي يَرْبِطُ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ**» الحلقة هي: حلقة باب بيت المقدس، فباب البيت كان له حلقة يربط به الأنبياء دوابهم.

وقد يؤخذ من هذا ما جاء في بعض الآثار ويحتاج إثباتها إلى نظر: إلى أن الأنبياء كانوا يستعملون البراق، واستدلوا على ذلك ببعض الروايات في السيرة ذكرها الفاكهي والأزرقي: أن البراق كان يستعمله الأنبياء، وأن إبراهيم عليه السلام كان يستعمله في زيارته لمكة[1].

قوله: «**ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ**» عرج بمعنى: صعد، العروج هو الصعود.

قوله: «**ثُمَّ ذَهَبَ بِي إِلَى السِّدْرَةِ الْمُنْتَهَى**» سميت بذلك؛ لأنَّ علم الملائكة ينتهي إليها، وما جاوزها أحد إلا محمد ﷺ. وفي الحديث عن ابن مسعود: أن سِدرة المنتهى سميت بذلك: لكونها ينتهي إليها ما يهبط من فوقها، وما يصعد من تحتها، من أمر الله، وسيأتي.

قوله: «**وَإِذَا ثَمَرُهَا**» وفي رواية «**نبقها كالقلال**» القِلال جمع قلة، وهي الجَرَّة العظيمة التي تسع قربتين فأكثر. والنبق هو ثمر السدر ويسمى بالكنار أيضًا.

*** فوائد الحديث:**

اختلف الناس في الإسراء بالرسول ﷺ هل كان في المنام أم كان يقظة؟ والذي عليه أكثر الناس ومعظم السلف وعامة المتأخرين من الفقهاء

(١) قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في «الفتح» (٧/٢٠٧) بعد أن ذكرها: فهذه آثار يشدُّ بعضها بعضًا.



والمحدثين: أنه أُسري بمحمد ﷺ بجسده وروحه يقظة لا منامًا، كما في الآية التي في سورة الإسراء: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [الإسراء: ١]، فإن كلمة: «عبد» لا تطلق على الروح فقط، وإنما تطلق على الروح والجسد معًا.

وكذلك الأحاديث تدلُّ على هذا، ولأنه لو كان روحًا ومنامًا لم يكن في ذلك إعجاز؛ لأن كل الناس يُمكن أن يرى الواحد منهم أنه قد سافر إلى بلاد بعيده، ربما تبعد شهورًا عنه، مثل: ما يرى النائم أنه زار الصين، وليس في ذلك إعجازٌ ولا عجب!! ولما كان يتعجب منه الكفار لو قال لهم: إني رأيت أني أتيت المكان الفلاني وحضرت المكان الفلاني! لكن الذي فيه إعجاز وكان فيه فتنة، حتى ارتَدَّ بعض من أسلم حديثًا في حادثة الإسراء، هو أنه أخبرهم أنه ذهب بنفسه إلى بيت المقدس وصلَّى فيه، ثم رجع في ليلة واحدة، هذا الذي فيه الإعجاز.

أما ما قيل في وقت الإسراء: فالصحيح أوَّلًا الذي عليه أكثر أهل العلم: أنه كان قبل الهجرة.

أما وقته، فقال الإمام أبو إسحاق الحربي: كان ليلة سبع وعشرين من شهر ربيع الآخر قبل الهجرة بسنة.

وقال الزهري: كان ذلك بعد مبعثه ﷺ بخمس سنين.

وقال ابن إسحاق: أُسري به ﷺ وقد فشا الإسلام بمكة والقبائل.

والصحيح: أن خديجة أدركت الإسراء وأنها صلت معه ﷺ بعد فرض الصلاة عليه، ولا خِلاف أنها ماتت قبل الهجرة بمدة، قيل: بثلاث سنين، وقيل: بخمس.



أما ما اشتهر بين عامة الناس، وتحتفل به الكثير من الدول الإسلامية! أنه: في ليلة سبع وعشرين من شهر رجب، فقد ذكره الحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية» وقال: إنه من أضعف الأقوال!! فللإنسان أن يتعجب كيف يعتمد مثل هذا القول، ويُعَوَّل عليه ويصير عيدًا يحتفل فيه في كل عام في كثير من البلاد الإسلامية!

قوله: «**فَرَبَطْتُهُ بِالْحَلْقَةِ الَّتِي يَرْبِطُ بِهَا الْأَنْبِيَاءُ**» في ربط البراق بالحلقة: الأخذُ بالأسباب، فالنبي ﷺ أخذ بالأسباب، ولم يقل أنا نبي ويترك الدابة هكذا.

وأن الأخذ بالأسباب غير قادح في التوكل، والاعتماد على الله عز وجل؛ لأن التوكل الصحيح: إنما يكون بعد بذل السبب، كما قال السلف رحمهم الله.

قوله: «**فَجَاءَنِي جِبْرِيلُ** عليه السلام **بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ، وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ؛ فَاخْتَرْتُ اللَّبَنَ**»؛ لأن النبي ﷺ خُير بين إناء اللبن وإناء الخمر، فاختار اللبن.

قوله: «**فَقَالَ جِبْرِيلُ** ﷺ: **اخْتَرْتَ الْفِطْرَةَ**» والفطرة المراد بها هنا: الإسلام ولعل المراد - والله أعلم - أن النبي - عليه الصلاة والسلام - اختار علامة الإسلام، وعلامة الاستقامة، وجعل اللبن علامة على الإسلام والفطرة لكونه سهل الهضم، طيبًا، طاهرًا، سائغًا للشاربين، ولا يضر شاربه في الغالب، فهو سليم العاقبة.

وأما الخمر فإنها أُمُّ الخبائث، وجالبة لأنواع الشرور في الحال والمآل، لكن قد يقال: إن الخمر الذي عرض عليه ليس خمر الدنيا، لكن النبي ﷺ بفطرته اختار اللبن، وقال في بعض الروايات: «**لو اخترت الخمر**

لغوت أمتك»[(١)]، يعني: وقعت في شرب أم الخبائث.

قوله: «**ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ؛ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ**» وهذا فيه بيان لما ينبغي أن يكون عليه المستأذن من الأدب، فمن استأذن فالأدب أن يذكر اسمه، إذا قيل: من بالباب؟ لا يقول: أنا؛ لأن النبي ﷺ كَرِهَ ذلك، كما في رواية جابر في «صحيح مسلم»: أنه استأذن على النبي ﷺ فقال: «مَنْ؟» فقال جابر: أنا، ففتح النبي ﷺ وهو يقول: «أنا، أنا» يكررها كارِهًا لها، لأن كلمة «أنا» لا فائدةَ منها في تعريف المتكلِّم، فكيف يعرف صاحب الدار من بالباب؟! فالسُّنة أن يذكر الرجل اسمه عند الاستئذان، وجبريل عليه السلام فعل ذلك، فعرف نفسه.

قوله: «**قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ**» يعني: أن السماء لا يدخلها أحد إلا بإذن، وأن للسماء حراسًا وأبوابًا وإن كنا لا نرى شيئًا من ذلك، لكن هذا الحديث يبين أن للسماء بَوَّابِين وحجبة، يَقِفون على أبواب السماء، وأنها منظمة مرتبة، لا يدخلها أحد إلا بإذن، ولا يخرج إلا بإذن، كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ [سبأ: ٢]، فكل ذلك بإذن من الله تعالى، العليم الخبير، الذي أحاط علمه بكل شيء.

قوله: «**فَفُتِحَ لَنَا؛ فَإِذَا أَنَا بِآدَمَ، فَرَحَّبَ بِي وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ**» في ترحيب الأنبياء بالرسول ﷺ في السماء الأولى، وفي الثانية وهكذا: استحباب لقاء أهل الفضل والعلم بالبِشْر والترحيب، والكلام الحسن، والدعاء لهم؛ لأن

---

(١) رواه البخاري في مواضع أولها (٦/٤٢٨)، ومسلم في الإيمان (١/١٥٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.



(مرحبًا) معناها: قد حللت على الرحب والسعة، وإن كان المستقبل أفضل منه، فإنه يستحب له أيضًا أن يلقى أهل العلم والفضل دونه بالدعاء بالخير والترحيب، لما فيه من صلاح القلوب وزيادة المودة.

وفيه أيضًا: مدح الإنسان في وجهه، وهذا إذا أمن عليه الإعجاب بنفسه وغيره من أسباب الفتنة، وقد ثبت أن النبي ﷺ مدح كثيرًا من أصحابه لقوة إيمانهم ويقينهم.

قوله: «**فَإِذَا أَنَا بِإِبْرَاهِيمَ ﷺ مُسْنِدًا ظَهْرَهُ إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ**» يستدل به على جواز الاستناد إلى القبلة وتحويل الظهر إليها؛ لأن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ قد أسند ظهره إلى البيت المعمور، وهو قبلة أهل السماء كما قالوا. وقيل: إنه حيال البيت الحرام.

قوله: «**وَإِذَا هُوَ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ**» دليل على كثرة الملائكة وأعدادهم، وأنهم خلق كثير جدًا، لا يعلم عددهم إلا الله تبارك وتعالى، خالقهم جل وعلا ومحصي كل شيء عددًا.

قوله: «**فَأَوْحَى اللهُ إِلَيَّ مَا أَوْحَى، فَفَرَضَ عَلَيَّ خَمْسِينَ صَلَاةً فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ**» فيه تعظيم الصلاة وفضلها عند الله تبارك وتعالى، وأنها اختصت من بين سائر الفرائض بأن فرضت بغير واسطة أولًا.

والأمر الثاني: أنها فُرضت بالمحل الأعلى، في السماوات العلى، وكذا هي في الدين لها المنزلة العليا.

وفي نسخ الخمسين صلاة إلى خمس صلوات: جواز نسخ الحكم قبل وقوع الفعل. يعني: قبل أن تعمل به الأمة، وهناك أمثلة أخرى لهذا: كما في نسخ الصدقة في مناجاة الرسول ﷺ.



ويؤخذ أيضًا: من خطاب موسى - عليه الصلاة والسلام - مع رسول الله ﷺ: فضل التجربة، وأنها قد تفوق المعرفة الكثيرة، فموسى - عليه الصلاة والسلام - قد جَرَّب بني إسرائيل وعالجهم كما قال، فنصح النبي ﷺ بما خبر الناس به.

وفيه أيضًا: بذلُ النصيحة لمن يحتاج إليها، وإن كان لم يستشر الناصح، فالرسول - عليه الصلاة والسلام - لم يستشر موسى، لكن موسى - عليه الصلاة والسلام - رأى أن هذا واجب عليه، فأدَّى النصيحة قبل أن يسألها، فأشار على النبي - عليه الصلاة والسلام - بما رآه خيرًا.

وأيضًا من فوائد الحديث: فضل السير بالليل على السير بالنهار؛ لأن الإسراء كان ليلًا، وكان ﷺ كما قال الحافظ ابن حجر: أكثر سفره ﷺ بالليل. وقال - عليه الصلاة والسلام - موصيًا أمته: «**عليكم بالدلجة، فإن الأرض تطوى بالليل**»(١).

يعني: أن السير بالليل تُطوى فيه الأرض، بمعنى: تقل فيه المسافات ويسهل السفر على المسافر، وهذا مُجَرَّب ومحسوس، وهو من عجائب الخلق، ودلائل النبوة.

** ** **

(١) حديث صحيح، رواه أبو داود (٢٥٧١).



باب: ذكر النبي ﷺ الأنبياء عليهم السلام

(٧٧) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ سِرْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ، فَمَرَرْنَا بِوَادٍ، فَقَالَ: «أَيُّ وَادٍ هَذَا؟» فَقَالُوا: وَادِي الْأَزْرَقِ، فَقَالَ: «كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى مُوسَى ﷺ»، فَذَكَرَ مِنْ لَوْنِهِ وَشَعَرِهِ شَيْئًا، لَمْ يَحْفَظْهُ دَاوُدُ وَاضِعًا إِصْبَعَيْهِ فِي أُذُنَيْهِ، لَهُ جُؤَارٌ إِلَى اللهِ بِالتَّلْبِيَةِ مَارًّا بِهَذَا الْوَادِي، قَالَ: ثُمَّ سِرْنَا حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى ثَنِيَّةٍ، فَقَالَ: «أَيُّ ثَنِيَّةٍ هَذِهِ؟» قَالُوا: هَرْشَى أَوْ لِفْتٌ، فَقَالَ: «كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى يُونُسَ عَلَى نَاقَةٍ حَمْرَاءَ، عَلَيْهِ جُبَّةُ صُوفٍ، خِطَامُ نَاقَتِهِ لِيفٌ خُلْبَةٌ، مَارًّا بِهَذَا الْوَادِي مُلَبِّيًا».

❖ **الشرح:**

الحديث رواه مسلم في الإيمان بعد حديث الإسراء السابق.

قوله: «فَذَكَرَ مِنْ لَوْنِهِ وَشَعَرِهِ شَيْئًا، لَمْ يَحْفَظْهُ دَاوُدُ» داود هو ابن أبي هند الراوي عن أبي العالية الراوي عن ابن عباس. وهو القشيري البصري ثقة متقن، كان يهم بأخرة، من رجال مسلم.

قوله: «وَاضِعًا إِصْبَعَيْهِ فِي أُذُنَيْهِ لَهُ جُؤَارٌ» الجؤار: هو رفع الصوت، جأر يجأر يعني: رفع صوته، كما قال الله ﷻ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ ٦٤﴾ [المؤمنون].

والإصبع فيها عشر لغات: كسر الهمزة وفتحها وضمها، وفتح الباء وكسرها وضمها، والعاشرة: الأصبوع: على وزن عصفور.



قوله: «ثُمَّ سِرْنَا حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى ثَنِيَّةٍ» الثنية هي: التلة أو الجبل المرتفع.

قوله: «خُلْبَةٌ» الخلبة هو الليف.

*** أما فوائد هذا الحديث:**

فقوله: «فَمَرَرْنَا بِوَادٍ، فَقَالَ: «أَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟» فَقَالُوا: وَادِي الْأَزْرَقِ» الصحابة ﭫ هنا لما سألهم النبي ﷺ عن اسم الوادي أجابوه، مع أنه لما سألهم يوم النحر «أَيُّ وَادٍ هَذَا؟» قالوا: الله ورسوله أعلم؟ فما الفرق بين الأمرين؟ قالوا: لأن سؤاله ـ عليه الصلاة والسلام ـ يوم النحر، سؤال عن شيء واضح معلوم لدى الجميع، ولذلك قالوا: الله ورسوله أعلم، طمعًا بما يُفيدهم به النبي ﷺ من الفوائد، عسى أن يخبرهم بشيء جديد، لكن هنا لما قال: «أَيُّ وَادٍ هَذَا؟» لا يلزم أن النبي ﷺ يكون قد علم اسم الوادي بل سؤاله سؤال استفهام حقيقي، وأنه لا يعلم اسمه.

ومن طريقة النبي ﷺ في التعليم: أنه يسأل من أجل أن يجذب الانتباه، فيسأل الجلساء عن الشيء المعلوم من أجل أن يجذب انتباههم، وهذه طريقة من طرائق المعلمين التي أوصى بها علماء التربية قديمًا وحديثًا، والرسول ﷺ كان يستعملها كثيرًا مع أصحابه من أجل أن لا يغفل الواحد منهم في الحلقة أو الدرس.

قوله: «كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى مُوسَى ﷺ» هذا فيه أقوال: قالوا: إن الأنبياء أحياء، وهم أولى من الشهداء بالحياة، ومن كان حيًا فلا يمتنع أن يحج، وأن يذكر الله، وأن يصلي!! وهذا فيه نظر ـ والله أعلم ـ فذكر الله تعالى والصلاة لا تحتاج إلى سفر وانتقال، بخلاف الحج

والأصوب من الأقوال: أن الرسول ﷺ مثلت له حالة حجهم، وحالة



تلبيتهم، فرآها بعينه كأنه فتحت له نافذة إلى الغيب، فرأى كيف حَجُّوا، وكيف لَبُّوا، وكيف مرُّوا بهذا الوادي فقال: «**كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى مُوسَى ﷺ**» رآها رأي عين - عليه الصلاة والسلام -، وهذا لا شك أنه من دلائل نبوته.

ويمكن أن يقال أيضًا: إن الله ﷻ قد أوحى إليه من أمرهم، وما كان من حالهم في حجهم، حتى كأنه رآها رأي عين لشدة يقينه.

يعني: أخبره بنفاصيل أحوالهم وحجهم حتى كأنه رآها بعينه «**فَقَالَ: كَأَنِّي أَنْظُرُ..**» ولم يقل: رأيت، والإنسان إذا وصف له شيء بوصف دقيق مفصل كأنه يراه قال: كأني أنظر إلى كذا، وإن لم يره رأيَ عين، لشدة اليقين كما قلنا.

قوله: «**وَاضِعًا إِصْبَعَيْهِ فِي أُذُنَيْهِ، لَهُ جُؤَارٌ**» فيه: أن رفع الصوت بالتلبية سنة من سنن الأنبياء، وهو كذلك في شرعنا، ففي شرعنا: رفع الصوت بالتلبية سنة، والرسول ﷺ جاءه جبريل فأمره أن يأمر أصحابه بأن يرفعوا أصواتهم بالتلبية، وقال - عليه الصلاة والسلام -: «**أفضل الحج: العج والثج**»(١) والعج هو: رفع الصوت بالتلبية، والثج: هو إراقة الدم في الهدي والأضاحي.

وهذا كما قال العلماء خاص بالرجال، أما النساء فتلبِّي تُسمع نفسها أو تُسمع رفيقتها، وأما الرجال فيشرع لهم رفع الأصوات بالتلبية، وكان الصحابة ﷺ يرفعون أصواتهم حتى تُبَحَّ أصواتهم.

وأيضًا يستفاد منه: استحباب وضع الإصبع في الأذن عند رفع الصوت بالأذان، ونحوه مما يستحب له رفع الصوت، وهذا الاستحباب

---

(١) حديث صحيح، رواه الترمذي (٨٣٤)، وابن ماجه (٢٩٢٤)، وغيرهما من حديث أبي بكر الصديق ﵁.



أيضًا ورد في شرعنا، أن بلال ﷺ مؤذن النبي ﷺ ثبت أنه إذا أذن وضع أصبعيه في أذنيه.

وفيه أيضًا: دليلٌ لمذهب مَن يقول: إن شرع لمن قبلنا شرعٌ لنا. لكن نقول: شرع من قبلنا شرع لنا، بشرط: أن لا يجيء في شرعنا ما ينسخه، أي: أن لا يأتي في الشرع المحمدي ما يدل على أنه منسوخ، فإذا ورد في شرعنا ما يدل على أنه منسوخ؛ فإنه: ليس بشرع لنا.

قوله: «**حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى ثَنِيَّةٍ، فَقَالَ: «أَيُّ ثَنِيَّةٍ هَذِهِ؟»**» وهذا أيضًا سؤال استفهامي من النبي ﷺ.

قوله: «**قَالُوا: هَرْشَى أَوْ لِفْتٌ**» وهي ثنيه على طريق الشام.

قوله: «**فَقَالَ: «كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى يُونُسَ عَلَى نَاقَةٍ حَمْرَاءَ، عَلَيْهِ جُبَّةُ صُوفٍ»**»

فيه: تواضع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأنهم كانوا يلبسون من الثياب الخشن، وما كانوا من ترك المبالغة في الترف والزينة، فلم يلبس الحرير، بل كان عليه جُبَّة من صوف، ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهو نبي من أنبياء الله.

وكذا قوله: «**خِطَامُ نَاقَتِهِ لِيفٌ**» والخطام هو ما يوضع في أنف الناقة لتقاد به.

فمم كان هذا الحبل؟ هل كان من أبريسم؟ هل كان من الحرير؟ قال «**لِيفٌ**» وهذا أيضًا دليل ثانٍ على تواضع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأنهم كانوا يرضون بالخشن من الملابس والمراكب في الحياة الدنيا.

وقوله: «**مَارًّا بِهَذَا الْوَادِي مُلَبِّيًا**» وهذا والذي قبله، دليل واضح أن البيت كان يحجُّه الأنبياء، منذ أن بناه إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأذن في الناس بالحج: لم يزل الأنبياء يحجونه، والنبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ ذكر في هذا الحديث: حجَّ موسى وحجَّ يونس عليهما أفضل الصلاة والتسليم.



(٧٨) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «حِينَ أُسْرِيَ بِي لَقِيتُ مُوسَى ﷺ، فَنَعَتَهُ النَّبِيُّ ﷺ، فَإِذَا هُوَ رَجُلٌ، حَسِبْتُهُ قَالَ: مُضْطَرِبٌ، رَجِلُ الرَّأْسِ، كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ، قَالَ: وَلَقِيتُ عِيسَى فَنَعَتَهُ النَّبِيُّ ﷺ، فَإِذَا هُوَ رَبْعَةٌ أَحْمَرُ، كَأَنَّهُ خَرَجَ مِنْ دِيمَاسٍ، يَعْنِي حَمَّامًا، قَالَ: وَرَأَيْتُ إِبْرَاهِيمَ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ، وَأَنَا أَشْبَهُ وَلَدِهِ بِهِ، قَالَ: فَأُتِيتُ بِإِنَاءَيْنِ فِي أَحَدِهِمَا لَبَنٌ وَفِي الْآخَرِ خَمْرٌ، فَقِيلَ لِي: خُذْ أَيَّهُمَا شِئْتَ، فَأَخَذْتُ اللَّبَنَ، فَشَرِبْتُهُ، فَقَالَ: هُدِيتَ الْفِطْرَةَ، أَوْ أَصَبْتَ الْفِطْرَةَ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ أَخَذْتَ الْخَمْرَ غَوَتْ أُمَّتُكَ.

❖ الشرح:

هذا الحديث الثاني في هذا الباب: باب ذكر النبي ﷺ الأنبياء.

والحديث رواه مسلم في الإيمان بعد حديث الإسراء السابق:

قوله: «**فَنَعَتَهُ النَّبِيُّ ﷺ، فَإِذَا هُوَ رَجُلٌ، حَسِبْتُهُ قَالَ: مُضْطَرِبٌ**»

المضطرب: وفي رواية أخرى سيأتي ذكرها: أنه ضرب من الرجال.

والضرب من الرجال هو: الرجل بين الرجلين، بين السمين وبين النحيف، وبين الطويل وبين القصير.

والمضطرب قالوا هو: الطويل غير الشديد، وضد المكتنز اللحم. ورجَّح النووي وغيره رواية: «**ضرب من الرجال**» على رواية: «**مضطرب**».

قوله: «**رَجِلُ الرَّأْسِ**» يعني: رجل الشعر، يقصد بالرجل: الرجل صاحب الشعر الدهين المسترسل، يعني: أن شعره غير جعد.

قوله: «شَنُوءَةَ» شنوءة: حي من اليمن، ينسبون إلى عبد الله بن كعب يرجع إلى الأزد، وشنوءة: لقب، قالوا: لشنئان كان بينه وبين أهله، يعني: بغضاء، فسمي شنوءة.

والشنئان: هو البغضاء، كما قال ﷻ: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟﴾ [المائدة: ٨].

ويقول الداوودي: أن رجال الأزد معروفون بالطول.

قوله: «رَبْعَةٌ» والربعة هو: الرجل المربوع ليس بالطويل ولا بالقصير، بل هو ربعة، يعني: وسط في الرجال.

قوله: «أَحْمَرُ» يعني: أنه أشقر، أو أحمر الجلد، ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

قوله: «كَأَنَّمَا خَرَجَ مِنْ دِيمَاسٍ، يَعْنِي حَمَّامًا» فسر الراوي: معنى الديماس، قال: هو الحمام.

وأصل الديماس في اللغة هو: السرب الذي يكون في باطن الأرض. أو: الكن، والحمَّام كَنٌّ، يكن الإنسان من البرد عند الاغتسال.

ووصفه بذلك: لصفاء وجهه، ونظارته، وأيضًا لارتواء بشرته فعليها من قطرات الماء ما عليها، يعني: من كثرة الماء الذي على وجهه، كأنه خرج من ديماس.

وجاء أيضًا: أنه إذا نزل في آخر الزمان، إذا خفض رأسه قطر، ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

قوله: «قَالَ: وَرَأَيْتُ إِبْرَاهِيمَ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ، وَأَنَا أَشْبَهُ وَلَدِهِ بِهِ»



رأى إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ أبو الأنبياء، فإذا هو من أشبه الناس بنبينا محمد ﷺ، وصفة محمد ﷺ معروفة وموصوفة مشهورة في الأحاديث الصحيحة.

وقد اختصر الرسول ﷺ وصفه، فكأنه قال: من أراد أن ينظر إلى إبراهيم فلينظر إلي، فلم يذكر ماله من الصفات لكونها معلومة لدى الصحابة لرؤيتهم لنبينا ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

من فوائد الحديث: ما ذكرنا في الدرس السابق أن ربنا ﷻ قد جمع للنبي ﷺ الأنبياء فلقيهم، وقد ذكرنا في لقيا الأنبياء في الحديث قبل السابق أقوال أهل العلم فيه: فبعض أهل العلم قال: إن الله ﷻ قد جمع له أرواحهم فرآها. ولا يبعد أن يقال: إن الله ﷻ قد جمعهم له بهيئتهم، وصلَّى بهم، وإن كان هذا على خلاف ما هو معلوم لدينا: من أن الإنسان إذا مات: صار في قبره، وكانت روحه في السماء، لكن هذا على العادة، والله تبارك وتعالى قادر على خرق العادة متى شاء لمن شاء.

ومن ذلك أن الإنسان إذا مات لا يرجع، لكن قد يحصل على خرق للعادة، وقد حصل هذا أكثر من مرة، قال ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣]. فربنا ﷻ قد أمات أقوامًا وأحياهم، مع العلم: أنه من مات لا يرجع، كما قال تعالى: ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ۝٣٩﴾ [القصص: ٣٩]، فهذا هو الأصل: أن من فارق الدنيا لا يرجع إليها، لكن خرق الله عز وجل بهذا العادة في عدة مواضع، ومنها توفيه «لعزير» عليه السلام وبعثه بعد مائة عام[1]

(١) وهذا هو القول المشهور في تفسير الآية (٢٥٩) من البقرة، انظر تفسير ابن كثير (٢٢٢١/١) بتحقيقنا.



وإذا طعامه وشرابه لم يتغير، وكإحياء الله ﷿ لقتيل بني إسرائيل بضربة ببعض أجزاء البقرة.

فالحاصل أن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ قد رأى موسى وعيسى وإبراهيم عليهم الصلاة والسلام ونعتهم ووصفهم لأصحابه، وهذا من معجزاته ودلائل نبوته ﷺ.

** ** **

باب: في ذكر النبي ﷺ المسيح عليه السلام والدجال

(٧٩) عَنْ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما: ذَكَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمًا بَيْنَ ظَهْرَانَيْ النَّاسِ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ، فَقَالَ: «إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَيْسَ بِأَعْوَرَ، أَلَا إِنَّ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ أَعْوَرُ عَيْنِ الْيُمْنَى، كَأَنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ»، قَالَ: وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَرَانِي اللَّيْلَةَ فِي الْمَنَامِ عِنْدَ الْكَعْبَةِ، فَإِذَا رَجُلٌ آدَمُ كَأَحْسَنِ مَا تَرَى مِنْ أُدْمِ الرِّجَالِ، تَضْرِبُ لِمَّتُهُ بَيْنَ مَنْكِبَيْهِ، رَجِلُ الشَّعْرِ، يَقْطُرُ رَأْسُهُ مَاءً، وَاضِعًا يَدَيْهِ عَلَى مَنْكِبَيْ رَجُلَيْنِ، وَهُوَ بَيْنَهُمَا يَطُوفُ بِالْبَيْتِ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالُوا: الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ، وَرَأَيْتُ وَرَاءَهُ رَجُلًا، جَعْدًا قَطَطًا أَعْوَرَ الْعَيْنِ الْيُمْنَى، كَأَشْبَهِ مَنْ رَأَيْتُ مِنَ النَّاسِ بِابْنِ قَطَنٍ، وَاضِعًا يَدَيْهِ عَلَى مَنْكِبَيْ رَجُلَيْنِ، يَطُوفُ بِالْبَيْتِ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: هَذَا الْمَسِيحُ الدَّجَّالُ».

❖ الشرح:

الحديث أخرجه مسلم في الإيمان، وبوب عليه النووي (٢/٢٣٥) باب ذكر المسيح مريم والمسيح الدجال.

قوله: «**بَيْنَ ظَهْرَانَيْ النَّاسِ**» يعني: بين أظهرهم.

قوله: «**الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ**» سمي بذلك لأنه ممسوح العين، وقيل: لأنه أعور، والأعور يسمى مسيحًا، وقيل: لمسحه الأرض حين خروجه، أي: قطعة لها وسعيه في أرجائها.

قوله: «**إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَيْسَ بِأَعْوَرَ**» دليل على إثبات صفة العينين



لربنا تبارك وتعالى بلا كيف، وهو مذهب أئمة أهل السنة كالدارمي وابن خزيمة وغيرهم، وقد وصف الله تبارك وتعالى نفسه بذلك، فقال ﴿تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤]، وقال: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨]، وقوله: ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ٣٩﴾ [طه].

ومن السنة النبوية هذا الحديث الشريف[(١)].

قوله: «**أَلَا إِنَّ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ أَعْوَرُ عَيْنِ الْيُمْنَى**» سمي الدجال مسيحًا؛ لأنه ممسوح العين، وقيل: لأنه أعور، والأعور يسمى مسيحًا. وقيل: لمسحه الأرض حين خروجه، وقيل غير ذلك. هو مسيح الضلالة، أما عيسى عليه السلام فهو مسيح الهدى.

وقوله: «**أَعْوَرُ الْعَيْنِ الْيُمْنَى**» وفي الرواية الآخرى: «**أعور العين اليسرى**» ويجمع بينهما أن كل واحدة منهما عوراء، بمعنى معيبة، فإحداهما ذهبت بالكلية والآخرى بها عيب[(٢)].

وقوله: «**كَأَنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ**» روي بالهمز وبغير همز، والهمز معناه: ذهب ضوؤها، ومن لم يهمز معناه: ناتئة بارزة، كنتوء حبة العنب.

وقوله: «**أَرَانِي اللَّيْلَةَ فِي الْمَنَامِ عِنْدَ الْكَعْبَةِ، فَإِذَا رَجُلٌ آدَمُ كَأَحْسَنِ مَا تَرَى مِنْ أُدْمِ الرِّجَالِ**» الآدم هو الآسمر، ووصف في رواية أبي هريرة رضي الله عنه بأنه أحمر، وفي البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه أنكر رواية أحمر، وحلف أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقله، وأنه اشتبه على الراوي[(٣)].

قال النووي: فيجوز أن يتأول الأحمر على الآدم، ولا يكون المراد

---

(١) انظر تعليقنا على «إبطال التأويلات» (٢/٣٤٧) للقاضي أبي يعلى رحمه الله من إثبات هذه الصفة.

(٢) بنحوه قال القاضي عياض، شرح مسلم (٢/٢٣٥).

(٣) المصدر السابق (٢/٢٣٣).



حقيقة الآدمة والحمرة بل ما قاربها، والله أعلم.

قوله: «تَضْرِبُ لِمَّتُهُ بَيْنَ مَنْكِبَيْهِ» اللمة بكسر اللام وتشديد الميم وجمعها لمم، هو الشعر المتدلي الذي جاوز شحمة الأذن، فإذا بلغ المنكبين فهو جمة.

قوله: «رَجِلُ الشَّعْرِ» أي: ليس شديد الجعودة ولا سبطًا.

قوله: «يَقْطُرُ رَأْسُهُ مَاءً» أي: يقطر بالماء الذي رجلها به، لقرب ترجيله أي: تمشيطه. ويمكن أن يكون عبارة عن نظارته وحسنه وجماله.

قوله: «وَاضِعًا يَدَيْهِ عَلَى مَنْكِبَيْ رَجُلَيْنِ، وَهُوَ بَيْنَهُمَا يَطُوفُ بِالْبَيْتِ» وطوافه كان منامًا، كما في أول الحديث «أَرَانِي اللَّيْلَةَ فِي الْمَنَامِ عِنْدَ الْكَعْبَةِ» وعلى هذا أيضًا يحمل طواف الدجال بالبيت؛ لأنه قد ورد في الصحيح أنه لا يدخل مكة ولا المدينة.

قوله: «فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالُوا: الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ» اختلف العلماء في سبب تسميته «مسيحًا» فروي عن ابن عباس ﵄: لأنه لم يسمح ذا عاهة إلا برئ. وقيل: لمسحه الأرض أي: قطعها في الدعوة إلى الله تعالى والبلاغ.

وقيل: لأنه مسح بالبركة حين ولد. وقيل: لأن الله تعالى مسحه، أي: خلقه خلقًا حسنة، وقيل غير ذلك.

قوله: «وَرَأَيْتُ وَرَاءَهُ رَجُلًا، جَعْدًا قَطَطًا» أي: أي: شعره جعد شديد الجعودة غير بسط.

قوله: «أَعْوَرَ عَيْنِ الْيُمْنَى، كَأَشْبَهِ مَنْ رَأَيْتُ مِنْ النَّاسِ بِابْنِ قَطَنٍ» تشبيه بابن قطن لا يوجب ذمًا لابن قطن.

وفي البخاري: أن ابن قطن كان رجلًا من بني المصطلق من خزاعة، هللا في الجاهلية[1].

---

(١) «الفتح» كتاب الفتن (١٣/٩٨).



باب: صلى النبي ﷺ بالأنبياء عليهم السلام

(٨٠) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَقَدْ رَأَيْتُنِي فِي الْحِجْرِ، وَقُرَيْشٌ تَسْأَلُنِي عَنْ مَسْرَايَ، فَسَأَلَتْنِي عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ لَمْ أُثْبِتْهَا؛ فَكُرِبْتُ كُرْبَةً مَا كُرِبْتُ مِثْلَهُ قَطُّ، فَرَفَعَهُ اللهُ لِي أَنْظُرُ إِلَيْهِ، مَا يَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ إِلَّا أَنْبَأْتُهُمْ بِهِ، وَقَدْ رَأَيْتُنِي فِي جَمَاعَةٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، فَإِذَا مُوسَى ﷺ قَائِمٌ يُصَلِّي، فَإِذَا رَجُلٌ ضَرْبٌ جَعْدٌ، كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ، وَإِذَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﷺ قَائِمٌ يُصَلِّي، أَقْرَبُ النَّاسِ بِهِ شَبَهًا عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيُّ، وَإِذَا إِبْرَاهِيمُ ﷺ قَائِمٌ يُصَلِّي، أَشْبَهُ النَّاسِ بِهِ صَاحِبُكُمْ، يَعْنِي نَفْسَهُ، فَحَانَتْ الصَّلَاةُ، فَأَمَمْتُهُمْ، فَلَمَّا فَرَغْتُ مِنَ الصَّلَاةِ قَالَ لِي قَائِلٌ: يَا مُحَمَّدُ، هَذَا مَالِكٌ صَاحِبُ النَّارِ، فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَالْتَفَتُّ إِلَيْهِ فَبَدَأَنِي بِالسَّلَامِ.

❖ **الشرح:**

الحديث رواه مسلم في الإيمان وبوب عليه النووي (٢/٢٢٧) باب ذكر المسيح ابن مريم ﷺ والمسيح الدجال.

قوله: «**لَقَدْ رَأَيْتُنِي فِي الْحِجْرِ**» الحجر هو المشهور اليوم: بحِجْر إسماعيل، وهو من البيت، لكن لما أرادت قريش أن تبني الكعبة، بعد أن وهي بنيانها، قالوا: لا ندخل في بناء هذا البيت إلا ما كان من نفقة حلال طيبة، فقصرت بهم النفقة ولم يستطيعوا إكمال البيت على قواعد إبراهيم، فبقي الحجر وهو ركن من أركان البيت، خارجًا عن البيت، ولهذا لا يصح



الطواف بين الحجر والبيت؛ لأن من طاف بين الحجر والبيت فكأنما طاف داخل البيت، ولابد من أن يكون الطواف خارج الحجر، ومن صلى في الحجر فكأنما صلى في البيت.

قوله: «**وَقُرَيْشٌ تَسْأَلُنِي عَنْ مَسْرَايَ**» مرَّ معنا أن الإسراء أو المسرى هو السير بالليل.

قوله: «**فَكُرِبْتُ كُرْبَةً مَا كُرِبْتُ مِثْلَهُ قَطُّ**» الكربة هو: الهم والغم الشديد، الذي يأخذ بنفس الإنسان.

قوله: «**فَإِذَا مُوسَى** عليه السلام **قَائِمٌ يُصَلِّي، فَإِذَا رَجُلٌ ضَرْبٌ**» مرَّ معنا أن الرجل الضرب هو: الذي يكون بين الرجلين، بين السمين والنحيف، وبين الطويل والقصير المكتنز، فهو رجل بين رجلين.

قوله: «**وَإِذَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ** عليه السلام **قَائِمٌ يُصَلِّي، أَقْرَبُ النَّاسِ بِهِ شَبَهًا عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيُّ**» عروة أحد أصحابه رضي الله عنهم.

قوله: «**يَا مُحَمَّدُ هَذَا مَالِكٌ صَاحِبُ النَّارِ**» صاحب النار يعني: خازن النار. وسُمِّي مالك: من الملك والقدرة والشدة، التي تتناسب مع حال أهل النار.

في هذا الحديث: أن النبي صلى الله عليه وسلم سُئل عن صفات بيت المقدس، ولما سئل عن بعض الصفات التي لم يثبتها، يعني: التي لم ينتبه لها ـ عليه الصلاة والسلام ـ؛ لأنه جاء المسجد الأقصى وصلى فيه بالأنبياء، ولكن الإنسان إذا دخل مكانًا ربما تغيب عنه بعض صفاته.

فسُئل عن أشياء لم يثبتها ـ عليه الصلاة والسلام ـ، فعند ذلك كرب كربًا عظيمًا؛ لأنه إذا قال: لا أدري أو لا أعلم، كان هذا سببًا لتكذيب قريش

له، وأنه لم يأتِ المسجد الأقصى؛ لأن الإنسان إذا جاء المكان يستطيع أن يصفه، كما هو معلوم، ولكن الله تبارك وتعالى ما كان ليدع نبيه ﷺ، بل هو الذي أيده بنصره ﷺ، وبسائر معجزاته.

فرفعه الله إليه ينظر إليه، أي: رفع الله له بيت المقدس، ونظر إليه، فما سألوه عن شيء إلا أجابهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

فكان هذا سببًا لإقامة الحجة عليهم، وأنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ قد جاءه حقًّا لا إدعاء ولا زعمًا، وهم يعرفون النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ويعرفون خروجه ودخوله، ولهذا لما قال لهم إني جئت بيت المقدس لم يصدقوه، حتى جاءهم بهذه العلامة، فأقام بها الحجة عليهم، وفيه أيضًا كفاية لمن أراد الإيمان، وإقامة الحجة عليه، فمن لم يؤمن بعد هذا البيان يكون معاندًا لله والرسول؛ لأن في هذا برهان واضح.

قوله: «**وَقَدْ رَأَيْتُنِي فِي جَمَاعَةٍ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ**» الأظهر أن هذه رؤية عين، كما سبق فالنبي ﷺ رأى الأنبياء رؤيا عين في الإسراء لا رؤيا منام؛ لأن هذا هو ظاهر اللفظ، وأن الصلاة صلاة حقيقية، فيها الركوع والسجود.

فإذا قيل: إن النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ كما مرَّ معنا أنه في أثناء إسرائه مرَّ على موسى عليه السلام وهو قائم يصلي في قبره، ومرَّ على يونس عليه السلام وهو يصلي، فكيف الجمع بينها؟

فنقول: إن الجمع بين هذه الروايات: أن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ يحتمل أنه مرَّ بموسى وهو يصلي في قبره، ثم بعد ذلك سبقه إلى بيت المقدس، هو وإخوانه من الأنبياء، فصلى بهم جماعة، وأمَّهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ.



وقال بعض العلماء: إنه يحتمل أن النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ مَرَّ بموسى وهو يصلي في قبره، ثم سبقه إلى السماء حيث رآه في السماء السادسة، ثم عند نزوله إلى الأرض صلى به وبالأنبياء!! لكن لم يرد عنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنه حين رجوعه نزل إلى بيت المقدس، وإنما الوارد أنه أُسري به إلى بيت المقدس أولًا، ثم عرج به إلى السماء.

وعلى كل حال: فإن القدرة الإلَهية لا يُعجزها شيء، والله ﷻ قادر أن يجمع له الأنبياء في بيت المقدس، ثم يراهم في السماوات العلى بعد أن مرَّ على بعضهم وهو في قبره، فإن الله ﷻ لا يعجزه شيء، ونحن أُمِرْنا الإيمان بالغيب، وأما الكيفيات التي تعجز عقولنا عن الإحاطة بها، فإننا لا نخوض فيها؛ لأن الشرع جاء بمحارات العقول لا محالات العقول، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية: إن في النصوص من الكتاب والسنة أشياء تحتار فيها العقول لكنها ليست بمستحيله، فالشرع لا يأتي بما هومستحيل، يعني: لا يأتي بما هو غير كائنٍ أبدًا، ولكن في القرآن والسنة من الأمور ما تحتار فيها العقول، كما احتار الصحابة في قول الله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ [الفرقان: ٣٤]، قالوا: كيف يحشرهم الله ﷻ على وجوههم؟ فقال ﷺ: «**إن الذي أمشاهم في الدنيا على أرجلهم، قادر على أن يحشرهم يوم القيامة على وجوههم**»(١).

فالإيمان بالغيب هنا يظهر، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [البقرة: ٣]، ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧].

---

(١) رواه البخاري في التفسير (٤٩٢/٨)، وفي الرقاق (٣٧٧/١١)، ومسلم في صفات المنافقين وأحكامهم (٢١٦١/٤) من حديث أنس ﷺ.



وفي الحديث أيضًا: أن النبي ﷺ شبه بعض أصحابه بعيسى - عليه الصلاة والسلام -، وهو عُروة بن مسعود الثقفي، وشبه نفسه بإبراهيم، أنه من أقرب الناس شبهًا بإبراهيم - عليه الصلاة والسلام -.

وفي الحديث: أن اسم خازن النار: مالك، وهذا أيضًا جاء في كتاب الله تعالى في قوله ﷻ: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الزخرف].

فهو ثابت في الكتاب والسنة، والله سبحانه أعلم.

** ** **

باب: انتهاء النبي ﷺ إلى سدرة المنتهى في الإسراء

(٨١) عَنْ عَبْدِ اللهِ بن مسعود ﷺ قَالَ: لَمَّا أُسْرِيَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ انْتُهِيَ بِهِ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، وَهِيَ فِي السَّمَاءِ السَّادِسَةِ، إِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يُعْرَجُ بِهِ مِنْ الْأَرْضِ، فَيُقْبَضُ مِنْهَا، وَإِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يُهْبَطُ بِهِ مِنْ فَوْقِهَا فَيُقْبَضُ مِنْهَا، قَالَ: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ قَالَ: فَرَاشٌ مِنْ ذَهَبٍ، قَالَ: فَأُعْطِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ثَلاثًا: أُعْطِيَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ، وَأُعْطِيَ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وَغُفِرَ لِمَنْ لَمْ يُشْرِكْ بِاللهِ مِنْ أُمَّتِهِ شَيْئًا الْمُقْحِمَاتُ.

❖ الشرح:

الحديث رواه مسلم في الإيمان، وبوَّب عليه النووي (٢/٣) باب في ذكر سدرة المنتهى.

قوله: «**انْتُهِيَ بِهِ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، وَهِيَ فِي السَّمَاءِ السَّادِسَةِ**» ومر معنا في حديث الإسراء الطويل أنها في السماء السابعة، ويمكن الجمع بين الروايتين: رواية أنس بن مالك: أنها في السابعة، ورواية عبد الله بن مسعود: أنها في السادسة، أن أصل سدرة المنتهى في السماء السادسة وتنتهي لعظمتها وطولها إلى السماء السابعة.

قوله: «**إِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يُعْرَجُ بِهِ مِنْ الْأَرْضِ، فَيُقْبَضُ مِنْهَا، وَإِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يُهْبَطُ بِهِ مِنْ فَوْقِهَا فَيُقْبَضُ مِنْهَا**» هذا هو سبب تسميتها بسدرة المنتهى، أن هذه السدرة ينتهي إليها ما يأتي من فوق، وينتهي إليها ما يعرج

به من الأسفل، فما يعرج به من الأسفل من روح وغيره وعمل صالح، يصل إلى سدرة المنتهى، وإليها أيضًا ينتهي ما يهبط به من فوقها: من علم، أو خير، أو بركة، أو غيره.

ومرَّ معنا صفة سدرة المنتهى، وأن ورقها كآذان الفيلة، ونبقها كقلال هجر.

قوله: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ يعني: لما غشيها من أمر الله ما غشيها؛ غشيها ألوان، وقال هنا:

قوله: «**فَرَاشٌ مِنْ ذَهَبٍ**» والفراش ما يطير من الحشرات وغيره، لكن هذا الفراش من ذهب، لما غشيها من أمر الله ﷻ ما يغشى.

وفي رواية: «**وألوان لا أدري ما هي**» يعني: من حسنها وجمالها ما استطاع النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يَصِفَها، بل هي فوق الوصف من جمالها، وبهائها، وحسنها.

قوله: «**قَالَ: فَأُعْطِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ثَلَاثًا: أُعْطِيَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ**» النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ أُعطي الصوات الخمس في المعراج، في السماوات العلى، وهذا يدلُّ على فضل الصلاة وكرامتها على الله، وأنها أكرم عبادة تقرَّب بها العباد إلى ربهم، ولم يرض الله بأن تفرض على الأرض حتى فرضها في السماوات العلى بلا واسطة، فحَرِيٌّ بالمسلم أن يُحافظ على وقتها قدر استطاعته، فلا يشاغل في وقت الصلاة المفروضة ببيع، ولا تجارة، ولا زيارة، ولا عمل، ولا مجلس، ولا كلام، ولا طعام، ولا أي شيء، بل ينبغي له أن يقدم الصلاة على ذلك كله؛ لأن لها حرمة عظيمة عند الرب ﷻ.



وكان بعض السلف إذا رفع المطرقة وسمع «الله أكبر» لم ينزلها.

وقال سعيد بن المسيب رحمه الله: ما أذن بالصلاة منذ أربعين سنة إلا وأنا في المسجد. هكذا كان السلف يتسابقون على الصلوات المفروضات، والرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ يقول: «**لا يزال قوم يتأخرون؛ حتى يؤخرهم الله**»[1] يعني حتى يؤخرهم الله في الدرجة، وفي الثواب، ويؤخرهم الله في المنزلة في الدنيا والآخرة. وفي رواية أبي داود: «**حتى يؤخرهم الله في النار**» إذ كان ذلك صفة دائمة للعبد أنه يتأخر ويتكاسل عن الصلوات المفروضة، فإن الله يعذبه على ذلك.

قوله: «**وَأُعْطِيَ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ**» هما الآياتان من آخر سورة البقرة، من عند قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥] إلى آخر السورة.

وفي المسند: «**وأعطيت هذه الآيات من آخر سورة البقرة، من كنز تحت العرش، لم يُعْطَها نبي قبلي**».

وهاتان الآيتان من قرأهما في ليلة كَفَتَاه، قيل: كفتاه من قيام الليل، فمن قرأهما بتدبر وإمعان نظر؛ كفتاه من قيام الليل، لما فيهما من الخير الكثير والفضل العميم.

وقيل: كفَتَاه من كل سوء، وهذا أيضًا وردت به الآثار، وأنها تعصم صاحبها من شرور الإنس والجن.

---

(١) رواه مسلم في الصلاة (٣٢٥/١) من حديث أبي سعيد الخدري، وأوله: أن رسول الله ﷺ رأى في أصحابه تأخرًا فقال لهم: «**تقدَّموا فأتَمُّوا بي، وليأتَمَّ بكم من بعدكم، ولا يزال قوم...**» ورواه أبو داود (٦٧٩) من حديث عائشة رضي الله عنها: «**لا يزال قوم يتأخرون عن الصَّفِّ الأول حتى يؤخرهم الله في النار**» وصححه ابن خزيمة وابن حبان.



ومن الأمور التي أُعطيها في المعراج المبارك؛ ما ذكره بقوله: «**وَغُفِرَ لِمَنْ لَمْ يُشْرِكْ بِاللهِ مِنْ أُمَّتِهِ شَيْئًا الْمُقْحِمَاتُ**» المقحمات: يعني الذنوب الكبيرة، التي تُقحم صاحبها في النار، أي: تدخله النار، والمراد أن الله ﷻ غفر لأمة محمد ﷺ الكبائر، يعني: أنه لا يخلدهم بها في النار، ولا يعني هذا أنه لا يعذب من وقع فيها مطلقًا؛ بل وردت الأحاديث والآيات في أن أصحاب الكبائر يُعذبون في النار، وإذا شاء الله ﷻ عفا عنهم، وأن نارهم لا تبقى، فأصحاب الكبائر نارهم فانية، بخلاف الكفار فنارهم باقية أبدًا، لا تفنى ولا تبيد ولا تخمد، وقد جاء في القرآن ذكر التأبيد لهم في النار في ثلاثة مواضع.

وفي الحديث: ذكر فضائل الرسول ﷺ، فإنه أعطي من الفضائل ما لم يُعْطَ نبي قبله، ففرضت عليه الصلوات الخمس في السماوات العلى، وفُضِّل على الأنبياء بخواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لم يشرك بالله من أمته شيئًا: المقحمات.

فاللهم صلِّي وسلم، وبارك وأنعم، على عبدك ونبيك محمد، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

** ** **

بابٌ: في قوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾

(٨٢) عن الشَّيْبَانِيِّ قَالَ: سَأَلْتُ زِرَّ بْنَ حُبَيْشٍ عَنْ قَوْلِ اللهِ ﷻ: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ فَقَالَ: أَخْبَرَنِي ابْنُ مَسْعُودٍ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى جِبْرِيلَ لَهُ سِتُّ مِائَةِ جَنَاحٍ.

❖ **الشرح:**

هذا الأثر رواه مسلم في الإيمان، وبوَّب عليه النووي (٣/٣) باب: في ذكر سدرة المنتهى.

ففي الحديث أن ابن مسعود سأله زِرُّ بن حبيش عن قول الله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ فأخبره ابن مسعود أن معنى هذه الآية: أن النبي ﷺ رأى جبريل عليه السلام له ستمائة جناح.

وهذا يدل على مذهب ابن مسعود في تفسير هذه الآية، وأنه رضي الله عنه كان يرى أن تفسير قوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ المراد به: جبريل عليه السلام، دنا منه النبي ﷺ ودنا هو من النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ، حتى كان مثل أو قدر قوسين (مثنى القوس الذي يُرمى به) أو ما هو أدنى من ذلك، فرأى جبريل عليه السلام له ستمائة جناح. وهذا فيه وصف عظم خلق جبريل عليه السلام، وهو مقدم الملائكة، ورئيسهم، دل على ذلك نصوص من القرآن ومن السنة.

فمنها: أن الله تعالى إذا ذكر الملائكة بالذكر، كقوله ﷻ: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ ٩٨﴾ [البقرة]، وقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾

وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾﴾ وغيرها.

وفي حديث ابن مسعود ﷺ: إن الله إذا حملكم بالوحي، سمع أهل السماء للسماء صلصلة كجر السلسة على الصفا، فيصعقون، فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل ﷺ، فإذا جاءهم جبريل فُزِّع عن قلوبهم، قال فيقولون: يا جبريل، ماذا قال ربك؟ فيقول: الحق، قال فينادون: الحق الحق»[1].

وحديث الباب يدُلُّ على فضله في الخلق، بأن له ستمائة جناح.

وفيه: أن للملائكة أجنحة يطيرون بها، كما قال ﷻ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ [فاطر: ١]، يعني: يزيد في خلقهم ما يشاء الله ﷻ، فمن الملائكة من له جناحان ومنهم من له ثلاثة، ومنهم من له أربعة، ومنهم من له أكثر من ذلك، يزيد الله تعالى في خلق بعضهم ما يشاء، حتى إن جبريل ـ عليه الصلاة والسلام ـ له ستمائة جناح يطير بها، وقد رآه ـ عليه الصلاة والسلام ـ كما في حديث عائشة الآتي[2]: أنه قد سد خلقه ما بين السماء والأرض.

وأما هذه الآية فقد وقع فيها خلاف في تفسيرها بين السلف: فذهب ابن مسعود وجماعة من السلف إلى أن المراد بقوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ هو جبريل دنا من النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ، كما ذكرنا.

وذهبت طائفة كابن عباس وغيره: أن المقصود بقوله تعالى ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾﴾ أن المقصود به: هو الله تعالى، كما أخرج ذلك الإمام مسلم، وأورده المنذري هنا، وهو الأثر الذي بعده.

---

(١) رواه عبد الله في «السنة» (ص٦٢)، وابن خزيمة في «التوحيد» (١/٣٥١)، والآجري في «الشريعة» (ص٢٩٤)، والبيهقي في «الأسماء» (٤٣٢) وغيرهم، وهو أثر موقوف له حكم الرفع، لأنه مما لا يقال بالرأي.

(٢) سيأتي في باب رؤية الله جل جلاله.



(٨٣) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣﴾ قَالَ: رَآهُ بِفُؤَادِهِ مَرَّتَيْنِ.

❖ **الشرح:**

يعني بقوله: «رَآهُ بِفُؤَادِهِ»: أنه رأى بفؤاده مرتين، وهذا مذهب ابن عباس.

فابن عباس ﷺ ذهب إلى أن محمد ﷺ قد اختصه الله بالرؤية، وورد عنه في أثر أخرجه ابن أبي عاصم في السنة[١]، وأخرجه أيضًا أبو يعلى الفراء في «إبطال التأويلات»[٢]، وغيرهم: أنه قال: «**أتعجبون أن تكون الخلة لإبراهيم، والكلام لموسى، والرؤية لمحمد ﷺ**».

فكان يذهب إلى أن محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ قد رأى ربه.

واختلفت الرواية عن ابن عباس: ففي روايات صحيحة عنه، كما في صحيح مسلم هنا أنه قال: «رَآهُ بِفُؤَادِهِ» يعني: رآه بقلبه. ويؤيد ذلك ما جاء في الحديث الصحيح عند الترمذي وغيره، وأخرجه أيضًا أبو يعلى في «التأويلات»[٣]: أن النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال: «**أتاني ربي في أحسن صورة**»، وفي رواية: «**رأيت ربي في أحسن صورة**» فقال: «**يا محمد أتدري فيما يختصم الملأ الأعلى**» قلت: «**الله أعلم، فوضع يده بين كتفي...**» الحديث، فهذا الحديث فيه أن النبي ﷺ رأى ربه رأيا منام، لا

(١) برقم (٤٤٢) وقال عنه الألباني رحمه الله: إسناده صحيح على شرط البخاري.

(٢) «إبطال التأويلات» (١/١٠٧) بتحقيقنا.

(٣) انظر «إبطال التأويلات» (١/١٠٣).



رؤيا عيان، وهو تأييد ـ أيضًا ـ لقول ابن عباس، لتفسيره المأثور عنه: أنه رآه بفؤاده وقلبه لا بعينه.

وورد عن ابن عباس روايات أخرى أنه رأى ربه بعينه، لكن هذا القول مرجوح عندي والله أعلم، لحديث عائشة الآتي، وورد أيضًا عن الإمام أحمد أنه قال: من كذَّب بالرؤيا يستتاب، فإن تاب وإلا قتل، فإن الله يُرى في الآخرة، ولا يرى في الدنيا. أو نحو هذا الكلام، كما رواه عنه حنبل بن إسحاق في «طبقات الحنابلة»[1].

والإمام أحمد أيضا اختلفت عنه الروايات، ففي روايات عنه قال بقول الجمهور: أن محمدًا ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم يَرَ ربه بعينَيْ رأسه، وإنما رآه رؤيا منام، وفي روايات عنه أنه يذهب إلى أنه رآه بعينه.

** ** **

(١) انظر «إبطال التأويلات» (١/١٠٣).



باب: في رؤية الله جل جلاله

(٨٤) عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ: كُنْتُ مُتَّكِئًا عِنْدَ عَائِشَةَ، فَقَالَتْ يَا أَبَا عَائِشَةَ! ثَلَاثٌ مَنْ تَكَلَّمَ بِوَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللهِ الْفِرْيَةَ، قُلْتُ: مَا هُنَّ؟ قَالَتْ: مَنْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ رَأَى رَبَّهُ؛ فَقَدْ أَعْظَمَ الْفِرْيَةَ، قَالَ: وَكُنْتُ مُتَّكِئًا فَجَلَسْتُ، فَقُلْتُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ أَنْظِرِينِي وَلَا تَعْجَلِينِي، أَلَمْ يَقُلِ اللهُ عز وجل: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾، ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾ فَقَالَتْ: أَنَا أَوَّلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ سَأَلَ عَنْ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «إِنَّمَا هُوَ جِبْرِيلُ، لَمْ أَرَهُ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا غَيْرَ هَاتَيْنِ الْمَرَّتَيْنِ، رَأَيْتُهُ مُنْهَبِطًا مِنَ السَّمَاءِ سَادًّا عِظَمُ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ»، فَقَالَتْ: أَوَلَمْ تَسْمَعْ أَنَّ اللهَ يَقُولُ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ أَوَلَمْ تَسْمَعْ أَنَّ اللهَ يَقُولُ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ قَالَتْ: وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَتَمَ شَيْئًا مِنْ كِتَابِ اللهِ؛ فَقَدْ أَعْظَمَ الْفِرْيَةَ، وَاللهُ يَقُولُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ قَالَتْ: وَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يُخْبِرُ بِمَا يَكُونُ فِي غَدٍ؛ فَقَدْ أَعْظَمَ الْفِرْيَةَ، وَاللهُ يَقُولُ: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

وَزَادَ: قَالَتْ: وَلَوْ كَانَ مُحَمَّدٌ ﷺ كَاتِمًا شَيْئًا مِمَّا أُنْزِلَ عَلَيْهِ؛ لَكَتَمَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

❖ **الشرح:**

رواه مسلم في الإيمان، وبوَّب عليه النووي (٣/٤): باب معنى قول ﷻ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ وهل رأى النبي ﷺ ربه ليلة الإسراء.

قوله: «عَنْ مَسْرُوقٍ» مسروق: يقال إنه لقب به: لأنه سرق وهو صغير ثم وجد ابن الأجدع، وكنيته أبو عائشة، وهو من كبار التابعين، ومن كبار أصحاب ابن مسعود وغيره.

قوله: «أَنْظِرِينِي» أمهليني ولا تعجلي علي.

قوله: «أَلَمْ يَقُلْ اللهُ ﷻ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾، ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾» فقالت عائشة: «أَنَا أَوَّلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ سَأَلَ عَنْ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «إِنَّمَا هُوَ جِبْرِيلُ» فعائشة ﵂ ردَّتْ استدلال مسروق ابن الأجدع التابعي، بهاتين الآيتين، فقالت: أنا أول الأمة سأل النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ عن ذلك.

قولها: «فقال» أي: النبي ﷺ.

«إِنَّمَا هُوَ جِبْرِيلُ» أي: أن المقصود بهاتين الآيتين هو جبريل ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وهذا لا يخفاكم أنه تفسير مرفوع إلى النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وأولى ما يفسر به كتاب الله بعد كتاب الله: هو كلام رسول الله ﷺ؛ لأن الله تبارك وتعالى قال: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، وقال: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [النحل: ٦٤]، فالرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ مبيّن عن الله، مبين ما أَجْمَلَهُ الله في كتابه، فما أجمل في الكتاب شرحه وفصله رسول الله عليه أفضل الصلاة والتسليم.



فهنا بين أن المراد بهذه الآيات التي في مطلع سورة النجم: أنها جبريل عليه السلام وليست رؤية الله تبارك وتعالى، ولا شك أن هذا المرفوع يقدم على الموقوف من قول ابن عباس وغيره.

وصح في المسألة أيضًا حديث آخر، رواه مسلم[1]، من حديث أبي ذر: أنه سأل النبي ﷺ: هل رأيت ربك؟ قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: **«نور أنى أراه»**. أي: حجابه النور فكيف أراه؟

يوضحه أيضًا الحديث الذي رواه مسلم: **«أن ربنا تبارك وتعالى حجابه النور»** أو قال: النار، «شك الراوي»، ثم قال: **«لو كشفه؛ لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»**[2]، أي: ربنا محتجب عن خلقه بالنور، أي: بحجاب له من نور، وهو ﷻ أيضًا يوصف بأنه نور كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]. فهذا الحجاب إذًا هو المانع بين رؤية خلقه له، أي: أن خلقه لا يرونه حتى يكشف لهم هذا الحجاب، وورد أيضًا في الصحيح: أن ربنا ﷷ يسأل أهل الجنة، عن النعيم الذي أعطوه، ويقول: هل تريدون شيئًا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تُبَيِّض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلى ربهم ﷷ[3].

واستدلت عائشة أيضًا بقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام].

---

(١) برقم (١٧٨) في الإيمان.

(٢) سيأتي الحديث بعد حديث عائشة ههنا.

(٣) رواه مسلم في الإيمان (١/١٦٣) من حديث صهيب رضي الله عنه.



فقوله: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ أي: في الدنيا، وكذا لا تدركه الأبصار في الآخرة إدراك إحاطة، بمعنى أن الخلق يرونه يوم القيامة ولا يدركونه، وفرق بين الرؤية والإدراك، كما في قوله: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ۝٦١ قَالَ كَلَّآ﴾ [الشعراء]، فالرؤيا حصلت والإدراك لم يحصل، فأنت تقف أمام بعض المخلوقات فتراها، ولكن لا تدركها، تقف أمام الجبال الشاهقة تراها، ولكن لا تدركها ولا تحيط بها، تقف أمام البحر فتراه ولكن لا تدركه، بصرك لا يحيط به، وهذه في مخلوقات عظيمة، فكيف بالخالق الذي هو أعظم وأكبر من كل شيء! فالله تعالى يُرى ولكن لا يُدرك.

وورد أيضًا في «صحيح مسلم»: أن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال في حديث الدجال: «**تعلموا أنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا**»(١)، بمعنى: أن العبد لا يرى ربه حتى يموت، والرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان في المعراج حيًّا لم يمت، ولذلك لم تحصل له الرؤية.

واستدلت عائشة أيضًا بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولًا﴾ يعني: لم يكن للبشر أن يكلمهم الله إلا بالوحي إليهم، وهو الإعلام بصورة خفية، فيلقى في النفس دون علم، أو: أن يكلمه الله تعالى من وراء حجاب، كما حصل لمحمد ﷺ في ليلة المعراج؛ فإن الله كلمه من وراء حجاب، وكان حجابه نور، والصورة الثالثة: أن يرسل رسولًا من الملائكة فيكلمه نيابة عن الله، يأمره وينهاه بما أمر الله تبارك وتعالى ونهى، هذه ثلاث صور.

---

(١) رواه مسلم في الإيمان (١٦٩) من حديث ابن عمر ﷺ.



ورد القائلون برؤية الله تعالى الاستدلال بهذه الآية: وقالوا: هذه الآية حجة عليكم!

قالوا: لأن هذه صور ثلاث، ورؤية محمد ﷺ غير هذه الصور الثلاث، بل هو شيء خاص له، ولو كانت الرؤيا داخله في هذه الأنواع الثلاثة ما كان لمحمد فضل في المعراج على غيره.

لكن كما قلنا: إن قول الجمهور أقوى، للأدلة السابقة، والله أعلم.

وفي الحديث أيضا: عظم خلق جبريل عليه السلام، وأن النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم يره في صورته التي خلق عليها إلا مرتين، ووصفه بأنه من عظم خلقه يسد ما بين السماء والأرض، أي: يسد الأفق، إذا رآه الإنسان، فسبحان الله العظيم.

ولعظم هذه الخلقة، كان من رحمة الله تعالى بالأنبياء أنهم يرونه في صورة البشر، أو يأتيهم بصورة الوحي الذي يسمعون كلامه ولا يرون شخصه، كصلصة الجرس، كما قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ(١)، فرآه مرتين فقط، وأما في غير هاتين المرتين؛ فكان يأتيه في صورة رجل يكلمه، أو يكلمه دون أن يرى شخصه، ويسمع للوحي صلصلة كصلصة الجرس.

قوله: «**قَالَتْ: وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَتَمَ شَيْئًا مِنْ كِتَابِ اللهِ؛ فَقَدْ أَعْظَمَ الْفِرْيَةَ**» والفرية يعني: الكذبة، وافترى يعني: كذب.

قوله: «**وَاللهُ يَقُولُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾**» أي: إن الله جل جلاله قد أمر نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يبلغ ما أنزل إليه من ربه، وهذا يشمل الكتاب والسنة، كما قال الله

(١) رواه البخاري في بدء الوحي (١/١٨) من حديث الحارث بن هشام رضي الله عنه.



تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣]، والحكمة كما قال السلف هي: السنة، وقال حسان بن عطية التابعي الجليل: كان جبريل ينزل على رسول الله ﷺ بالقرآن وينزل عليه بالسنة.

وفي لفظ: وينزل عليه ما يبين له القرآن، يعني: السنة، أو نحو ذلك.

وزاده بيانًا قوله سبحانه: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم]، فهذا يبين أن كل ما كان النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ يتكلم به كان وحيًا من الله، وليس من عند نفسه، وهو ـ عليه الصلاة والسلام ـ قد بلغ ما أنزل إليه من ربه كتابًا وسنة، ولم يسر من ذلك شيئًا ولم يكتم ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وقد شهد له أفضل الشهداء عند الله، وهم خير الناس بعد النبيين والمرسلين، وهم أبرُّ الأمة قلوبًا، وأحسنهم إيمانًا، وهم صحابته رضوان الله عليهم أجمعين، شهدوا له بأنه قد بلغ الرسالة في غير موضع كما ورد في الأخبار الصحيحة، فقد استشهدهم في موقف لا أعظم منه، وهو في حجة الوداع، «**إنكم مسؤولون عني، فماذا أنتم قائلون؟**» قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فرفع ﷺ أصبعه إلى السماء وقال: «**اللهم فأشهد**» ثم نكتها على الناس[1].

فشهِدَ هؤلاء الصحب الأجِلَّاء، أهل الصدق والإخلاص، وأهل الإيمان والعمل الصالح، شهدوا له بأنه بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح

---

(١) روى البخاري في الحج (٥٧٣/٣ ـ ٥٧٤) أحاديث في هذا المعنى عن ابن عمر وابن عباس وأبي بكرة ﷺ.



الأمة تمام النصح، حتى أتاه اليقين من ربه صلوات الله وسلامه عليه، ورضي الله عن صحابته الكرام.

وسُئِلَ علي رضي الله عنه وهو ابن عم النبي ﷺ وقريبه وصهره: هل أَسَرَّ لكم النبي ﷺ شيئًا من العلم؟ قال: لا والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة[1].

فأقسم بالله تعالى ـ وهو الصادق ﷺ ـ قسمًا مغلَّظًا: لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، ما أَسَرَّ إلينا بشيء، قال إلا فهما يؤتاه العبد في كتاب الله، وإلا ما في هذا الكتاب، قالوا: وما في الكتاب؟ قال: شيء من العقل (الديات) والأسنان وفكاك الأسير، يعني: مما قضى به النبي ﷺ في أقضيته مما كتبه إلى من سأل، وهذا أمر ليس بمكتوم، فما جاء في الديات أمر مشهور، والنبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ كتب فيه للناس في الآفاق لعمرو بن حزم، ولأهل البحرين وغيرهم مما وضحته الأحاديث الصحيحة.

فلو كان أَسَرَّ النبي ﷺ شيئًا لأَسَرَّ لأقرب الناس إليه، وهو صهره وابن عمه، خلافًا لما تقوله الرافضة من زعمهم اختصاص أهل البيت بأشياء لا تعلمها الأمة!!

وقد نفاه إمامهم «الأكبر» إن كانوا يتبعونه!

قوله: «وَزَادَ دَاوُدُ» هكذا قال الإمام المنذري رحمه الله، والصواب أن يقال: وزاد عبد الوهاب وهو ابن عبد المجيد الثقفي البصري، ثقة[2]، والزيادة له؛ لأن داود روى أصل الحديث، وأما الزيادة فهي لعبد الوهاب الثقفي.

---

(١) رواه البخاري (٦٩٠٣).

(٢) تقريب التهذيب (٦٣٣).



قوله: «قَالَتْ: وَلَوْ كَانَ مُحَمَّدٌ ﷺ كَاتِمًا شَيْئًا مِمَّا أُنْزِلَ عَلَيْهِ؛ لَكَتَمَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

تقول لو كان النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ كاتمًا شيئًا مما أنزل عليه، لكتم هذه الآية، لما تضمنت هذه الآية من عتاب الله تعالى لنبيه ﷺ إذ أن الرحمن ـ جل شأنه ـ قد عاتب نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ على إخفائه أمرًا أعلمه الله ﷻ أنه يقع، ألا وهو: زواجه بزينب بنت جحش بنت عمته ﷺ.

وقصتها باختصار أنها كانت تحت زيد بن حارثة، وكان زيد يشتكي منها، فبينهما خلاف، فجاء يشكو إلى النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ ويقول: إني أريد أن أطلقها، والرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ يقول له: أمسك عليك زوجك. مع أن الله تعالى قد أوحى إليه أنها ستكون زوجة له، لكن النبي ﷺ كان يخشى ألسنة المنافقين والمرجفين الذين كانوا يتربَّصون بالنبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأصحابه، ويلتمسون لهم العيوب والمثالب، فكان يخشى من ألسنتهم، فالله تعالى قد أوحى إليه أن زيدًا سيطلقها وأنك ستكون زوجها، والرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ خَشِيَ إظهار ذلك من ألسنة المنافقين الذين سيتكلمون فيه، ويقولون: إن محمدًا تزوج بزوجة ابنة ومتبَنَّاه، لكن الله تبارك وتعالى قد قضى أمرًا، وهو كائن.

وفي زواج ﷺ بزوجة متبناه إبطال للتبني بالفعل؛ لأن العرب كانت تحَرِّم زوجة المتبنى، فجاء الإسلام وأبطل نظام التبني، فكانت هذه الحادثة إبطالًا لهذا النظام الجاهلي.



وأيضًا نقول: لو كان النبي ﷺ كاتمًا شيئًا من الوحي؛ لكتم آيات آخر نزلت في معاتبته، كقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَ﴾ [التحريم: ١]، فلو كان النبي ﷺ كاتمًا شيئًا لكتم هذه الآية التي فيها معاتبة له، ولكتم قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ [الأنفال: ٦٧]، هذا عتاب أيضا للنبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

ولكتم: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢﴾ [عبس].

لكنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان أمينًا في الأرض، كما أن جبريل هو الرسول الملكي الأمين في السماء، وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء، يأتيني الوحي صباح مساء**» لما طعن فيه ذو الخويصرة الذي هو أصل الخوارج، وتكلم فيه.

قوله: «**قَالَتْ: وَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يُخْبِرُ بِمَا يَكُونُ فِي غَدٍ؛ فَقَدْ أَعْظَمَ الْفِرْيَةَ، وَاللهُ يَقُولُ:** ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾» تعني: أن النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم يكن يعلم الغيب، وهذا معتقد السلف جميعًا، لا خلاف بينهم، أن النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ وسائر النبيين لا يعلمون الغيب، وإنما يعلمون من الغيب ما شاء الله، كما قال ﷻ: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾ [الجن].

فيوحي إليه من الغيب بما يشاء، والله تعالى منفرد بعلم الغيب، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [الحجرات: ١٨]، فله الغيب وحده جل وعلا.

ولهذا جاء في «سنن ابن ماجه»: أن النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ

قال: «**من أتى كاهنا؛ فسأله عن شيء فصدقه، فقد كفر لما أنزل على محمد**»(١). والذي أُنزل على محمد: هذه الآيات، التي تخبر بانفراد الله ﷻ بعلم الغيب، فالذي يصدق الكاهن أو العرّاف الذي يدعي معرفة الغيب، فقد كفر بما أنزل على محمد، ومنه قوله ﷻ: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥].

وأما ما جاء في «صحيح مسلم»: أن النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال: «**من أتى عرافا فسأله عن شيء، لم تقبل له صلاة أربعين ليلة**»(٢). فهذا فيما يظهر يدل على أن هذا الفعل ـ وهو السؤال ـ من الكفر العلمي، لا الكفر المخرج من الملة، كما هو واضح.

** ** **

(١) رواه ابن ماجه وصححه الألباني (٦٣٩).

(٢) رواه مسلم (٢٢٣٠) عن بعض أزواج النبي ﷺ.



(٨٥) عَنْ أَبِي مُوسَى ﷺ قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ، فَقَالَ: «إِنَّ اللهَ ﷻ لَا يَنَامُ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ ـ وَفِي رِوَايَةٍ: النَّارُ ـ لَوْ كَشَفَهُ؛ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ».

❖ الشرح:

هذا هو الحديث الثاني في هذا الباب. وقد أورده النووي في الباب نفسه (١٤/٣).

«**عَنْ أَبِي مُوسَى**» صحابي مشهور واسمه: عبد الله بن قيس، وهو ممن أثنى النبي ﷺ على حسن قراءته، وكان إذا مَرَّ ـ عليه الصلاة والسلام ـ وقف يستمع لقراءته، ويقول عنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**لقد أوتي مزمار من مزاميرًا آل داود**»[١].

والمزمار هو: الصوت الحسن. أي أنه ﷺ قد أوتي صوتًا حسنًا عند قراءة القرآن. وبعثه النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ واليًا إلى اليمن، ومعه معاذ بن جبل ﷺ. مات سنة خمسين وقيل: بعدها، روى له الستة.

قوله: «**قَامَ فِينَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ**» قام فينا: يعني خطب فينا خطبة، تكلم فيها بخمس كلمات، وهذا من أجل الضبط، فيضبط الإنسان كلام القائل، بحيث لو عده يعده.

قوله: «**إِنَّ اللهَ ﷻ لَا يَنَامُ**» هذا خبر عن الله تبارك وتعالى، وصفه من

(١) رواه البخاري (٥٠٤٨)، ورواه مسلم (٧٩٣) عن عبد الله بن بريدة عن أبيه ﷺ.



صفاته، فمن صفات الله ﷻ أنه لا ينام، كما قال ﷻ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، السنة هي: مبادئ النوم، يعني: النعاس الذي يسبق النوم ويكون في الأجفان، فالله تعالى أخبر أنه لا تأخذه سنة، فلا يتطرق إليه النعاس، فضلًا عن أن يصيبه النوم ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾.

وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ هنا: «**إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام**» يعني: يستحيل على الله تعالى أن ينام؛ لأن النوم يضاد كمال حياته وكمال قيوميته، فالله ﷻ هو الحي القيوم، كما قال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾، فكمال الحياة يقتضي عدم النوم، وذلك أن النوم أخو الموت، فصاحب الحياة الكاملة لا يموت، ولا يتطرق إليه أي من أعراض الموت والعدم؛ لأن النوم غياب العقل عن الإدراك وعن الشعور والإحساس، والله ﷻ لا يتطرق إليه ذلك؛ لأن هذا ينافي كمال حياته، فقولنا: ﴿هُوَ ٱلْحَيُّ﴾ بالألف واللام، التي تفيد التمام والكمال والاستغراق.

﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ فالله سبحانه قيوم، يعني: قائم دائم لا يزول، يدبر أمر السماوات والأرض، متكفل بأرزاق العالمين، فلو نام جل وعلا لتعطلت مصالح الخلق، قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾ [فاطر].

فالله سبحانه قائمٌ على كل نفس بما تحتاجه، يدبر أمرها، ويتكفل برزقها ويحفظها وينصرها وهكذا، فلو نام جلا وعلا لتعطلت هذه المصالح العظيمة.

قوله: «**يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ**» المراد بالقسط: الميزان، وهو العدل. فالله تعالى يخفض الميزان ويرفعه، وسمي الميزان بالعدل؛ لأن بالميزان يعرف



العدل، فالله تعالى يخفض القسط ويرفعه، يعني يرفع الميزان ويخفضه.

قال ابن قتيبة: القسط الميزان، والموزون يحتمل أنه أعمال العباد الصاعدة وأرزاقهم النازلة.

فالله تعالى ترفع إليه الأعمال، فيرتفع إليه عمل عبد صالح، فيثقل به ميزانه عند الله ﷻ، ويرفع إليه عمل إنسان يكون سببًا في خفض ميزانه؛ لأنه عمل سيئ، وكذلك يزن الله ﷻ أرزاق العالمين النازلة، كما قال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحجر]، فالله ﷻ يملك خزائن السماوات والأرض؛ لكنه لا يفتح هذه الخزائن لكل الناس؛ لأن هذا خلاف مقتضى الحكمة، كما قال الله ﷻ: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٢٧]، فالله عليم بمن يستحق الغنى من عباده، وبمن يستحق الوسط من الرزق من عباده، وبمن يستحق الفقر من عباده؛ فإن من عباد الله من لو افتقر لكفر، ومن عباده لو اغتنى لكفر، فمن حكمته جل وعلا أنه ينزل بقدر ما يشاء، وبيده الميزان الذي يزن به هذه الأرزاق النازلة إلى عباده، وهو ﷻ يرزق من يشاء بغير حساب.

قوله: «**يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ**» يعني: يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار الذي بعده، وعمل النهار قبل عمل الليل الذي بعده، وفي رواية لمسلم: «**يرفع إليه عمل النهار بالليل، وعمل الليل بالنهار**» يعني: يرفع إليه عمل النهار في أول الليل الذي بعده، وعمل الليل في أول النهار الذي بعده، وهذا يؤيده حديث الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ في الصحيحين: «**يتعاقبون فيكم ملائكة**



بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر والعصر، فيعرج الذين باتوا فيكم؛ فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ قالوا: تركناهم وهم يصلون، وأتيناهم وهم يصلون» فهذا موافق لهذا الحديث.

فبواسطة الحَفَظة الكرام الملائكة الكاتبين، ترفع الأعمال، فيصعدون بأعمال الليل بعد انقضائه، وأعمال النهار بعد انقضائه، وهذه الأعمال إما أن تكون سببًا في رفع ميزان العبد عند الله ﷻ؛ لأنها ثقيلة في الميزان لفضلها ونفعها وصلاحها، وإما أن تكون هذه الأعمال التي صعدت بها الملائكة مما يخفض ميزان العبد عند الله ﷻ، وقد كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يقول في دعائه: «**... وفك رهاني، وثقل ميزاني، واجعلني في الندي الأعلى**»[1] فيسأل الله ﷻ ثقل الموازين عنده. وجاء في الحديث: «**الطَّهُور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان**»، وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم**».

فإذا أكثر العبد مما يثقل الميزان عند الله ﷻ؛ صعدت الملائكة به، ففاز بالدرجات العلى عند ربه ﷻ، قال سبحانه: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾﴾ [القارعة].

قوله: «**حِجَابُهُ النُّورُ ـ وَفِي رِوَايَةِ: النَّارُ ـ**» الحجاب: ما يستتر به أو ما يمتنع به، وحجاب ربنا ﷻ هو النور، والله تبارك وتعالى متصف بأنه نور في نفسه، كما قال ﷻ: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]، ووصف

---

(١) حديث صحيح، رواه أبو داود (٥٠٥٤)، وابن السني (٧٢١)، والحاكم من حديث أبي الأزهر الأنماري: أن رسول الله ﷺ كان إذا أخذ مضجعه من الليل قال: بسم الله وضعت جنبي، الله اغفر لي ذنبي وأخسئ شيطاني، وفكَّ....».



أيضًا أن له نورًا، فقال ﷻ: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩]، فالله نور - جل وعلا - لا كالأنور، وهكذا سائر صفاته، ولا نؤول ولا نعطل كما قالت الجهمية والأشاعرة:

«إن النور جسم من الأجسام، أو جرم من الأجرام»، فلا يصح أن يوصف الله تعالى به!! كما قاله الخطابي وقاله عياض، ونقله النووي في شرحه! بل نقول: هذا ليس بجار على مذهب السلف، إنما مذهب السلف أن يثبتوا الأسماء والصفات لله تبارك وتعالى، ثم ينفوا المماثلة عنها ويقولون: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ١١﴾ [الشورى]، فالله تعالى قال عن نفسه أنه نور، ونحن نقول: هو نور جل وعلا، وأثبت أن لذاته نورًا ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾، فالنور من صفاته أيضًا تبارك وتعالى، وهنا قال: «حجابه النور» وهذا غير الأول والثاني، فالحجاب الذي احتجب الله تعالى به عن خلقه هو من نور، وفي رواية: من نار، وهي نار كما قال أهل العلم: بلا إحراق، إنما هي إشراق؛ لأن للنار إحراقًا وإشراقًا، أما حجاب ربنا ﷻ فهو إشراق ونور.

قوله: **«لَوْ كَشَفَهُ، لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»** السبحات يعني: الأنوار، أنوار وجهه ﷻ، أو أنوار جلاله وبهاء وجهه جل وعلا، ويحتمل أن يكون الوجه هنا المراد به الذات، يعني: لأحرقت أنوار ذاته ما انتهى إليه بصره من خلقه، وإلى أين ينتهى بصر ربنا من خلقه؟ الله سبحانه بصره محيط بجميع الكائنات، يعني: لو كشف هذا الحجاب؛ لأحترقت جميع الكائنات من أنوار وجهه ﷻ، ولذلك فمن رحمة الله بعباده أنه احتجب عن خلقه بنوره.

وهذا هو معنى حديث أبي ذر عن الرسول ﷺ الذي مرَّ معنا وهو: لما سأل ـ عليه الصلاة والسلام ـ هل رأيت ربك؟ قال: «**نور أنى أراه**» يعني: حجابه النور، فكيف أراه، فالله ﷻ محتجب عن خلقه بالنور، لو كشف هذا الحجاب؛ لأحرقت أنوار وجهه وجلاله وبهائه ما انتهى إليه بصره من خلقه.

لكن الله تعالى يكشف هذا الحجاب يوم القيامة لعباده المؤمنين، فما أعطوا شيئًا أَلَذَّ لهم من النظر إلى وجهه الكريم ﷻ، أما في الدنيا فلا يراه حي إلا مات، لا يراه حي إلا صعق، وهذا مما يستدل به على أن الله تبارك وتعالى ليس على الأرض، ولا بمتجلٍّ للخلق، كما تقول الجهمية وتقول الاتحادية وأصحاب وحدة الوجود[1] الذين قالوا: إن الله ﷻ في كل مكان، فلو كان الله في كل مكان لاحترقت الكائنات؟! فإذا كان الله ﷻ لما تجلى للجبل جعله دكًا، فلو كان متجليًا لجميع الخلق لتدكدكت جميع الخلائق، فهذا باطل معلوم بطلانه بالكتاب والسنة وبالعقل الصحيح والفطرة المستقيمة، فالله ﷻ متحجب عن خلقه بنوره، وهو يتجلى لعباده يوم القيامه بعد أن يجعل فيهم من القوة ما يطيقون به رؤيته، كما قال ﷻ: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾ [ق].

فالخلق يبدلون يوم القيامة، ويكون فيهم من القوة والقدرة في الخلق، غير ما كانوا عليه في الحياة الدنيا كما هو معلوم.

** ** **

(١) ولشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى رسالة في إبطال وحدة الوجود، قد يسّر الله لنا نشرها والتعليق عليها، طبعت بمكتبة الذهبي.



(٨٦) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ: أَنَّ نَاسًا قَالُوا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ؟» قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللهِ! قَالَ: «هَلْ تُضَارُّونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟» قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللهِ! قَالَ: «فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ، يَجْمَعُ اللهُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ فَيَقُولُ: مَنْ كَانَ يَعْبُدُ شَيْئًا فَلْيَتَّبِعْهُ، فَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الشَّمْسَ الشَّمْسَ، وَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الْقَمَرَ الْقَمَرَ، وَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الطَّوَاغِيتَ الطَّوَاغِيتَ، وَتَبْقَى هَذِهِ الْأُمَّةُ فِيهَا مُنَافِقُوهَا؛ فَيَأْتِيهِمْ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي صُورَةٍ غَيْرِ صُورَتِهِ الَّتِي يَعْرِفُونَ، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ فَيَقُولُونَ نَعُوذُ بِاللهِ مِنْكَ، هَذَا مَكَانُنَا حَتَّى يَأْتِيَنَا رَبُّنَا، فَإِذَا جَاءَ رَبُّنَا عَرَفْنَاهُ، فَيَأْتِيهِمْ اللهُ تَعَالَى فِي صُورَتِهِ الَّتِي يَعْرِفُونَ، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبُّنَا؛ فَيَتَّبِعُونَهُ، وَيُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَيْ جَهَنَّمَ؛ فَأَكُونُ أَنَا وَأُمَّتِي أَوَّلَ مَنْ يُجِيزُ، وَلَا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا الرُّسُلُ، وَدَعْوَى الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ: اللهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ، وَفِي جَهَنَّمَ كَلَالِيبُ مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، هَلْ رَأَيْتُمْ السَّعْدَانَ؟» قَالُوا: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «فَإِنَّهَا مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ مَا قَدْرُ عِظَمِهَا إِلَّا اللهُ، تَخْطَفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ؛ فَمِنْهُمْ الْمُؤْمِنُ بَقِيَ بِعَمَلِهِ، وَمِنْهُمْ الْمُجَازَى حَتَّى يُنَجَّى، حَتَّى إِذَا فَرَغَ اللهُ مِنْ الْقَضَاءِ بَيْنَ الْعِبَادِ، وَأَرَادَ أَنْ يُخْرِجَ بِرَحْمَتِهِ مَنْ أَرَادَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ؛ أَمَرَ الْمَلَائِكَةَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنْ النَّارِ مَنْ كَانَ لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا مِمَّنْ أَرَادَ اللهُ تَعَالَى أَنْ يَرْحَمَهُ، مِمَّنْ يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَيَعْرِفُونَهُمْ فِي النَّارِ، يَعْرِفُونَهُمْ بِأَثَرِ السُّجُودِ، تَأْكُلُ النَّارُ مِنْ ابْنِ آدَمَ إِلَّا أَثَرَ السُّجُودِ، حَرَّمَ اللهُ عَلَى النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ أَثَرَ السُّجُودِ، فَيُخْرَجُونَ مِنَ

النَّارِ، وَقَدْ امْتَحَشُوا، فَيُصَبُّ عَلَيْهِمْ مَاءُ الْحَيَاةِ؛ فَيَنْبُتُونَ مِنْهُ كَمَا تَنْبُتُ الْحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ، ثُمَّ يَفْرُغُ اللهُ تَعَالَى مِنَ الْقَضَاءِ بَيْنَ الْعِبَادِ، وَيَبْقَى رَجُلٌ مُقْبِلٌ بِوَجْهِهِ عَلَى النَّارِ، وَهُوَ آخِرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولًا الْجَنَّةَ؛ فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ! اصْرِفْ وَجْهِي عَنْ النَّارِ، فَإِنَّهُ قَدْ قَشَبَنِي رِيحُهَا، وَأَحْرَقَنِي ذَكَاؤُهَا، فَيَدْعُو اللهَ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَدْعُوَهُ، ثُمَّ يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: هَلْ عَسَيْتَ إِنْ فَعَلْتُ ذَلِكَ بِكَ أَنْ تَسْأَلَ غَيْرَهُ؟ فَيَقُولُ: لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهُ، وَيُعْطِي رَبَّهُ مِنْ عُهُودٍ وَمَوَاثِيقَ مَا شَاءَ اللهُ؛ فَيَصْرِفُ اللهُ وَجْهَهُ عَنْ النَّارِ، فَإِذَا أَقْبَلَ عَلَى الْجَنَّةِ وَرَآهَا، سَكَتَ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَسْكُتَ، ثُمَّ يَقُولُ: أَيْ رَبِّ! قَدِّمْنِي إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ اللهُ لَهُ: أَلَيْسَ قَدْ أَعْطَيْتَ عُهُودَكَ وَمَوَاثِيقَكَ لَا تَسْأَلُنِي غَيْرَ الَّذِي أَعْطَيْتُكَ؟! وَيْلَكَ يَا ابْنَ آدَمَ، مَا أَغْدَرَكَ! فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ! وَيَدْعُو اللهَ، حَتَّى يَقُولَ لَهُ: فَهَلْ عَسَيْتَ إِنْ أَعْطَيْتُكَ ذَلِكَ أَنْ تَسْأَلَ غَيْرَهُ؟ فَيَقُولُ: لَا وَعِزَّتِكَ، فَيُعْطِي رَبَّهُ مَا شَاءَ اللهُ مِنْ عُهُودٍ وَمَوَاثِيقَ؛ فَيُقَدِّمُهُ إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ؛ فَإِذَا قَامَ عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ انْفَهَقَتْ لَهُ الْجَنَّةُ، فَرَأَى مَا فِيهَا مِنْ الْخَيْرِ وَالسُّرُورِ؛ فَيَسْكُتُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَسْكُتَ، ثُمَّ يَقُولُ: أَيْ رَبِّ! أَدْخِلْنِي الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَهُ: أَلَيْسَ قَدْ أَعْطَيْتَ عُهُودَكَ وَمَوَاثِيقَكَ أَنْ لَا تَسْأَلَ غَيْرَ مَا أُعْطِيتَ؟ وَيْلَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مَا أَغْدَرَكَ! فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ! لَا أَكُونُ أَشْقَى خَلْقِكَ، فَلَا يَزَالُ يَدْعُو اللهَ حَتَّى يَضْحَكَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنْهُ؛ فَإِذَا ضَحِكَ اللهُ مِنْهُ قَالَ: ادْخُلْ الْجَنَّةَ، فَإِذَا دَخَلَهَا قَالَ اللهُ لَهُ: تَمَنَّهْ، فَيَسْأَلُ رَبَّهُ وَيَتَمَنَّى، حَتَّى إِنَّ اللهَ لَيُذَكِّرُهُ مِنْ كَذَا وَكَذَا، حَتَّى إِذَا انْقَطَعَتْ بِهِ الْأَمَانِيُّ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ذَلِكَ لَكَ، وَمِثْلُهُ مَعَهُ»، قَالَ عَطَاءُ بْنُ يَزِيدَ، وَأَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ، مَعَ أَبِي هُرَيْرَةَ: لَا يَرُدُّ عَلَيْهِ مِنْ حَدِيثِهِ شَيْئًا، حَتَّى إِذَا حَدَّثَ أَبُو هُرَيْرَةَ أَنَّ

اللهَ قَالَ لِذَلِكَ الرَّجُلِ: وَمِثْلُهُ مَعَهُ، قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ مَعَهُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: مَا حَفِظْتُ إِلَّا قَوْلَهُ: ذَلِكَ لَكَ وَمِثْلُهُ مَعَهُ. قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: أَشْهَدُ أَنِّي حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَوْلَهُ: ذَلِكَ لَكَ وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: وَذَلِكَ الرَّجُلُ آخِرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولًا الْجَنَّةَ.

❖ **الشرح:**

هذا هو الحديث الثالث في هذا الباب: «باب في رؤية الله ﷻ».

وسبق أن ذكرنا ـ كما تقدم ـ شيئًا من هذه المسألة، وقلنا: إن مذهب أهل السنة أجمعين: أن المؤمنين يرون ربهم في الآخرة، رؤية نعيم وثواب، لا رؤية جحيم وعذاب، كما هي الحال بالنسبة للكافرين.

وعلى هذا المذهب دلت النصوص المتواترة، من الكتاب والسنة، وذكرنا بعضها.

وزعمت طائفة من أهل البدع من المعتزلة والجهمية والخوارج: أن الله تبارك وتعالى لا يراه أحدٌ من خلقه، لا في الدنيا ولا في الآخرة، وأن هذه الرؤيا مستحيلة عقلًا!! وهذا الذي قالوه لا شكَّ أنه خطأ قبيح، مخالف لكتاب ربنا وسنة نبينا ﷺ، والأدلة الكثيرة وإجماع الصحابة، فمن بعدهم من سلف الأمة، على إثبات رؤية الله تبارك وتعالى للمؤمنين، ورواها عن النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ نحوًا من عشرين صحابيًا.

أما رؤية الله تعالى في الدنيا: فقد قدمنا أنها ممكنة، ولكن الله تبارك وتعالى أخبر أنها لن تقع في الدنيا، وإن كان ذلك ممكنًا إذا شاء الله، ولكن لم يقع ولن تقع لأحد من عباد الله في الدنيا، لقوله تبارك وتعالى

لموسى لما سأل الرؤيا: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣]، أي: في الدنيا، وقوله - عليه الصلاة والسلام - فيما رواه مسلم: «**تعلموا أنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا**» فالرؤيا قبل الموت غير ممكنة ولا واقعة، وأما الرؤيا في الآخرة فإن الله تبارك وتعالى يجعل في خلقه من القوة ما يمكنهم من رؤيته ﷻ.

قوله: «**هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟**» وهذا سؤال صريح في هذه المسألة.

قوله: «**فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ**» وقبل أن يجيبهم سائلًا:

قوله: «**هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ؟**» **قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللهِ! قَالَ:** «**هَلْ تُضَارُّونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟**» **قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللهِ! قَالَ:** «**فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ**» هذا الجواب من أصرح الأجوبة وأوضحها وأبينها، فعجبًا لمن يخالف هذا القول الصريح عن أعلم الخلق بربه، وهو رسول رب العالمين ﷺ.

قوله: «**تُضَارُّونَ**» هذه الكلمة رويت بالتشديد، ورويت بالتخفيف: هل تضارون. أما التشديد يعني: هل يضر بعضكم بعضًا عند رؤية القمر ليلة البدر، كما يحصل منكم في رؤيته أول الشهر.

فالناس في رؤيتهم للقمر أول الشهر يتضارون، يعني: يخالف بعضهم بعضًا، وربما يتزاحمون على رؤيته، أما إذا صار قمرًا بدرا منيرًا، فإن الجميع يراه بلا كُلفة ولا مضرة ولا مشقة ولا مزاحمة ولا اختلاف.

قال: «**فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ**» وعلى التخفيف: هل تضارون، قالوا: من الضير، الذي هو الضرر أيضًا.



وروي أيضًا: هل تضامون، يعني: هل تتضامون، ينضم بعضكم إلى بعض، كي تستطيعوا رؤيته.

وبالتخفيف: هل تضامون: من الضيم، الذي هو المشقة والتعب، وهي بنفس المعنى السابق، أي: أنكم لا يحصل منكم هذا ولا هذا.

قوله: «**هَلْ تُضَارُّونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟» قَالُوا: لَا**» هل يحصل منكم ضرر أو اختلاف أو مزاحمة أو شيء من ذلك عند رؤية الشمس ليس دونها سحاب، أي: لا يغطيها سحاب.

قوله: «**فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ**» التشبيه هنا: هو تشبيه الرؤية بالرؤية في الوضوح، وزوال الشك والاختلاف والمشقة، ليس التشبيه تشبيه المرئي بالمرئي، فليس المراد تشبيه الله تعالى بالشمس والقمر! إنما المراد تشبيه الرؤية بالرؤية، فرؤية الله تعالى واضحة جلية لا اختلاف فيها، ولا مشقة ولا ضرر، كما ترى الشمس في رائعة النهار ليس دونها سحاب.

قوله: «**يَجْمَعُ اللهُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» شرع النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ يقص شيئًا من أحوال اليوم الآخر فقال: «**يَجْمَعُ اللهُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» ويوم القيامة من أسمائه: «يوم الجمع» قال تعالى: ﴿**يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ**﴾ [التغابن: ٩].

فيوم القيامة يجمع الله ﷻ فيه الأولين والآخرين، الإنس والجن، كلهم في صعيدٍ واحدٍ وفي ساحةٍ واحدةٍ.

قوله: «**فَيَقُولُ: مَنْ كَانَ يَعْبُدُ شَيْئًا فَلْيَتَّبِعْهُ**» ينادي مناد، من كان يعبد شيئًا فليتبعه؛ لأن ربه إلهه، وكان ينتصر به في الدنيا، ويزعم أنه يشفع له عند الله يوم القيامة، أو هو ربه، فمن كان يعبد شيئًا فليتبعه.

قوله: «**فَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الشَّمْسَ الشَّمْسَ، وَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الْقَمَرَ الْقَمَرَ**» أي: تصور له الشمس ويؤتى بها في ذلك المكان، يؤتى بالشمس في ذلك المكان، وبالقمر في ذلك المكان، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس، ومن كان يعبد القمر القمر.

قوله: «**وَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الطَّوَاغِيتَ الطَّوَاغِيتَ**» الطواغيت جمع طاغوت، وهو مشتق من الطغيان، من طغى يطغى طغيانًا، وأصله: طغوت، ثم قلبت الواو إلى ألف فصار: طاغوت، ولفظة: «الطاغوت» تجمع وتفرد، وتؤنث وتذكر في كتاب الله ﷻ، كما قال ﷻ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ﴾ [النساء: ٦٠]، قال ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا﴾ [الزمر: ١٧]، نسبة إلى الأصنام والأوثان.

والطاغوت هو: كلُّ ما عُبِدَ من دون الله ﷻ وهو راض، وأطلق السلف الطاغوت على الشيطان وعلى الساحر والكاهن، وأطلقوا الطاغوت على من شرع حكمًا يُخالف حكم الله تبارك وتعالى، وعلى من عبد من دون الله ﷻ وهو راض.

قوله: «**وَتَبْقَى هَذِهِ الْأُمَّةُ فِيهَا مُنَافِقُوهَا**» لماذا بقي المنافقون في هذه الأمة ولم يتبعوا شيئًا مما اتبع غيرهم؟ لأنهم كانوا في الدنيا، مستترين بين المؤمنين، مندَسِّين في صفوفهم، يسلكون مسلكهم ويدخلون مدخلهم، ويخرجون معهم، فإذا كان يوم القيامة يخدعون بجنس عملهم فيتركهم الله ﷻ مع المؤمنين فيمشون معهم، ويعطون نورًا في أول الأمر، ثم بعد ذلك يطفأ نورهم، وتبقى أنوار المؤمنين.



فإذا طفأت أنوارهم؛ نادوا بعد أن يضرب بينهم وبين المؤمنين ﴿بِسُورٍ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ [الحديد]، أي: أمَا كنا نصلي معكم ونصوم معكم؟ أما كنا نفعل معكم الأعمال الصالحة؟ ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ [الحديد] وهذا هو معنى قوله تبارك وتعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢] فهذه خديعة الله لهم يوم القيامة، وقال ﷻ: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾، وذلك أنهم في الدنيا إذا ﴿لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾ [البقرة] يعني: يستدرجهم، والاستدراج والعياذ بالله يعني: أن الله تعالى يُبْقِي المخادع والماكر والفاجر على حاله، حتى يأتيه العذاب مرة واحدة، وهذا من صفات فعل ربنا ﷻ بأعدائه، وليس في ذلك نقص، ولذلك نقول: الله يمكر بأعدائه لا بأوليائه، ويخدع المنافقين ويستهزئ بهم يوم القيامة لأعمالهم السيئة الباطلة.

وقال بعض أهل العلم: إن هؤلاء هم المطرودون عن الحوض الذين يقول لهم النبي ﷺ إذا أبعدتهم الملائكة بالسياط «سُحْقًا سُحْقًا».

قوله: «فَيَأْتِيهِمْ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي صُورَةٍ غَيْرِ صُورَتِهِ الَّتِي يَعْرِفُونَ، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ فَيَقُولُونَ نَعُوذُ بِاللهِ مِنْكَ، هَذَا مَكَانُنَا حَتَّى يَأْتِيَنَا رَبُّنَا، فَإِذَا جَاءَ رَبُّنَا عَرَفْنَاهُ، فَيَأْتِيهِمْ اللهُ تَعَالَى فِي صُورَتِهِ الَّتِي يَعْرِفُونَ، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبُّنَا؛ فَيَتَّبِعُونَهُ» هذا لا شكَّ أنه من الحديث عن

صفات الله، ومذهب أهل السنة والجماعة: إمرار آيات الصفات وأخبارها على ظاهرها من غير تعرض لها بتأويل، ولا تمثيل، فلا نقول: صفات ربنا مثل صفات المخلوق، ولا نتعرض لها بتحريف المعنى؛ لأن التحريف للمعنى أخو التحريف للمبنى.

فاليهود حرَّفوا كتاب الله، فغيروا فيه وحذفوا وأضافوا. والمؤولة حرفوا معاني كتاب الله، حتى أفضوا إلى تعطيله عن المعاني الحقة، فنقول المذهب الحق: أن تمرّ هذه الكلمات على ظاهرها من غير تعرض لها بتحريف، ولا بتأويل، ولا تمثيل.

قوله: «**فَيَأْتِيهِمْ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي صُورَةٍ غَيْرِ صُورَتِهِ الَّتِي يَعْرِفُونَ**» قال المؤولة أي: يبعث الله لهم ملكًا في صورة من يقول: أنا ربكم، ويظهر لهم؟! وهذا لا شك أنه تأويل يخالف ظاهر الحديث.

والمراد هنا بالصورة: الصِّفة، أي: يتجلى الله لهم في صورة غير التي يعرفون، وما هي الصفة التي يعلمونها ويعرفونها؟ هي: أنه لا يشبه شيئًا من مخلوقاته، فيستعيذون بالله منه ويظنون أنه ليس ربهم، وهذا من الامتحان والاختبار، والدار الآخرة الأصل فيها: أنها دار جزاء لا دار اختبار وبلاء، ولكن فيها اختبار للمنافقين بالأمر بالسجود، فلا يستطيعون، وفيها اختبار لمن مات وهو مجنون، ومن مات في فترة، ومن مات وبه صمم، كما جاء في الحديث الصحيح، فهذا لا ينفي الأصل، فهذه خصوصيات، فهنا يمتحن الله تعالى عباده المؤمنين ثم يأتيهم في الصورة التي يعرفون وهي: أنهم يرونه لا يشبه شيئًا من مخلوقاته، وقد علموا في الدنيا أن الله تعالى ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، فيقولون بعد أن يعلموا أنه ربهم: «**أَنْتَ رَبُّنَا**».

قوله: «**فَيَتَّبِعُونَهُ**» يحتمل أن يكون المعنى إتباعه على الحقيقة، حيث



يذهب بهم إلى الجنة، أو يتبعون أمره بذهابهم إلى الجنة، أو اتباع ملائكته الذين يذهبون بهم إلى الجنة، كما دلت الأحاديث والآيات على ذلك.

قوله: «**وَيُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَيْ جَهَنَّمَ**» يعني: يمد **الصراط**، وهذا فيه إثبات الصراط وهو مذهب أهل السنة والجماعة، كما قال أبو جعفر الطحاوي رَحِمَهُ اللَّهُ في عقيدته: «ونؤمن بالبعث وجزاء الأعمال يوم القيامة، والعرض والحساب، وقراءة الكتاب، والثواب والعقاب، والصراط والميزان».

فهو من عقائد أهل السنة الثابتة.

وهو جسر يمد على متن جهنم، أي: ظهر جهنم، يمُرُّ عليه الناس كلهم، فالمؤمنون ينجون من جهنم بحسب أعمالهم ومنازلهم، والآخرون من المنافقين يسقطون في جهنم.

وجاء في الحديث: أن الصراط أدَقُّ من الشعرة وأحَدُّ من السيف وقال أيضًا: «**والصراط كحَدِّ السيف دحض مزلة**» يعني: زلق، وهو كحَدِّ السيف تنزلق عليه الأقدام إلا من شاء الله تعالى لهم التثبيت، وجاء في الحديث عند مسلم: أن الرسول ﷺ سُئل: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات؟ فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ «**هم في ظلمة دون الجسر**».

فإذا انتهى الناس من الحساب وفارقوا أرض الموقف، وصاروا إلى الظلمة التي توزع فيها الأنوار بحسب أعمالهم، ويعطى المؤمن نوره كالجبل، ويعطى المؤمن نوره فوق ذلك، ويعطى المؤمن نوره كالنخلة بيمينه، ويعطى بعض الناس نوره على قدر إبهامه في قدمه، ينور له مرة ويُطفأ مرة، كما جاء في حديث الطبراني والحاكم وغيرها.

وفي هذا الموضع يفترق المنافقون عن المؤمنين، ويضرب ﴿بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ﴾، وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**لا يدخل النار ـ إن شاء الله تعالى ـ أحد بايع تحت الشجرة**» فقالت له حفصة: بلى يا رسول الله! فزجرها رسول الله ﷺ، فقالت: ألم يقل الله ﷻ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١]، قال عليه الصلاة والسلام: «ثم قال: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ [مريم]».

فهذا الحديث يبين بأن الورود المذكور في هذه الآية: إنما هو المرور على الصراط بالنسبة لأهل الإيمان، وأن أهل الإيمان يقال لهم: امضوا على قدر نوركم، فيمضون على قدر نورهم وقدر أعمالهم.

قوله: «**فَأَكُونُ أَنَا وَأُمَّتِي أَوَّلَ مَنْ يُجِيزُ**» عليه، فالنبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأمة الإسلام أول من يجيز على الصراط، ثم تتبعهم بقية الأمم.

وقوله: «**يُجِيزُ**» أي يمر ويقطع، أو يمشي، وأجاز الوادي يعني: قطعه.

قوله: «**وَلَا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا الرُّسُلُ**» يعني: لا يتكلم في حال الإجازة والمرور على الصراط؛ لا يتكلم أحد إلا الرسل، لكن كيف الجمع بين هذا الحديث، وبين الآيات الكثيرة التي جاء فيها أن الناس يتكلمون يوم القيامة، كقوله: ﴿يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ [النحل: ١١١]، وقوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [القلم]، وقال: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ﴾ [سبأ]، وغير ذلك مما ذكر الله تعالى

من المحاورات والمخاصمات والمجادلات التي تكون يوم القيامة؟

والجواب: أن المنع من الكلام هو في حال الجواز على الصراط، ومواضع أخرى أيضًا في القيامة، كما في قوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [المرسلات].

ويقوي ذلك قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**وَدَعْوَى الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ**» فهذا دعاء الرسل حال الإجازة، يدعون الله ﷻ أن يسلم أهل الإيمان من ذنوبهم، ومن النار، وهذا من كمال رحمتهم للخلق، وفيه: أن الدعوة أو الدعاء يكون بحسب الموطن، يدعى في كل موطن بما يليق به.

قوله: «**وَفِي جَهَنَّمَ كَلَالِيبُ**» الكلاليب جمع كلوب، والكلوب هو الحديدة المعطوفة الرأس، أو المعكوفة الرأس، والتي يعلق بها اللحم.

قوله: «**مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، هَلْ رَأَيْتُمُ السَّعْدَانَ؟» قَالُوا: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «فَإِنَّهَا مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ مَا قَدْرُ عِظَمِهَا إِلَّا اللهُ**» السعدان نبات له شوكة، وهذه الشوكة فيها شوك كثير، هي شوكة واحدة ولكن لها شوك من كل جانب، وهذه الشوكة التي نراها وهي بقدر طرف الأصبع، تكون يوم القيامة ما شاء الله أن تكون، هي في الشكل مثل شوك السعدان، الذي يعلق بالبدن ويعلق بصوف الأنعام، ولا يكاد يخلص إلا بشق الأنفس، هذا الشوك لا يعلم قدر عظمه وحجمه إلا الله تبارك وتعالى.

قوله: «**تَخْطَفُ**» بفتح الطاء، وجاء في لغة العرب بكسر الطاء: تخطف، قالوا: هذا أصح وأفصح.



قوله: «**بِأَعْمَالِهِمْ**» يعني: بسبب أعمالهم، أو: على قدر أعمالهم.

قوله: «**فَمِنْهُمْ الْمُؤْمِنُ بَقِيَ بِعَمَلِهِ**» وفي رواية: «**ومنهم الموثق بعمله**» وفي رواية: «**ومنهم الموبق بعمله**»، هذه كلها روايات لهذه اللفظة، يعني: أن المؤمن ينجيه الله ﷻ بعمله، والناس في مرورهم على الصراط ليسوا على درجة واحدة، فمنهم من يمُرُّ مثل البرق، يعني: مثل ومْضِ البرق، ومنهم من يمُرُّ كالريح، ومنهم من يمُرُّ كأجوايد الخيل، كل على قدر نوره؛ لأن الناس يعطون الأنوار يوم القيامة، فمنهم من يُعطى نوره كالجبل، ومنهم من يعطى نوره فوق ذلك، وفوق ذلك: تحتمل أن تكون أكثر من الجبل، أو دون الجبل؛ لأن هذا من استعمال العربية، يجوز أن يكون معنى فوق ما هو أعلى أو ما هو أقل.

ومنهم من يُعطى نوره على قدر ظفر إبهامه، يطفيء مرةً وينور له مرة؛ لأن عمله في الدنيا نزر يسير مع كثرة الذنوب وغلبة الغفلة، فكان نوره على قدر عمله يوم القيامة، ولا شك أن هذا موضع ندامة، والله ﷻ سمى يوم القيامة يوم الحسرة، ويوم الندامة، حيث يندم الناس على تفريطهم في الأعمال الصالحة، وتركهم للخير والقربات، مع أنها أبواب كثيرة، ومجالات واسعة يستطيع الإنسان أن يدخلها بكل يسر وسهولة، ومع ذلك ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾ [يوسف].

وقوله: «**وَمِنْهُمْ الْمُجَازَى**» وفي رواية: «**ومنهم المخردل**»، فالمجازى أي: بعمله، من يجازيه الله ﷻ بعمله.

أما «**ومنهم المخردل**» فهو من قولك: خردلت اللحم يعني: قطعته، يعني: من الناس من تخردله تلك الكلاليب، يعني: تقطع لحمه ولا تسقطه

في النار، ومنهم من يسقط، إذ تأخذه تلك الكلاليب، نعوذ بالله من ذلك.

قوله: «**حَتَّى إِذَا فَرَغَ اللهُ مِنَ الْقَضَاءِ بَيْنَ الْعِبَادِ**» يعني: أن الله تبارك وتعالى إذا قضى بين العباد بالحق وهو أحكم الحاكمين، وأعدل العادلين، وخير من يقص الحق وهو خير الفاصلين. ودخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، كل بحسب عمله، كل بحسب علمه.

قوله: «**وَأَرَادَ أَنْ يُخْرِجَ بِرَحْمَتِهِ مَنْ أَرَادَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ**» يعني: ممن دخلها أولًا، وهذا فيه دليل لمذهب أهل السنة والجماعة القائلين بأن عصاة الموحدين يخرجون من النار ولو دخلوها، وأن النار نار العصاة من الموحدين تفنى ولا تبقى، وليس كل من دخل النار يؤبد فيها، خلافًا للخوارج والمعتزلة الذين قالوا: من دخل النار لا يخرج منها، ويستدلون بالآيات المطلقة كقوله: ﴿**وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ١٦٧**﴾ [البقرة]، ﴿**فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ٤٨**﴾ [المدثر]، ولكن هذه الآيات ليست في المؤمنين والموحدين، وإنما هي في الكفار، وصدق فيهم قول ابن عمر رضي الله عنهما إذ قال: «ذهبوا إلى آيات نزلت في المشركين، فجعلوها في المسلمين»، فهذه الآيات ليست في المسلمين!

فربنا عز وجل يُخرج برحمته من أراد من أهل النار، وإذا أراد ذلك:

«**أَمَرَ الْمَلَائِكَةَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنْ النَّارِ مَنْ كَانَ لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا مِمَّنْ أَرَادَ اللهُ تَعَالَى أَنْ يَرْحَمَهُ، مِمَّنْ يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**» وهذا يدل كما قلنا: على خروج الموحدين من النار، فالنار التي تفنى هي نار العصاة من الموحدين الذين يقولون: لا إله إلا الله، ممن كانوا لا يشركون بالله شيئًا، فيدخلهم سبحانه وتعالى برحمته إلى الجنة، بعد أن يطهروا من ذنوبهم وسيئاتهم وخبائثهم، يطهرون بالنار.



وهذا تأكيد وبيان أن الجنة لا يدخلها إلا نفس مؤمنة، وأما الكفار الذين لم يشهدوا لله تعالى بالتوحيد؛ فإن الجنة محرمة عليهم، كما قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وقال ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢]، ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأعراف]، فالنعيم الأخروي والجنة محرمة على الكفار، وقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠]، والجنة محرمة على التأبيد على الكفار.

قوله: «**فَيَعْرِفُونَهُمْ فِي النَّارِ، يَعْرِفُونَهُمْ بِأَثَرِ السُّجُودِ، تَأْكُلُ النَّارُ مِنْ ابْنِ آدَمَ كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا أَثَرَ السُّجُودِ، حَرَّمَ اللهُ عَلَى النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ أَثَرَ السُّجُودِ**» وهل أثر السجود الذي لا تأكله النار هو مواضع السجود السبعة (الجبهة ويدخل معها الأنف، واليدان، والركبتان، والقدمان)؟ أم أن أثر السجود هو موضع السجود من الجبهة فقط؟

فروى الإمام مسلم رحمه الله في صحيحه: «**أن قومًا يخرجون من النار يحترقون فيها، إلا دائرة الوجوه**» أي: مواضع السجود.

لكن من العلماء من قال: إن هذا الحديث: «**إِلَّا أَثَرَ السُّجُودِ**» عام، وذاك الحديث لعله في قوم مخصوصين من جملة الخارجين من النار، أنه لا يسلم من النار منهم إلا دائراة الوجوه.

قوله: «**فَيُخْرَجُونَ مِنْ النَّارِ، وَقَدْ امْتَحَشُوا**» يعني: احترقوا.



قوله: «**فَيُصَبُّ عَلَيْهِمْ مَاءُ الْحَيَاةِ**» وفي رواية: «**فيلقون في نهر يقال له: نهر الحياة، أو نهر الحيا**» بالمد.

قوله: «**فَيَنْبُتُونَ مِنْهُ كَمَا تَنْبُتُ الْحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ**» أي: إذا ألقوا في هذا النهر في الجنة؛ نبتت أجسادهم مرة أخرى بإذن العليم القدير ﷻ، الذي ما شاء كان، فتنبت أجسادهم في هذا النهر.

قوله: «**الْحِبَّةُ**» هي بذر البقول، والأعشاب التي تكون في البر.

قوله: «**حَمِيلِ السَّيْلِ**» ما يحمله السيل من الطين والقشّ والزبد، فتنبت فيه هذه الحبة وتكون صفراء ملتوية نضرة طرية، هكذا شبه النبي ﷺ هؤلاء الذين احترقوا في نار جهنم ثم خرجوا منها إلى الجنة، حتى قال له أحد الصحابة: والله يا رسول الله كأنك من أهل البادية؛ لأن هذه المناظر لا يراها إنسان، فهي من المناظر التي تكون عقيب المطر والسيل، فتنبت الحبوب أو بذور النباتات بهذه الصورة في البادية.

لكن النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، فتمثيله هنا وتشبيهه لهم بالحبَّة في سرعة النبات؛ لأن نبات الربيع ينبت بسرعة، وأيضًا حسن المظهر وطراوة الجسد والبدن، فتنبت أجسادهم سريعًا، ومَرَّ معنا أنهم يدخلون الجنة ويسميهم أهل الجنة بالجهنميون، ثم يدعون الله ﷻ أن يذهب عنهم هذا الاسم، فيسمون: بعتقاء الرحمن، وهذا كله كما ذكرنا أوَّلًا: من أدلة أهل السنة على أن العاصي الموحد لا يخلد في نار جهنم.

قوله: «**ثُمَّ يَفْرُغُ اللهُ تَعَالَى مِنَ الْقَضَاءِ بَيْنَ الْعِبَادِ**» أي: يقضي الله ﷻ بين عباده، وهو أسرع الحاسبين وأحكم الحاكمين، فيقضي بينهم بالعدل

والحق، فيصير أهل الجنة إلى الجنة، وأهل النار إلى النار.

قوله: «**وَيَبْقَى رَجُلٌ مُقْبِلٌ بِوَجْهِهِ عَلَى النَّارِ، وَهُوَ آخِرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولًا الْجَنَّةَ**» أي: إنه يرى النار بعينيه، وهو مقبل عليها بوجهه، لكنه لم يدخلها، فيدعو الله ﷻ:

«**فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ!**» أي: يا رب.

قوله: «**اصْرِفْ وَجْهِي عَنْ النَّارِ، فَإِنَّهُ قَدْ قَشَبَنِي رِيحُهَا، وَأَحْرَقَنِي ذَكَاؤُهَا**» قشبني: يعني: آذاني ريحها وسمومها الحارة.

«**ذَكَاؤُهَا**»: الذكاء هو الاشتعال والتوهج للنار، أي: إن وهج النار في وجهي، فأحرقني ريحها ودخانها وسمومها ووهجها في وجهي.

قوله: «**فَيَدْعُو اللهَ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَدْعُوَهُ، ثُمَّ يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: هَلْ عَسَيْتَ إِنْ فَعَلْتُ ذَلِكَ بِكَ أَنْ تَسْأَلَ غَيْرَهُ؟ فَيَقُولُ: لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهُ، وَيُعْطِي رَبَّهُ مِنْ عُهُودٍ وَمَوَاثِيقَ مَا شَاءَ اللهُ؛ فَيَصْرِفُ اللهُ وَجْهَهُ عَنْ النَّارِ**» أي: يأخذ الله عليه عهدًا أن لا يسأله شيئًا غير هذه المسألة، فيقول له: أنا أعطيك هذا الأمر وأصرف وجهك عن النار، لكن لا تسألني غير ذلك، فيعاهد الله ﷻ على ذلك، وبعده يصرف الله وجهه عن النار.

قوله: «**فَإِذَا أَقْبَلَ عَلَى الْجَنَّةِ وَرَآهَا**» أي: صار هو الآن تلقاء الجنة، ورأى الجنة، وما أعد الله تبارك وتعالى في هذه الجنة، ويأتيه ـ والله أعلم ـ شيء من ريحها وبردها، فإذا رآها ورأى ما فيها من النعيم والسرور: «**سَكَتَ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَسْكُتَ**» لأنه معاهد لربه ﷻ، أن لا يسأل شيئًا، فيسكت ويصبر ما شاء الله.



قوله: «**ثُمَّ يَقُولُ: أَيْ رَبِّ! قَدِّمْنِي إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ**» أي: قربني إلى باب الجنة.

قوله: «**فَيَقُولُ اللهُ لَهُ: أَلَيْسَ قَدْ أَعْطَيْتَ عُهُودَكَ وَمَوَاثِيقَكَ لَا تَسْأَلُنِي غَيْرَ الَّذِي أَعْطَيْتُكَ؟! وَيْلَكَ يَا ابْنَ آدَمَ، مَا أَغْدَرَكَ!**» يعني: ما أَخْوَنَكَ للأمانة، وما أَغْدَرَكَ للعهد، فإنك عاهدتني ووعدتني أن لا تسألني شيئًا غير السؤال السابق، وهو الصرف عن ريح النار وذكاءها ولهيبها.

قوله: «**فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ! وَيَدْعُو اللهَ**» ويتضرع إليه ﷻ.

قوله: «**حَتَّى يَقُولَ لَهُ: فَهَلْ عَسَيْتَ إِنْ أَعْطَيْتُكَ ذَلِكَ أَنْ تَسْأَلَ غَيْرَهُ؟ فَيَقُولُ: لَا وَعِزَّتِكَ، فَيُعْطِي رَبَّهُ مَا شَاءَ اللهُ مِنْ عُهُودٍ وَمَوَاثِيقَ**» أي: يأخذ الله ﷻ عليه العهد مرَّةً أخرى، أن لا يسأله شيئًا بعد هذه المسألة، وهي أن يقربه إلى باب الجنة.

قوله: «**فَيُقَدِّمُهُ إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ، فَإِذَا قَامَ عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ انْفَهَقَتْ لَهُ الْجَنَّةُ**» انفهقت يعني: اتسعت أمامه وانفتحت.

قوله: «**فَرَأَى مَا فِيهَا مِنْ الْخَيْرِ وَالسُّرُورِ**» رأى شيئًا من الخير والسرور الذي فيها، وما أعده الله لأهلها.

قوله: «**فَيَسْكُتُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَسْكُتَ**» أي: ثم يغلبه صبره؛ لأنه يرى من الخير والسرور والنعيم والحبور ما لا طاقة له على السكوت عنه.

قوله: «**ثُمَّ يَقُولُ: أَيْ رَبِّ! أَدْخِلْنِي الْجَنَّةَ**» وكان سأل أولًا: أن يصرف عن النار، ثم أن يقدم إلى باب الجنة، والآن زاد طمعه ورغب في دخول الجنة.

قوله: «**فَيَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَهُ: أَلَيْسَ قَدْ أَعْطَيْتَ عُهُودَكَ وَمَوَاثِيقَكَ أَنْ لَا تَسْأَلَ غَيْرَ مَا أُعْطِيتَ؟ وَيْلَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مَا أَغْدَرَكَ! فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ! لَا أَكُونُ أَشْقَى خَلْقِكَ، فَلَا يَزَالُ يَدْعُو اللهَ حَتَّى يَضْحَكَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنْهُ؛ فَإِذَا ضَحِكَ اللهُ مِنْهُ قَالَ: ادْخُلِ الْجَنَّةَ**» أي: لا يزال يدعو الله ﷻ حتى يرضى الله ﷻ عنه ويضحك منه.

وضحك الله تبارك وتعالى: صفة من صفاته، يستدل بها على محبته للشيء، ورضاه عنه.

وليس بصحيح أن يفسر الضحك: برضى الله أو محبته؛ لأن الرضى والمحبة صفتان غير الضحك، وأخطأ النووي رحمه الله لما فسَّر ضحك الله برضاه فعل عبده ومحبته إياه، وإظهار نعمته عليه وإيجابها عليه!! كما نقل عن العلماء فيما قال في شرحه على «صحيح مسلم»، فهذا خطأ.

والضحك من صفات الله تعالى الاختيارية، كالغضب، والرضى، والمحبة، والبغض...، وورد الضحك أيضًا في حديث رواه البخاري ومسلم: وهو قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**يضحك الله إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر، كلاهما يدخل الجنة: يقاتل هذا في سبيل الله فيقتل، ثم يتوب الله على القاتل، فيقاتل في سبيل الله، فيستشهد**».

فيضحك الله ﷻ لهذين الرجلين؛ لأن كلاهما قتل الآخر، ومع ذلك فهما يدخلان الجنة.

وأيضا: ورد في حديث علي رضي الله عنه: أن النبي ﷺ لما ركب على الدابة وقال دعاء الركوب، ثم قال: «**سبحانك إني ظلمت نفسي، فاغفر لي، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. ثم استضحك النبي ﷺ** فقيل له:



مم استضحكت؟ قال: «**استضحكت مما استضحك الله منه، قال ﷻ: علم عبدي أنه لا يغفر الذنوب إلا أنا**»(١).

فضحك الله تعالى صفة من صفاته، لا يجوز تأويلها. ونقول: ربنا ﷻ وتبارك وتعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى]، فضحكه لا نمثله ولا نكيفه ولا نأوله، ولا نعطله، ولا نحرفه، بل نقول: ضحك ليس كضحك المخلوقين، كما أن لله عز وجل سمعًا وبصرًا ليس كسمع وبصر المخلوقين، فهذا مثل هذا.

قوله: «**قَالَ: ادْخُلِ الْجَنَّةَ، فَإِذَا دَخَلَهَا قَالَ اللهُ لَهُ: تَمَنَّهْ**» تمنه: الهاء للسكت، كما في قوله ﷻ: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾﴾ [القارعة]، الهاء للسكت، وإلا فهي ليست من أصل الكلمة.

قوله: «**حَتَّى إِنَّ اللهَ لَيُذَكِّرُهُ مِنْ كَذَا وَكَذَا**» يعني: يقول الله تعالى تمنى ما تشاء، يدخله الجنة ثم يقول له: تمنَّ ما تشاء؛ لأن من دخل الجنة يتمنى، ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾ [ق]، ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾﴾ [فصلت].

يعني: ما يدعون به ويطالبون، كل ما يطلبونه يجدونه، حتى إن الله ﷻ برحمته وفضله وكرمه وإحسانه إلى عبيده، يذكر هذا الذي دخل الجنة، يذكره الله ﷻ من الخير.

قوله: «**حَتَّى إِذَا انْقَطَعَتْ بِهِ الْأَمَانِيُّ**» يعني: إذا انقطعت به الأمنيات التي اشتهاها وطلبها.

---

(١) رواه أحمد (٧٥٣، ٩٣٠٢، ١٠٥٦)، وأبو داود (٢٦٠٢)، والترمذي في «السنن» (٣٤٤٦)، والشمائل (٢٣٣).



قوله: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: ذَلِكَ لَكَ، وَمِثْلُهُ مَعَهُ» يعني: كل ما طلبته لك، ولك ضعفه.

قوله: «قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: أَشْهَدُ أَنِّي حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَوْلَهُ: ذَلِكَ لَكَ وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ» فقال أبو هريرة «مَا حَفِظْتُ إِلَّا قَوْلَهُ: ذَلِكَ لَكَ وَمِثْلُهُ مَعَهُ» فلعل النبي ﷺ أعلم أوَّلًا بالوحي بما في حديث أبي هريرة، ثم بعد ذلك زاد الله تعالى لهذا العبد الأعطيات، فكل منهما روى عن النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ ما سمعه.

قوله: «وَذَلِكَ الرَّجُلُ آخِرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولًا الْجَنَّةَ» فما تقولون بمنازل النبيين والصديقين والشهداء والصالحين؟ كيف هي عند رب العالمين وأكرم الأكرمين سبحانه وتعالى؟!

فاللهم إنا نسألك رضاك والمنازل العليا في الجنان... يا كريم يا منان.

** ** **

باب: خروج الموحدين من النار

(٨٧) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا؛ فَإِنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ فِيهَا، وَلَا يَحْيَوْنَ، وَلَكِنْ نَاسٌ مِنْكُمْ أَصَابَتْهُمُ النَّارُ بِذُنُوبِهِمْ - أَوْ قَالَ: بِخَطَايَاهُمْ - فَأَمَاتَهُمْ إِمَاتَةً، حَتَّى إِذَا كَانُوا فَحْمًا، أُذِنَ بِالشَّفَاعَةِ؛ فَجِيءَ بِهِمْ ضَبَائِرَ ضَبَائِرَ، فَبُثُّوا عَلَى أَنْهَارِ الْجَنَّةِ، ثُمَّ قِيلَ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ! أَفِيضُوا عَلَيْهِمْ، فَيَنْبُتُونَ نَبَاتَ الْحِبَّةِ تَكُونُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: كَأَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ كَانَ بِالْبَادِيَةِ.

❖ **الشرح:**

هذا الحديث أخرجه الإمام مسلم في كتاب الإيمان، وبوَّب عليه النووي رحمه الله (٣/٣٥): باب إثبات الشفاعة، وإخراج الموحدين من النار.

وأهل السنة والجماعة متفقون على وقوع «الشفاعة» بصريح كتاب الله تعالى، وتواتر الأحاديث فيها.

أما الآيات ففي قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [طه: ١٠٩]، وفي قوله ﷻ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٣٨]، وغيرهما من الآيات الواردة في الشفاعة.

ومن الأحاديث والآثار قد ورد ما بلغ مبلغ التواتر، بصحة الشفاعة في الآخرة لأهل الكبائر من المؤمنين الموحدين، وأجمع السلف على قبولها والقول بها.



وذهب الخوارج والمعتزلة إلى منعها، وتعلقوا بآيات في تخليد أهل الكبائر في النار، كقوله تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الشعراء]، وفي قوله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر]، وقوله ﷻ: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾ [غافر]، وهذه الآيات كلها في الكفار وليست في المؤمنين ولا في المسلمين!

وأولوا الأحاديث الواردة في الشفاعة بكونها: في زيادة الدرجات! وهذا الباطل! الآن ألفاظ الأحاديث صريحة في بطلان مذهب الخوارج والمعتزلة، وأنها تكون في من استوجب النار ودخلها ثم يخرج منها.

والشفاعة في الكتاب والسنة على خمسة أقسام:

القسم الأول: الشفاعة العظمى والكبرى في الموقف، وهي التي سبق ذكرها، وأن الله ﷻ اختار محمداً، عندما يتخلى عنها الأنبياء من لدن آدم إلى عيسى عليهم الصلاة والسلام، ويقول الرسول: «**أنا لها، أنا لها**»، هذه الشفاعة العظمى والكبرى، والمقام المحمود الذي سيقومه النبي ﷺ.

القسم الثاني: الشفاعة في إدخال قوم الجنة بغير حساب، فالنبي - عليه الصلاة والسلام - يشفع في قوم ليدخلوا الجنة بغير حساب، وهذه أيضًا جاءت في «صحيح مسلم» وغيره.

القسم الثالث: وهي لقوم استوجبوا النار، فيشفع فيهم نبينا، فلا يدخلونها.

القسم الرابع: الشفاعة فيمن دخل النار من المذنبين من الموحدين، فقد جاءت الأحاديث بإخراجهم من النار بشفاعة نبينا محمد ﷺ، وشفاعة الملائكة، وشفاعة المؤمنين، ثم يخرج الله تعالى كل من قال: لا إله إلا الله



من النار، فلا يبقى فيها إلا الكافرون، وهذه هي التي يجحدها الخوارج والمعتزلة.

القسم الخامس: وهي شفاعته -عليه الصلاة والسلام- في زيادة الدرجات لأهل الإيمان، وهذه لا ينكرها المعتزلة، ولا ينكرون أيضًا الشفاعة العظمى في المحشر، إنما جرى فيه الخلاف هو إخراج المذنبين من النار بشفاعة خاتم النبين -عليه الصلاة والسلام-، والمؤمنين والملائكة.

القسم السادس: شفاعته ﷺ في أن يدخل الناس الجنة، كما جاء في «صحيح مسلم» مرفوعًا: «**آتي باب الجنة فأستفتح، فيقول الخازن: من؟ فأقول محمد، فيقول: بك أُمِرْتُ أن لا أفتح لأحد قبلك**».

والشفاعة التي ينكرها المعتزلة مستفيضة عند السلف، وكانوا يسألون الله تبارك وتعالى أن لا يحرمهم من شفاعة نبيهم -عليه الصلاة والسلام-، والرسول -عليه الصلاة والسلام- كان يذكرها في أكثر من حديث مثل: «**من سمع النداء، فقال مثل ما يقول المؤذن، ثم صلى علي، ثم سأل لي الوسيلة؛ فقد حَلَّتْ له شفاعتي**».

وقال له أبو هريرة: من أسعد الناس بشفاعتك يا رسول الله؟ قال: «**من قال لا إله إلا الله مخلصًا بها من قلبه**».

ولا يكره للإنسان أن يسأل الله ﷻ الشفاعة؛ لأن البعض قال: يكره أن يسأل الله الشفاعة؛ لأنه إذا سألها؛ فكأنه أقر على نفسه أنه سيدخل النار!

وهذا خطأ! لأن الشفاعة أقسام، فالنبي -عليه الصلاة والسلام-



شفاعته أنواع، فليست هي للمذنبين فقط! وإنما تكون لتخفيف الحساب، ولزيادة الدرجات، والفضل في الدار الآخرة.

ثم إن الذي يقول: أنا لا أحتاج إلى الشفاعة! كأنه قد ضمن الجنة! ولا شك أن كل مسلم عاقل معترف بالتقصير، ولا يعتَدُّ بنفسه ولا بعمله، بل هو مشفق أن يصيبه الله ﷻ ببعض سيئاته ويخشى أن يكون من الهالكين يوم القيامة.

ويلزم هذا القائل كما قال القاضي عياض: أن لا يدعو الله ﷻ بالمغفرة ولا بالرحمة! لأنها لا تكون إلا للمذنبين! وهذا أيضًا خطأ، فإن هذا خلاف ما عرف من دعاء النبي ﷺ، ودعاء السلف الصالحين، فإنهم يدعون الله كثيرًا بالمغفرة والرحمة، وهي لمن غفر له ذنبه، زيادة في درجاته في الآخرة.

قوله: «**أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا، فَإِنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ فِيهَا، وَلَا يَحْيَوْنَ**» كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾ [الأعلى] وقال ﷻ: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾﴾ [فاطر].

فأهل النار الذي استحقوا الخلود في النار لا يموتون ولا يحيون، لا يموتون فيستريحون، ولا يحيون حياة ينتفعون بها أو يجدون فيها طعم الحياة ولذتها فهؤلاء هم الكفار الذين هم أهل النار، والذين قضي عليهم بالخلود في النار فلا يخرجون منها، نعوذ بمولانا من ذلك. وهو دليل على أن عذاب أهل الخلود دائم، كما أن نعيم أهل الجنة دائم، وهو مذهب أهل الحق.



قوله: «وَلَكِنْ نَاسٌ مِنْكُمْ أَصَابَتْهُمْ النَّارُ بِذُنُوبِهِمْ ـ أَوْ قَالَ: بِخَطَايَاهُمْ ـ» وهنا استدراك من النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن هؤلاء يختلفون عمن ذكروا في أول الكلام وهم أهل النار «الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا؛ فَإِنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ فِيهَا، وَلَا يَحْيَوْنَ» فقوله: «وَلَكِنْ نَاسٌ أَصَابَتْهُمْ النَّارُ بِذُنُوبِهِمْ» أي: هؤلاء لهم حكم آخر يختلف عن حكم الأولين.

قوله: «فَأَمَاتَهُمْ إِمَاتَةً» أي: يموتون إماتة بعد أن يعذبوا المدة التي أرادها الله تعالى، وهذه الإماتة حقيقية، على ظاهر النص؛ لأن بعض أهل العلم قال: إن هذه الإماتة عبارة عن فقد الإحساس! والصحيح أنها إماتة كما سماها النبي ﷺ بكلامه العربي المبين. فيكون عذاب هؤلاء على قدر ذنوبهم وسيئاتهم، ثم يميتهم الله، ويكونون محبوسين في النار، ثم يخرجون من النار موتى قد صاروا فحمًا محترقين.

قوله: «حَتَّى إِذَا كَانُوا فَحْمًا، أُذِنَ بِالشَّفَاعَةِ» أي: أذن الله تبارك وتعالى في الشفاعة لهم بالخروج من النار.

قوله: «فَجِيءَ بِهِمْ ضَبَائِرَ ضَبَائِرَ» الضبائر: جمع ضُبارة أو ضِبارة بفتح الضاد وكسرها، ويقال أيضًا: إضبارة بالهمز، يعني: جماعة تلو جماعة، يحملون من النار كالأمتعة.

قوله: «فَبُثُّوا عَلَى أَنْهَارِ الْجَنَّةِ» يعني: يفرقون على أنهار الجنة.

قوله: «ثُمَّ قِيلَ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ! أَفِيضُوا عَلَيْهِمْ» يعني: صبوا عليهم من الماء، فيحيون بذلك. ومر معنا أنهم يلقون في نهر الحياة.

فيؤخذ من ذلك: أنهم يلقون في نهر الحياة، وأهل الجنة أيضًا يصبون



عليهم من الماء، فتنبت أجسادهم وتحيا، كما تحيا البذور التي تكون في الصحراء، وهو قوله: «فَيَنْبُتُونَ نَبَاتَ الْحِبَّةِ».

قوله: «فِي حَمِيلِ السَّيْلِ» وهو الطين الذي يحمله السيل، أو الغثاء الذي يحمله السيل ويكون في بعض البذور، فهذه تنبت سريعة صفراء ملتوية ضعيفة، ثم بعد ذلك تقوى شيئًا فشيئًا، فهذا وصف لنبات أجساد هؤلاء الذي كانوا في جهنم، تنبت أجسادهم كما ينبت النبات الذي يكون في حميل السيل، وبعد ذلك تقوى أجسادهم ويصيروا من أهل الجنة.

قوله: «فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ الْقَوْمِ: كَأَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ كَانَ بِالْبَادِيَةِ» لأن هذا المنظر لا يراه إلا من يعيش بالبادية؛ لأن نبات هذه البذور تكون عقيب السيل، فيراه من يعيش في البادية، ورسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ لا ينطق عن الهوى، إن هوى إلا وحي يوحى، فتمثيله من أحسن التمثيل، وأصدقه وأقربه إلى الواقع والصحة.

فهذا الحديث الصحيح دليل صريح، في خروج جماعة من الناس من النار التي أصابتهم بسيئاتهم وهم موحدون، فيدخلون الجنة بعد أن احترقوا في نار جهنم وصاروا فحمًا، فيصب عليهم ماء الحياة ومن أنهار الجنة، فينبتون وتنبت أجسادهم وتصح، ثم يدخلون الجنة، ولا أصرح من هذا النص في رده على الخوارج والمعتزلة في نفيهم هذه الشفاعة، وقولهم إن الشفاعة إنما هي في زيادة الدرجات!!

** ** **



(٨٨) عَنْ أَنَسٍ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: آخِرُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ رَجُلٌ، فَهُوَ يَمْشِي مَرَّةً، وَيَكْبُو مَرَّةً، وَتَسْفَعُهُ النَّارُ مَرَّةً، فَإِذَا مَا جَاوَزَهَا الْتَفَتَ إِلَيْهَا، فَقَالَ تَبَارَكَ الَّذِي نَجَّانِي مِنْكِ، لَقَدْ أَعْطَانِي اللهُ شَيْئًا مَا أَعْطَاهُ أَحَدًا مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، فَتُرْفَعُ لَهُ شَجَرَةٌ فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ! أَدْنِنِي مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ فَلِأَسْتَظِلَّ بِظِلِّهَا، وَأَشْرَبَ مِنْ مَائِهَا، فَيَقُولُ اللهُ ﷻ: يَا ابْنَ آدَمَ! لَعَلِّي إِنْ أَعْطَيْتُكَهَا سَأَلْتَنِي غَيْرَهَا، فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، وَيُعَاهِدُهُ أَنْ لَا يَسْأَلَهُ غَيْرَهَا، وَرَبُّهُ يَعْذِرُهُ لِأَنَّهُ يَرَى مَا لَا صَبْرَ لَهُ عَلَيْهِ؛ فَيُدْنِيهِ مِنْهَا؛ فَيَسْتَظِلُّ بِظِلِّهَا، وَيَشْرَبُ مِنْ مَائِهَا، ثُمَّ تُرْفَعُ لَهُ شَجَرَةٌ أَحْسَنُ مِنَ الْأُولَى، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ! أَدْنِنِي مِنْ هَذِهِ لِأَشْرَبَ مِنْ مَائِهَا، وَأَسْتَظِلَّ بِظِلِّهَا، لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا، فَيَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ! أَلَمْ تُعَاهِدْنِي أَنْ لَا تَسْأَلَنِي غَيْرَهَا؟ قَالَ: فَيُعَاهِدُهُ أَنْ لَا يَسْأَلَهُ غَيْرَهَا، فَيَقُولُ: لَعَلِّي إِنْ أَدْنَيْتُكَ مِنْهَا تَسْأَلُنِي غَيْرَهَا، فَيُعَاهِدُهُ أَنْ لَا يَسْأَلَهُ غَيْرَهَا، وَرَبُّهُ يَعْذِرُهُ؛ لِأَنَّهُ يَرَى مَا لَا صَبْرَ لَهُ عَلَيْهِ؛ فَيُدْنِيهِ مِنْهَا؛ فَيَسْتَظِلُّ بِظِلِّهَا، وَيَشْرَبُ مِنْ مَائِهَا، ثُمَّ تُرْفَعُ لَهُ شَجَرَةٌ عِنْدَ بَابِ الْجَنَّةِ، هِيَ أَحْسَنُ مِنَ الْأُولَيَيْنِ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ! أَدْنِنِي مِنْ هَذِهِ لِأَسْتَظِلَّ بِظِلِّهَا، وَأَشْرَبَ مِنْ مَائِهَا، لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا، فَيَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ! أَلَمْ تُعَاهِدْنِي أَنْ لَا تَسْأَلَنِي غَيْرَهَا؟ قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ، هَذِهِ لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا، وَرَبُّهُ يَعْذِرُهُ؛ لِأَنَّهُ يَرَى مَا لَا صَبْرَ لَهُ عَلَيْهَا؛ فَيُدْنِيهِ مِنْهَا؛ فَإِذَا أَدْنَاهُ مِنْهَا، فَيَسْمَعُ أَصْوَاتَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؛ فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ! أَدْخِلْنِيهَا، فَيَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ! مَا يَصْرِينِي مِنْكَ؟ أَيُرْضِيكَ أَنْ أُعْطِيَكَ الدُّنْيَا وَمِثْلَهَا مَعَهَا؟ قَالَ: يَا رَبِّ أَتَسْتَهْزِئُ مِنِّي وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ فَضَحِكَ ابْنُ مَسْعُودٍ، فَقَالَ: أَلَا تَسْأَلُونِي

مِمَّ أَضْحَكُ؟ فَقَالُوا: مِمَّ تَضْحَكُ؟ قَالَ: هَكَذَا ضَحِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالُوا: مِمَّ تَضْحَكُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: مِنْ ضِحْكِ رَبِّ الْعَالَمِينَ حِينَ قَالَ: أَتَسْتَهْزِئُ مِنِّي وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ فَيَقُولُ: إِنِّي لَا أَسْتَهْزِئُ مِنْكَ، وَلَكِنِّي عَلَى مَا أَشَاءُ قَادِرٌ».

❖ **الشرح:**

هذا الحديث أخرجه الإمام مسلم في هذا الكتاب (كتاب الإيمان)، وبوَّب عليه النووي (٣٩/٣): باب آخر أهل النار خروجًا؛ وقد مر معنا نحوه وشرحناه، ونبين ما يحتاج إليه ههنا.

قوله: «عَنْ أَنَسٍ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ» رضي الله عنهما وهو من رواية الصحابي عن الصحابي، فهو من رواية أنس رضي الله عنه، عن ابن مسعود الصحابي الجليل من السابقين الأولين.

قوله: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: آخِرُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ رَجُلٌ» هذا في بيان صفة آخر من يدخل الجنة.

قوله: «فَهُوَ يَمْشِي مَرَّةً، وَيَكْبُو مَرَّةً» رجل يمشي مرة ويكبو مرة، ومعنى يكبو: يسقط على وجهه، فتارة يستقيم له المشي، وتارة يكبو ويسقط على وجهه.

قوله: «وَتَسْفَعُهُ النَّارُ مَرَّةً» يعني: تلفحه النار، فتصيبه على وجهه، وتسود وجهه، كما قال تعالى: ﴿لَنَسْفَعًا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾﴾ [العلق] يعني: لنسمنها بالسواد يوم القيامة، وهي ناصية أبي جهل. فالنار إذا أصابت وجه الإنسان أثرت فيه سوادًا، فهو على هذه الحال.



قوله: «**فَإِذَا مَا جَاوَزَهَا الْتَفَتَ إِلَيْهَا، فَقَالَ تَبَارَكَ الَّذِي نَجَّانِي مِنْكِ**» تبارك: تفاعل من البركة، وهي: الخير الكثير، والله ﷻ مصدر الخيرات والبركات كلها، فيحمد الله ﷻ على هذا الخير الذي أعطاه إياه، بأن نجاه من النار.

ثم قال معظما نعمة الله عليه:

«**لَقَدْ أَعْطَانِي اللهُ شَيْئًا مَا أَعْطَاهُ أَحَدًا مِنْ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ**» وهذا لعظم النجاة في عينه؛ لأنه شاهد النار وأهوالها، وأصابته ولفحته حتى غيرت لون بشرته، ثم لما نجاه الله قال: لقد أعطيت من النعمة ما لم يعطاه أحد، بحسب ظنه وعلمه.

قوله: «**فَتُرْفَعُ لَهُ شَجَرَةٌ**» بعد نجاته من النار.

قوله: «**فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ! أَدْنِنِي مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ**» يعني: ينظر إلى شجرة من شجر الجنة أمامه، وترفع أمام بصره، فيسأل الله تعالى أن يدنيه من هذا الشجرة.

قوله: «**فَلِأَسْتَظِلَّ بِظِلِّهَا، وَأَشْرَبَ مِنْ مَائِهَا**» أي: لأستظل بظل هذه الشجرة ويشرب من الماء الذي يجري تحتها، فإن أنهار الجنة تجري تحت الأشجار كما قال تعالى في كتابه: ﴿جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [البقرة: ٢٥].

والجنات هي الأشجار الملتفة التي تجن صاحبها، أي: تستره عن أعين الناظرين، فيرغب في ذلك إلى ربه ﷻ.

قوله: «**فَيَقُولُ اللهُ ﷻ: يَا ابْنَ آدَمَ! لَعَلِّي إِنَّ أَعْطَيْتُكَهَا سَأَلْتَنِي غَيْرَهَا، فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، وَيُعَاهِدُهُ أَنْ لَا يَسْأَلَهُ غَيْرَهَا**» فيأخذ الله تعالى على هذا

الرجل العهد: أنه إذا أعطاه هذه العطية أن لا يسأله غيرها، فيعطيه العهد؛ لأنه يريد النجاة والفوز بهذه الشجرة بالاستمتاع بظلها، والظل من النعيم كما جاء في الحديث الصحيح، ويريد أن يشرب من ماء تحتها، فيعطيه الله ﷻ ذلك.

قوله: «**وَرَبُّهُ يَعْذِرُهُ لِأَنَّهُ يَرَى مَا لَا صَبْرَ لَهُ عَلَيْهِ**» أي: أن الله ﷻ يعذره في سؤاله هذا؛ لأنه يرى شيئًا لا يقدر على الصبر عنه، والله ﷻ رؤوف بعباده رحيم برٌ، لا يكلفهم ما لا يطيقون، ولا يأمرهم بما لا يستطيعون، فلا يكلف نفسًا إلا وسعها، وهو يحب الإعذار جل وعلا، أن يقيم الحجة فلا يبقى للإنسان عذر، أما من له عذر فإن الله تبارك وتعالى يعذره ويتجاوز عنه.

قوله: «**فَيُدْنِيهِ مِنْهَا**» من الشجرة.

قوله: «**ثُمَّ تُرْفَعُ لَهُ شَجَرَةٌ أَحْسَنُ مِنْ الْأُولَى، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ! أَدْنِنِي مِنْ هَذِهِ لِأَشْرَبَ مِنْ مَائِهَا، وَأَسْتَظِلَّ بِظِلِّهَا، لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا**» أي: رفعت له شجرة أحسن من الأولى وأفضل ظلًا وأعظم وأكمل، فسأل وطمع بذلك ابن آدم، وهو يطمع بجود ربه ﷻ، بل هو أحق من يطمع في جوده وكرمه.

قوله: «**فَيَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ! أَلَمْ تُعَاهِدْنِي أَنْ لَا تَسْأَلَنِي غَيْرَهَا؟ قَالَ: فَيُعَاهِدُهُ أَنْ لَا يَسْأَلَهُ غَيْرَهَا، فَيَقُولُ: لَعَلِّي إِنْ أَدْنَيْتُكَ مِنْهَا تَسْأَلُنِي غَيْرَهَا**» إنك عاهدتني ألا تسألني غير السؤال السابق، ولعلي إن أجبتك الآن أن تسألني غير ذلك.

قوله: «**فَيُعَاهِدُهُ أَنْ لَا يَسْأَلَهُ غَيْرَهَا، وَرَبُّهُ يَعْذِرُهُ؛ لِأَنَّهُ يَرَى مَا لَا صَبْرَ لَهُ عَلَيْهِ**» أي: يعذره في سؤاله هذا كما عذره في المرة الأولى.



فيستجيب الله له:

«**فَيُدْنِيهِ مِنْهَا، فَيَسْتَظِلُّ بِظِلِّهَا، وَيَشْرَبُ مِنْ مَائِهَا، ثُمَّ تُرْفَعُ لَهُ شَجَرَةٌ عِنْدَ بَابِ الْجَنَّةِ، هِيَ أَحْسَنُ مِنَ الْأُولَيَيْنِ**» أي: ترفع له عند باب الجنة شجرة هي أحسن وأكمل وأفضل من الشجرتين الأوليين.

قوله: «**فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ! أَدْنِنِي مِنْ هَذِهِ لِأَسْتَظِلَّ بِظِلِّهَا، وَأَشْرَبَ مِنْ مَائِهَا، لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا، فَيَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ! أَلَمْ تُعَاهِدْنِي أَنْ لَا تَسْأَلَنِي غَيْرَهَا؟ قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ، هَذِهِ لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا، وَرَبُّهُ يَعْذِرُهُ؛ لِأَنَّهُ يَرَى مَا لَا صَبْرَ لَهُ عَلَيْهَا**» في المرة الأولى والثانية قال: لأنه يرى ما لا صبر له «عليه» يعني: من النعيم والفضل، وهنا قال: لأنه يرى ما لا صبر له «عليها» يعني من الشجرة.

قوله: «**فَيُدْنِيهِ مِنْهَا، فَإِذَا أَدْنَاهُ مِنْهَا، فَيَسْمَعُ أَصْوَاتَ أَهْلِ الْجَنَّةِ**» وهم في الجنات يتكلمون ويتحادثون ويضحكون في سرور وفي نعيم، فيشتاق إلى دخول الجنة، ويتمنى أن يكون ممن أدخله الله تبارك وتعالى إلى هذه المكان، ففيه ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين والأسماع.

قوله: «**فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ! أَدْخِلْنِيهَا**» وهذا هو السؤال الأكبر لهذا الرجل، أن يدخل الجنة.

قوله: «**فَيَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ! مَا يَصْرِينِي مِنْكَ؟**» الصري هو: القطع، يعني: ما يقطع مسألتك مني. وفي رواية غير مسلم «**ما يصريك مني**» وهذه اختارها أبو إسحاق الحربي وقال: هي أصح من رواية مسلم، بل وأنكر رواية مسلم! والحق أن كلاهما صحيح، فإن السائل متى انقطع عن المسؤول انقطع المسؤول عنه.

والمعنى: أي شيء يرضيك يا ابن آدم، ويقطع السؤال بيني وبينك.

قوله: «**أَيُرْضِيكَ أَنْ أُعْطِيَكَ الدُّنْيَا وَمِثْلَهَا مَعَهَا؟**» يعني: هل ترضى وهل تنقطع مسألتك إذا أعطيتك الدنيا ومثلها معها؟ هل ترضى بذلك؟ وتنقطع عن السؤال، أن تعطى مثل نعيم الدنيا وما فيها من القصور وما فيها من الاشجار والضياع والخير والنعيم، ومثلها معها، أيرضيك مثل هذا؟ فيقول الرجل:

«**يَا رَبِّ أَتَسْتَهْزِئُ مِنِّي وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟**» وهذا فيما يظهر أن الرجل قاله لما عرض عليه من الخير ما لا يخطر له على بال، فأصابه من السرور والدهشة ما لم يقدر فيه على ضبط لسانه، فقال مثل هذا، كما قال ذاك الرجل الذي فرح بوجدان راحلته عند رأسه: «اللهم أنت عبدي وأنا ربك!» من الدهشة والفرح بوجدان ما أضاع، فكأنه قال هذا على وجه الدهشة «**أَتَسْتَهْزِئُ مِنِّي وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟**».

«والاستهزاء» من صفات الباري ﷻ، التي يثبتها له أهل السنة والجماعة كما أثبتها لنفسه في كتابه، فإن الله تبارك وتعالى أثبت لنفسه أنه يستهزئ بالمنافقين ويستهزئ بمن يستهزئ بعباده المؤمنين، ويسخر ممن يسخر من الصالحين، وهذه صفة تذكر مقيدة، فيقال: الله يستهزئ بالمنافقين، يستهزئ بالمجرمين، كما قال ﷻ: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾ [البقرة]، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [التوبة].

وهذا الاستهزاء الواقع في محله صفةُ مدح، لا صفة نقص؛ لأن الله



تبارك وتعالى يستهزئ بهذا الصنف من الناس، المستهزئ بعباده وبصلواتهم وعباداتهم ونفقاتهم.

قوله: «**فَضَحِكَ ابْنُ مَسْعُودٍ، فَقَالَ: أَلَا تَسْأَلُونِي مِمَّ أَضْحَكُ؟ فَقَالُوا: مِمَّ تَضْحَكُ؟ قَالَ: هَكَذَا ضَحِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالُوا: مِمَّ تَضْحَكُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: مِنْ ضِحْكِ رَبِّ الْعَالَمِينَ حِينَ قَالَ: أَتَسْتَهْزِئُ مِنِّي وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ فَيَقُولُ: إِنِّي لَا أَسْتَهْزِئُ مِنْكَ، وَلَكِنِّي عَلَى مَا أَشَاءُ قَادِرٌ**» ضحك ابن مسعود من ضحك رسول الله ﷺ، وضحك رسول الله ﷺ من ضحك رب العالمين، وهذا نوع من التسلسل الذي يأتي على صفة، قال الناظم في «البيقونية»:

مسلسل قل ما على وصف أتى   مثل أما والله أنبأني الفتى
كذاك قد حدثنيه قائما   أو بعد أن حدثني تبسما

والمسلسل أن يروي الراوي الحديث مقرونًا بصفة صدرت من الراوي، مثل أن يحدثه قائمًا، أو بعد أن يحدثه يبتسم أو يضحك، فهذا من التسلسل في الرواية.

وسبق أن ذكرنا أن «الضحك» صفة من صفات الله تعالى الاختيارية، ولا يجوز أن تأول بالرضا، أو الرحمة، أو إرادة الخير، كما تأوّل النووي رحمه الله!! لأن هذا تأويل وتعطيل للصفة، وهو مسلك الأشاعرة والجهمية وغيرهم، وإنما هو من صفات ربنا الاختيارية نثبتها له كما أثبتها لنفسه، وذكرنا بعض الأحاديث الواردة فيها فيما مضى.

قوله: «**وَلَكِنِّي عَلَى مَا أَشَاءُ قَادِرٌ**» يعني: إن كنت لست أهلًا له؛ فإني أجعلك أهلًا لذلك، وأعطيك ما تستبعد؛ لأني على ما أشاء قادر، فهذا

الرجل قد لا يستحق مثل ذلك بعمله، لكن الله أهَّله، فجعله محلًا لمثل هذا العطاء العظيم، فإنه جل وعلا على كل شيء قدير، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

** ** **

(٨٩) عن أَبِي الزُّبَيْرِ: أَنَّهُ سمعَ جابرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ ﵄ يُسْأَلُ عَنْ الْوُرُودِ، فَقَالَ: نَجِيءُ نَحْنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ كَذَا وَكَذَا، انْظُرْ أَيْ ذَلِكَ فَوْقَ النَّاسِ، قَالَ: فَتُدْعَى الْأُمَمُ بِأَوْثَانِهَا وَمَا كَانَتْ تَعْبُدُ الْأَوَّلُ فَالْأَوَّلُ، ثُمَّ يَأْتِينا رَبُّنَا بَعْدَ ذَلِكَ فَيَقُولُ: مَنْ تَنْظُرُونَ؟ فَيَقُولُونَ: نَنْظُرُ رَبَّنَا، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ حَتَّى نَنْظُرَ إِلَيْكَ، فَيَتَجَلَّى لَهُمْ يَضْحَكُ، قَالَ: فَيَنْطَلِقُ بِهِمْ، وَيَتَّبِعُونَهُ، وَيُعْطَى كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ مُنَافِقٍ أَوْ مُؤْمِنٍ نُورًا، ثُمَّ يَتَّبِعُونَهُ، وَعَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ كَلَالِيبُ وَحَسَكٌ، تَأْخُذُ مَنْ شَاءَ اللهُ، ثُمَّ يُطْفَأُ نُورُ الْمُنَافِقِينَ، ثُمَّ يَنْجُو الْمُؤْمِنُونَ، فَتَنْجُو أَوَّلُ زُمْرَةٍ وُجُوهُهُمْ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، سَبْعُونَ أَلْفًا لَا يُحَاسَبُونَ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ كَأَضْوَءِ نَجْمٍ فِي السَّمَاءِ، ثُمَّ كَذَلِكَ، ثُمَّ تَحِلُّ الشَّفَاعَةُ، وَيَشْفَعُونَ حَتَّى يَخْرُجَ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الْخَيْرِ مَا يَزِنُ شَعِيرَةً، فَيُجْعَلُونَ بِفِنَاءِ الْجَنَّةِ، وَيَجْعَلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ يَرُشُّونَ عَلَيْهِمُ الْمَاءَ، حَتَّى يَنْبُتُوا نَبَاتَ الشَّيْءِ فِي السَّيْلِ، وَيَذْهَبُ حُرَاقُهُ، ثُمَّ يَسْأَلُ حَتَّى تُجْعَلَ لَهُ الدُّنْيَا وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهَا مَعَهَا».

❖ الشرح:

هذا هو الحديث الرابع في هذا الباب: «باب خروج الموحدين من النار»، وبوَّب عليه النووي (٣/٤٧ ـ ٤٩): «باب آخر أهل النار خروجًا».

«عن أَبِي الزُّبَيْرِ» محمد بن تدرس، مدلس لكنه سمع من جابر، وبعض الأحاديث لم يسمعها، فما صرح فيه بالتحديث فهو مقبول بالاتفاق، وما لم يصرح فيه بالتحديث فمن العلماء من توقف في روايته، ومنهم من قبله إذا كان

ذلك في مسلم وقال: إن ما رواه مسلم في صحيحه فقد جاوز «القنطرة» ومسلم لا يخرج من حديثه إلا الصحيح، أو ما تبين له من طرق أخرى أن أبا الزبير سمعه من جابر، وهنا أبو الزبير صرح بالسماع من جابر.

قوله: «**أَنَّهُ سَمِعَ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ ﷺ يُسْأَلُ عَنْ الْوُرُودِ**» الورود يعني المذكور في قوله تبارك تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ [مريم].

قوله: «**فَقَالَ: نَجِيءُ نَحْنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» قوله ظاهره أنه من كلام جابر، لكن مسلمًا أدخله في المسند؛ لأنه روي مسندًا من غير هذا الطريق، كما سيأتي.

قوله: «**عَنْ كَذَا وَكَذَا، انْظُرْ أَيْ ذَلِكَ فَوْقَ النَّاسِ**» هكذا في جميع نسخ «صحيح مسلم» وقد اتفق العلماء المتقدمون والمتأخرون على أنه تصحيف وتغيير في اللفظ، وقال الحافظ عبد الحق في «كتابه الجمع بين الصحيحين»: «إن هذا الذي وقع في «صحيح مسلم» تخليط من أحد الناسخين» وصورة الحديث وصوابه: «**نجيء يوم القيامة على كوم فوق الناس**»، وروى أيضًا هذا الحديث ابن أبي خيثمة من طريق كعب بن مالك قال: «**يحشر الناس يوم القيامة على تل، وأمتي على تل**»، ورواه أيضًا الطبري في التفسير من حديث ابن عمر: «**فيرقى هو (يعني محمدًا ﷺ) وأمته على كوم فوق الناس**».

إذًا هذه اللفظة كأنها أشكلت على الناسخ أو على الراوي فقال: «**نجيء يوم القيامة (ما استطاع أن يقرأ: على كوم) فقال: عن كذا وكذا أنظر أي ذلك**» يعني: انظر أيها الراوي وأيها السامع وأيها القارئ لصحيح



مسلم، ما هو الصحيح في هذه اللفظة، فإني متوقف في هذه اللفظة.

ومعنى: «**على كوم**» يعني: على تَلٍّ، أو على مرتفع من الأرض.

قوله: «**فَتُدْعَى الْأُمَمُ بِأَوْثَانِهَا**» أي: كما مَرَّ معنا في الروايات السابقة، أنه تدعى كل أمة بإلاهها الذي كانت تعبده، فيقال: من كان يعبد الشمس فليتبع الشمس، ومن كان يعبد القمر فليتبع القمر، ومن كان يعبد الكواكب فليتبع الكواكب، وهكذا تصور هذه المعبودات التي عبدت في الدنيا من دون الله لعابديها في المحشر، فتتبع كل أمة معبودهم حتى يسقطون في حفرة النار، نعوذ بالله منها.

قوله: «**الْأَوَّلُ فَالْأَوَّلُ**» يعني: أمة بعد أمة، الأولون ثم من بعدهم، ثم من بعدهم.

«**ثُمَّ يَأْتِينَا رَبُّنَا بَعْدَ ذَلِكَ**» وفيه إثبات صفة الإتيان لربنا الرحمن جل شأنه.

«**فَيَقُولُ: مَنْ تَنْظُرُونَ؟**» يعني: من تنتظرون.

«**فَيَقُولُونَ: نَنْظُرُ رَبَّنَا، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ حَتَّى نَنْظُرَ إِلَيْكَ**» يعني: لابد أن نتأكد من ذلك، ولنا علامة نعرف بها ربنا، فيكشف الله ﷻ عن الحجاب، ويتجلى لهم، والتجلي: هو الظهور، وإزالة المانع من الرؤيا، جلا الشيء يعني: أظهره، وأزال المانع من رؤيته.

قوله: «**فَيَتَجَلَّى لَهُمْ يَضْحَكُ**» ﷻ، وهذا كما مَرَّ معنا فيه إثبات صفة «الضحك» وليس بصحيح قول من حرفه بقوله هو: الرضا! يعني: أن يظهر لهم راضيا عنهم! لأن هذا تغيير وتحريف للفظ، فالضحك شيء والرضا شيء آخر.



قوله: «قَالَ: فَيَنْطَلِقُ بِهِمْ، وَيَتَّبِعُونَهُ، وَيُعْطَى كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ مُنَافِقٍ أَوْ مُؤْمِنٍ نُورًا، ثُمَّ يَتَّبِعُونَهُ، وَعَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ كَلَالِيبُ وَحَسَكٌ» أي: أن الله ﷻ ينطلق بهم ويتبعونه، وفي هذا إثبات الرؤيا لجميع هذه الأمة، مؤمنها وكافرها ومنافقها، فإنهم يرونه جميعًا أول مرة، ثم يتبعونه ويعطى كل إنسان منهم ـ منافق أو مؤمن ـ نورًا، على قدر عمله، ثم يتبعونه حتى يصلوا إلى جسر جهنم، وهو الصراط المنصوب على متنها وظهرها، وعليه كلاليب وحسك، وقد تقدم شرحه.

قوله: «تَأْخُذُ مَنْ شَاءَ اللهُ» يعني: تأخذ وتخطف من شاء الله تعالى أن تخطف.

قوله: «ثُمَّ يُطْفَأُ نُورُ الْمُنَافِقِينَ» يطفأ: بفتح الياء وضمها، وهذا الذي أشار الله إليه في كتابه بقوله: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾﴾ [الحديد]، فبعد أن يعطى المنافقون النور، خديعة لهم واستهزاء بهم، كما كانوا يخادعون الله والذين آمنوا في الحياة الدنيا، وهذا هو المقصود بقوله تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]، قوله: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ [البقرة: ٩]، فإنهم كانوا يظنون كما أنَّ أمرهم قد انطلى على المؤمنين في الدنيا، وخفي حالهم عليهم؛ فإنه سيكون الأمر كذلك يوم القيامة، فالله تعالى في أول الأمر يعطيهم نورًا كالمؤمنين، وإن كان نورًا يليق بهم



وبأعمالهم، ثم بعد ذلك يطفأ نورهم ويتركهم في ظلمات لا يبصرون، وهذا كما أن المنافق حصل له النور أول مرة في الدنيا، فرأى نور الإيمان والعمل الصالح واعتقده، ثم رفضه، فكذلك يعطى ذلك يوم القيامة على حسب عمله، والجزاء من جنس العمل، نسأل الله العفو والعافية، والثبات على دينه إلى يوم نلقاه.

قوله: «ثُمَّ يَنْجُو الْمُؤْمِنُونَ» النجاة هنا المراد بها: العبور على الصراط، والنجاة من حر النار.

قوله: «فَتَنْجُو أَوَّلُ زُمْرَةٍ» والزمرة: الجماعة والطائفة.

قوله: «وُجُوهُهُمْ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، سَبْعُونَ أَلْفًا لَا يُحَاسَبُونَ» هذه صفة أول من يمُرُّ على الصراط، أن وجوههم كالقمر ليلة البدر، في الإشراق والنور، وهم سبعون ألفًا، وسيأتي بيان صفاتهم في الأبواب القادمة من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

قوله: «ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ كَأَضْوَءِ نَجْمٍ فِي السَّمَاءِ» يعني: كأكثر نجم في السماء إضاءةً.

قوله: «ثُمَّ كَذَلِكَ، ثُمَّ تَحِلُّ الشَّفَاعَةُ، وَيَشْفَعُونَ» أي: المؤمنون.

قوله: «حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» أي: يأذن الله تعالى بعد ذلك بالشفاعة، فيشفع النبيون ويشفع النبيُّون، وتشفع الملائكة، حتى يخرج من النار كل موحد، كل من قال: لا إله إلا الله.

قوله: «وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنْ الْخَيْرِ مَا يَزِنُ شَعِيرَةً» يعني: حبة شعير، وهذا من أزهد الموازين، وأقلها، أو من أحقر المثاقيل.

قوله: «فَيُجْعَلُونَ بِفِنَاءِ الْجَنَّةِ» فناء الجنة يعني: حوشها أو ساحتها.



قوله: «**وَيَجْعَلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ يَرُشُّونَ عَلَيْهِمْ الْمَاءَ، حَتَّى يَنْبُتُوا نَبَاتَ الشَّيْءِ فِي السَّيْلِ**» وهذا زيادة على ما ورد من أنهم يلقون في نهر الجنة، فإنه يصب عليهم من ماء الجنة بفعل أهل الجنة، فأهل الجنة يصبون ويرشون عليهم الماء، فتنبت منه أجسادهم كما تنبت الحبوب في حميل السيل، كما تقدم في الحديث.

قوله: «**وَيَذْهَبُ حُرَاقُهُ**» حراقه بضم الحاء وفتح الراء، أي: أثر الحرق، حتى يذهب أثر حرق النار من أجسادهم، نسأل الله ﷻ المعافاة.

فهؤلاء من آخر من يخرج من النار، وآخر من يدخل الجنة.

** ** **

(٩٠) عن يَزِيد الْفَقِير قَالَ: كُنْتُ قَدْ شَغَفَنِي رَأْيٌ مِنْ رَأْيِ الْخَوَارِجِ؛ فَخَرَجْنَا فِي عِصَابَةٍ ذَوِي عَدَدٍ، نُرِيدُ أَنْ نَحُجَّ، ثُمَّ نَخْرُجَ عَلَى النَّاسِ، قَالَ: فَمَرَرْنَا عَلَى الْمَدِينَةِ، فَإِذَا جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ يُحَدِّثُ الْقَوْمَ، جَالِسٌ عَلَى سَارِيَةٍ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: فَإِذَا هُوَ قَدْ ذَكَرَ الْجَهَنَّمِيِّينَ، قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ: يَا صَاحِبَ رَسُولِ اللهِ! مَا هَذَا الَّذِي تُحَدِّثُونَ؟ وَاللهُ يَقُولُ: ﴿إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ وَ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ فَمَا هَذَا الَّذِي تَقُولُونَ؟ قَالَ: فَقَالَ: أَتَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَهَلْ سَمِعْتَ بِمَقَامِ مُحَمَّدٍ عليه السلام؟ يَعْنِي الَّذِي يَبْعَثُهُ اللهُ فِيهِ، قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: فَإِنَّهُ مَقَامُ مُحَمَّدٍ ﷺ الْمَحْمُودُ الَّذِي يُخْرِجُ اللهُ بِهِ مَنْ يُخْرِجُ، قَالَ: ثُمَّ نَعَتَ وَضْعَ الصِّرَاطِ، وَمَرَّ النَّاسِ عَلَيْهِ، قَالَ: وَأَخَافُ أَنْ لَا أَكُونَ أَحْفَظُ ذَاكَ، قَالَ: غَيْرَ أَنَّهُ قَدْ زَعَمَ أَنَّ قَوْمًا يَخْرُجُونَ مِنْ النَّارِ بَعْدَ أَنْ يَكُونُوا فِيهَا، قَالَ: يَعْنِي فَيَخْرُجُونَ كَأَنَّهُمْ عِيدَانُ السَّمَاسِمِ، قَالَ: فَيَدْخُلُونَ نَهَرًا مِنْ أَنْهَارِ الْجَنَّةِ؛ فَيَغْتَسِلُونَ فِيهِ؛ فَيَخْرُجُونَ كَأَنَّهُمْ الْقَرَاطِيسُ، فَرَجَعْنَا، قُلْنَا: وَيْحَكُمْ أَتُرَوْنَ الشَّيْخَ يَكْذِبُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ فَرَجَعْنَا، فَلَا وَاللهِ مَا خَرَجَ مِنَّا غَيْرُ رَجُلٍ وَاحِدٍ، أَوْ كَمَا قَالَ أَبُو نُعَيْمٍ.

❖ **الشرح:**

هذا هو الحديث الخامس في هذا الباب: باب خروج الموحدين من النار، وبوَّب عليه النووي: باب آخر أهل النار خروجًا.

يزيد الفقير: هو يزيد بن صهيب الكوفي، ثم المكي، قيل له الفقير: لأنه أصيب في فقار ظهره، فكان يألم منه حتى ينحني له.

قوله: «**كُنْتُ قَدْ شَغَفَنِي رَأْيٌ مِنْ رَأْيِ الْخَوَارِجِ**» أي: لصق بشغاف قلبي، وهو غلافه، وهو دليل محبته له.

وأما رأي الخوارج؛ فقد مرَّ معنا مرارًا أنهم يكفرون بالكبائر، ويرون تخليد أصحاب الكبائر في النار، وأنه لا يخرج من يدخلها أبدًا.

قوله: «**فَخَرَجْنَا فِي عِصَابَةٍ ذَوِي عَدَدٍ، نُرِيدُ أَنْ نَحُجَّ، ثُمَّ نَخْرُجَ عَلَى النَّاسِ**» معناه: أنهم خرجوا من بلادهم وهم جماعة كثيرة للحج، ثم بعد أن ينتهوا من موسم الحج، يظهرون للناس مذهب الخوارج، ويدعونهم إليه، هذا هو الخروج المقصود بقوله: «**ثُمَّ نَخْرُجَ عَلَى النَّاسِ**» فيما يظهر.

لكن من رحمة الله تعالى أن وفَّق لهم لقاء الصحابي الجليل جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه في المدينة النبوية الذي علمهم ما لم يكونوا يعلمون، وحذرهم من السقوط في هاوية التكفير، والخروج على المسلمين بهذا الفكر الفاسد المضل!

قوله: «**فَإِذَا هُوَ قَدْ ذَكَرَ الْجَهَنَّمِيِّينَ**» ذكرنا سابقًا أن «**الْجَهَنَّمِيِّينَ**» هم الذين يدخلون النار بسيئاتهم فتطهرهم، ثم يلقون في الجنة في نهر الحياة، فيسميهم أهل الجنة بالجهنميين.

قوله: «**مَا هَذَا الَّذِي تُحَدِّثُونَ؟ وَاللهُ يَقُولُ**» هو من الاستدلال ببعض ما ورد في الكتاب أو السنة، وترك البعض! وهو مسلك أهل البدع والأهواء دومًا في كل زمان ومكان، فإنهم يحتجون ببعض النصوص ويتركون البعض.

أما طريقة أهل السنة فهي: الجمع بين كل ما ورد في الباب من الآيات والأحاديث، ثم التوفيق بينهما وفهمها دون رَدٍّ لبعضها، فالنص



العام قد يَرِدُ عليه ما يخصصه، والمطلق يَرِدُ عليه ما يقيده وهكذا كما هو مبسوط في موضعه(١).

ولهذا نبهه الصحابي الجليل إلى آيات آخر الكتاب، فقال له: «**أَتَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَهَلْ سَمِعْتَ بِمَقَامِ مُحَمَّدٍ ﷺ؟ يَعْنِي الَّذِي يَبْعَثُهُ اللهُ فِيهِ، قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: فَإِنَّهُ مَقَامُ مُحَمَّدٍ ﷺ الْمَحْمُودُ الَّذِي يُخْرِجُ اللهُ بِهِ مَنْ يُخْرِجُ**»

أي: بشفاعته ـ عليه الصلاة والسلام ـ كما مَرَّ معنا سابقًا.

قوله: «**فَيَخْرُجُونَ كَأَنَّهُمْ عِيدَانُ السَّمَاسِمِ**» وهو جمع سمسم، وهو النبات المعروف، وزيته يعرف بالشيرج، وعيدانه تراها إذا قلعت وتركت في الشمس ليؤخذ حبها، دقاقًا سودًا كأنها محترقة، فشبههم بها. كما في «النهاية» لابن الأثير.

وقيل صوابه: عيدان السَّاسم، وهو خشب الأبنوس، قاله القاضي عياض.

قوله: «**فَيَخْرُجُونَ كَأَنَّهُمْ الْقَرَاطِيسُ**» جمع قرطاس، وهي الورقة أو الصفحة البيضاء التي يكتب فيها، فشبههم بالقراطيس لشدة بياضهم بعد اغتسالهم بنهر الحياة، فسبحان الله العليم القدير.

قوله: «**قُلْنَا: وَيْحَكُمْ أَتُرَوْنَ الشَّيْخَ يَكْذِبُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ؟**» يعني بالشيخ: جابر بن عبد الله ﷺ، وهو استفهام إنكار وجحد، أي: لا يظن به الكذب أبدًا، لجلالة قدره، وارتفاع منزلته.

قوله: «**فَرَجَعْنَا، فَلَا وَاللهِ مَا خَرَجَ مِنَّا غَيْرُ رَجُلٍ وَاحِدٍ**» معناه: رجعنا

(١) انظر «الرسالة» للإمام الشافعي، و«شرح الورقات» وغيرها.

من حَجِّنا وتركنا ما كنا ننوي من إظهار رأي الخوارج، وتُبنا منه بما ظهر لنا من صحة الحجة والدليل، إلا رجل واحد منا؛ فإنه لم يوافقنا، ولم يترك منهجه الفاسد.

قوله: «**أَوْ كَمَا قَالَ أَبُو نُعَيْمٍ**» أبو نعيم هو الفضل بن دكين التيمي مولاهم، الثقة الثبت، مشهور بكنيته، وهو شيخ شيخ مسلم في هذا الحديث، ومن كبار شيوخ البخاري.

وقوله: «**أَوْ كَمَا قَالَ**» أدب معروف من آداب الرواة، وهو أنه ينبغي للراوي إذا روى بالمعنى أن يقول عقب روايته: (أو كما قال)، احتياطا وخوفًا من وقوع التغيير في المروي.

ومن الفوائد في هذا الحديث: فضل العلم وعصمته لصاحبه من الزلل والانحراف، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، وما ضل من ضل، وما ابتدع من ابتدع، إلا بالبعد عن العلم والتعلم، من الكتاب والسنة وعلى نهج السلف الصالح المبارك.

وفيه: فضل أهل العلم على الناس، بتعليمهم الخير وإرشادهم إلى الحق والصواب في المسائل والأحكام والنوازل، لاسيما علماء السنة والحديث الداعين إلى التزام نهج السلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء].

نسأل الله الهداية والسداد لنا ولجميع إخواننا المسلمين، والبعد عن مسالك البدع والخروج والتكفير، إنه سميع مجيب.



(٩١) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ أَرْبَعَةٌ، فَيُعْرَضُونَ عَلَى اللهِ، فَيَلْتَفِتُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ! إِذْ أَخْرَجْتَنِي مِنْهَا فَلَا تُعِدْنِي فِيهَا، فَيُنْجِيهِ اللهُ مِنْهَا».

❖ **الشرح:**

هذا الحديث السادس في هذا الباب، ولم يتعرض النووي لشرحه (٥٣/٣)، ولا الأُبِّي (٥٨٩/١).

وهو من الأحاديث الكثيرة الدالة على أن الله تعالى يخرج بفضله أناسًا من النار، بعد أن دخلوها بذنوبهم، ثم يعفو الله عنهم ويدخلهم الجنة.

قوله: «**يَخْرُجُ مِنْ النَّارِ أَرْبَعَةٌ**» قد يكونوا معروفين عند الناس.

وقوله: «**أَيْ رَبِّ! إِذْ أَخْرَجْتَنِي مِنْهَا فَلَا تُعِدْنِي فِيهَا**» فيه توسل بنعمة الخروج من النار إلى الله تعالى، أي: كما أكرمتني وتفضلت علي بالخروج من النار، فلا تعدني فيها.

قوله: «**فَيُنْجِيهِ اللهُ مِنْهَا**» أي: فيستجيب الله تعالى له، ولا يعيده إلى النار.

**   **   **

(٩٢) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: أُتِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمًا بِلَحْمٍ، فَرُفِعَ إِلَيْهِ الذِّرَاعُ، وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ، فَنَهَسَ مِنْهَا نَهْسَةً، فَقَالَ: «أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهَلْ تَدْرُونَ بِمَ ذَاكَ؟ يَجْمَعُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ؛ فَيُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي، وَيَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ، وَتَدْنُو الشَّمْسُ، فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنَ الْغَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لَا يُطِيقُونَ، وَمَا لَا يَحْتَمِلُونَ، فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: أَلَا تَرَوْنَ مَا أَنْتُمْ فِيهِ؟ أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ؟ أَلَا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ؟ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: ائْتُوا آدَمَ، فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ: يَا آدَمُ! أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ آدَمُ: إِنَّ رَبِّي غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ، نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ، فَيَأْتُونَ نُوحًا ﷺ فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ! أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى الْأَرْضِ، وَسَمَّاكَ اللهُ عَبْدًا شَكُورًا، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُ بِهَا عَلَى قَوْمِي، نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ ﷺ، فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ نَبِيُّ اللهِ، وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَا يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَذَكَرَ كَذَبَاتِهِ، نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى، فَيَأْتُونَ مُوسَى ﷺ فَيَقُولُونَ: يَا مُوسَى! أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، فَضَّلَكَ

اللهُ تَعَالَى بِرِسَالَاتِهِ وَبِتَكْلِيمِهِ عَلَى النَّاسِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ مُوسَى ﷺ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُومَرْ بِقَتْلِهَا، نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى ﷺ، فَيَأْتُونَ عِيسَى، فَيَقُولُونَ: يَا عِيسَى! أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ، وَكَلِمَةٌ مِنْهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ عِيسَى ﷺ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَلَمْ يَذْكُرْ لَهُ ذَنْبًا، نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، فَيَأْتُونِّي، فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ! أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، وَخَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ، وَغَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَأَنْطَلِقُ فَآتِي تَحْتَ الْعَرْشِ، فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي، ثُمَّ يَفْتَحُ اللهُ عَلَيَّ وَيُلْهِمُنِي مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ لِأَحَدٍ قَبْلِي، ثُمَّ يُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ! ارْفَعْ رَأْسَكَ، سَلْ تُعْطَهْ، اشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ! أَدْخِلِ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِ مِنَ الْبَابِ الْأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الْأَبْوَابِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، إِنَّ مَا بَيْنَ الْمِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ لَكَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَهَجَرٍ، أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى».

❖ الشرح:

الحديث أخرجه مسلم في الإيمان، وبوَّب عليه النووي (٣/٦٥) تبويب المنذري نفسه.

والشفاعة من الشفع، وهو خلاف الوتر، يقال: شفع يشفع شفاعة، فهو شافع وشفيع.

والمشفِّع بالكسر: الذي يقبل الشفاعة، والمشفَّع بالفتح الذي تقبل شفاعته.

وشفاعة المصطفى ﷺ أنواع، منها ماهو متفق عليه بين الأمة، ومنها ما خالف فيه المعتزلة ونحوهم من أهل البدع.

فالنوع الأول: الشفاعة الأولى: وهي العظمى، الخاصة بنبينا ﷺ من بين سائر إخوانه من الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين، وقد دلَّ عليها أحاديث جماعة من الصحابة رضي الله عنهم في الصحيحين وغيرهما، منها هذا الحديث، حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقد تضمن نوعين من الشفاعة: الأولى: الإراحة من هول الموقف، والثانية: إدخال قوم الجنة بغير حساب.

النوع الثالث: شفاعته في قوم حوسبوا فاستحقوا العذاب أن لا يعذبوا.

النوع الرابع: شفاعته ﷺ في رفع درجات من يدخل الجنة فيها فوق ما كان يقتضيه ثواب أعمالهم.

النوع الخامس: شفاعته في تخفيف العذاب عمن يستحقه، كشفاعته في عمه أبي طالب.

النوع السادس: شفاعته أن يؤذن لجميع المؤمنين في دخول الجنة.

النوع السابع: شفاعته في أهل الكبائر من أمته، ممن دخل النار



فيخرجون منها، وقد تواترت بها الأحاديث، وخالفت فيها الخوارج والمعتزلة جهلًا منهم أو عنادًا.

وهذه الشفاعة تشاركه فيها الملائكة والنبيون والمؤمنون أيضًا.

النوع الثامن: شفاعته لأهل المدينة ولمن مات بها(١).

*** أما شرح الحديث:**

فقوله: «فَرُفِعَ إِلَيْهِ الذِّرَاعُ، وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ» قال القاضي عياض: محبته ﷺ للذراع لنضجها وسرعة استمرائها، مع زيادة لذاتها وحلاوة مذاقها، وبعدها عن مواضع الأذى(٢).

وقد روى الترمذي (١٨٣٨) عن عائشة ﵂ قالت: ما كان الذراع أحب إلى رسول ﷺ، ولكن كان لا يجد اللحم إلا غبًا، فكان يعجل إليه لأنه أعجلها نضجًا.

قال الترمذي: حديث غريب. أي: ضعيف، وهو كذلك، ففيه: عبد الوهاب بن يحيى، لين الحديث.

* قوله: «فَنَهَسَ مِنْهَا نَهْسَةً» بالسين المهلة، أي أخذ منها بأطراف أسنانه، أما النهش بالشين فيكون بالأضراس.

قوله: «أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» قال هذا ﷺ تحدُّثًا بنعمة الله تعالى عليه، كما أمره الله تعالى بذلك في قوله: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [الضحى]، وكذلك نصيحة لأمته، وتعريفًا لهم بحقه عليهم.

---

(١) انظرها مفصلة بأدلتها في شرحنا على العقيدة الطحاوية (ص٢٤١ ـ ٢٥٠)، و«الفتح» (٤٢٨/١١).

(٢) شرح النووي (٦٥/٣)، «الزاد» (٣٧٣/٤).



قال الفراء: «السيد الملك، والسيد الرئيس، والسيد السخي... وسيد المرأة زوجها».

قال عياض: «السيد الذي يفوق قومه، والذي يفرغ إليه في الشدائد، والنبي ﷺ سيدهم في الدنيا والآخرة، وإنما خص يوم القيامة، لارتفاع السؤدد فيها، وتسليم جميعهم له، ولكون آدم وجميع أولاده تحت لوائه يوم القيامة».

قال الأزهري: «قوله: «**أنا سيد ولد آدم ولا فخر**» أراد أنه أول شفيع، وأول من يفتح له باب الجنة، قال ذلك إخبارًا عما أكرمه الله به من الفضل والسؤدد، وتحدثًا بنعمة الله عنده، وإعلامًا منه ليكون إيمانهم به على حسبه وموجبه، ولهذا اتبعه بقوله: «**ولا فخر**» أي: إن هذه الفضيلة التي نلتها كرامة من الله، لم أنلها من قبل نفسي، ولا بلغتها بقوتي، فليس لي أن أفتخر بها»(١).

ولما قيل له ﷺ: أنت سيدنا، قال: «**قولوا بقولكم، أو بعض قولكم، ولا يستجرينكم الشيطان**» أي: ادعوني نبيًا ورسولًا كما سماني الله، ولا تسموني «سيدًا» كما تسمون رؤساكم، فإني لست كأحدهم ممن يسودكم في أسباب الدنيا(٢).

قوله: «**يَجْمَعُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ**» الصعيد: هو الأرض الواسعة المستوية.

قوله: «**فَيُسْمِعُهُمْ الدَّاعِي، وَيَنْفُذُهُمْ الْبَصَرُ**» ينفذهم بفتح الياء برواية الأكثر، وبعضهم بالضم، قال الكسائي: يقال نفذني بصره، إذا بلغني وجاوزني، ويقال: أنفذت القوم، إذا اخترقتهم ومشيت في وسطهم، فإن جزتهم حتى تخلفتهم، قلت: نفذتهم بغير ألف.

---

(١) «اللسان» لابن منظور (٣/٢١٤٥).

(٢) المصدر السابق، وانظر النهج الأسمى (٣/١٤٦).



قال أبو عبيد: معناه ينفذهم بصر الرحمن تبارك وتعالى حتى يأتي عليهم كلهم.

وقال غيره: أراد تخرقهم أبصار الناظرين لاستواء الصعيد، والله تعالى قد أحاط بالناس أولًا وآخرًا. أي: أن بصر الله تعالى محيط بجميع الخلق في كل حال، في الصعيد المستوي وغيره.

قوله: **«وَتَدْنُو الشَّمْسُ، فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنْ الْغَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لَا يُطِيقُونَ وَمَا لَا يَحْتَمِلُونَ»** كما ورد في الحديث الآخر قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: **«تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق، حتى تكون منهم كمقدار ميل»** قال سليم أحد الرواة ـ: فو الله ما أدري ما يعني بالميل؟ أمسافة الأرض، أم الميل الذي تكتحل به العين، قال: **«فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حقويه، ومنهم من يلجمه العرق إلجامًا»**[(١)].

وقال أيضًا ﷺ في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [المطففين] قال: **«يقوم أحدهم في رشحه (أي عرقه) إلى أنصاف أذنيه»**[(٢)].

قوله: **«فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: أَلَا تَرَوْنَ مَا أَنْتُمْ فِيهِ؟ أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ؟ أَلَا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ؟ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: ائْتُوا آدَمَ»**.

وفي رواية أنس عند البخاري أن الذي يطلب الشفاعة هم المؤمنون، وبإلهام من الله تعالى، كما في رواية لمسلم: **«فيلهمون ذلك»** وطلب

---

(١) رواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها (٢١٩٦/٤) من حديث المقداد رضي الله عنه.
(٢) المصدر السابق (٢١٩٥/٤).



الشفاعة كما قلنا: هو انضمام الأدنى إلى الأعلى، ليستعين به على ما يريده من خير أو دفع شرٍّ، فعندما يطول على الناس ما يلقونه في المحشر؛ يطلبون الخَلاص مما هم فيه، فيُلْهِم الله تعالى المؤمنين طلب الشفاعة ليريحهم من الموقف، فينطلقون إلى آدم عليه السلام.

قوله: «**فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ: يَا آدَمُ! أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ**» وفي رواية البخاري: «**وأسكنك جنَّته وعلمك أسماء كل شيء**» هذه كلها من فضائل أبينا آدم عليه السلام أولها وأعظمها: أن الله تعالى خصه بأن خلقه بيده، دون الناس أجمعين، كما قال عز وجل: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [ص: ٧٥]، وأما بقية الناس؛ فمن نطفة من ماء مهين، كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ١٢ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ١٣﴾ [المؤمنون].

وقال تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ٨﴾ [السجدة].

ومع هذا النص الواضح الجلي؛ قالت الجهمية ومن وافقهم: لم يخلقه بيده، بل بقدرته!! وأنكروا صفة اليد لربنا تبارك وتعالى!! فأبطلوا بذلك خصوصية آدم عليه السلام من بين سائر البشر!

وقد روى مجاهد عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «خلق الله أربعة أشياء بيده: العرش، والقلم، وعدن، وآدم، ثم قال لسائر الخلق: كن فكان»(١).

---

(١) موقوف صحيح، أخرجه الطبري (١١٩/٢٣)، والدارمي (٩٠/٣٥) وغيرهما، وقال الألباني رحمه الله في مختصر العلو (ص١٠٥): صحيح على شرط مسلم.



قال الدارمي في رَدِّه على بشر المريسي: أفلا ترى أيها المريسي، كيف ميَّز ابن عمر وفرَّق بين آدم وسائر الخلق في خلقه باليد؟ أفأنت أعلم من ابن عمر بتأويل القرآن؟ وقد شهد التنزيل، وعاين التأويل، وكان بلغات العرب غير جهول(١).

قوله: «**وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ**» الإضافة هنا للتشريف، كقولنا: بيت الله، ناقة الله، كذلك: روح الله، أما قولنا: سمع الله، وبصره، وحياته، وعلمه، فهذا من إضافة الصفة إلى الموصوف.

قوله: «**وعلمك أسماء كل شيء**» كما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١].

قال الضحاك عن ابن عباس قال: هي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس: إنسان، ودابة، وسماء، وأرض، وسهل، وبحر، وخيل، وحمار، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها.

واختار ابن جرير رحمه الله: أنه على أسماء الملائكة، وأسماء الذرية لأنه قال: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ وهذا عبارة عما يعقل.

وقال ابن كثير رحمه الله: والصحيح أنه علمه أسماء الأشياء كلها، ذواتها وصفاتها وأفعالها، كما قال ابن عباس: حتى الفسوة والفسية، يعني أسماء الذوات والأفعال المكبر والمصغر، ثم ذكر حديث الباب(٢).

قوله: «**فَيَقُولُ آدَمُ: إِنَّ رَبِّي غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ**» فيه إثبات صفة الغضب لربنا تبارك وتعالى، وهي

---

(١) رد الدارمي على المريسي (١/٢٦٢).

(٢) «حسن التحرير في تهذيب تفسير ابن كثير» (١/٤٨).



ثابتة بالكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة، فمن الآيات القرآنية قوله تعالى: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٦١]، وقوله: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ﴾ [النساء: ٩٣] وغيرهما.

ومن الأحاديث هذا الحديث، وكذا قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**من لم يسأل الله يغضب عليه**»(١).

وقوله ﷺ: «**اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك..**» الحديث(٢).

وغيرها من الأحاديث التي تثبت هذه الصفة على ما يليق بالله تبارك وتعالى، من غير تمثيل ولا تشبيه.

وأما الخلف؛ فأوَّلوا هذه الصفة، فقالوا: المراد بغضب الله تعالى: انتقامه ممن عصاه!! وما يرونه من أليم عقابه! وما يشاهده أهل المجمع من الأهوال التي لم تكن ولا يكون مثلها!!(٣).

وهذا كله من آثار غضبه، وليس هو حقيقة الغضب التي أثبتها الله تعالى لنفسه، وأثبتها له رسول الله الكريم أعلم الخلق به ﷺ.

قوله: «**وَإِنَّهُ نَهَانِي عَنْ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ، نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ**» هذا تذكر من آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ لذنبه، وما حصل منه من تقصير في طاعة، مع أنه قد غفر له وتاب الله عليه واجتباه وهداه، وهو ذنب واحد، لكنها مقامات الأنبياء، وتواضع الكمل من الخلق، نسأل الله تعالى أن يتولانا برحمته، فما أكثر ذنوبنا وتقصيرنا! وما أقل استغفارنا!

---

(١) حديث صحيح أخرجه أحمد (٤٤٢/٢) وغيره.

(٢) رواه مسلم (٣٥٢/١).

(٣) شرح النووي (٦٨/٣).



قوله: «**اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ**»، وفي رواية أبي عوانة: «**انطلقوا إلى أبيكم بعد أبيكم**».

قوله: «**فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ! أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى الْأَرْضِ، وَسَمَّاكَ اللهُ عَبْدًا شَكُورًا، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ**»، وفي رواية أبي عوانة «**فينطلقون إلى نوح فيقولون: يا نوح اشفع لنا إلى ربك، فإن الله اصطفاك واستجاب لك في دعائك ولم يدع على الأرض من الكافرين ديارًا**».

وقد استشكل وصف نوح عليه السلام بأنه أول رسول؛ لسبق آدم له، وكذا شيث وإدريس عليهم السلام، وهم قبل نوح عليه السلام، ومن الأجوبة على ذلك: أنهم كانوا أنبياء، ولم يكونوا رسلًا؛ لأن الرسول من يبعث في أمة كافرة، والنبي قد يبعث في أمة مسلمة موحدة، كما في الحديث: «**كانت بنوا إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خَلَفَه نبي، وإنه لانبي بعدي...**»[(١)].

ومنها: أن إدريس عليه السلام من أنبياء بني اسرائيل، على قوله.

قوله: «**وَسَمَّاكَ اللهُ عَبْدًا شَكُورًا**» قال سلمان: إنما سمي نوح عبدًا شكورًا، أنه كان إذا لبس ثوبًا حمد الله، وإذا أكل طعامًا حمد الله[(٢)].

أي: أنه كان كثير الشكر لربه، وقد جاء في الحديث عن نبينا ﷺ أنه قال: «**إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة، أو يشرب الشربة، فيحمد الله عليها**»[(٣)].

قوله: «**فَيَقُولُ لَهُمْ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ**

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه ابن جرير (١٦/١٥) بإسناد صحيح، وأخرج نحوه عن مجاهد وقتادة وغيرهما.

(٣) أخرجه أحمد (٣/١٠٠، ١١٧)، ومسلم (٤/٢٠٩٥) في الذكر من حديث أنس رضي الله عنه.



مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُ بِهَا عَلَى قَوْمِي، نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ ﷺ» وفي رواية البخاري: «**فيقول: لست هناكم، ويذكر خطيئته التي أصاب فيستحي ربه منها**». وفي رواية له أيضًا: «**ويذكر سؤال ربه ما ليس به علم**» وفي رواية أبي هريرة عنده أيضًا: «**إني دعوت بدعوة: أغرقت أهل الأرض**».

قال الحافظ ابن حجر أنه اعتذر بأمرين: **أحدهما**: نهي الله تعالى له أن يسأل ما ليس له به علم، فخشي أن تكون شفاعته لأهل الموقف من ذلك.

ثانيهما: أن تكون له دعوة واحدة محققة الإجابة، وقد استوفاها بدعائه على أهل الأرض، فخشي أن يطلب فلا يجاب[1].

قوله: «**فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ نَبِيُّ اللهِ، وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ: إِبْرَاهِيمُ إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَا يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَذَكَرَ كَذَبَاتِهِ، نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي**».

وفي رواية البخاري: «**فيقول لست هناكم، ويذكر خطيئته**» زاد مسلم: «**التي أصاب فيستحي ربه منها**» وفصَّل في رواية أحمد كذباته، فقال: «**قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وقوله: ﴿فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾، وقوله لامرأته: أخبريه أني أخوك**».

وقال ﷺ ـ كما في رواية أبي سعيد عند البخاري ـ: «**ما منها كذبة، إلا مَاحَلَ بها عن دين الله**» و «**ماحل**» بالحاء المهملة، بمعنى: جادل.

وقال البيضاوي: الحق «أن الكلمات الثلاث إنما كانت من معاريض

(١) «الفتح» (١١/٤٣٤).



الكلام، لكن لما كانت صورته صورة الكذب، أشفق منها استصغارًا لنفسه عن الشفاعة مع وقوعها؛ لأن من كان أعرف بالله، وأقرب إليه منزلة، كان أعظم خوفا»[1].

وفي رواية حذيفة عند مسلم: «**لست بصاحب ذاك، إنما كنت خليلًا من وراء وراء**». معناه: لم أكن بالتقريب والإدلال بتلك المنزلة، وهي كلمة تقال على سبيل التواضع وهضم النفس.

قوله: «**اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى، فَيَأْتُونَ مُوسَى ﷺ فَيَقُولُونَ: يَا مُوسَى! أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، فَضَّلَكَ اللهُ بِرِسَالَاتِهِ وَبِتَكْلِيمِهِ عَلَى النَّاسِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ**».

وفي رواية مسلم: «**ولكن ائتوا موسى الذي كلمه الله، وأعطاه التوراة**». وفيه: إثبات صفة الكلام لربنا تبارك وتعالى، كما أخبر بذلك عن نفسه في كتابه، فقال: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤﴾ [النساء]، وفي قوله: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ [الأعراف: ١٤٤]، وقوله: ﴿وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾ [الشعراء: ١٠]، وقوله: ﴿وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ٥٢﴾ [مريم]، وأن كلامه تعالى بصوت يُسْمع، وحرف يُفْهم، كما هو ظاهر الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، وقول سلف الأمة قاطبة.

قوله: «**وَإِنِّي قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُومَرْ بِقَتْلِهَا، نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى ﷺ**» وفي رواية أنس عند البخاري: «**فيقول لست هناكم**» زاد مسلم: «**فيذكر خطيئته التي أصاب، قتل النفس**» يعني: قتله للقبطي من قوم فرعون، مع أنه قد تاب الله عليه، كما قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ١٦﴾ [القصص]. لكنها كما قلنا

(١) «الفتح» (١١/٤٣٥).



مقامات الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ.

قوله: «**اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى ﷺ، فَيَأْتُونَ عِيسَى، فَيَقُولُونَ: يَا عِيسَى! أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ، وَكَلِمَةٌ مِنْهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ**» وفي رواية أبي عوانة: «**فإنه كان يبرىء الأكمه والأبرص ويحيي الموتى**».

ومعنى: «**وَكَلِمَةٌ مِنْهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ**» أي: كلمة تكلم الله بها، فكان بها عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ، أي: قال الله له: كن، فكان. والإضافة في «كلمة منه» للتشريف.

ولم يذكر نبي الله عيسى ههنا ذنبًا له، لكن وقع في رواية الترمذي عن أبي سعيد: «**إني عُبدت من دون الله**» وفي رواية أحمد والنسائي عن ابن عباس: «**إني اتُّخذت إلـٰهًا من دون الله**». وفي رواية سعيد بن منصور: «**وإن يغفر لي اليوم حسبي**» وهو ليس ذنبًا له! فإنه لم يأمر قومه بأن يتخذوه إلـٰهًا من دون الله، كما يقول الله له يوم القيامة: ﴿**وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾**﴾ [المائدة].

فالله تعالى يخاطب عيسى عليه السلام يوم القيامة بحضرة من اتخذه وأمه إلـٰهين من دونه تقريعًا لهم وتوبيخًا على رؤوس الأشهاد، فيتبرئ من ذلك وعن فعله، ويخبر أنه ما أمر إلا بعبادة الله وحده لا شريك له، وإخلاص الدين له،



والنهي عما يضاده، وبينت لهم أني عبد مربوب، فكما أنه ربكم فهو ربي.

فيا خزي عباد الصليب في ذلك الموقف، ويا بؤس منقلب المشركين بالله تعالى والكافرين، الذين نسبوا له الشريك والولد، تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

وروى ابن أبي حاتم: عن أبي هريرة قال: يلقى عيسى حجته.. ثم يروى عن النبي ﷺ قال: فلقاه الله ﴿سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ إلى آخر الآية[(١)].

قوله: «**اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، فَيَأْتُونِّي، فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ! أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، وَخَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ، وَغَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟**».

وفي رواية ابن خزيمة: «**انطلقوا إلى من جاء اليوم مغفورًا له، ليس عليه ذنب**» وفي رواية أبي عوانة: «**ولكن انطلقوا إلى سيد ولد آدم، فإنه أول من تنشق عنه الأرض**».

قال عياض: اختلفوا في تأويل قوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]، فقيل: المتقدم: ما قبل النبوة، والمتأخر: العصمة، وقيل: ما وقع عن سهو أو تأويل. وقيل: المتقدم: ذنب آدم، والمتأخر: ذنب أمته، وقيل: المعنى أنه مغفور له، غير مؤاخذ لو وقع، وقيل غير ذلك[(٢)].

قال الحافظ: واللائق بهذا المقام: **القول الرابع**، وأما الثالث فلا يأتي هنا.

---

(١) حسن التحرير (٢/١٠٤).

(٢) «الفتح» (١١/٤٣٥).



قال: ويستفاد من قول عيسى في حق نبينا هذا، ومن قول موسى فيما تقدم: «**إني قتلت نفسا بغير نفس، وإن يغفر لي حسبي**» مع أن الله قد غفر له بنص القرآن[١]، التفرقة بين من وقع منه شيء، ومن لم يقع منه شيء أصلًا، فإن موسى عليه السلام مع وقوع الغفرة له، لم يرتفع اشفاقه من المؤاخذة بذلك، ورأى في نفسه تقصيرًا عن مقام الشفاعة مع وجود ما صدر منه، بخلاف نبينا ﷺ في ذلك كله، ومن ثم احتج عيسى بأنه صاحب الشفاعة (أي نبينا محمد ﷺ) لأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، بمعنى أن الله أخبر أنه لا يؤاخذه بذنب لو وقع منه، وهذا من النفائس التي فتح الله بها في «فتح الباري»، فله الحمد[٢].

وقوله: «**أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، وَخَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ**» كما قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]. وفي حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ: «**فُضِّلت على الأنبياء بسِتٍّ: أعطيت جوامع الكلم...**» وفيه: «**وختم بي النبيون**»[٣].

وقال لعلي رضي الله عنه: «**أنت مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي**»[٤].

وقال الطحاوي رحمه الله في الطحاوية: «وأنه خاتم الأنبياء».

وقال: «وكل دعوة نبوة بعدي، فغي وهوى».

---

(١) كما في قوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾ [القصص].

(٢) «الفتح» (١١/٤٣٦).

(٣) رواه مسلم في المساجد (١/٣٧١).

(٤) رواه البخاري في المغازي (٨/١١٢)، ومسلم في فضائل الصحابة (٤/١٨٧٠) من حديث سعد رضي الله عنه.



وذكر أبو محمد بن حزم الإجماع على هذا في قوله: «باب من الإجماع في الاعتقادات يكفر من خالفه بإجماع، ثم ذكر فيه: «وأنه لا نبي مع محمد ﷺ ولا بعده أبدًا»».

ومع هذا، فقد ادَّعى النبوه مدعون قديمًا وحديثًا، كما أخبر ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «... **وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون، كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين لانبي بعدي**»[1].

ومن آخرهم: ميرزا غلام أحمد القادياني، مؤسس القاديانية، والمرزاحين علي الملقب بالبهاء، صاحب الحركة البهائية الملحدة، وغيرهم من الكذابين والدجالين.

قوله: «**اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟**»

وفي رواية أحمد[2]: عن أنس قال: حدثني نبي الله ﷺ قال: «إني لقائم انتظر أمتي تعبر الصراط، إذ جاء عيسى فقال: هذه الأنبياء قد جاءتك يا محمد يسألون ـ أو قال: يجتمعون إليك ـ ويدعون الله أن يفرق بين جمع الأمة إلى حيث يشاء الله لغَمّ ما هم فيه، فالخلق ملجمون في العرق، فأما المؤمن فهو عليه كالزكمة، وأما الكافر فيتغشاه الموت، قال: «عيسى، انتظر حتى أرجع إليك» قال: «فذهب نبي الله حتى قام تحت العرش، فلقي ما لم يلق ملك مصطفى، ولا نبيٌّ مرسل».

قال الحافظ ابن حجر: فأفادت هذه الرواية تعيين موقف النبي ﷺ

(١) رواه أبو داود (٤٢٥٢)، وأحمد (٥/٢٧٨) وأصله في مسلم (٤/٢٢١٥).
(٢) «المسند» (٣/١٧٨)، ورجاله رجال الصحيح.



حينئذٍ، وأن هذا الذي وصف من كلام أهل الموقف كله يقع عند نصب الصراط بعد تساقط الكفار في النار.

قال: وأن عيسى عليه السلام هو الذي يخاطب النبي ﷺ، وأن الأنبياء جميعًا يسألونه في ذلك.

وقد أخرج الترمذي وغيره من حديث أبي بن كعب في نزول القرآن على سبعة أحرف، وفيه: وأخرت الثالثه (أي الدعوة) ليوم يرغب إلي فيه الخلق، حتى إبراهيم عليه السلام»[1].

قوله: «**فَأَنْطَلِقُ فَآتِي تَحْتَ الْعَرْشِ، فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي، ثُمَّ يَفْتَحُ اللهُ عَلَيَّ وَيُلْهِمُنِي مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ لِأَحَدٍ قَبْلِي**» ووقع في رواية البخاري: «**فيأتون فأقول أنا لها، أنا لها**».

وفي رواية ابن خزيمة: «**فيقول: أنا صاحبها**».

قوله: «**فَأَنْطَلِقُ فَآتِي تَحْتَ الْعَرْشِ**» وفي رواية أنس عند البخاري: «**فاستأذن على ربي**»، وزاد في رواية: «**في داره فيؤذن لي**».

قال عياض: أي في الشفاعة.

قال الحافظ: وتعقب بأن ظاهر ما تقدم أن استئذانه الأول والأذن له، إنما هو في دخول الدار، وهي: الجنة، وأضيفت إلى الله تعالى إضافة تشريف، ومنه ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: ٢٩]، على القول بأن المراد بالسلام هنا، الاسم العظيم من أسماء الله تعالى.

قال: قيل: الحكمة في انتقال النبي ﷺ من مكان إلى دار السلام، أن

---

(١) «الفتح» (٤٣٦/١١).



أرض الموقف لما كانت مقام عرض وحساب، كانت مكان مخافة وإشفاق، ومقام الشافع يناسب أن يكون في مكان إكرام، ومن ثم يستحب أن يتحرى للدعاء المكان الشريف؛ لأن الدعاء فيه أقرب للإجابة[١].

وقد ثبت في «صحيح مسلم»: أنه ﷺ أول من يستفتح باب الجنة.

وفي رواية له: «**فيقول الخازن: من؟ فأقول: محمد، فيقول: بك أمرت، أن لا أفتح لأحد قبلك**».

وفي رواية الترمذي عن أنس: «**فآخذ بحلقة باب الجنة فأقعقعها، فيقال: من هذا؟ فيقال: محمد، فيفتحون لي، ويرحبون بي، فيقولون: مرحبًا، فأخِرُّ ساجدًا، فيلهمني الله من الثناء والحمد، فيقال لي: ارفع رأسك وَسَلْ تُعْطَ، واشفع تُشَفَّع، وقل يسمع لقولك، وهو المقام المحمود الذي قال الله:** ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا ۝٧٩﴾ [الإسراء][٢].

قوله: «**فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي**»، وفي رواية البخاري: «**فإذا رأيته وقعت له ساجدًا، فيدعني ما شاء الله**».

قوله: «**ثُمَّ يَفْتَحُ اللهُ عَلَيَّ وَيُلْهِمُنِي مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ لِأَحَدٍ قَبْلِي**». وفي رواية البخاري: «**فأقوم بين يديه فيلهمني محامد لا أقدر عليها الآن، فأحمده بتلك، ثم أخِرُّ له ساجدًا**».

ففيه أن النبي ﷺ يُلْهَم التحميد قبل سجوده وبعده.

وفيه: أن أسماء الله تعالى الحسنى وصفاته العلى، لا تُعَدُّ ولا تُحصى،

---

(١) وأشرف البقاع في الأرض: المساجد ومواضع الصلاة، كما صحَّ ذلك في الحديث المروي في صحيح مسلم، من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعًا: «**أحبُّ البلاد إلى الله مساجدها، وأبغض البلاد إلى الله أسواقها**»، كتاب المساجد (١/٤٦٤).

(٢) رواه الترمذي (٢٣٦٩)، وابن ماجه (٤٣٠٨).



إذ لا نعلم عنه تبارك وتعالى إلا ما علمنا، كما قالت الملائكة ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [البقرة: ٣٢]، وقال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، أي: إلا بما شاء لخلقه أن يعلموه عنه. وفي الحديث الصحيح: «**لا أُحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك**»(١).

وفي الحديث الصحيح أيضًا: «.. **أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك أو علَّمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك**..»(٢).

قال ابن خزيمة رحمه الله: فهذا يدلك على أن لله أسماء لم ينزلها في كتابه، حجبها عن خلقه، ولم يظهرها لهم.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «والصواب الذي عليه الجمهور، أن قول النبي ﷺ: «**إن الله تسعة وتسعين اسمًا، من أحصاها دخل الجنة**» معناه: أن من أحصى التسعة والتسعين من أسمائه دخل الجنة، ليس مراده أنه ليس له إلا تسعة وتسعون اسمًا». ثم ذكر الحديث السابق.

قوله: «**ارْفَعْ رَأْسَكَ، سَلْ تُعْطَهْ، اشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي**» وفي رواية أنس عند البخاري: «**ثم يقال لي: ارفع رأسك**».

وفي رواية أحمد عن أنس: «**فأوحى الله إلى جبريل أن اذهب إلى محمد، فقل له: ارفع رأسك**». فيكون المعنى: إن الله يقول له ذلك على لسان جبريل عليه السلام.

---

(١) رواه مسلم في الصلاة (٣٥٢) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) درء تعارض العقل والنقل (٣/٣٣٢ ـ ٣٣٣)، وينظر للمزيد: النهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى (١/٤٩ ـ ٥٢) لقيده.



قوله: «**فَأَرْفَعُ رَأْسِي**» وفي رواية للصحيحة: «**فأحمد ربي بتحميدٍ يُعلمنيه**» قال الحافظ: وقد ورد ما لعله يفسر به بعض ذلك لا جميعه، ففي النسائي ومصنف عبد الرزاق ومعجم الطبراني: من حديث حذيفة رفعه قال: «**يجمع الناس في صعيدٍ واحد فيقال: يا محمد، فأقول: لبيك وسعديك والخير في يديك، والمهدي من هديت، وعبدك بين يديك، وبك وإليك، تباركت وتعاليت، سبحانك لا ملجأ ولا مَنْجا منك إلا إليك**» زاد عبد الرزاق: «**سبحانك رب البيت**» فذلك قوله: ﴿**عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ٧٩**﴾ [الإسراء].

قال ابن منده في كتاب «الإيمان»: هذا حديث مجمع على صحة إسناده، وثقة رواته(١).

قوله: «**اشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ! أَدْخِلْ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِ مِنْ الْبَابِ الْأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنْ الْأَبْوَابِ**».

قوله: «**مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِ**» هم السبعون ألفًا الذين جاء ذكرهم في الحديث المشهور، ومن صفتهم بأنهم لا يَسْتَرْقُون، ولا يَكْتَوُون ولا يَتَطَيَّرون، وعلى ربهم يتوكلون(٢).

قوله: «**الْبَابِ الْأَيْمَنِ**»: هو الذي على يمين قاصد الجنة، بعد الجواز على الصراط، وكأنه أفضل الأبواب(٣).

---

(١) «الفتح» (٤٣٧/١١).

(٢) رواه البخاري في الطب (١٥٥/١٠) وغيره، ومسلم في الإيمان (٢٠٠/١) من حديث ابن عباس ﵄.

(٣) «شرح الأبي على صحيح مسلم» (٦٠٧/١).



قوله: «وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ» الأظهر في الضمير (هم) عوده على من لا حساب عليهم.

فالمعنى أنهم لا يلجؤون إلى الدخول من الأيمن.

ويحتمل عوده على الأمة، وفيه بُعْدٌ.

أما في حديث أنس رضي الله عنه ففيه: «**ثم أشفع فيحدُّ لي حدًّا، فأخرج من النار وأدخلهم الجنة، ثم أعود فأقع ساجداً، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال: ارفع رأسك يا محمد، قُل يُسمع، سَلْ تُعْطَه، اشفع تشفع، فأرفع رأسي فأحمد ربي بتحميد يعلمنيه، ثم أشفع فيحدُّ لي حدًّا، فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة ـ قال: فلا أدري في الثالثة أو الرابعة قال، يا رب، ما بقي إلا من حبسه القرآن، أي: وجب عليه الخلود**»، وقوله: «**فيحد لي حدًا**» يريد أن يبين في كل طور من أطوار الشفاعة حدًّا أقف عنده فلا أتعدَّاه، مثل أن يقول: شفعتك فيمن أخل بالجماعات، ثم يقول شفعتك فيمن أخلَّ بالصلوات، ومثله فيمن شرب الخمر، ثم فيمن زنى، وعلى هذا ليريه علو الشفاعة في عظم الذنب»[(١)].

قال الحافظ ابن حجر: «والذي يدل عليه سياق الأخبار، أن المراد به تفضيل مراتب المخرجين في الأعمال الصالحة».

ودلل عليه بقوله ﷺ: «**يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله، وفي قلبه وزن شعيرة**» وقال: «**مثقال ذرة**» ثم قال: «**مثقال حبةٍ من خردل**».

قوله: «**ثم أشفع فأخرج من النار**»، قال الأُبِّيُّ: جاء في هذا الحديث وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن الذي يبدأ به بعد الإذن: شفاعة الإخراج،

---

(١) حكاه الطيبي، الفتح (١١/٤٣٧)، ونقله السنوسي (١/٥٩٥).



ويأتي في الحديث نفسه من طريق حذيفة ﷺ: «**فيأتون محمدًا، فيقوم ويُؤْذَن له، وتُرسل الأمانة والرحم بجنبتي الصراط**» وبهذا الحديث؛ لأن هذه الشفاعة التي يلجأ فيها الخلق لتريحهم من الموقف، ثم بعد ذلك تحل شفاعته ﷺ وشفاعة غيره.

وجاء في أحاديث الرؤية والمحشر المتقدمة الأمر باتباع كل أمة ما كانت تعبد، ثم يميز بين المؤمنين والمنافقين، ثم تحل الشفاعة ويوضع الصراط، فيجمع بين هذه الأحاديث: بأن يكون الأمر بالاتباع هو أول الفصل، وأول مقامه المحمود والشفاعة المذكورة فيه، هي: الشفاعة في المجيزين على الصراط، وهي له ﷺ لا لغيره، كما نصت عليه في الأحاديث، ثم بعدها شفاعة الإخراج[(١)].

قوله: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، إِنَّ مَا بَيْنَ الْمِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ لَكَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَهَجَرٍ، أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى**». المِصْراعان: بكسر الميم: جانبا الباب، وهجر هي: الإحساء، وبصرى: مدينة معروفة بينها وبين دمشق نحو ثلاث مراحل، وهي مدينة «حوران» وبينها وبين مكة مسيرة شهر.

وهذا كله يبين عظم اتساع الباب من أبواب الجنة، نسأل الله تعالى أن يجعلنا من أهلها.

** ** **

---

(١) شرحه على صحيح مسلم (٥٩/١).



باب: قول النبي ﷺ:
«أنا أول الناس يشفع في الجنة، وأنا أكثر الأنبياء تبعًا»

(٩٣) عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَنَا أَوَّلُ شَفِيعٍ فِي الْجَنَّةِ، لَمْ يُصَدَّقْ نَبِيٌّ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ مَا صُدِّقْتُ، وَإِنَّ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيًّا مَا يُصَدِّقُهُ مِنْ أُمَّتِهِ إِلَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ».

❖ الشرح:

الحديث أخرجه مسلم في الإيمان، وبوَّب عليه النووي (٧٣/٣) باب: الشفاعة.

قوله: «**أَنَا أَوَّلُ شَفِيعٍ فِي الْجَنَّةِ**» سبق الكلام على أنواع شفاعته ﷺ في أول الشرح للحديث السابق (٩٢).

فمعنى «**أَنَا أَوَّلُ شَفِيعٍ فِي الْجَنَّةِ**»، شفاعته أن يؤذن لجميع المؤمنين في دخول الجنة، كما سيأتي بيانه في الحديث التالي.

أو شفاعته في رفع درجات من يدخل الجنة فيها، فوق ما كان يقتضيه ثواب أعمالهم.

أو شفاعته في إدخال قوم الجنة بغير حساب، وغيرها مما سبق بيانه من أنواع شفاعته ﷺ.

قوله: «**لَمْ يُصَدَّقْ نَبِيٌّ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ مَا صُدِّقْتُ**» وهذا لكثرة أتباعه والمؤمنين به ﷺ وبدعوته، من الصحابة والتابعين، وتابعيهم بإحسان إلى

يوم الدين، فأمته أكبر الأمم وأعظمها، كما في حديث ابن عباس ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «**عُرضتْ عليَّ الأمم، فأخذ النبي يمر معه الأمة، والنبي يمُرُّ معه النفر، والنبي يمُرُّ معه العشرة، والنبي يمُرُّ معه الخمسة، والنبي يمُرُّ وحده، فنظرت فإذا سوادٌ كثير، قلت: يا جبريل، هؤلاء أمتي؟ قال: لا، ولكن انظر إلى الأفق، فنظرت فإذا سواد كثير، قال: هؤلاء أمتك، وهؤلاء سبعون ألفًا قدامهم لا حساب عليهم ولا عذاب...**» الحديث(١).

وفي حديث بريدة ﷺ: قال رسول الله ﷺ: «**أهل الجنة عشرون ومائة صف، ثمانون منها من هذه الأمة، وأربعون من سائر الأمم**»(٢).

وسيأتي من حديث ابن مسعود: قوله ﷺ: «**أتحبون أنكم ربع أهل الجنة**» فقلنا: نعم يا رسول الله، فقال: «**أتحبون أن تكونوا ثلث أهل الجنة؟**» قالوا: نعم يا رسول الله، قال: «**إني لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة...**»(٣).

قوله: «**وإن من الأنبياء نبيًا ما يصدقه من أمته إلا رجل واحد**» أي: لم يتبعه إلا رجل واحد، مع أنه بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح لأمته غاية ما يمكنه من النصح، وجاهد في الله تعالى حق الجهاد، كما قال تعالى عن نوح ﷺ أنه قال: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا ۝ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ

---

(١) رواه البخاري في الرقاق (١١/٤٠٥)، وقال الحافظ ابن حجر بعد ذكر الروايات: والحاصل من هذه الروايات أن الأنبياء يتفاوتون في عدد أتباعهم.

(٢) رواه أحمد (٥/٣٤٧، ٣٦١)، والترمذي (٢٥٤٦)، وابن ماجه (٤٢٨٩)، وابن حبان (٧٤٥٩، ٧٤٦٠).

(٣) رواه مسلم في الإيمان (١/٢٠١) وسيأتي شرحه قريبًا.



وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾﴾ [نوح].

وقال: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأعراف]. وقال ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

وقال عن هود ؑ أنه قال: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأعراف].

وقال عن صالح ؑ أنه قال لما رأى هلاك قومه: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأعراف]. وقال عن شعيب ؑ أيضا ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأعراف]. وغيرها من الآيات الكثيرة...

ومع ذلك؛ فقد كان في كثير من الأحيان، لا يتبعهم إلا الأفراد القلائل من أممهم، كما قال سبحانه عن نوح ؑ: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾ [هود].

وقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤]، وقال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ]. وقال: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦].

ولا يسألهم الله تعالى يوم القيامة: لم لم يكثر أتباعكم، أو لِمَ لَمْ يهتدِ على أيديكم، وإنما يسألهم من البلاغ المبين، وقد قاموا به، قال تعالى:

﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾ [آل عمران]، وقال: ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾ [النحل]، وقال: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾ [النور]، وقال: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى: ٤٨].

أي: ما أرسلناك لتحفظ عليهم أعمالهم ثم تسأل عنها ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ فإذا أديت ما عليك؛ فقد وجب أجرك على الله، سواء استجابوا أم أعرضوا، وحسابهم على الله تعالى الذي يحفظ عليهم صغير أعمالهم وكبيرها، وظاهرها وباطنها[1].

ومثلها قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾ [النور].

أي: إن وظيفة الرسول ﷺ أن يأمركم وينهاكم، ولهذا أمرهم بطاعة الله تعالى وطاعته، ثم قال: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ أي: ما حمله الله من أداء الرسالة، وقد أداها ﴿وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ أي: من الطاعة والإمتثال ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي: البين الواضح، الذي لا يبقي شكًا ولا شبهة، ثم الجزاء والحساب على الله تعالى، فالرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ ليس له من الأمر شيء، فقد قام بوظيفته أتم قيام وأكمله.

** ** **

---

(١) تفسير السعدي رحمه الله (الشورى: ٤٨).



بابـ: استفتاح النبي ﷺ بابـ الجنة

(٩٤) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «آتِي بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَأَسْتَفْتِحُ، فَيَقُولُ الْخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ. فَيَقُولُ: بِكَ أُمِرْتُ، لَا أَفْتَحُ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ».

❖ الشرح:

الحديث أخرجه مسلم في الإيمان، وبوَّب عليه النووي (٧٣/٣) باب الشفاعة.

وهو في بيان شفاعته ﷺ أن يؤذن لجميع المؤمنين بدخول الجنان، وهي إحدى أنواع شفاعته، كما سبق بيانه.

وفي رواية لمسلم أيضًا: «**أنا أوَّل من يقرع باب الجنة**».

وقد أورد الأُبِّي إشكالًا وأجاب عليه.

فقال: فإن قلت: تقدم في الذي قبله: أنه يتأخر عند الصراط حتى تجوز الأمة، وذلك منافٍ لكونه أول من يقرع باب الجنة!

ثم أجاب فقال: فلا يمتنع أن يكون ﷺ آخر من ينصرف من المحشر، وأول من يدخل الجنة، والناس محبوسون عن الدخول حتى يأتي، كما دل قوله: «**بِكَ أُمِرْتُ، لَا أَفْتَحُ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ**» انتهى.

قوله: «**فَأَسْتَفْتِحُ، فَيَقُولُ الْخَازِنُ**»: وفيه أن للجنة خازنًا، والخازن هو الموكل بحفظ المال ونحوه وإحرازه، وفي الحديث أنه واحد، وقد يكون



مقدمهم إذ جاء ذكرهم في كتاب الله تعالى بالجمع إذ يقول: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَـٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الزمر].

وفي حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعًا: «**من أنفق زوجين في سبيل الله دعاه خَزَنَةُ الجنة، كل خزنة باب: أي فل، هلم**» قال أبو بكر: يا رسول الله، ذلك الذي لا تؤتى عليه، فقال النبي ﷺ: «**إني لأرجو أن تكون منهم**».

وفي لفظٍ: فهل يدعى أحد من تلك الأبواب كلها؟ قال: «**نعم، وأرجو أن تكون منهم**»(١).

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: سمى الله سبحانه كبير الخزنة: رضوان! وهو اسمٌ مشتق من الرضا، وسمى خازن النار: مالكًا، وهو اسم مشتق من الملك، وهو القوة والشدة حيث تصرفت حروفه(٢).

قوله: «**فَيَقُولُ الْخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ**» إنه ينبغي على المستأذن أن يذكر اسمه ليعرف، ولا يقول: «أنا» لأنها لا تعرف بالطارق ولا بشخصه، وقد ورد في الحديث أنه كرهها ﷺ.

قوله: «**فَيَقُولُ: بِكَ أُمِرْتُ، لَا أَفْتَحُ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ**».

كما ذكرنا أنه ﷺ أول الداخلين إلى الجنة، وأمته من بعده، وورد ذلك صريحًا في حديث أبي هريرة ﷺ من النبي ﷺ قال: «**نحن الآخرون**

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة (٢/٧١٢، ٧١٣) ومعنى لا توى، أي: لا هلاك.

(٢) «حادي الأرواح» (ص١٤٩)، وقوله: وقد سمى الله ... إلخ، لا يوجد صريحًا في كتاب الله تعالى، ولعله أخذ من قوله: ﴿وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، ﴿وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ونحوهما.

الأولون يوم القيامة، ونحن أول الناس دخولًا الجنة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، وأوتيناه من بعدهم..»(١).

وورد أيضًا بيان صفات أول من يدخل الجنة من الأمة، في قوله ﷺ: **«أول زُمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والذين يلونهم على ضوء أشد كوكبٍ دُريّ في السماء إضاءة، لا يبولون ولا يتغوطون...»**(٢).

وقوله: **«أول زمرة تلج الجنة، صورهم على صورة القمر ليلة البدر، لا يبصقون فيها ولا يمتخطون...»**(٣).

وجاء في حديث عكاشة رضي الله عنه: **«أنهم الذين لا يكتوون، ولا يسرقون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون»**(٤).

فإن قيل: فما تقولون في حديث بريدة رضي الله عنه: قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما دخلت الجنة إلا سمعتُ خشخشة، فقلت: من هذا؟ فقالوا: بلال، ثم مررت بقصر مشيد بديع، فقلت: لمن هذا؟ قالوا: لرجلٍ من أمة محمد ﷺ، فقلت: أنا محمد، لمن هذا القصر؟ قالوا: لرجل من العرب، فقلت: أنا عربي، لمن هذا القصر؟ قالوا: لعمر بن الخطاب»**، فقلت لبلال: بمَ سبقتني إلى الجنة؟ قال: ما أحدثت إلا توضأت، وما توضأت إلا صليت، وقال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: **«لولا غيرتك لدخلت القصر»** فقلت: يا رسول الله لم أكن لأغار عليك(٥).

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة (٣٨٢/٢)، ومسلم في الجمعة أيضًا (٥٨٥/٢) مختصرًا.

(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء (٣٦٢/٢)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢١٧٩/٤).

(٣) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣١٨/٦)، ومسلم (٢١٨٠/٤).

(٤) أخرجه البخاري في الرقاق (٤٠٥/١١)، ومسلم في الإيمان (١٩٩/١).

(٥) حديث صحيح، رواه أحمد (٣٥٤/٥، ٣٦٠)، والترمذي (٣٦٨٩) وابن حبان (٧٠٨٦) من طرف عن ابن بريدة عن أبيه رضي الله عنه.



قيل: نتلقاه بالقبول والتصديق، ولا يدل على أن أحدًا يسبق رسول الله ﷺ إلى الجنة، وأما تقدم بلال بين يديه ﷺ في الجنة، فلأن بلالًا كان يدعو إلى الله في الأذان، فيتقدم أذانه بين يدي رسول الله ﷺ، فيتقدم دخوله بين يديه كالحاجب والخادم، لاسبقًا من بلال له[١].

وورد في الحديث الصحيح: «**إن فقراء المسلمين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم**» وهو خمس مئة عام[٢].

وفي حديث ابن عمر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة إلى الجنة بأربعين خريفًا**»[٣].

واختلاف مُدَّة السبق لعلها بحسب أحوال الفقراء والأغنياء، فمنهم من يسبق بأربعين، ومنهم من يسبق بخمسمئة، كما يتأخر مكث العصاة من الموحدين في النار بحسب جرائمهم، والله أعلم[٤].

وقال الإمام ابن القيم: «ولكن هاهنا أمر يجب التنبيه عليه، وهو أنه لا يلزم من سبقهم لهم في الدخول، ارتفاع منازلهم عليهم، بل قد يكون المتأخر أعلى منزلة، وإن سبقه غيره في الدخول.

والدليل على هذا أن من الأمة من يدخل الجنة بغير حساب، وهم السبعون ألفًا، وقد يكون بعض من يحاسب أفضل من أكثرهم، والغني إذا حوسب على غناه، فوجد قد شكر الله تعالى فيه، وتقرب إليه بأنواع البر والخير والصدقة والمعروف، كان أعلى درجة من الفقير الذي سبقه في

---

(١) انظر «حادي الأرواح» (ص١٥٨).

(٢) رواه أحمد (٢/٢٩٦)، والترمذي (٢٣٥٤) بإسنادٍ حسن.

(٣) رواه مسلم في الزهد (٤/٢٢٨٥).

(٤) «حادي الأرواح» (ص١٦٠).



الدخول، ولم تكن له تلك الأعمال، ولا سيما إذا شاركه الغني في أعماله هو، وزاد عليه فيها، والله لا يضيع أجر من أحسن عملًا.

فالمزية مزيتان: مزية سبق، ومزية رفعة، وقد يجتمعان وينفردان، فيحصل لواحد السبق والرفعة، ويعد فهمًا آخر، ويحصل لآخر السبق دون الرفعة، ولآخر الرفعة دون السبق، وهذا بحسب المقتضي لأمرين، أو لأحدهما وعدمه، وبالله التوفيق[1].

** ** **

(١) المصدر السابق (ص١٦٠ - ١٦١).



باب: قول النبي ﷺ: «لكل نبي دعوة مستجابة»

(٩٥) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ، فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا».

❖ الشرح:

الحديث السابق أخرجه مسلم في الإيمان، وبوَّب عليه النووي (٧٤/٣) باب: الشفاعة.

وقد رواه بعدة ألفاظ، ففي الرواية الأخرى: **«لكل نبي دعوة يدعوها، فأريد أن أختبئ دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة»** وفي رواية له: **«لكل نبي دعوة دعابها في أمته فاستُجِيبَ له، وإني أريد ـ إن شاء الله ـ أن أؤخر دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة»**.

قال النووي: هذه الأحاديث تفسر بعضها بعضًا، ومعناها: أن لكل نبي دعوة متيقنة الإجابة، وهو على يقين من إجابتها، وأما باقي دعواتهم فهم على طمع من إجابتها، بعضها يجاب، وبعضها لا يجاب[١].

وذكر القاضي عياض: أنه يحتمل أن يكون المراد: لكل نبي دعوة لأمته، كما في الروايتين الآخيرتين، والله أعلم.

---

(١) لدلالة القرآن والسنة على إجابة دعوات لهم ومنع بعضها، فقد دعا النبي ﷺ لأمته أن لا يسلط عليهم عدوًا من غيرهم، وأن لا يهلكهم بالسنين العامة فأعطيها، ودعا أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعها.



وفي هذا الحديث: بيان كمال شفقة النبي ﷺ على أمته، ورأفته بهم واعتنائه بالنظر في مصالحهم المهمة، فأخَّر ﷺ دعوته لأمته إلى أهم أوقات حاجاتهم.

وأما قوله ﷺ: «**فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا**» ففيه دلالة لمذهب أهل الحق، أن كل من مات غير مشرك بالله لم يخلد في النار، وإن كان مُصِرًّا على الكبائر، وقد تقدمت دلائله وبيانه في مواضع كثيرة[1].

وقوله ﷺ: «**إِنْ شَاءَ اللهُ**» هو على جهة التبرك، والامتثال لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف]، والله أعلم[2].

وقوله: «**مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا**» فيه فضل التوحيد، وأنه سبب لنيل شفاعة المصطفى ﷺ في الآخرة، والمؤمنون في هذا درجات، وأن الشرك سبب للحرمان منها، وقانا الله شره والمسلمين، آمين.

** ** **

(١) انظر شرح الأحاديث السابقة (٨٦، ٨٧، ٨٨، ٨٩، ٩٠، ٩١).

(٢) شرح مسلم للنووي (٣/٧٥ - ٧٦).



باب: دعاء النبي ﷺ لأمته

(٩٦) عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ تَلَا قَوْلَ اللهِ عز وجل فِي إِبْرَاهِيمَ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى﴾ الْآيَةَ، وَقَالَ عِيسَى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: اللهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي، وَبَكَى، فَقَالَ اللهُ عز وجل: يَا جِبْرِيلُ! اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ ـ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ ـ فَسَلْهُ مَا يُبْكِيكَ؟ فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عليه السلام فَسَأَلَهُ، فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَا قَالَ ـ وَهُوَ أَعْلَمُ ـ فَقَالَ اللهُ: يَا جِبْرِيلُ! اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ فَقُلْ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ، وَلَا نَسُوءُكَ».

❖ **الشرح:**

الحديث أخرجه مسلم في الإيمان، وبوَّب عليه النووي (٣/٧٧): باب دعاء النبي ﷺ لأمته، وبكائه شفقةً عليهم.

قوله: «**وَقَالَ عِيسَى عليه السلام**» أي: تلا قول عيسى عليه السلام في القرآن.

وفي الحديث من الفوائد: بيان كمال شفقة النبي ﷺ على أمته، واعتنائه بمصالحهم، واهتمامه بأمرهم، قال النووي[(١)].

وقال الأُبي: والمعنى: أنه لما رأى إبراهيم وعيسى عليهما السلام لم يبلغا في الدعاء لأمتيهما إلى منتهى الغاية، بل تبرأ كل منهما من عصاة أمته، بعثه ما يجده من الشفقة والحرص على نجاة أمته، على الحض في

(١) (٣/٧٨).



الدعاء لها باكيًا مستمرًا، حتى أجابه بأنه سيرضيه فيهم، وهو معنى قوله ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾ [الضحى].

وقيل: هي أرجى آية، لأنه لا يرضى، وواحد من أمته في النار[(١)] وفيه: استحباب رفع اليدين في الدعاء.

وقد ورد فيه أحاديث، منها: قوله ﷺ: **«إن ربكم تبارك وتعالى حيي كريم، يستحي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردها صفرًا»**[(٢)].

وفيه: بيان عظم منزلة النبي ﷺ عند الله تعالى، وعظيم لطفه سبحانه به ﷺ، والحكمة في إرسال جبريل لسؤاله ﷺ: إظهار شرف النبي ﷺ، وأنه بالمحل الأعلى فيسترضى، ويكرم بما يرضيه، والله أعلم[(٣)].

وقوله تعالى في الحديث: «**وَلَا نَسُوءُكَ**» هو تأكيد للمعنى، أي: لا نحزنك؛ لأن الإرضاء قد يحصل في حق البعض بالعفو عنهم، ويدخل الباقي النار، فقال تعالى: نرضيك ولا ندخل عليك حزنًا، بل ننجي الجميع[(٤)].

** ** **

(١) إكمال إكمال المعلم (١/٦١٥ - ٦١٦).

(٢) حديث صحيح، أخرجه أبو داود (١٤٨٨)، والترمذي (٣٥٥٦) وابن ماجه (٣٨٦٥) وصححه ابن حبان (٢٤٠٠) من حديث سلمان رضي الله عنه.

(٣) شرح النووي (٣/٧٩).

(٤) المصدر السابق.



(٩٧) عَنْ جَابِرٍ ﷺ أَنَّ الطُّفَيْلَ بْنَ عَمْرٍو الدَّوْسِيَّ: أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! هَلْ لَكَ فِي حِصْنٍ حَصِينٍ وَمَنْعَةٍ، قَالَ: حِصْنٌ كَانَ لِدَوْسٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَأَبَى ذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ لِلَّذِي ذَخَرَ اللهُ لِلْأَنْصَارِ، فَلَمَّا هَاجَرَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ، هَاجَرَ إِلَيْهِ الطُّفَيْلُ بْنُ عَمْرٍو، وَهَاجَرَ مَعَهُ رَجُلٌ مِنْ قَوْمِهِ، فَاجْتَوَوْا الْمَدِينَةَ، فَمَرِضَ، فَجَزِعَ، فَأَخَذَ مَشَاقِصَ لَهُ، فَقَطَعَ بِهَا بَرَاجِمَهُ، فَشَخَبَتْ يَدَاهُ حَتَّى مَاتَ، فَرَآهُ الطُّفَيْلُ بْنُ عَمْرٍو فِي مَنَامِهِ، فَرَآهُ وَهَيْئَتُهُ حَسَنَةٌ، وَرَآهُ مُغَطِّيًا يَدَيْهِ، فَقَالَ لَهُ: مَا صَنَعَ بِكَ رَبُّكَ؟ فَقَالَ: غَفَرَ لِي بِهِجْرَتِي إِلَى نَبِيِّهِ ﷺ، فَقَالَ: مَا لِي أَرَاكَ مُغَطِّيًا يَدَيْكَ؟ قَالَ: قِيلَ لِي: لَنْ نُصْلِحَ مِنْكَ مَا أَفْسَدْتَ، فَقَصَّهَا الطُّفَيْلُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اللهُمَّ وَلِيَدَيْهِ فَاغْفِرْ».

❖ الشرح:

هذا هو الحديث الثاني في هذا الباب: باب دعاء النبي ﷺ لأمته.

وقد رواه مسلم في الإيمان، وبوَّب عليه النووي (٢/١٣٠) باب الدليل على أن قاتل نفسه لا يكفر.

الطفيل بن عمرو هو ابن طريف بن العاص الدوسي، لقبه ذو النور، قال ابن سعد: أسلم الطفيل بمكة، ورجع إلى بلاد قومه، ثم وافى النبي ﷺ في عمرة القضية، وشهد الفتح بمكة، وكذا قال ابن حبان[1].

وروى البخاري: عن أبي هريرة قال: قدم الطفيل بن عمرو الدوسي

(١) كما في «الإصابة في تمييز الصحابة» (٢/٢٢٥) للحافظ ابن حجر العسقلاني.



على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن دوسًا قد عصت فادع الله عليهم، فقال: «**اللهم اهْدِ دوسًا**».

قيل: استشهد باليمامة قاله ابن سعد، وقيل: باليرموك، قاله ابن حبان، وقيل: بأجنادين، قاله موسى بن عقبة.

قوله: «**هَلْ لَكَ فِي حِصْنٍ حَصِينٍ**» أي: قصر لا يوصل إليه بسهولة والمنعة: جمع مانع أي: جماعة تمنعك ممن يقصدك بمكروه، ودوس: إحدى قبائل العرب في اليمن.

قوله: «**فَأَبَى ذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ لِلَّذِي ذَخَرَ اللهُ لِلْأَنْصَارِ**» أي: لم يقبل النبي ﷺ عرضه في الذهاب إلى ذلك الحصن؛ لأن الله تعالى قضى أن تكون هجرته نحو المدينة، وادَّخر ذلك للأنصار من الأوس والخزرج، و﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾. وذخر وادخر بمعنى واحد.

قوله: «**فَاجْتَوَوْا الْمَدِينَةَ، فَمَرِضَ**» أي: الطفيل والرجل المذكور، ومعناه: كرهوا المقام بها لضجر ونوع من مرض وسقم. قال أبو عبيد والجوهري وغيرهما: اجتويت البلد: إذا كرهت المقام به، وإن كنت في نعمة.

وقال الخطابي: أصله من الجوى، وهو داء يصيب الجوف(١).

قوله: «**فَجَزِعَ، فَأَخَذَ مَشَاقِصَ لَهُ**» جمع مِشْقَص بكسر الميم وفتح القاف، وهو سهم فيه فصل عريض، أي: لم يصبر على الشدة واللأواء، فأخذ هذا السهم العريض كالسكين.

قوله: «**فَقَطَعَ بِهَا بَرَاجِمَهُ**» البراجم: مفاصل الأصابع، واحدتها برجمة.

(١) شرح النووي (٢/١٣١).



قوله: «فَشَخَبَتْ يَدَاهُ» أي: سال دمها، وقيل: سال بقوة.

والشخب: بالفتح والضم ما يخرج من الضرع من لبن، وكأنه الدفعة منه، وكأنه سمي بذلك من صوت وقعة في الإناء.

أما أحكام الحديث: ففيه حجة لقاعدة عظيمة لأهل السنة: أن من قتل نفسه، أو ارتكب معصية غيرها، ومات من غير توبة، فليس بكافر، ولا يقطع له بالنار، بل هو في حكم المشيئة، وقد تقدم بيان القاعدة وتقريرها مرارًا.

وهذا الحديث شرح للأحاديث التي قبله الموهم ظاهرها تخليد قاتل النفس وغيره من أصحاب الكبائر في النار، ففيه رد على الخوارج والمعتزلة.

وفيه: إثبات عقوبة بعض أصحاب المعاصي، فإن هذا عوقب في يديه، ففيه رد على المرجئة القائلين بأن المعاصي لا تضر، والله أعلم[1].

وفيه: فضل الهجرة إلى المصطفى ﷺ، وما حصل من العفو عنه والصفح بسببها، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢١٨﴾ [البقرة].

وقال: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ١٩٥﴾ [آل عمران].

** ** **

(١) شرح النووي (١/١٣١ - ١٣٢).



باب: في قوله ﷻ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾

(٩٨) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: لَمَّا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ دَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ قُرَيْشًا، فَاجْتَمَعُوا، فَعَمَّ وَخَصَّ، فَقَالَ: «يَا بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ! أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ، يَا بَنِي مُرَّةَ بنِ كَعْبٍ! أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ! أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ! أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ، يَا بَنِي هَاشِمٍ! أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ! أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ، يَا فَاطِمَةُ! أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنْ النَّارِ؛ فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللهِ شَيْئًا، غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِمًا سَأَبُلُّهَا بِبَلَالِهَا».

* * *

❖ الشرح:

الحديث أخرجه مسلم في الإيمان، وبوَّب عليه النووي (٣/٧٩): باب بيان أن من مات على الكفر؛ فهو في النار، ولا تناله شفاعة، ولا تنفعه قرابة المقربين.

قوله: «**دَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ قُرَيْشًا، فَاجْتَمَعُوا**» قريش: هي القبيلة العربية المشهورة التي كانت تسكن مكة، قيل سميت قريشا من «القرش» وهو جمع الشيء من ههنا وههنا، فسمُّوا بذلك لتجمعهم إلى الحرم، أو لأنهم كانوا يتقرشون البياعات، فيشترونها، أو لأن النضر بن كنانة اجتمع في ثوبه يومًا فقالوا: تقرش، أو لأنه جاء إلى قومه فقالوا: كأنه جمل

قريش، أي: شديد، وقيل: سميت بمصغر القرش، وهو السمك المعروف الذي تخافه دواب البحر كلها، وقيل: غير ذلك، والنسبة قرشي وقريشي(١).

قوله: «**فَعَمَّ وَخَصَّ**» العموم قوله في الآخر: «**يا معشر قريش**» والخصوص نداء قبائلها.

قوله: «**يَا بَنِي كَعْبٍ**» كعب هو ابن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة.

وقريش على قول أكثر أهل النسب: هم الذين ينتسبون إلى فهر بن مالك بن النضر بن كنانة. وقيل: بل جماع قريش هو النضر بن كنانة، وعليه أكثر العلماء والمحققين، قاله الحافظ ابن كثير رحمه الله، ثم قال: واستدل على ذلك بالحديث الذي ذكره أبو عمر بن البر رحمه الله تعالى: عن الأشعث بن قيس رضي الله عنه قال: قدمت على رسول الله ﷺ في وفد كندة، فقلت: ألستم منا يا رسول الله؟ قال: «**لا، نحن بنو النضر بن كنانة، لا نقفوا أمنا، ولا ننتفي من أبينا**» وقد رواه ابن ماجه في سننه باسناد حسن، وفيه: فكان الأشعث يقول: لا أوتى برجل نفى رجلًا من قريش من النضر بن كنانة، إلا جلدته الحد(٢). وقصر النبي ﷺ النداء على بني كعب يحتمل لأنه لم يحضر أحدًا من فوق كعب، أو أنهم الأقربون.

قوله: «**أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ**» وفي الرواية الأخرى لمسلم أيضًا «**اشتروا أنفسكم من الله**» وهو بمعنى أنقذوا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١].

---

(١) انظر القاموس المحيط (قرش).

(٢) الفصول في سيرة الرسول ﷺ (ص٨٦).

والحديث حسّنه أيضًا الألباني في «الإرواء» (٢٣٦٨)، وفي «ابن ماجه» (٢٦١٢)، و«الصحيحة» (٢٣٧٥).



قوله: «**يَا فَاطِمَةُ! أَنْقِذِي نَفْسَكِ**» وفي بعض الأصول «**يا فاطم**» بحذف الهاء على الترخيم.

قوله: «**فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا**» معناه: لا تتكلوا على قرابتي، فإني لا أقدر على دفع مكروه يريده الله تعالى بكم[١].

وهو كقوله ﷺ: «**ومن بطأ به عمله؛ لم يسرع به نسبه**» أي: من تكاسل عن الإيمان والعمل الصالح؛ لم يسرع به نسبه وحسبه إلى الدرجات العلى، والنعيم المقيم، وقد قصَّ الله تعالى علينا في كتابه قصة نوح عليه السلام وابنه وامرأته، ولوط عليه السلام وامرأته، فقال عز وجل: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [هود].

وقال: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [التحريم].

فنوح عليه السلام لما وعده الله تعالى بنجاة أهله؛ ظن أن الوعد لعمومهم، من آمن ومن لم يؤمن، فدعا ربه بذلك الدعاء، وفوض الأمر إلى الله تعالى، فأجابه الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي: الذين وعدتك بإنجائهم ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ أي: هذا الدعاء الذي دعوته لنجاة ابنك الكافر[٢].

---

(١) شرح مسلم (٣/٨٠).

(٢) وفي القراءة الأخرى (إنه عَمِلَ غير صالح) أي: ابنك قد عمل غير صالح، فلا يستحق النجاة.



فحينئذ ندم نوح عليه السلام وقال: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ...﴾.

وقد قال تعالى لنبيه الكريم ﷺ لما أراد أن يستغفر لعمه وقد مات على الشرك: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ١١٣ وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ١١٤﴾ [التوبة]. أي: فمن مات على الشرك والكفر، فقد حقت عليه كلمة العذاب ووجب عليه الخلود في النار، فلا تنفعه شفاعة الشافعين، ولا استغفار المستغفرين.

وكذا امرأتي نوح ولوط عليهما السلام، فإنهما كانتا تحت نبيَّيْن كريمين، ومع ذلك كانتا كافرتين على غير دين زوجيهما، وهذه هي خيانتها، فإنه ما بغتْ امرأة نبي قط ﴿فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾.

قوله: «**غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِمًا سَأَبُلُّهَا بِبَلَالِهَا**» ببلالها تضبط على وجهين: بفتح الباء الثانية، وكسرها، من بله يبله، والبلال الماء، ومنه حديث «**بُلُّوا أرحامكم، ولو بالسلام**»(١). أي: صِلُوها.

ومعنى الحديث: إن لكم رحِمًا سأصلها، فشبه قطيعة الرحم بالحرارة، ووصلها بإطفاء الحرارة ببرودة الماء.

فإن قيل: كيف يجمع بين حديث الباب، وبين قوله ﷺ: «**كل نسب**

---

(١) حديث حسن أخرجه وكيع في الزهد (٤٠٩) وعنه هناد في الزهد (٩٢١)، وابن حبان في «الثقات» (٤/٣٢٤) عن سويد بن عامر مرسلاً، وله شواهد ذكرتها مع الكلام عليها في إبطال التأويلات (٢/٤٢٥).



وصهر ينقطع يوم القيامة، إلا نسبي وصهري»(١).

فالجواب: إن قوله ﷺ: «**لا أغني عنكم شيئًا**» أي: بمجرد نفسي، من غير ما يكرمني الله به من شفاعة ومغفرة، مخاطبهم بذلك رعاية لمقام التخويف، وإلا فالانتساب إليه ومصاهرته فيها نفع عظيم، ولذا حرص عمر رضي الله عنه على مصاهرة علي رضي الله عنه، فتزوج بابنته أم كلثوم، ثم روى هذا الحديث(٢).

**   **   **

---

(١) حديث صحيح رواه ابن عساكر في ترجمة زيد بن عمر بن الخطاب، كما في «الفيض» (٥/٣٦)، وصححه الألباني في «الجامع».

(٢) انظر «فيض القدير».



باب: ما نفع النبي ﷺ أبا طالب

(٩٩) عَنْ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ: أَنَّهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! هَلْ نَفَعْتَ أَبَا طَالِبٍ بِشَيْءٍ؟ فَإِنَّهُ كَانَ يَحُوطُكَ وَيَغْضَبُ لَكَ، قَالَ: «نَعَمْ، هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ، وَلَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ».

❖ **الشرح:**

الحديث رواه مسلم في الإيمان، وبوَّب عليه النووي (٨٤/٣): باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب والتخفيف عنه.

راوي الحديث العباس بن عبد المطلب هو ابن هاشم بن عبد مناف القرشي، أبو الفضل المكي، عم رسول الله ﷺ، قال الزبير بن بكار: كان أسن من رسول الله ﷺ بثلاث سنين، شَهِدَ بدرًا مع المشركين، وأُسِرَ فيمن أسر ثم فودي. وقال ابن عبد البر: كان رئيسًا في الجاهلية، وإليه العمارة والسقاية، وأسلم قبل فتح خيبر، وكان أنصر الناس لرسول الله ﷺ بعد أبي طالب، وكان جوادًا مُطْعِمًا وصولًا للرحم، ذا رأي حسن، ودعوة مرجوة، وكان لا يمر بعمر وعثمان وهما راكبان إلا نزلا حتى يجوز، إجلالًا له، وفضائله كثيرة، مات سنة ٣٢هـ، وهو ابن ثمان وثمانين سنة.

قوله: «**كَانَ يَحُوطُكَ**»: بفتح الياء، يقال: حاطه يحوطه حوطًا وحياطة، إذا صانه وحفظه وذب منه، وتوفر على مصالحه.

قوله: «**هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ**» الضحضاح: مارق من الماء على وجه الأرض إلى نحو الكعبين، وهو في النار استعارة، أي: النار تصل إلى كعبيه.



قوله: «**وَلَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنْ النَّارِ**» وفي الرواية الأخرى: «**وجدته في غمرات من النار فأخرجته إلى ضحضاح**».

الدرك: فيه لغتان فصيحتان: فتح الراء وإسكانها، ومعناه عند جميع أهل اللغة والتفسير: قعر جهنم، وأقصى أسفلها. قالوا: ولجهنم أدراك، فكل طبقة من أطباقها تسمى: دركًا.

والغمرات: جمع غمرة، وهو الشيء الكثير، ويروى بالباء «الغبرات» أي: البقايا، والأول أصح.

وهل هذا الحديث يعارض قول الله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر].

والجواب: لا معارضة؛ لأن الآية محمولة على شفاعة الإخراج من النار، والحديث يتضمن شفاعة التخفيف من العذاب، جزاء على حياطته لرسول الله ﷺ ونُصرته إياه، فإن الكفار يشتركون في دخول النار، ولكنهم ليسوا بسواء في العذاب، فإن الكافر يعذب على كفره، ثم يزداد عليه بقدر ما أضاف إلى الكفر من المفاسد والذنوب، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النحل].

وقالوا: فعذاب عاقر الناقة ليس كعذاب غيره من قومه، وليس عذاب قتلة عيسى ـ أي من أرادوا قتله ـ ويحيى وزكريا عليهم السلام، كعذاب غيرهم من كفرة بني إسرائيل.

ومنه قوله ﷺ: «**أشد الناس عذابا يوم القيامة: رجل قتل نبيًا، أو قتله نبي، أو رجل يضل الناس بغير علم، أو مصور يصور التماثيل**»[1].

---

(١) حديث حسن، رواه أحمد (١/٤٠٧)، والطبراني (١٠٤٩٧، ١٠٥١٥) وغيرهما.



(١٠٠) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «أَهْوَنُ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا أَبُو طَالِبٍ، وَهُوَ مُنْتَعِلٌ بِنَعْلَيْنِ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ».

❖ الشرح:

هذا هو الحديث الثاني في هذا الباب، وقد أخرجه مسلم في الإيمان، وهو في الباب السابق نفسه.

قوله: «**أَهْوَنُ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا أَبُو طَالِبٍ**» فيه تصريح بأن أبا طالب عم النبي ﷺ من أهل النار، لكنه من أهونهم وأخفهم عذابًا، وعذاب أهل النار دركات، بعضها أشد من بعض، كما سبق بيانه، كما أن نعيم أهل الجنة متفاوت.

قوله: «**وَهُوَ مُنْتَعِلٌ بِنَعْلَيْنِ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ**» وفي رواية لمسلم أيضًا: «**له نعلان وشراكان من نار، يغلي منهما دماغه، كما يغلي المرجل**» والشراك هو أحد سيور النعل، والذي يكون على ظهر القدم.

والغليان هو شدة اضطراب الماء ونحوه على النار.

والمرجل: القدر، سواء كان من حديد أو نحاس أو حجارة أو خزف.

وفي رواية: «**توضع في أخمص قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه**» والأخمص: هو المتجافي من الرجل على الأرض، أي: ما لا يصيب الأرض من القدم.

وزاد في رواية له: «**ما يرى أن أحدًا أشدَّ منه عذابًا، وإنه لأهونهم**



عذابًا» أي: مع أنه أهون أهل النار عذابًا، إلا أنه عذاب عظيم أليم موجع لا يطاق، وصاحبه يظن أنه أشد أهل النار عذابًا، وهو أهونهم، فكيف بالذي تغشاه النار من فوقه، ويأتيه اللهب من أسفل منه، فتكون له مهادًا وغطاء، نعوذ بمولانا من ذلك، قال تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ [الأعراف]، وقال: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [العنكبوت].

** ** **

باب: قول النبي ﷺ:
«يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفًا بغير حساب»

(١٠١) عن حُصَيْنِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، فَقَالَ: أَيُّكُم رَأَى الْكَوْكَبَ الَّذِي انْقَضَّ الْبَارِحَةَ؟ قُلْتُ: أَنَا. ثُمَّ قُلْتُ: أَمَا إِنِّي لَمْ أَكُنْ فِي صَلَاةٍ، وَلَكِنِّي لُدِغْتُ، قَالَ: فَمَاذَا صَنَعْتَ؟ قُلْتُ: اسْتَرْقَيْتُ، قَالَ: فَمَا حَمَلَكَ عَلَى ذَلِكَ؟ قُلْتُ: حَدِيثٌ حَدَّثَنَاهُ الشَّعْبِيُّ، فَقَالَ: وَمَا حَدَّثَكُمْ الشَّعْبِيُّ؟ قُلْتُ: حَدَّثَنَا عَنْ بُرَيْدَةَ بْنِ حُصَيْبٍ الْأَسْلَمِيِّ أَنَّهُ قَالَ: لَا رُقْيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ، فَقَالَ: قَدْ أَحْسَنَ مَنْ انْتَهَى إِلَى مَا سَمِعَ، وَلَكِنْ حَدَّثَنَا ابْنُ عَبَّاسٍ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرُّهَيْطُ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيَّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي، فَقِيلَ لِي: هَذَا مُوسَى ﷺ وَقَوْمُهُ، وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى الْأُفُقِ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي انْظُرْ إِلَى الْأُفُقِ الْآخَرِ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي هَذِهِ أُمَّتُكَ، وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ»، ثُمَّ نَهَضَ، فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ، فَخَاضَ النَّاسُ فِي أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمْ الَّذِينَ صَحِبُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمْ الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الْإِسْلَامِ وَلَمْ يُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا، وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ، فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «مَا الَّذِي تَخُوضُونَ فِيهِ؟» فَأَخْبَرُوهُ، فَقَالَ: «هُمْ الَّذِينَ لَا يَرْقُونَ، وَلَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» فَقَامَ عُكَّاشَةُ

بْنُ مِحْصَنٍ فَقَالَ: ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: «أَنْتَ مِنْهُمْ»، ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ فَقَالَ: ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: «سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ».

❖ **الشرح:**

الحديث أخرجه مسلم في الإيمان، وبوَّب عليه النووي (٣/٨٨): باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب.

وأخرجه البخاري أيضا في صحيحه مختصرًا ومطولًا.

قوله: «عن حُصَيْنِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ»: هو السلمي أبو الذيل الكوفي، ثقة تغير حفظه في الآخر، روى له الستة.

وسعيد بن جبير هو الأسدي مولاهم الكوفي، التابعي الجليل، الثقة الثبت الفقيه، قتل بين يدي الحجاج، سنة خمس وتسعين، ولم يكمل الخمسين، روايته في الكتب الستة.

قوله: «أَيُّكُمْ رَأَى الْكَوْكَبَ الَّذِي انْقَضَّ الْبَارِحَةَ» انقض: أي: سقط.

والبارحة: أقرب ليلة مضت، وهي مشتقة من: برح: إذا زال.

وقال أبو العباس ثعلب وغيره: يقال قبل الزوال: رأيت الليلة، وبعد الزوال: رأيت البارحة.

قوله: «أَمَا إِنِّي لَمْ أَكُنْ فِي صَلَاةٍ» القائل هو حصين، خاف أن يظن الحاضرون أنه ما رأى النجم إلا لأنه يصلي، فأراد أن ينفي عن نفسه إيهام العبادة، وأنه يصلي، مع أنه لم يكن فعل هذا، وهذا يدل على فضل السلف الصالح وحرصهم على الإخلاص، وشدة ابتعادهم عن الرياء، بخلاف من يقول: فعلت وفعلت ليوهم الناس أنه من الأولياء، وربما علق السبحة في

عنقه! أو أخذها في يده يمشي بها بين الناس، إعلامًا لهم أنه يسبح عدد ما فيها من الخرز!![(١)].

وقوله: «وَلَكِنِّي لُدِغْتُ» أي: لدغته عقرب أو نحوها.

قوله: «قُلْتُ: اسْتَرْقَيْتُ» أي: طلبت من يرقيني.

قوله: «فَمَا حَمَلَكَ عَلَى ذَلِكَ؟» أي: ما حجتك على هذا الفعل؟ ففيه طلب الدليل على صحة المذهب.

قوله: «حَدِيثٌ حَدَّثَنَاهُ الشَّعْبِيُّ» أي: حملني عليه حديث حدثناه الشعبي، واسمه عامر بن شراحيل الهمداني، ولد في خلافة عمر ﵁، وهو من علماء التابعين وثقاتهم وفقهائهم، قال مكحول: «ما رأيت أفقه منه»، مات سنة ١٠٣هـ، وله نحو من ثمانين، وروى له الستة.

قوله: «عَنْ بُرَيْدَةَ» وهو بضم أوله وفتح ثانية، تصغير برودة، وهو ابن الحُصَيْب ـ بضم الحاء وفتح الصاد ـ ابن عبد الله بن الحارث الأسلمي صحابي شهير، مات سنة ثلاث وستين، قاله ابن سعد.

قوله: «لَا رُقْيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ» هكذا روى هنا موقوفا، وقد رواه ابن ماجه وغيره مرفوعًا[(٢)].

والعين: هي إصابة العائن غيره بعينه والعين حق، والحمة: بضم الحاء وتخفيف الميم: سم العقرب وشبهها.

---

(١) تيسير العزيز الحميد (ص١٠٣).
وقد نص غير واحد من علمائنا على بدعية السبحة، وأنها لم تكن في عهد النبي ﷺ، وانظر بحثًا حولها في الضعيفة (٨٣) للعلامة الألباني رحمه الله تعالى.

(٢) سنن ابن ماجه (٣٥١٣) ورواه أحمد (٤/٤٣٤، ٤٣٨، ٤٤٦)، وأبو داود (٣٨٨٤)، والترمذي (٢١٤٩) من حديث عمران بن حصين مرفوعًا.



قال الخطابي: ومعنى الحديث: لا رُقية أشفى أو أولى من رقية العين وذي الحمة، وقد رقى النبي ﷺ وأمر بها، وسيأتي الكلام على الرقى.

قوله: «**قَدْ أَحْسَنَ مَنْ انْتَهَى إِلَى مَا سَمِعَ**» أي: من أخذ بما بلغه من العلم، وعمل به فقد أحسن؛ لأنه أدى ما وجب وعمل بما بلغه من العلم، بخلاف من يعمل بجهل، أو لا يعمل بما يعلم فإنه مسيء آثم.

وفيه فضيلة علم السلف وحسن أدبهم، وتلطفهم في تبليغ العلم، وإرشادهم من أخذ بشيء منه ـ إن كان مشروعًا ـ إلى ما هو أفضل منه[1].

قوله: «**وَلَكِنْ حَدَّثَنَا ابْنُ عَبَّاسٍ**» هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب الهاشمي ابن عم النبي ﷺ، دعا له النبي ﷺ فقال: «**اللهم فقِهّه في الدين، وعلمه التأويل**» متفق عليه، فكان كذلك، إذ كان يسمى البحر، والحَبْر، لسعة علمه وفقهه. وقال عمر: لو أدرك ابن عباس أسناننا، ما عشره منا أحد. أي: ما بلغ عشره في العلم، وهو أحد المكثرين من الحديث من الصحابة، وأحد العبادلة، مات سنة ثمان وستين بالطائف.

قوله: «**عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ**» قد يكون رأى ذلك ليلة الإسراء، أو هي رؤيا رآها ـ عليه الصلاة والسلام ـ في منامه.

قوله: «**فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرُّهَيْطُ**» الرهيط: تصغير الرهط، وهي الجماعة دون العشرة.

قوله: «**وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيَّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ**» فيه أن الأنبياء متفاوتون في عدد أتباعهم، وأن بعضهم لا يتبعه أحد، مع أنهم قد أدَّوا الأمانة، وبلغوا الرسالة، وجاهدوا في الله حق جهاده، لكن الأمر كما

(١) «تيسير العزيز الحميد» (ص١٠٤).



قال نوح عليه السلام: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [هود].

وفيه ردٌّ على من احتج بالأكثر، وزعم أن الحق محصور فيهم، وليس كذلك، قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦].

فالواجب اتباع الكتاب والسنة، مع من كان وأين كان.

قوله: «إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ» أي: رفع لي أشخاص كثيرون.

ويجمع على أسوده، ومنه: لا يفارق سوادي سوادك.

قوله: «فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي» استشكل الإسماعيلي كونه ﷺ لم يعرف أمته حتى ظن أنهم أمة موسى عليه السلام، وقد ثبت في حديث أبي هريرة: كيف تعرف من لم تَرَ من أمتك؟ فقال: «إنهم غرٌّ محجلون من أثر الوضوء» وأجاب: بأن الأشخاص التي رآها في الأفق لا يدرك منها إلا الكثرة من غير تمييز لأعيانهم، وأما في حديث أبي هريرة؛ فمحمول على ما إذا قربوا منه، ويؤيده أن ذلك يقع عند ورودهم عليه الحوض[(١)].

قوله: «فَقِيلَ لِي: هَذَا مُوسَى ﷺ وَقَوْمُهُ» أي: نبي الله موسى عليه السلام وقومه الذين اتبعوه، وفيه: فضيلة موسى عليه السلام وكثرة أتباعه.

قوله: «وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى الْأُفُقِ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي انْظُرْ إِلَى الْأُفُقِ الْآخَرِ، فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي هَذِهِ أُمَّتُكَ». وفي لفظ لأحمد: «فرأيت أمتي قد ملئوا السهل والجبل، فأعجبني كثرتهم وهيئتهم: فقيل: أرضيت يا محمد؟ قلت: نعم يا رب».

---

(١) «الفتح» (١١/٤٠٨) باختصار.



قوله: «**وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ**» أي: لفضلهم وتحقيقهم التوحيد.

وقوله: «**هَذِهِ أُمَّتُكَ، وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا**» ظاهره أن السبعين زائدة على المرئى، والصحيح أنها منها، لقوله في رواية البخاري «**هذه أمتك، ويدخل الجنة من هؤلاء سبعون ألفًا**» وفي الحديث الآخر: «**أدخل الجنة من لا حساب عليه من أمتك**»[1].

وقال الحافظ ابن حجر: المراد بالمعية المعنوية، فإن السبعين ألفًا المذكورين من جملة أمته، لكن لم يكونوا في الذين عرضوا إذ ذاك، فأريد الزيادة في تكثير أمته بإضافة السبعين ألفًا إليهم[2].

وما قاله غير ظاهر، والله أعلم[3].

وروى الإمام أحمد والبيهقي في «البعث» الحديث عن أبي هريرة وزاد: قال: «**فاستزدت ربي، فزادني مع كل ألفٍ سبعين ألفًا**».

قال الحافظ: وإسناده جيد[4].

وعن أبي أمامة ﷺ مرفوعًا: «**وعدني ربي أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفًا، مع كل ألف سبعين ألفًا، لا حساب عليهم ولا عذاب، وثلاث حثيات من حثيات ربي**»[5].

وعن سهل بن سعد ﷺ: إن رسول الله ﷺ قال: «**ليدخلن الجنة من**

(١) شرح النووي (٣/٩٤)، والأبي (١/٦٣٩).
(٢) «الفتح» (١١/٤٠٨)، وانظر شرح مسلم (٣/٩٤).
(٣) وانظر «تيسير العزيز الحميد» (ص١٠٦).
(٤) «الفتح» (١١/٤١٠).
(٥) رواه الترمذي (٢٤٣٧)، وأحمد (٥/٢٦٨)، وابن حبان وصححه الألباني.



أمتي سبعون ألفًا أو سبعمائة ألف ـ لا يدري أبو حازم أيهما قال ـ متماسكون آخذ بعضهم بعضًا، لا يدخل أولهم حتى يدخل آخرهم، وجوههم على صورة القمر ليلة البدر»(١).

قوله: «**ثُمَّ نَهَضَ**» أي: قام من المجلس.

قوله: «**فَخَاضَ النَّاسُ فِي أُولَئِكَ**» أي: تكلموا وتناظروا. وفي هذا: إباحة المناظرة في العلم، والمباحثة في نصوص الشرع على جهة الاستفادة وإظهار الحق، والله أعلم. أفاده النووي.

وفيه: حرص السلف على الخير، وعمق علمهم وفقههم.

قوله: «**فَلَعَلَّهُمْ الَّذِينَ صَحِبُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ**» فيه فضل الصحبة، ودرجتها العالية في الإسلام، وأن ذلك متقرر عند السلف، بخلاف الرافضة والخوارج، المشككين في الصحابة وعدالتهم، ونزاهتهم وفضلهم عند الله تعالى.

قوله: «**وَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمْ الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الْإِسْلَامِ وَلَمْ يُشْرِكُوا بِاللهِ**»

فيه: فضل التوحيد، وما يكفر من السيئات، ويرفع من الدرجات.

قوله: «**هُمْ الَّذِينَ لَا يَرْقُونَ، وَلَا يَسْتَرْقُونَ**» وفي الرواية المتفق عليها «**الذين لا يسترقون**»، دون زيادة: «**ولا يرقون**» وقد أنكر شيخ الإسلام ابن

---

(١) رواه مسلم (٩٢/٣) بشرح النووي، ونحوه عن أبي هريرة ﷺ، وقال: معنى متماسكين: ممسك بعضهم بيد بعض، ويدخلون معترضين صفًا واحدًا بعضهم بجنب بعض، وهذا تصريح بعظم سعة باب الجنة، نسأل الله الكريم رضاه، والجنة لنا ولأحبابنا ولسائر المسلمين.



تيمية هذه الرواية، وأنه وهم من الراوي؛ لأن الراقي يُحْسِن إلى الذي يرقيه، فكيف يكون ذلك مطلوب الترك؟

وأيضًا: فقد رقى جبريل النبي ﷺ، ورقى النبي ﷺ أصحابه وأَذِن لهم في الرقى لما سئل عنها، فقال: «**من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل**».

وقال: «**لا بأس بالرقى، ما لم تكن شركًا**» رواهما مسلم.

قال: والفرق بين الراقي والمسترقي: أن المسترقي سائل مُسْتعط، ملتفت إلى غير الله بقلبه، والراقي محسن.

قال: وإنما المراد وصف السبعين ألفًا بتمام التوكل، فلا يسألون غيرهم أن يرقيهم، ولا يكويهم، ولا يتطيرون. وكذا قال ابن القيم(١).

وأيضًا: فإن الرقى بأسماء الله تعالى؛ تقتضي التوكل عليه، والالتجاء إليه، والرغبة فيما عنده، والتبرك بأسمائه، فلو كان ذلك قادحًا في التوكل لقدح الدعاء، إذ لا فرق بين الذكر والدعاء، وقد رقى النبي ﷺ ورُقي، وفعله السلف والخلف، فلو كان مانعًا من اللحاق بالسبعين أو قادحًا في التوكل، لم يقع من هؤلاء، وفيهم من هو أعلم وأفضل ممن عداهم(٢).

قوله: «**وَلَا يَتَطَيَّرُونَ**»: أي: لا يتشاءمون بالطيور ونحوها، فكان الناس في الجاهلية إذا أرادوا أمرًا، فإن رأوا الطير مثلا طار يمينه؛ تيمنوا به، وإن طار يسره تشاءموا، فنفاه الشرع وأبطله، وأخبر أنه ليس له تأثير في جلب نفع أو دفع ضر، قال تعالى: ﴿**أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٣١**﴾ [الأعراف].

---

(١) انظر «تيسير العزيز» (ص١٠٨)، واعتراض الحافظ ابن حجر في «الفتح» (١١/٤٠٨ - ٤٠٩).

(٢) «الفتح» (١١/٤٠٩).



وقال ﷺ: «**لا عدوى، ولا طيرة، ولا هامة، ولاصفر**» متفق عليه.

وفي حديث معاوية بن الحكم أنه قال لرسول الله ﷺ: ومنا أناس يتطيرون، فقال: «**ذاك شيء يجده أحدكم في نفسه، فلا يصدنكم**» رواه مسلم. أي: لا يمنعكم من حاجتكم، بل توكلوا على الله تعالى، وعلقوا قلوبكم به، ثقةً واعتمادًا، وهي صفة أهل الإيمان والتوكل.

كما قال في هذا الحديث: «**وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**» أي: الأصل الجامع الذي تفرعت منه هذه الأفعال هو التوكل على الله، وصدق الالتجاء إليه، والاعتماد بالقلب عليه، وهو خلاصة التوحيد، ونهاية التحقيق لمقامه، والذي يثمر كل مقام شريف، من المحبة والخوف والرجاء والرضى به ربًّا وإلهًا، وبقضائه، بل ربما أوصل العبد إلى التلذذ بالبلاء، وعده من النعماء، فسبحان من يتفضل على من يشاء بما شاء، والله ذو الفضل العظيم[١].

واعلم أن الحديث لا يدل على أنهم لا يباشرون الأسباب أصلًا، كما يظنه الجهلة، فإن مباشرة الأسباب في الجملة أمر فطري ضروري، لا انفكاك لأحد عنه حتى الحيوان البهيم، بل نفس التوكل مباشرة لأعظم الأسباب، كما قال تعالى ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٤].

أي: كافيه إنما المراد أنهم يتركون الأمور المكروهة مع حاجتهم إليها توكلًا على الله، كالاسترقاء والاكتواء، فتركهم له ليس لكونه سببًا لكن لكونه سببًا مكروهًا، لاسيما والمريض يتشبث بما يظنه سببًا لشفائه بخيط العنكبوت.

(١) انظر «تيسير العزيز» (ص١١٠).



أما نفس مباشرة الأسباب، والتدواي على وجه لا كراهية فيه، فغير قادح في التوكل، فلا يكون تركه مشروعًا، كما في الصحيحين: عن أبي هريرة مرفوعًا: **«ما أنزل الله من داء، إلا أنزل له شفاء»**.

وعن أسامة بن شريك قال: كنت عند النبي ﷺ وجاءت الأعراب، فقالوا يارسول الله أنتداوى؟ فقال: **«نعم يا عباد الله تداووا، فإن الله ﷻ لم يضع داءً إلا وضع له شفاءً، غير داء واحد»**، قالوا: ما هو؟ قال: **«الهرم»** رواه أحمد(١).

وقد اختلف العلماء في التداوي، هل هو مباح وتركه أفضل، أو مستحب أو واجب؟ والراجح أنه مستحب للحديث السابق وما في معناه، وهو مذهب الجمهور من السلف والخلف، وأوجبه طائفة من أصحاب الشافعي وأحمد(٢).

وورد في رواية الشيخين: **«ولا يكتوون»** أي: لا يسألون غيرهم أن يكويهم، كما لا يسألون غيرهم أن يرقيهم استسلامًا لقضاء الله تعالى، وتلذذًا بالبلاء.

أما **«الكي»** في نفسه فجائز، كما في الصحيح: عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ بعث إلى أبي بن كعب طبيبًا، فقطع له عرقًا وكواه.

وفي «صحيح البخاري»: عن أنس أنه كوى من ذات الجنب، والنبي ﷺ حي.

وعنه أيضًا: **أن النبي ﷺ** كوى أسعد بن زراره من الشوكة(٣).

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق، وانظر شرح النووي (٣/٩١)، وحديث أسامة: رواه أحمد (٤/٢٧٨) وزاد: «علمه من علمه، وجهله من جهله» ورواه بدون الزيادة: البخاري في الأدب (٢٩١)، وأبو داود (٣٨٥٥)، والترمذي (٢٠٣٨)، وابن ماجه (٣٤٣٦) وغيرهم.

(٣) رواه الترمذي (٢١٤٠) وهو صحيح.



وفي «صحيح البخاري»: عن ابن عباس مرفوعًا: **«الشفاء في ثلاث: شربة عسل، وشرطة محجم، وكية نار، وأنا أنهى عن الكي»**.

وفي لفظ: **«وما أحب أن أكتوي»**.

قال ابن القيم رحمه الله: فقد تضمنت أحاديث الكي أربعة أنواع: أحدها: فعله، والثاني: عدم محبته له، والثالث: الثناء على من تركه، والرابع: النهي عنه، ولا تعارض بينهما بحمد الله. فإن فعله له يدل على جوازه، وعدم محبته له، لا يدل على المنع منه، وأما الثناء على تاركيه، فيدل على أن تركه أولى وأفضل، وأما النهي عنه، فعلى سبيل الاختيار والكراهية(١).

قوله: **«فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ»** عكاشة: بضم العين وتشديد الكاف، ويجوز تخفيفها، ومحصن بكسر الميم وسكون الحاء وفتح الصاد، الأسدي، من السابقين إلى الإسلام، ومن أجمل الرجال، هاجر وشهد بدرًا وقاتل فيها، ومناقبه مشهورة، استشهد في قتال أهل الردة مع خالد بن الوليد بيدي طليحة الأسدي، سنة اثنتي عشرة. ثم أسلم طليحة بعد ذلك.

قوله: **«ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: «أَنْتَ مِنْهُمْ»** وفي رواية البخاري: **«اللهم اجعله منهم»**. وفيه: التوسل بدعاء الرجل الصالح الحي.

قوله: **«ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ فَقَالَ: ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: «سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ»** لم يذكر الراوي اسمه، ولم يَرِد بيان اسمه في شيء من الروايات الصحيحة.

وقوله: **«سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ»** قال ابن بطال: معنى **«سَبَقَكَ»** أي: سبقك إلى إحراز هذه الصفات، وهي التوكل، وعدم التطير، وما ذكر معه. وعدل

---

(١) نقلاً عن «تيسير العزيز الحميد» (ص١١٠).



عن قوله: لست منهم، أو لست على أخلاقهم، تلطفًا بأصحابه، وحسن أدب معهم.

وقال القرطبي: لم يكن عند الثاني من الأحوال، ما كان عند عكاشة فلذلك لم يجبه، فإذا أجابه لجاز أن يطلب ذلك كل من كان حاضرًا، فيتسلسل الأمر، فسدَّ الباب بقوله ذلك، وهذا أولى من قول من قال: كان منافقًا لوجهين: أحدهما: أن الأصل في الصحابة عدم النفاق، فلا يثبت ما يخالف ذلك إلا بنقل صحيح.

والثاني: أنه مل أن يصدد مثل هذا السؤال إلا عن قصد صحيح، ويقين بتصديق الرسول ﷺ: وكيف يصدر ذلك عن منافق؟! وإليه مال شيخ الإسلام.

وفيه أيضًا: استعمال المعاريض، وحسن خلقه ﷺ مع أصحابه ﵃.

** ** **



باب: قول النبي ﷺ:
«إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة»

(١٠٢) عَنْ عَبْدِ الله بن مسعود ﷺ قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي قُبَّةٍ نَحْوًا مِنْ أَرْبَعِينَ رَجُلًا، فَقَالَ: «أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟» قَالَ: قُلْنَا: نَعَمْ. فَقَالَ: «أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟» فَقُلْنَا: نَعَمْ. فَقَالَ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَذَاكَ أَنَّ الْجَنَّةَ لَا يَدْخُلُهَا إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ، وَمَا أَنْتُمْ فِي أَهْلِ الشِّرْكِ إِلَّا كَالشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الْأَسْوَدِ، أَوْ كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الْأَحْمَرِ».

❖ الشرح:

الحديث رواه مسلم في الإيمان، وبوّب عليه النووي (٩٥/٣): باب بيان كون هذه الأمة نصف أهل الجنة.

قوله: «**كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي قُبَّةٍ**» القبة من الخيام، وهي بيت صغير مستدير، وهو من بيوت العرب.

قوله: «**أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟» قَالَ: قُلْنَا: نَعَمْ**» وفي رواية: «**فكبرنا**» وتكبيرهم لسرورهم بهذه البشارة العظيمة.

وأما قوله ﷺ: «**ربع أهل الجنة**» ثم «**ثلث أهل الجنة**» ثم الشطر أو النصف، ولم يقل أولًا نصف أهل الجنة، فلفائدةٍ حسنةٍ، وهي أن ذلك



أوقع في نفوسهم، وأبلغ في إكرامهم، فإن إعطاء الإنسان مرة بعد مرة، دليل على الاعتناء به، ودوام ملاحظته.

وفيه فائدة أخرى: وهي تكرير البشارة مرة بعد أخرى. وفيه أيضًا: حملهم على تجديد شكر الله تعالى، وتكبيره وحمده على كثرة نعمه، والله أعلم[١].

ويحتمل أنه أوحي إليه مرة بعد مرة.

وأيضًا: فإنه قال ههنا «**إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ**» وثبت في الحديث الآخر الصحيح قوله ﷺ: «**أهل الجنة عشرون ومائة صف، ثمانون منها من هذه الأمة، وأربعون من سائر الأمم**»[٢].

فهذا دليلٌ على أنهم يكونون ثلثي أهل الجنة، فيكون النبي ﷺ أخبر أولًا بحديث الشطر، ثم تفضل الله سبحانه بالزيادة فأعلم بحديث الصفوف، فأخبر به النبي ﷺ بعد ذلك. ولهذا نظائر كثيرة في الحديث معروفة، كحديث تفضل صلاة المنفرد بسبع وعشرين درجة وبخمس وعشرين درجة على إحدى التأويلات[٣].

وقوله: «**إِنِّي لَأَرْجُو**» هذا المرجو محقق الحصول، لقوله تعالى: ﴿**وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ** ۝٥﴾ [الضحى]، وحديث: «**إنا سنُرْضيك في أمتك**»[٤] وإنما قال ﷺ: «لأرجو» أدبًا ووقوفًا مع العبودية؛ لأن تحديثه

---

(١) انظر شرح مسلم (٣/٩٥) للنووي.

(٢) رواه أحمد (٥/٣٤٧، ٣٥٥، ٣٦١)، والترمذي (٢٥٤٦)، وابن ماجه (٤٢٨٩) وصححه ابن حبان (٧٤٥٩، ٧٤٦٠) وغيرهم من حديث سليمان بن بريدة عن أبيه مرفوعًا.

(٣) شرح مسلم (٣/٩٦) للنووي.

(٤) قد مرَّ شرح الحديث.



بهذا لا يكون إلا عن دليل قطعي أو كالقطعي.

وإنما عبَّر بالرجاء لئلا يتكل الناس، والله أعلم(١).

قوله: «وَذَاكَ أَنَّ الْجَنَّةَ لَا يَدْخُلُهَا إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ» وهذا نص صريح في أن من مات على الكفر لا يدخل الجنة أصلًا، وهو إجماع المسلمين، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الأعراف].

وغيرها من الأدلة الكثيرة، وقد مَرَّ الكلام على هذا.

قوله: «وَمَا أَنْتُمْ فِي أَهْلِ الشِّرْكِ إِلَّا كَالشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الْأَسْوَدِ، أَوْ كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الْأَحْمَرِ»، وفي رواية «ما المسلمون في الكفار، إلا كشعرة بيضاء في ثور أسود أو كالشعرة..» والشك من الراوي. وفي رواية: «كالرقمة في ذراع الحمار» والرقمة: الأثر في باطن ذراعه.

فإن قيل: إذًا كانوا كالشعرة المذكورة، فكيف يكونون الشطر؟!

قيل: لا تستبعدوا كونهم الشطر مع أنهم كالشعرة المذكورة؛ لأنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون، وهم من المؤمنين الشطر.

وفيه: قلة أهل الإيمان إلى أهل الكفران، كما قال ﷻ: ﴿وَإِن تُطِعْ

---

(١) انظر شرح الأبي (٦٤١/١).



أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، وقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤]، وقال: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الروم].

فلا ينبغي بعد هذا أن يغتَرَّ أحد بالكثرة.

ورحم الله من قال:

اسلك سبيل الهدى ولا تستوحش قلة السالكين

واحذر طريق الردى ولا تغتر بكثرة الهالكين

** ** **

بابٌ: في قوله ﷻ لآدم: أَخْرِجْ بعث النار من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين

(١٠٣) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَقُولُ اللهُ ﷻ: يَا آدَمُ! فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، قَالَ: يَقُولُ: أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ، قَالَ: وَمَا بَعْثُ النَّارِ، قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَ مِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، قَالَ: فَذَاكَ حِينَ يَشِيبُ الصَّغِيرُ، ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾»، قَالَ: فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! وَأَيُّنَا ذَلِكَ الرَّجُلُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَبْشِرُوا، فَإِنَّ مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفًا، وَمِنْكُمْ رَجُلٌ»، قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنِّي لَأَطْمَعُ أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ»، فَحَمِدْنَا اللهَ وَكَبَّرْنَا، ثُمَّ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي لَأَطْمَعُ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ» فَحَمِدْنَا اللهَ وَكَبَّرْنَا، ثُمَّ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنِّي لَأَطْمَعُ أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، إِنَّ مَثَلَكُمْ فِي الْأُمَمِ كَمَثَلِ الشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الْأَسْوَدِ، أَوْ كَالرَّقْمَةِ فِي ذِرَاعِ الْحِمَارِ».

❖ **الشرح:**

الحديث رواه مسلم في الإيمان، وهو في الباب السابق.

قوله: «**يَقُولُ اللهُ ﷻ: يَا آدَمُ!**» وهذا كائن يوم القيامة، إذ يخاطب الله تعالى نبي الله آدم ﵇ بذلك.

وهو من الأدلة الكثيرة لأهل السنة على إثبات صفة الكلام لله تعالى، وأن الله ﷻ متكلم بكلام قديم النوع، حادث الآحاد[١].

وأنه لم يزل يتكلم ولا يزال، إذا شاء، وأنه يتكلم بحرف وصوت يسمعه من شاء من خلقه، سمعه موسى ؏ لما كلمه من غير واسطة، وتسمعه الملائكة، ويخاطب رسله والمؤمنين في الآخرة ويخاطبونه.

ومن الأدلة على هذه الصفة من القرآن: قوله ﷻ: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ۝١٢٢﴾ [النساء]، وقوله: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١١٠]. وقال: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وقوله: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾ [الشعراء: ١٠]، وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦٥﴾ [القصص] وغيرها كثير.

ومن السنة: قوله ﷺ: «**ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه، ليس بينه وبينه ترجمان**» متفق عليه.

قوله: «**فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ**» لبيك أي: إجابة لك بعد إجابة، للتأكيد، وسعديك: أي ساعدت طاعتك مساعدة بعد مساعدة، وقد مَرَّ في حديث معاذ ؓ برقم (١٣).

قوله: «**أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ**» البعث هنا: بمعنى المبعوث الموجه إليها.

ومعناه: ميز أهل النار من غيرهم، وخص آدم ؏ بذلك؛ لأنه أَبُ الجميع، أو لأنه يعرفهم، لأنه كانت تعرض عليه نسمهم، كما جاء في حديث الإسراء[٢].

---

(١) قديم النوع: أي هي صفة له منذ الأزل، حاديث الآحاد: أي لا يزال يتكلم كما يشاء، متى شاء.

(٢) شرح النووي (٣/٩٧)، والأبي (١/٦٤٣).



قوله: «وَمَا بَعْثُ النَّارِ» أي: وكم بعث النار؟ فـ«ما» ليست للسؤال عن الحقيقة كما هو أصلها، وإنما هي بمعنى: كم؛ لأن الجواب جاء بالعدد[1].

قوله: «فَذَاكَ حِينَ يَشِيبُ الصَّغِيرُ، ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾» ومعناه موافقة الآية في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ...﴾ [الحج]، وقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾﴾ [المزمل].

وقد اختلف العلماء في وقت وضع كل ذات حمل حملها وغيره من المذكور، فقيل: عند زلزلة الساعة قبل خروجهم من الدنيا. وقيل: هو يوم القيامة. فعلى الأول هو على ظاهره. وعلى الثاني يكون مجازاً؛ لأن القيامة ليس فيها حمل ولا ولادة. وتقديره: أنه ينتهي به الأهوال والشدائد، إلى أنه لو تصورت الحوامل هناك، لوضعن حملهن، كما تقول العرب: أصابنا أمر يشيب منه الوليد، يريدون شدته، والله أعلم[2].

قوله: «فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! أَيُّنَا ذَلِكَ الرَّجُلُ؟» فهموا أن ذلك بالنسبة إلى كل أمة، أي: الناجي من كل أمة، واحد من ألف، فقالوا: وأيُّنا ذاك الواحد؟ فبشرهم بأنه ليس المراد، وإنما المراد قلة أهل الجنة بالنسبة إلى أهل النار من بني آدم، لا من كل أهلها، أي أن النسبة المذكورة، إنما هي في نوع الإنسان.

ثم إن أريد يأجوج ومأجوج فقط؛ فأهل الجنة في أهل النار منهم عشر عشر العشر، وإن أريد بها يأجوج ومأجوج ومن شاركهما، فالنسبة أدنى بأضعاف.

---

(١) انظر شرح النووي (٣/٩٧).

(٢) المصدر السابق.



وأما نسبة الأمة من بني آدم، فتقدم أنها كالشعرة المذكورة[١].

قوله: «**فَإِنَّ مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفًا، وَمِنْكُمْ رَجُلٌ**» يأجوج ومأجوج أمة عظيمة في الكثرة والبطش، فالكثرة يدل عليها قوله ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأنبياء].

وحديث: «**يمُرُّ أولهم ببحيرة طبرية فيشربونها، ويمُرُّ آخرهم فيقول: كان بهذه ماء**».

والبطش يدل عليه حديث: «**يوحي الله إلى عيسى عليه السلام أنه قد خرج عباد لي، لا يُدان لأحد بقتالهم، فحرز عبادي إلى الطور**».

وأكثر أهل العلم أنهم من ولد يافث بن نوح، أبي الترك، ومساكنهم وراء السد المذكور في سورة الكهف، والله تعالى أعلم بموضعه.

والحديث نص في كفرهم، ولم يرد في كفرهم نص غيره، والقرآن إنما أخبر أنهم مفسدون في الأرض، والفساد أعم من الكفر[٢].

ويمكن أن يستدل على كفرهم أيضًا: بحديث: خروجهم في آخر الزمان وأنهم يقولون إذا خرجوا: «**قتلنا من في الأرض، فهَلُمَّ نقتل من في السماء؟ فيرمون نشابهم فترجع إليهم مخضبة دمًا، فتنة لهم**»[٣] كما فعل بنمروذ، وهذا كفر صراح[٤].

تم شرح كتاب الإيمان، بعون الكريم المنَّان

---

(١) انظر شرح الأبي (١/٦٤٣ـ ٦٤٤).

(٢) المصدر السابق.

(٣) رواه مسلم في الفتن (٤/٢٢٥٣ - ٢٢٥٤) من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه.

(٤) شرح السنوسي بحاشية شرح الأبي (١/٦٤٧).



فهرس المحتويات



الموضوع الصفحة



الموضوع	الصفحة

** ** **


تم بحمد الله